دراسات في الحضارة البيزنطية

(١)

المجتمع البيزنطي

تحرير

عبد العزيز رمضان   مصطفي الشعيني





٢٠١٧

دراسات في الحضارة البيزنطية

(١)

المجتمع البيزنطي

تحرير

عبد العزيز رمضان **مصطفى الشعيني**



٢٠١٧

المشاركون في الكتاب*

عبدالعزيز رمضان	أستاذ تاريخ العصور الوسطي بكلية الآداب، جامعة عين شمس
فاطمة إسماعيل عبدالله	مدرس مساعد بقسم التاريخ، كلية البنات جامعة عين شمس
محمد زايد عبدالله	أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد بكلية الآداب، جامعة الفيوم.
محمد عبدالشافي المغربي	أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد بكلية الآداب، جامعة جنوب الوادي.
مصطفي محمود الشعيني	مدرس تاريخ العصور الوسطي بكلية الآداب، جامعة جنوب الوادي.
هبة رمضان العوايدي	مدرس تاريخ العصور الوسطى بكلية البنات، جامعة عين شمس.

*هذه الأسماء مرتبة ترتيبا هجائياً، وكذلك البحوث.

محتويات الكتاب

الرجل والمرأة
أثر الدين والثقافة المجتمعية في مفهوم النوع

عبد العزيز رمضان

عند مطالعة النصوص المصدرية البيزنطية، وهى بطبيعة الحال نصوص ذكورية، يُلاحظ أن هناك تناقضا وجدانيا تجاه المرأة، تناقض الذي جسده التباين الواضح والصريح بين مثالي الشر والخير بين حواء التي دائما ما يساء إليها بأنها أغوت أدم و دفعته إلى الأكل من الشجرة المحرمة[١]، وبذلك أصبحت السبب في أول خطيئة عرفتها البشرية، وبين العذراء مريم التي بجلها البيزنطيون بوصفها أما طاهرة نقية، والتي جاء ابنها ليطهر البشرية من خطاياها، وليطرح إمكانية الخلاص والحياة الأبدية[٢].

تلك هي الطبيعة المزدوجة التي رآها الرجل البيزنطي في المرأة، والتي جسدتها كاسيا Kassia، شاعرة القرن التاسع فى حوارها مع الإمبراطور ثيوفيلوس (٨٢٩-٨٤٢م) Theophilos، فعندما هاجم الأخير حواء بقوله: "من خلال المرأة جلبت الشرور على الرجل"، هبت كاسيا لتدافع عن بنات جنسها قائلة: "ومن المرأة أيضا جاء الخير كل الخير، فلولاها ما تكاثرت البشرية وولد الرجل".[٣] وهو مفهوم جسده أيضا كاتب سيرة ميخائيل السينكيللوس Michael the Synkellos عندما راح يعقد مقارنة بين المسيح الذي أنجبته العذراء لخلاص البشرية، وآدم الذي عوقب بالطرد من الجنة لإتباعه حسد الشيطان وخداع امرأة.[٤]

---

[١] وردت قصة أدم وحواء في سفر التكوين، ونلاحظ فيها أن حواء هي المسئولة الأولى عما حل بآدم من غضب إلهي، فعندما سأل الله أدم عن السبب الذي دفعه إلى الأكل من الشجرة المحرمة، أجاب: "إنها المرأة التي جعلتها رفيقة لي، هي التي أطعمتني من ثمر الشجرة، فأكلت"، ولذلك عاقبه الله بقوله: "لأنك أذعنت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي نهيتك عنها، فالأرض ملعونة بسببك وبالمشقة تقتات منها طوال عمرك شوكا وحسكا تنبت لك"، أنظر، سفر التكوين، ٣.

[٢] عن مكانة مريم العذراء عند البيزنطيين أنظر،

Kalavrezou, L., "Images of the Mother: When the Virgin Mary Became *Meter Theou"*, *DOP* 44 (1990), 165-72 ; Samaha, J., "Mary in the Byzantine Mind", *BS* 58\2 (1997)338-42.

[3] Leo Grammaticus, *Chronographia*, ed. I.Bekker, *CSHB*, Bonn, 1824, 213-14; Pseudo- Symeon, *Chronographia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, Bonn, 1838, 624-25

[4] The Life of Michael the Synkellos, trans.M.B.Cunningham, *BBTT*1, Belfast, 1991, 65.

رجال الدين والتمييز النوعي

يبدو أن هذا التناقض الوجداني يرجع في جانب رئيسي منه إلى تأثير المسيحية، ممثلة فى الكنيسة البيزنطية ورجال الدين بها، وكتاب سير القديسين، والمؤسسة الديرية برؤسائها و رهبانها، والذين اتخذوا موقفا متشددا تجاه المرأة، حيث استمروا فى تنقيح المقولات النمطية السائدة عن المرأة، ومؤداها أن النساء بوصفهن بنات حواء، هن مصدر الشرور التي أصابت الرجال منذ بدء الخليقة.

ولنبدأ بنص لعالم اللاهوت فى القرن الثاني عشر ميخائيل جليكاس Michael Glykas، والذي حاول فيه الإجابة على سؤال هو : "هل ستكون هناك فروق بين الجنسين بعد عملية البعث أم لا؟" . وكان رأى جليكاس: "من الواضح أنه قبل خلق المرأة كانت حياة الرجل ذات مستوى أرقى، وإلا فلماذا لم يُخلق الاثنان معا منذ البداية؟! ولماذا خُلقت المرأة بعد خلق أدم..؟! ومن الملاحظ هنا أن جليكاس لم يجد أهمية لتوضيح الدور الذي لعبته حواء في هبوط آدم من الجنة؛ فكل ما أراد توضيحه هو أن المرأة جنس تابع للرجل، وأن هذه التبعية كانت متضمنة داخل عملية الخلق ذاتها من ثم فإن عملية البعث ستعيد الرجل إلى كماله الأصلي.[١]

كذلك تعكس لنا التيبيكا انغلاق تام داخل هذه الأديرة أمام أي شئ أنثوي، والسبب الواضح لذلك، كما جاء في هذه التيبيكا، أن النساء بوصفهن بنات حواء، يشكلن شرك الإغواء الأعظم والخطر الدائم في مواجهة الفضيلة؛ فتيبيكون دير نيكون Nikon في القرن الحادي عشر يفرض قيودا صارمة على مسألة اقتراب النساء، سواء من الدير أو من المناطق المحيطة به، حتى وإن كان ذلك لطلب خدمة ما أو استجداء المساعدة أو لأي سبب آخر مهما كان. وإذا كان هذا التيبيكون قد تشدد في موقفه من الجنس الأنثوي إلى الدرجة التي جعلته يضمن كافة الكائنات الأنثوية بما فيها الحيوانات والطيور داخل هذا الحظر، إلا انه خص النساء بكونهن "شرك الإغواء الأعظم"٠ ومن ناحية أخرى يشير كاتب التيبيكون إلى أن هذا الحظر ليس نتاجا لكراهية جنس النساء البشري؛ فالشيطان وحده هو الذي يكره ويعارض خليقة الله، كما أن النساء أنفسهن "هن أمهاتنا اللائى ولدنا منهن، بيد أن علاقتنا بهن كالملح والماء، يُولد الأول بالطبيعة من الثاني، لكن عندما يختلطا يذوب الملح ويختفى، وهكذا أيضا يكون اختلاط الذكر بالأنثى".[٢]

---

(1) Angold, M., *Church and Society in Byzantium under the Comneni*,1081-1261, Cambridge, 1995, 429-30.

(2) Black Mountain: Regulations of Nikon of the Black Mountain, trans. R.Alison, *BMFD*, ch. 86: 410.

ونفس الصيغة تقريبا نجدها فى تيبيكون دير إفيرجيتيس Evergetis، الذي جاء فيه: "إننا لا نرغب في أن يغادر أحد بوابة الدير وهو خاوي الأيدي، باستثناء النساء اللائى لا ينبغي أن ينلن نصيبا من صدقة، ليس لأننا نبغض هذا الجنس البشرى التابع لنا، ولكن تجنبا لما قد يلحق بنا من ضرر، لأننا إذا منحنهن الصدقة مرة فسيترددن على بوابة ديرنا مرارا وتكرارا، وبذلك نكون قد جنينا شرا بدلا من الخير الذي كنا نسعى إليه"(١). وفى تيبيكون باكوريانوس Pakourianos نجده يخص بالحظر النساء المتزوجات فلا ينبغي أن تدخل سيدة متزوجة الدير مهما كان السبب، أو أن يعيش زوجان بالقرب منه، أو حتى الأطفال الصغار، بل عليهم أن يعيشوا في أي مكان أخر بالقرى والحقول، كما شمل الحظر بناء أى دير أنثوي بالقرب من ديرهم، ولكنه وضع حالة استثنائية تقضى بعدم منع النساء من دخول كنيسة الدير لأداء الصلاة فى يوم عيد هذه الكنيسة على أن يغادرنها فور الانتهاء من أداء الطقوس الدينية.(٢)

ونفس التشدد نجده فى تيبيكون أثناسيوس الأثونيتى Athanathios the Athonite لدير لافرا ، Lavra وتيبيكون ثيودور ستوديوس Theodore Stoudios في القرن العاشر، حيث أكدا على ضرورة عدم امتلاك الحيوانات الأنثوية "لأنه من الضروري تماما هجر النوع الأنثوي بالكامل".(٣) أما تيبيكون دير رويديون Roidion فى العقد الأول من القرن الثاني عشر فلم يستثن الحيوانات الذكورية بل شمل حظره كافة أنواعها فيما عدا

---

(1) Evergetis: Typikon of Timothy for the Monastery of the Mother of God Evergetis, trans. R. Jordan, *BMFD*,chs. 38-39: 496.

مع ذلك اتخذ هذا التيبيكون موقفا أقل تشددا عندما وضع إستثنائين لهذا الحظر، الأول هو السماح بالتصدق على النساء فى يوم عيد وفاة العذراء، وأثناء الخدمات الإحيائية لذكرى متوفى، لأن هذه المناسبات قليلة ولا تحدث بصورة متكررة ويكون توزيع الصدقات فيها عاما وبالتالي لا تسبب للرهبان أية أضرار، أما الاستثناء الثاني فيتمثل في السماح لنساء الطبقة الأرستقراطية بدخول الدير لأنه:" إذا كنا نرغب فى إبعاد النساء بصورة تامة وكاملة عن دخول الدير، غير أن نبالة الكثيرات تجعل ذلك أمرا عسيرا، ولذا قد يفد بعضهن إلى الداخل وبصورة نادرة، فلنحتاط للأمر ونبتعد عن طريقهن حتى نقى أنفسنا من أي ضرر"

(2) Pakourianos: Typikon of Gregory Pakourianos for the Monastery of the Mother of God *Petritzonitissa* in Bačkovo, trans. R. Jordan, *BMFD*, ch.23:546.

(3) Ath.Typikon:Typikon of Athansios the Athonite for the Lavra Monastery trans. G. Dennis, *BMFD*, ch.3: 259; Theodore Studites: Testament of Theodore the Studite for the Monastery of St. John Stoudios in Constantinople, trans. T. Miller, *BMFD*, ch.5 : 77.

القطط لاصطياد الفئران، ولكنه حتى في هذا يؤكد على ضرورة أن تكون هذه القطط من الذكور حتى لا تتقيد حرية الحركة لدى الرهبان بأي نوع من الحذر أو الحيطة.(١)

وهذا الاتجاه القوى الكاره والمعارض لدخول النساء مناطق نفوذ الرجال أو مخالطتهن عُبر عنه مرارا في الكتابات الكنسية بصورة أكثر صراحة ومباشرة؛ فمن القرن الثاني عشر نطالع موقفا مماثلا تجاه المرأة في كتابات رجل القانون الكنسي ثيودور بالسامون Theodore Balsamon، الذي راح يبدى حنقه من فكرة شغل المرأة لوظائف كنسية، وأعترف بأن نظام الشماسيات كان موجودا فى الكنيسة الأولى، لكنه لم يعد كذلك الآن، وأنه قد يشار إلى بعض الراهبات كشماسيات، إلا أن هذا الأمر محض افتراء وتضليل، فالمرأة من وجهة نظرة يستحيل أن تؤدى مهام الشماس، حتى العجائز من النساء، وذلك لأنها ممنوعة وفقا للقوانين المقدسة من الاقتراب من المحراب المقدس، وراح يؤكد على أن الكنيسة اللاتينية إذا كانت قد سمحت بدخول النساء إلى المحراب المقدس كشماسيات فإن ذلك ينهض دليلا على فساد هذه الكنيسة. وفى رأى بالسامون أنه لرئيسات الأديرة وحدهن الحق في تهذيب النساء الأخريات، أما أن تخطب امرأة فى أبرشية بها حشد من الرجال والنساء أمر لا يمكن حدوثه ومضير فى الوقت ذاته؛ فالمرأة من وجهة نظره هى الخطر المحتمل الحقيقي على نظام الكنيسة الجيد ، وراح يبدى رأيه في الاختلافات بين الجنسين، وتركزت فى جهل المرأة ورغبتها فى ارتداء زى الرجل وميلها إلى الثروة وأعمال السحر.(٢)

تلك هي مخاوف أحد رجال الكنيسة من المخاطر المحتملة التي قد تسببها المرأة عند دخولها إحدى مناطق نفوذ الرجل، والتي بلغت حد إفساد النظام الكنسي، وهو يتفق في ذلك مع أصوات بعض النساك التي علت تنادى بضرورة درء الخطر الذى قد ينجم عن دخول المرأة منطقة نفوذ الرجل. ويتضح ذلك من خلال الدراسة التي وضعتها الباحثة كاشيا جالاتاريوتو Catia Galatariotou عن كتابات القديس الناسك نيوفيتوس St.Neophytos فى أواخر القرن الثاني عشر، والذي حملت مواقفه من المرأة قدرا من المماثلة للآراء المعبر عنها في الكتابات الكنسية والديرية، فالمرأة من وجهة نظر نيوفيتوس هي ابنة حواء الآثمة التي جلبت بخطيئتها البؤس والتعاسة على البشرية، وصفها بالضعف المتأصل فى طبيعتها، وبالنزوع إلى الفسق والإغواء، وهذه الصفات هي التي دفعت حواء إلى الانقياد للشيطان، ومن ثم أصبحت بناتها أداة طيعة فى يديه ، ولذلك أراد الله بحكمته أن يجعلها تابعة للرجل فى منزلة أدنى

---

(1) Roidion: Typikon of Nikon the Black Mountain for the Monastery and Hospice of the Mother of God *tou Roidiou*, trans. R. Allison, *BMFD*, ch. B16: 436.
(2) Angold, *Church and Society*, 430.

تجاهه، لأن ما يوقف شرها هو افتقارها إلى القوة، فالمرأة تمثل خطرا داهما عندما تأخذ مكان الرجل ليكون لها السلطان، والنساء كبنات حواء يكمن فيهن الشر المستطير، والقوة والسلطان تجعلهن أدوات للشيطان.(١)

ونفس هذه الأيديولوجية المزدوجة عبر عنها فى بداية القرن الثالث عشر ثيوجنوستوس Theognostos في كتابه "القاموس Thesaurus"، عندما طرح سؤالا هو "ما هي المرأة ؟"، وراح يجيب عليه بقوله: "هي من بين أشياء أخرى صديقا وأداة للشيطان، مصدرا للشرور كافة". ومع ذلك كان حريصا على أن يذكر قارئه بأنها على الرغم من ذلك كله "شرا لابد منه بسبب الحاجة إليها في تكاثر البشرية".(٢)

التمييز النوعي في القانون المدني

إذا كان هذا هو الموقف المعلن من قبل الكنيسة ورجال الدين، فقد كان من الطبيعي أن يتردد صداه داخل المجتمع العلماني، فالمجتمع البيزنطي بوصفه مجتمعا مسيحيا، كانت الكنيسة بالنسبة له هي الحكم الرئيسي على الأخلاق العامة والخاصة، ومصدرا للقواعد المنظمة للعلاقات بين الجنسين، وبالتالي انعكس موقفها على نظرة المجتمع البيزنطي للمرأة. حيث نلاحظ ترديدا لصدى هذه الأفكار داخل القوانين المدنية البيزنطية، حيث استبعدت المرأة تماما من الحياة العامة، وحظرت ممارستها لأية وظيفة سواء بالحكومة المركزية أو بإدارة الأقاليم، أو شغلها للوظائف المدنية التي تتطلب نشاطا شخصيا من قبل شاغلها، كالقضاة والمحامين والصيارفة ، فالمرأة لا تستطيع أن تمثل غيرها في المحكمة، حتى وإن كان هذا الشخص زوجها أو ابنها أو والدها، ولا تستطيع أن ترفع دعوى قضائية إلا من خلال ممثل لها، ولضمان إبعادها تماما عن دوائر القضاء فرض المشرع عقوبة مالية على القاضي الذي يسمح بمثول امرأة أمامه.

وقد برر الإمبراطور ليو السادس في تشريعاته أهمية التشريع الأخير بأن الوصول غير المقيد للمرأة إلى محاكم القضاء يخلق "ارتباكا و تدميرا للحدود الفاصلة بين الجنسين، ويعطى الفرصة للنساء لأن ينكشفن بلا تحفظ أمام أعين الرجال، وأن يختلطن بجموع عديدة منهم"، وأضاف إلى ذلك أن "السماح للنساء بالمشاركة في شئون الرجال يؤدى إلى زوال الخضوع، الذي هو سمة فى الطبيعة الأنثوية، وإنها لإهانة كبيرة للرجال أن نعمل على إشراك الجنس الأنثوي فى هذه الشئون التي يختص بها الرجال وحدهم"، وأن القانون في حظره هذا إنما "ينم عن الحياء

---

(1) Galatariotou, C.,"Holy Women and Witches: Aspects of Byzantine Conceptions of Gender", *BMGS* 9 (1984\5) 55-94 , esp.59-62.

(2) *Theognosti Thesaurus* , ed. A.Munitiz , Brepols Turnhout , 1979 , 11-12.

والاحتشام اللذان يميزان المرأة".[١] كذلك علق قاضى القرن الحادي عشر يوستاثيوس رومايوس Eustathios Romaios فى مؤلفه البيرا Piera على ذلك بأنه من المؤلم دعوة امرأة للمثول في المحكمة، لأنه أمر خطير تمنعه القوانين، ولا يمكن أن يحدث إلا من خلال السلطة الإمبراطورية.[٢]

الكتابات النسوية وأيديولوجية المجتمع

الغريب أن ما عبر عنه رجال الكنيسة والمؤسسة الديرية والقوانين المدنية من أراء ومواقف تجاه المرأة تردد صداه أيضا، وبصورة تكاد تكون حرفية، في الكتابات القليلة التي وضعتها نساء بيزنطيات، وهو ما علقت عليه كاشيا جالاتاريوتو بقولها "لم تكن كراهية النساء نمطا احتكاريا للكنيسة ورجالها وحدهم، بل شاركت فيه النساء أنفسهن، فالنصوص القليلة التي كتبتها نساء، اتسمت بتجاهل الحديث عن المرأة، وحتى إذا جاء ذكرها بصورة عرضية، فأنهن عادة ما يتحدثن عنها بنفس المصطلحات الإزدرائي"[٣]. فشاعرة القرن التاسع كاسيا وصفت المرأة بأنها قبيحة حتى وإن كانت جميلة، وأقبح إذا كانت بطبيعتها دميمة[٤]. وراحت الأميرة آنا كومنينا تعبر عن رأيها في النساء، بعد أن استثنت منهن بطبيعة الحال أمها وجدتها، بقولها: "يسهل انقيادهن للخوف، فالجبن سمة مألوفة بهن، اعتدنا رؤيتها فيهن وقت سماعهن أخبار غير سارة، عندئذ تشحب وجوههن معلنة عن وهن وضعف قلوبهن، وسرعان ما يتعالى عويلهن وصراخهن وكأن البلاء قد وقع عليهن بالفعل"[٥].

كذلك لم تكن مؤسسات أديرة الراهبات أقل حدة مع بنات جنسهن، وتيبيكا هذه الأديرة تحث الراهبات بصورة متكررة على أن يتحلين بخصال الرجال حتى يتمكن من التغلب على طبيعتهن الأنثوية الضعيفة والناعمة، وكافة هذه التيبيكا تتحدث عن الضعف كشيء متأصل فى الطبيعة الأنثوية، وعن الميل الأنثوي للخطيئة، وعن خطيئة حواء والشعور بالذنب الذي يثقل

---

(١) مع ذلك يذكر ليو السادس في نفس التشريع بأن شهادة النساء مقبولة في الشئون الخاصة بالنساء، التي لا يسمح فيها بشهادة الرجال، كالولادة .

Leo VI, *Les Novelles de Léon VI le Sage*, trad. P.Noailles & A.Dain, Paris, 1944, no. 48, 189-91, esp. 189.

(2) Beaucamp, J., "La situation juridique de la femme à Byzance, Xe- XIIe siècles", *CCM* 20(1977) 149,157.

من الملاحظ أن القاضي يوستاثيوس رومايوس نفسه أباح في إحدى القضايا التي سجلها مثول المرأة أمام المحكمة، لكنه شدد على أن يقتصر ذلك على الحالات الضرورية التي لا يمكن اللجوء فيها إلى شهادة الرجال.

(3) Galatariotou, *Holy Women*, 67-68.

(4) Buckler, G.,"Women in Byzantine Law About 1100 A.D.", *B* 11(1936) 391- 416, esp. 415 .

(5) Anna Komnena, *The Alexiad*, trans. E.R.A.Sewter, Penguin Books, 1982, 474.

عبئه النوع الأنثوي بأكمله وإلى الأبد[١]. وهذا بالطبع موقفا غريبا غير متوقعا في كتابات خطتها أقلام بيزنطيات، وهو ما فسرته كاشيا جالاتاريوتو بقولها: "هؤلاء الرجال والنساء يعبرون عن واقع أنتجه التكوين الثقافي لمجتمع أبوي، أسهم فى تشكيله عناصر عديدة منها المؤسسات الكنسية والمدنية والديرية، وحتى الأسرة، فالتكوين الأبوي هو المحور الأساسي للمجتمع البيزنطي، وهو تكوين يميل إلى أن هناك نظام إلهي مقدس أصبح مستقرا ، وضع وفقا لطبيعة الاختلافات بين الجنسين، وقد تقبلن النساء مثل هذا الواقع واعترفن به، ولذا كان متوقعا أن نجد النصوص النسائية مماثلة لما هو مقدم في النصوص الذكورية"[٢].

مفهوم المجتمع للتفوق الذكوري

لعل أكثر الروايات المصدرية مصداقية في تأكيد هذا المفهوم، هي تلك التي قيلت في مدح المرأة، حيث نجد الراوي يؤكد على النظرة الدونية التي نظر بها البيزنطيون للمرأة بصورة عفوية ودون أي قصد، ففي عبارة لكاتب سيرة البطريرك نيقفور الأول (٧٥٨-٨٢٨م) Nikephoros I، راح يمتدح الإمبراطورة إيرينى بقوله: "إذا كانت إيرينى مجرد امرأة إلا أنها حظيت بمحبة الرب والإيمان الراسخ، ولذا ليس من اللائق أن نطلق لفظ (امرأة) على من فاقت الرجال فى تقواها وصدق عقيدتها".[٣] كذلك راح كاتب سيرة ميخائيل السينكيللوس يمتدح الإمبراطورة ثيودورا زوجة الإمبراطور ثيوفيلوس لموقفها المؤيد لعبادة الأيقونات بقوله: "لقد كشفت عن نبالتها الذكورية في ثوب أنثوي"[٤]. والأمر نفسه عبر عنه كاتب سيرة القديسة ماريا الصغرى (٨٧٥-٩٠٣م) Mary the Younger عندما راح يدافع عن حق المرأة في بلوغ مرتبة القداسة رغم كونها متزوجة، فأشار إلى أن ماريا رغم أنها امرأة متزوجة وحملت أطفالا، إلا أن ضعف طبيعتها كأنثى وانعدام أهليتها، لم يقفا حائلا دون اتصالها بالرب، وأنها "حملت روح رجل في جسد امرأة"[٥]. كما عبر عنه أيضا كاتب سيرة القديسة ثومايس الليسبوسية

---

(١) راحت ايرينى ديوكاينا في مقدمة تيبيكون دير كيشاريتمونى تخاطب العذراء قائلة: "أيتها الأم العذراء، احفظي هذا القطيع المكرس لك أمنا إلى الأبد، ولتقوى طبيعتهن الأنثوية بالفضيلة، ولتبقى يدك القوية تظللهن دوما، حتى لا يجد الشيطان من بينهن حواء أخرى، يستطيع أن يهمس في أذنيها فيقودها إلى فخ الهلاك".

Kecharitomene: Typikon of Empress Irene Doukaina Komnene for the Conv- ent of the Mother of God *Kecharitomene* in Constantinople, trans. R. Jordan, *BMFD*, Prologue: 666.

(2) Galatariotou , *Holy Women* , 69.

(3) Life of the Patriarch Nikephoros I of Constantinople, trans. E. A. Fisher, *BDI*, 4.

(4) *Life of Michael the Synkellos*, 101.

(5) Life of St. Mary the Younger, trans. A.E.Laiou, *HWB*, 254.

St.Thomais of Lesbos في منتصف القرن العاشر بقوله: "رغم كونها أنثى بالطبيعة، لكنها بالفضيلة وبالحياة النسكية كانت اكثر ذكورة من الرجال"[١].

والمطالع للتشريعات والقوانين المدنية يلاحظ من الوهلة الأولى تدعيما لأيديولوجية مجتمع ذكورى قائم على تفضيل الرجل ونبذ المرأة في الحقوق، فبالإضافة إلى تركيزها على انعدام أهلية المرأة فى شئون القضاء والوظائف المدنية كما وضح سابقا، نجد هناك كذلك تباينا واضحا فى معاملة كلا الجنسين في الأمور المتعلقة بالأحوال الشخصية، فعلى سبيل المثال نصت على دونية وضع المرأة في الزواج تجاه الرجل، ورغم أنها اعترفت بأنها تعد شريكة للرجل، إلا أنها جعلته صاحب السلطة والقوة عليها. وهذا الانعدام في الاستقلالية نصت عليه صراحة فقرات من تشريعات ليو السادس Leo VI ، فالزوج هو "رأس ورئيس العائلة " والزوجة بالنسبة له هي "حليفته المستمدة من جسده[٢]. كما أعطت الزوج حق تطليق زوجته فى حالة ثبوت فاحشة الزنا عليها، أو إذا حضرت دون إذنه حفلات أو ولائم مع غرباء، أو استحمت معهم، أو أقامت خارج المنزل ليلة واحدة، فالزوجة التي يثبت عليها مثل هذه الأفعال تُطلق وتُعاقب بالتشهير وتمنع من الزواج ثانية. وفى المقابل نصت هذه القوانين على أنه لا يوجد خطأ جنسي واحد للزوج يبيح للزوجة فسخ عقد الزواج، حتى وان ثبتت عليه فاحشة الزنا.[٣]

الحرملك وقضية عزلة المرأة

فى مجتمع ذكورى كهذا، يدعو إلى تهميش دور المرأة وإخضاعها لسلطة الرجل، وإبعادها عن منطقة نفوذه ، ومنع اختلاطها بالذكور، كان من الطبيعي أن تظهر العديد من الدعاوى التي تطالب بعزل المرأة وفصلها عن المجتمع، على اعتبار أن ذلك هو الأسلوب الأمثل لدرء مخاطرها وشرورها بوصفها مصدرا للغواية وأداة من أدوات الشيطان. ففي القرن الحادي عشر جسد كيكاومينوس kekaumenos هذه الأفكار في مجموعة من النصائح ، راح يبثها لأبنه وهو يرسم له بها الأسلوب الأمثل والأفضل في الحياة، وهذه النصائح في مضمونها تبدو وكأنها مستودعا للمحافظة ومقاومة التجديد أو التغيير، قدم فيها لابنه خطوطا إرشادية للسلوك اللائق بالرجل النبيل وأسرته، وراح ينصحه بصراحة متناهية بضرورة وضع قيود مطلقة على الفتيات الصغيرات، مفترضا أن الحياة المثلى لنساء الأسرة، خاصة الفتيات العذارى، هي قضاء أوقاتهن في عزلة تامة، وبلغ به الأمر إلى حد القول "احرص على حصر نساء بيتك

---

(1) Life of St.Thomais of Lesbos , trans. P.Halsall , *HWB* , 302.
(2) Leo VI , *Novelles* , no.31 , 111-12.
(3) Beaucamp , *situation juridique* ,156-8.

كالمجرمين في السجون"[١]. وراح كيكاومينوس كذلك ينصح ابنه بأنه لا ينبغي عليه أن يثق ببناته، لأنهن بالتأكيد لسن فوق مستوى الشبهات، مذكرا إياه بان شرف الفتاة والحفاظ عليه هو أكثر الأمور أهمية، لأن الفتاة المخزية لا تدنس شرفها فحسب، بل تجلب الخزى والعار على والديها والأسرة بأكملها، ولذلك يرى كيكاومينوس أن الحكمة والحصافة تقتضيان توخى الحذر بالحفاظ على الفتيات داخل حجرات مغلقة، وبذلك لن يستطعن الخروج، ولن يرهن أحد، ومن ثم يتم تفادى كل الأسباب الممكنة للخزى والعار وسوء العاقبة.[٢]

ويتضح من نصائح كيكاومينوس، الذي وصفه بعض الدارسين المحدثين بأنه كارها عتيدا للمرأة[٣] ، أنه كان هناك من بين أفراد المجتمع البيزنطي من يعتقد بأن عزلة الفتيات خاصة ، والنساء بوجه عام ، من شأنها أن تحفظهن من نزعاتهن الشريرة ، ومن هجمات الرجال الغرباء المجردين من الضمير والوازع الأخلاقي ، وهو بلا شك موقفا متطرفا من المرأة يعبر عن مخاوف مجتمع أبوي ، فالنساء في عرفه لا يجب السماح لهن بالخروج عن نطاق السيطرة ، فإثارتهن الجسدية توقع الرجال في حبائلهن ، وبالتالي قد يصبحن بسهولة عنصرا ممزقا للمجتمع ، وكأسلوب وقائي للحيلولة دون ذلك ينبغي على الرجال تعزيزهن وصيانتهن كأكثر الأملاك قيمة.[٤]

وهناك شواهد كثيرة تشير إلى حرص المجتمع الشديد على عزل المرأة والحيلولة دون اتصالها بالرجال الغرباء عن الأسرة، وإذا كان كيكاومينوس قد أكد على أهمية ذلك من الناحية النظرية في نصائحه لأبنه، فإنه من الناحية العملية نلاحظ تطبيقا جزئيا تمثل في الدور الأساسي الذي لعبه الجنس الثالث المحايد داخل المجتمع، ففي مجتمع كهذا شكل ثقافته تجاه المرأة على أساس ضرورة الحفاظ على طهارتها وعفتها، لما لهما من قيمة ثمينة، كان من

---

(1) Kekaumenos,*Cecaumeni Strategicon et incerti Scriptoris De Officiis regiis Libellus* .ed.B.Wassiliewsky & V.Jernstedt, Amsterdam,1965, 51.

(2) Ibid , 51.

(3) Garland ,L.," The Life and Ideology of Byzantine Women : A Further Note on Conventions of Behavior and Social Reality as Reflected in Eleventh and Twelfth Centuries Historical Sourses " , *B* 59(1988)370.

(4) Garland , *Life and Ideology* , 370.

يرى ماجدالينو أن الآراء التي عبر عنها كيكاومينوس في موقفه من المرأة تعد تجسيدا لمفهوم البيزنطيين عن الشرف، ويربط بينها وبين أراء مماثلة جاءت في ملحمة ديجينيس أكريتيس عن الأهمية الكبيرة التي وضعها المجتمع البيزنطي على صيانة عذرية الفتيات باعتبارها مصدرا لشرف الأسرة أو عارها، أنظر،

Magdalino , P., " Honour among Romaioi : the Framework of Social Values in the World of Digenes Akrites and Kekaumenos " , *BMGS* 13(1989)183-218, esp.197-8 , 206-7 , 212 , repr. Idem , *Tradition and Transformation in Medieval Byzantium* , Hampshire , 1991, no.III.

الضروري أن يخلق تباعدا بين عالمي النساء والرجال، ومن هنا جاءت الأهمية القصوى لدور الوسيط الذي لعبه الخصيان εκτομίας، وهو الدور الذي عكسته معظم المصادر التاريخية والهجيوجرافية؛ فعندما ظهرت الحاجة إلى معلم لابنة شارلمان ليعلمها قواعد اللغة اليونانية، على اعتبار أنه كانت هناك مفاوضات بين بلاطي آخن والقسطنطينية لتزويجها من قسطنطين السادس، أرسلت إليها الإمبراطورة إيريني خصيا من القسطنطينية يدعى ايليسايوس Elissaios[١]. كما كان لدى القديسة يوفروسينى الصغرى Euphrosyne the younger خادما من الخصيان كان وسيلتها للتعامل مع العالم الخارجي[٢]. والقديسة إيريني رئيسة دير كريسوبالانتون للراهبات بالقسطنطينية كانت تتبادل الرسائل مع شقيقتها زوجة القيصر بارداس Bardas من خلال خادم خصى لشقيقتها يدعى سيريل Cyril[٣]. وأخيرا كان معلم النحو الخاص للأميرة آنا كومنينا هو أحد خصيان القصر الإمبراطوري[٤].

وهناك طائفة من الروايات المصدرية ، كتبت فى فترات زمنية مختلفة، يشير مؤلفوها بجلاء إلى وجود نوع من العزلة وتضييق الخناق على المرأة البيزنطية، ففي أوائل القرن التاسع، يروى لنا نيقتاس الأمنى كاتب سيرة القديس فيلاريتوس قصة أول مسابقة لعروض زواج العرائس فى البلاط البيزنطي، فحينما جلس الجميع حول مأدبة الطعام التى أقامها الرجل العجوز فيلاريتوس تكريما لرسل الإمبراطور قسطنطين السادس، انبهر ثيوفانيس رئيس الوفد بأن يرى حسن طلعة جميع أفراد الأسرة الذكور من أبناء القديس وأزواج بناته، فطلب رؤية ثيوسيبو Theosebo سيدة الدار وزوجة القديس، فلما أمرها زوجها بالحضور دهش ثيوفانيس لرؤية سيدة عجوز تتمتع بمثل هذا الجمال، وشجعه ذلك على طلب رؤية بقية فتيات الدار، وقد بدا الطلب غريبا لفيلاريتوس، إذ لم يكن مألوفا للأخلاق والتقاليد الاجتماعية، فالفتيات يقمن دوما فى حجراتهن الخاصة لاسيما وهن لا يزلن عذارى، وعندئذ شرح السفراء طبيعة مهمتهم وأن طلبهم رؤية فتيات الدار لم يأت إلا بناء على أوامر إمبراطورية مقدسة تقضى بأنه لا ينبغي على أي شخص كان إخفاء أية فتاة من فتيات الإمبراطورية عن أعينهم، فأجابهم فيلاريتوس قائلا : "أيها السادة، نعم نحن قوم فقراء، غير أن بناتنا لا يغادرن حجراتهن قط، إن شئتم ادخلوا

---

[1] Theophanes , *The Chronicle of Theophanes Confessor : Byzantium and Near Eastern History , A.D.284-813* , trans. C. Mango & R. Scott , Oxford , 1997 , 628.
[2] Ringrose, K.M., "Eunuchs as Cultural Mediators" , *BF* 23(1996)82-3
[3] *Life of St. Irene of Chrysobalanton* , ed. & trans. J.O.Rosenqvist , *SBU* 1 , Uppsala (1986), 49-51
[4] Browning ,R., "An Unpublished Funeral Oration on Anna Comnena" , Idem. *Studies on Byzantine History , Literature and Education* ,London , 1977,5.

جناحهن الخاص والقوا نظرة عليهن"، وأمر ميخائيل زوج ابنته افانثيى Evanthie باصطحابهم إلى حجرات البنات المغلقة(١).

وفى بداية القرن العاشر الميلادي، راح كامينياتس يرثى الفاجعة التي حلت بمدينته سالونيك من جراء نهبها على أيدي المسلمين عام ٩٠٤م ، متأسيا للعذارى اللائى اعتدن ملازمة دورهن وعدم مغادرتها قط ليبقين بأمان حتى يخرجن منها إلى بيوت أزواجهن واللائى اصبحن الآن يهرولن ويعدون فزعا فى الميادين والطرقات العامة تصحبهن نساء أخريات(٢). وفى نفس الاتجاه يشير كاتب سيرة القديسة ثيوفانو – زوجة الإمبراطور ليو السادس المستقبلية– إلى أن أبيها لم يكن يسمح لها قط بالخروج من البيت إلا من أجل الذهاب إلى الحمام العام، والتي لم تكن ترسل إليه إلا ليلا أو في الصباح الباكر حتى لا يراها أحد وبصحبة عدد من الخادمات والخدم(٣). والصيغة ذاتها نجدها في ملحمة ديجنيس أكريتيس، فعندما اقترب ديجينيس من حجرة العذارى بقصر أحد النبلاء و"نظر إلى، وتحدث مع الفتاة التي لم ترى الشمس أبدا"، أجابته من وراء النافذة قائلة: "منحتك ما لم يتأتى لأحد قبلك، فما من أحد أستحق أن يلمح ظلي، أو ينصت إلى حديثي وضحكي، ولا حتى وقع قدماي، فقد حفظت نفسي بعيدا عن أعين الآخرين، ولم أظهر وجهي يوما من هذه النافذة، وبذلك لم يره أحد قط، ولم أفعل يوما إلا ما يليق بالعذارى، وهكذا صنت شرف والداي وآسرتي"(٤).

وفى منتصف القرن الحادي عشر، أبدى بسللوس دهشة عارمة من تلك النسوة والفتيات العذارى اللائى احتشدن قبالة القصر الإمبراطوري عام ١٠٤٢م يطالبن ببقاء الإمبراطورة زوى على سدة العرش، ويحدثن شغبا بمثل هذه الصورة العلنية وهن اللائى لم يشاهدن أبدا خارج منازلهن(٥). وفى الفترة ذاتها، يصف اطالياتس Attaleiates أحداث زلزال

---

(1) La vie de S.Philarète le misércordieux , ed. M.H.Fourmy & M.Leory , *B* 9 (1934), 139.

(2) Caminiates ,*I. ,De Expugnatione Thessalonicae*, ed. G.Böhlig , Berlin , Newyork , 1973 , 216

(3) Kazhdan , A.," Women at Home" , *DOP* 52 (1998), 2-10,esp.2.

(4)*Digenes Akrites* , ed.& trans. J.Mavrogordato (Oxford , 1970), 91,95 , 105 ; *Digenis Akritis* , *The Grottaferrata and Escorial Versions* , ed.& trans. E.Jeffreys , *CMC* 7 (Cambridge 1998),p.97

(5)Psellos , M., Fourteen Byzantine Rulers : the Chronographia of Michael Psellus , trans. E.R.A.Sewter , Penguin Books (1966), 138-9.

ومن الملاحظ أن بسللوس أشار عدة مرات إلى حجرات النساء في مزمنته، ففي حديثه عن عصر رومانوس الثالث أشار إلى قيامه بتحديد إقامة زوى في القصر الإمبراطوري، وأمر بسجنها داخل "جناح النساء"، بحيث لم يسمح لأحد بزيارتها إلا بعد أن يكشف لقائد الحرس عن هويته وسبب الزيارة، كذلك عند حديثه عن حكم زوى وثيودورا

دك مدينة القسطنطينية في عام ١٠٦٤م مشيرا إلى أن النساء اللائى اعتدن المكوث فى منازلهن، قد ارتعدن من الخوف فنسين حيائهن وعفتهن الغريزية وهرعن إلى الساحات والميادين العامة(١).

وإذا كانت الروايات السابقة تشير بوضوح إلى وجود نوع من العزلة والحصر للمرأة البيزنطية داخل منزل الأسرة، إلا انه قد يكون من الخطأ التعويل عليها بصورة مطلقة للجزم بوجود مثل هذه العزلة، بل ربما يكون من الضروري توخى الحذر في تفسير مدلولات هذه الروايات، وذلك لعدة اعتبارات، أهمها:

أ- أن هذه الروايات اختلفت فيما بينها حول تحديد من هن المحصورات في حجرات أو أجنحة النساء، فهل المقصود هنا كل النساء أم نساء طبقة بعينها، أم الفتيات العذارى وحدهن.

ب- أن هذه الروايات ارتبطت في المقام الأول بحالات معينة حينما يخترق أو ينتهك الحصر سواء نتيجة كارثة طبيعية أو عسكرية، أم نتيجة دخول غرباء لدائرة المنزل من أصدقاء رجل البيت أو من مبعوثي البلاط الإمبرطورى.

ج- أن المسميات التي أشير بها في هذه الروايات إلى الحرملك متعددة ، مما قد يدل على أنه لم يكن هناك مسمى واحد يشير ويدل مباشرة عليه، وهى: Θαλαμευόμενος و Όικουρί بمعنى منزل الزوجية έξω Γυναικωνίτιδος بمعنى جناح النساء، و Κουβούκλιον بمعنى حجرة، و Παρθενικών Θαλάμων بمعنى أجنحة العذارى، و Γυναικίος Οίκος بمعنى منزل النساء والذي أثبت تافت Taft حديثا انه كان المقصود به في المفردات البيزنطية "دير نسائي" Convent وليس الحرملك Gynaeceum(٢).

ومن ناحية أخرى نجد أن هناك تناقضا واضحا في الروايات المصدرية الخاصة بوضع المرأة فى المجتمع البيزنطي، ففي الوقت الذي تشير بعضها إلى أن النساء كن محصورات داخل حجرات الحريم-الحرملك-، نجدهن في بعضها الأخر يتمتعن بقدر كبير من الحرية في الحركة،

المشترك أشار إلى أنهما حولا من جناح النساء إلى مجلس إمبراطوري، وفى جميع هذه الروايات وغيرها أشار إلى هذا الجناح بالاسم Gynaeconitis

(1) Michael Attaleiates, *Historia*, ed. I.Bekker , *CSHB* , Bonn,1853 , 88

(2) Taft , R.F., "Women at Church in Byzantium : Where, When - and Why ?", *DOP* 52(1998) 31ff , 86.

وقد اظهر تافت أن مسمى أخر من نفس الجذر Γυναικίτης كان يطلق على موضع في الكنائس البيزنطية مخصص للنساء فقط.

ويساهمن في الأنشطة الاقتصادية، ويشاركن في المآدب، وفى الأعمال والأنشطة الخيرية، بل ويقمن علاقات عاطفية خارج نطاق منزل الزوجية(١).

وإزاء هذا التناقض والغموض الواضح في الروايات المصدرية، حاول بعض الدارسين المحدثين حل هذه المعضلة، حيث تقترح أنجليكى لايو Angeliki Laiou ما يمكن أن يطلق عليه اقترابا تاريخيا، معتبرة رواية أطالياتس الموحية بان حصر النساء في منازلهن كان أمرا عاديا فى منتصف القرن الحادي عشر، هي الشاهد الأخير على ظهور الحرملك Gynaecaum كمظهر مألوف فى الواقع الاجتماعي، وأنه من الصعب التوقع بأن النساء بقين محصورات داخل الحرملك خلال القرن الثاني عشر ، ففي ذلك القرن اختلف وضع المرأة بصورة جوهرية عن القرون السابقة، وعند هذه النقطة ترفض لايو تفسير إحدى روايات يوستاثيوس السالونيكى بأنها تنهض شاهدا على وجود الحرملك فى أيامه ، وهى الرواية التي يناقش فيها الجناس اللغوي في الكلمة اليونانية Κόρη، والتى تعنى كل من "عذراء" و"بؤبؤ العي"، فيقول بأن هذه الكلمة استخدمت مجازا لتعنى بؤبؤ العين، أعز أعضاء الجسد لدينا، للتشابه القائم بينه وبين الفتاة العذراء، فالعذراء الأثيرة إلى قلوب آباءها تظل فى منزلها مصانة كبؤبؤ العين تحت الجفون وترى لايو بأن هذه الرواية بصورة لا تقبل الشك أو الجدل إستعارية مجازية، وأنه من غير المتوقع على الإطلاق بقاء الحرملك فى أيام يوستاثيوس.(٢)

أما الكسندر كجدان Alexander Kazhdan فيرى أنه مع الافتقار إلى شواهد أثرية ووثائقية تثبت وجود الحرملك، لا يحق لنا الحديث عن حصر النساء في المجتمع البيزنطي كواقع اجتماعي، خاصة وأنه لا توجد إشارة له فى الآثار والوثائق الباقية(٣)، ويستشهد بوصية ميخائيل أطالياتس المؤرخة بعام ١١٠٧م، الذي رغم تأكيده على حصر النساء فى حجراتهن حتى زلزال عام ١٠٦٤م، إلا أنه في وصفه التفصيلي لمنزلين امتلك أحدهما فى رايديستوس Rhaidestos والأخر اشتراه من عمته أناستاسو Anastaso في العاصمة القسطنطينية، لا يشير مطلقا إلى وجود حجرات خاصة بنسائه في هذين المنزلين(٤)، وأن الأثرى والمؤرخ اليوناني كوكوليس koukoules_الذي اعتقد فى عزلة المرأة البيزنطية ، سجل أسماء عديدة لأقسام المنزل البيزنطي، ولكنه لم يضمن ذلك أي مصطلح خاص بحجرات النساء(٥). ويخلص كجدان

---

(١) أنظر الفصل الثاني من كتابي: المرأة والمجتمع في الإمبراطورية البيزنطية، القاهرة، ٢٠٠٥م.

(2) Laiou , A., "The Role of Women in Byzantine Society", *JÖB* 31(1981),233-60,esp. 249-60.

(3) Kazhdan ,*Women at Home* , 5.

(4) Attaleiates , Rule of Michael Attaleiates for his Almshouse in Rhaides- tos and for the Monastery of Christ Panoiktirmon in Constantinople , *BMFD* , 335-336.

(5) Kazhdan , *Women at Home* , 5.

من ذلك إلى أنه إذا كانت رواية يوستاثيوس السالونيكى مجازية بصورة لا تقبل الشك، فإن روايات أطالياتيس و بسللوس وغيرهم من الكتاب السالفين الذكر تقدم نموذجا أخر للمغالاة البلاغية، التي من اليسير ملاحظاتها في عبارات "أن الآباء نادرا ما يرون بناتهم" و"أن النساء لا يسمح لهن برؤية الشمس".(١)

أما أليس مارى تالبوت Alice-Mary Talbot فترى بأن عزلة المرأة البيزنطية قد اختلفت وفقا للمرحلة السنية، والطبقة الاجتماعية، ومحل الإقامة، فبالنسبة للطبقة الأرستقراطية مارست المرأة المتزوجة قدرا من حرية الحركة مقارنة بالفتاة العذراء التي لزمت منزل أسرتها ولم تكن تغادره إلا بصحبة حشد من الخدم والحراس لحماية عذريتها وسمعتها، أما المرأة الفقيرة التي ليس لديها خدم فقد كانت مضطرة إلى التسوق بنفسها، بل والعمل خارج المنزل في بعض الأحيان، وكذلك اختلفت حرية المرأة فى المدينة عن قرينتها فى الريف، فقد كان على الأخيرة أن تقضى وقتا طويلا خارج المنزل في أعمال الزراعة وتربية الطيور، وبصفة عامة ازدادت احتمالية بقاء المرأة بمنزلها في الطبقتين الأرستقراطية والوسطى عنه بالنسبة للطبقة الدنيا.(٢)

وعند مناقشة هذه الآراء ، يلاحظ أنه إذا كانت رواية أطالياتس هي أخر دليل على عزلة المرأة داخل منزلها –كما تذهب انجليكى لايو – ثم تغير هذا الوضع بعد ذلك، خاصة فى القرن الثاني عشر، فبماذا نفسر وجود العديد من الشواهد التى تشير إلى أن المرأة تمتعت بقدر كبير من حرية الحركة قبل أن يروى اطالياتس روايته بكثير، ولعل في تضمينات رواية معاصره ميخائيل بسللوس عن مشاركة النساء والفتيات العذارى فى ثورة ١٠٤٢م – رغم ما يبديه من دهشة لظهورهن بصورة علنية– دليلا على ما تمتعت به المرأة من حرية قبل رواية اطالياتس بسنوات قليلة .

أما رأى اليس مارى تالبوت، فيتسم فى مجمله بالوجاهة، خاصة فى ظل منطقية أن ما هو متاح للمرأة المتزوجة لم يكن كذلك للفتاة العذراء، وكذلك بالنسبة للمرأة الحضرية مقارنة بالمرأة الريفية، وللمرأة الأرستقراطية مقارنة بالفقيرة، ولكن هذا لا ينهض دليلا على أن المرأة الأرستقراطية والحضرية قضين أوقاتهن في عزلة تامة، خاصة وأن هناك شواهد تشير إلى أن بعضهن مارسن قدر من النشاط فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والدينية، وإن كان نشاطهن في المجال الاقتصادي أقل بكثير من أقرانهن فى الطبقة الدنيا، كما أنهن مارسن نشاطا دينيا واجتماعيا تجيزه أعراف المجتمع، وفى هذا الصدد قد تكون وجهة نظر الكسندر

(1) Ibid , 5.
(2) Talbot, *Women* ,129.

كجدان هي الأقرب إلى الصحة، وإن كان لم يثبت عدم وجود حجرات النساء – الحرملك – في الحياة الاجتماعية ببيزنطة٠

واقع أم رؤية مثالية ذكورية؟

ربما كان أفضل طريق لاستجلاء اختلاف النصوص المصدرية فيما يتعلق بعزل المرأة البيزنطية داخل المنزل، هو أن ننظر إلى الأمر من زاوية أخرى، فكما ذكرنا سابقا أن أحد المشكلات الأساسية التي تعترض طريق من يتصدى لدراسة وضع المرأة داخل المجتمع البيزنطي هي أن كتاب هذه النصوص من الذكور، وبالتالي فهي تعكس نظرة الرجل للمرأة، أو بمعنى أخر أن الأيديولوجية التي يمكن صياغتها عن المرأة من خلال هذه المصادر هي تلك الخاصة بالرجال، ومن ثم فأنها لا تقدم لنا سوى الآراء والاتجاهات التقليدية المتوقعة التي أثرت على نظرة الرجال تجاه دور المرأة ومكانتها فى المجتمع، وهذه الأيديولوجية العرفية التقليدية لا تحمل بالضرورة علاقة وثيقة بالواقع الاجتماعي في كثير من الأحيان.[١]

وقد لاحظت الباحثة الفرنسية جويل بيكامب Joëlle Beaucamp ذلك الأمر من خلال دراستها لوضع المرأة القانوني من القرن العاشر حتى القرن الثاني عشر، حيث وجدت أن التشريعات المتتالية التي شهدتها هذه الفترة ليست إلا انعكاسا وترديدا لما جاء في تشريعات جستنيان، بل أن هذا التماثل ظل حتى نهاية الإمبراطورية البيزنطية، ولذلك تحدثت هذه التشريعات عن وضع المرأة القانوني بنفس مصطلحات القرن السادس، ولما كانت تشريعات

---

[١] لاحظ عدد من الباحثين المحدثين أن هناك اختلاف بين ما هو متوقع وما هو واقع بالفعل في حياة البيزنطيين، فعلى سبيل المثال لاحظ باول ماجدالينو عند دراسته لرؤية الكتاب البيزنطيون للحياة اليومية في بيزنطة، أن عددا كبيرا من الباحثين الذين تطرقوا إلى هذا الموضوع وقعوا في خطأ الانسياق وراء ما تذكره لنا المصادر البيزنطية المعاصرة ، والأخذ به على أنه حقيقة واقعة، ويقترح أن تصحيح ذلك يكمن في حتمية إيجاد أسلوب جديد لتناول مثل هذه القضايا، ويتمثل في ضرورة تناسى السؤال التقليدي، ماذا نود أن يخبرنا به الكتاب البيزنطيون عن حياتهم وماضيهم؟، وأن يكون تساؤلنا هو كيف أختار البيزنطيون ما كتبوه عن طرائق حياتهم؟ وماذا رغبوا في إخبارنا إياه؟٠

Magdalino , P.,"The Literary Perception of Everyday Life in Byzantium : Some General Considerations and the Case of John Apokaukos", *BS* 47(1987)28-38 , rep. Idem , *Tradition and Transformation in Medieval Byzantium* ,Hampshire , 1991, n. X.

وعبر الباحث سيريل مانجو عن الأمر نفسه بقوله "إن كتابات البيزنطيين اتجهت إلى الانفصال التام عن حقائق عصرهم وحياتهم ، حيث ظلوا منجذبين إلى مثاليات الماضي البعيد، ولذلك كانت شئون الحياة اليومية من وجهة نظرهم أمرا لا يليق تناوله فى كتاباتهم" ٠

Mango , C.,"Byzantine Litterature as a Distorting Mirror" , Idem , *Byzantium and its Images* , London , 1984 , 2.

جستنيان قد ارتبطت بظروف وإجراءات قديمة ، فقد حاولت بيكامب أن تقيم نوعا من التوافق بين هذه التشريعات ومدى التطبيق الفعلي لها فى الواقع الحياتي للمجتمع، ووجدت الإجابة في كتاب البيرا Peira، خاصة وأن واضعه القاضي يوستاثيوس رومايوس Eustathios Romaios استقاه من القضايا التي عرضت على ساحات المحاكم المدنية منذ القرن العاشر، ويروى من خلال ذلك الأحكام الصادرة بشأنها والقوانين التي تبررها ، وجاءت الإجابة بأن أكثر القوانين أهمية مهملة ومهجورة تقريبا(١)، وعلى ذلك فإن أيديولوجية المرأة في القانون البيزنطي قد لا تنطبق بصورة تامة مع واقعها الاجتماعى.

ويبدو أن عرف عزلة المرأة وحصرها داخل المنزل كان أحد العناصر الأساسية المكونة لأيديولوجية المجتمع العرفية، وقد يبدو في هذا تناقضا ظاهريا مع ما استعرضناه من موقف المجتمع ونظرته للمرأة على أنها مصدرا للإغواء وأداة من أدوات الشيطان، غير أن البحث فى المصادر البيزنطية يوحي بأنه لم يكن هناك ثمة تناقض، بل على العكس من ذلك أن هذا الموقف جعل الكتاب البيزنطيين، خاصة مؤلفي الكتابات البيوجرافية والهجيوجرافية، حريصين أشد الحرص على تقديم نسائهم فى صورة مثالية تتسم بالطهارة والفضيلة، وكانت العزلة داخل المنزل أحد العناصر الأساسية المكملة لهذه الصورة، وداخل هذه الصورة يرى الناظر النساء البيزنطيات خجولات منطويات على نفسهن مغرمات بالعزلة والاحتشام، مكرسات أنفسهن بصورة مطلقة لواجباتهن الأسرية والمنزلية والدينية.

وفى هذا الصدد قد تكون أكثر المصادر البيوجرافية قيمة هي كتابات المؤرخ ميخائيل بسللوس عن أمه و زوجته وأبنته، وكتاب الألكسياد للأميرة آنا كومنينا، والذي يعتبر سيرة ذاتية

---

(1) Beaucamp , *situation juridique*,147-8.

ولمزيد من التفاصيل عن كتاب البيرا ، ومؤلفه القاضي يوستاثيوس رومايوس ، أنظر،

Oikonomides ,N.,"The Peira of Eustathios Rhomaios : an Abortive Attempt to Innovate in Byzantine Law", *FM* 7 (1986) 169-92 , repr. in Idem , *Byzantium from the Ninth Century to the Fourth Crusade* ,London , 1992 , n.XII.

بصورة مماثلة لاحظ الباحث اليوناني كونيداريس ذلك الأمر فيما يتعلق بمدى انتشار معرفة القوانين الكنسية وسط المجتمع البيزنطي ، ووصل إلى نتيجة مؤداها " في المجتمع البيزنطي هناك من له دراية بقوانين الكنيسة ، لكنهم قلة ، وهم أولئك الذين في السلطة أو من الصفوة المثقفة ، غير أن حقيقة معرفتهم بها لا يعنى أنهم دوما يستخدمونها ، بينما هناك آخرون يشكلون الأغلبية من العامة لا يدرون من أمر هذه القوانين شيئا " .

Konidaris , I.M., " The Difussion of the Law of the Church in the Byzantine Society " , ed. Ch.Papastathis , *Byzantine Law : Proceeding of the international Symposium of Jurists , Thessaloniki , 10-13 December 1998* , Thessaloniki , 2001 , 195-200 , esp.199-200.

لأبيها وأسرته الإمبراطورية، وفي هذه الكتابات يقدم المؤلفان، أيما كان الواقع، صورة مثالية للشخصية والسلوك، ويردان إلى نساء أسرتيهما كافة المفاهيم البيزنطية عن النضج والكمال الأنثوي.

لقد كتب بسللوس مرثية في وفاة ابنته الصغيرة ستيليانى التي وافتها المنية وهى لا تزال فى الثامنة من عمرها، وفى هذه المرثية يشبهها في نواحي عديدة بجدتها الورعة ثيودوتى Theodote ، فقد لزمت البيت، وقضت أوقاتها فى تدارس الكتب المقدسة، وتعلم المهام المنزلية، ويصف بسللوس شخصيتها بالحياء والتقوى والورع، ويحدثنا بأنه كان حريصا على أن يوفر لها التعليم والتنشئة الأكثر نفعا وملائمة لها، وهى بالطبع تنشئة تبدو مقيدة، فيصف باستفاضة نسجها للصوف تحت إشراف وتوجيه أمها، وأن هذا كان أكثر واجباتها المنزلية أهمية بعد قراءة الكتاب المقدس الذي تفوقت فيه على كل أقرانها، ورغم أنه كان يرتب بعناية لتزويجها من أحد نبلاء القسطنطينية، إلا أن الزواج لم يكن ضمن دائرة اهتمامات ستيليانى، فقد نجح بسللوس –كما يشير– في أن يحافظ على ابنته معزولة، ولذلك إن شخصيتها ولياقتها لم تفسدا بالتفكير فى الفتية، كما أن وجهها لم تفسده مساحيق التجميل[١].

وإذا كان بسللوس قد قدم في هذه المرثية لوحة مثالية لابنته، فإن حرصه الشديد على حبكة ملامحها قد جعلتها تنطق بدون قصد منه بتضمين هام، وهو أنه إذا كانت ستيليانى قد تميزت بأنها لم تفكر في الفتية ولم تفسد وجهها بالمساحيق كنتيجة للتربية المقيدة التي فرضها أبوها عليها، فهذا لا يعنى بالضرورة أن غيرها من الفتيات لم يجربن هذا أو أنهن نشئن مثلها، وعلى ذلك فإن بسللوس يقدم فى لوحته رؤية رجل بيزنطي للسلوك الأنثوي المثالي لأهل بيته بغض النظر عن مدى شيوع هذا السلوك أو مصداقيته على غيرهن من نساء المجتمع، فما يعنيه هنا هو إشباع نموذج أيديولوجي سائد فى مجتمع ذكورى بغض النظر عن مدى توافقه مع الواقع الاجتماعي، وهذا التناقض بين ما هو متوقع وما هو قائم بالفعل أمر يتكرر حدوثه في النصوص المتعلقة بالمرأة .

ولنأخذ على ذلك مثلا أخر وهو رواية لثيودور رئيس دير ستوديوس Theodore of Stoudios يمتدح فيها أمه لأنها حفظت بناتها بعيدا عن أعين الرجال المتفحصة، ولأنها حرمت عليهن ارتداء الجواهر الثمينة[٢]، فمن الصعب التعويل على مثل هذه الرواية في الجزم بأن الفتيات البيزنطيات لم يجربن بهجة الزينة الباهظة القيمة، بل على العكس ربما تلمح هذه

---

(1) Kyriakis, M.J.," Medieval European Society as seen in two 11th Century Texts of Michael Psellos " , *BS\EB* 4\2 (1977) 157-60 ; Leroy- Molinghem A., " Styliane" , *B* 39 (1969)155-63.

(2) Theodore Stoudios , *Laudatio Funebris in Matrem Suam* , *PG* 99 : 888A

الرواية ضمنا بأنه كان من العادي للفتيات أن يرتدين الجواهر وأن يكن موضعا لنظرات الرجال المتفحصة. وهو ما يؤكده كاتب سيرة القديسة ماريا الصغرى عندما يشير إلى أنها "كانت ترفض التزين بالمشغولات الذهبية والملابس الفاخرة مثل الأخريات"(١). وعلى هذا ربما كان المعنى المراد تأكيده فى كافة الروايات السابقة هو أن "النساء البيزنطيات، خاصة العذارى، عفيفات طاهرات، وأن ظهورهن علانية وتزينهن يتعارض مع المبدأ الأخلاقي والأيديولوجي الذي خلقه المجتمع البيزنطي حيال المرأة" .

ووفقا لهذا النموذج الأيديولوجي السائد، كان من المتوقع أن تكون المرأة، سواء أكانت متزوجة أو غير متزوجة، خجولة و محتشمة ومنكمشة على نفسها، منعزلة عن عالم الرجال باستثناء أفراد أسرتها من الذكور. كما أنه خارج حجرات النساء كان متوقعا منها أن تكون مرتدية غطاء الرأس، أو ما يمكن أن نطلق عليه الحجاب، الذي يعد رمزا لطبيعة المرأة الخجولة والمحتشمة، حيث لا يكشف من وجهها سوى الأنف والعينين، فيحدثنا بسللوس بأن أمه كانت ترتدى الحجاب طوال الوقت، وأن المرة الوحيدة التي رفعته فيها لتكشف عن وجهها علانية كانت عندما انخرط هو نفسه فى البكاء قبالة قبر أخته، وأن المناسبة الوحيدة التي رآها فيها تظهر انفعالها كانت وفاة أبيه(٢). كذلك راح ينتقد الإمبراطورة زوى لنسيانها أنوثتها ومنزلتها عندما غلبت عليها انفعالاتها وخرجت من القصر بحثا عن اللقاء الأخير مع زوجها المتوفى ميخائيل الرابع، وبسللوس هنا لم ينتقدها لأنها خرجت من عزلتها المفترضة، وإنما لأنها لم تتصرف كأنثى وإمبراطورة(٣). ومع ذلك نجده يمتدحها في رواية أخرى عندما رأى سلوكها يتوافق مع أيديولوجية المجتمع، وذلك عندما لم تطلق العنان لانفعالها او لسمة النساء البغيضة الممثلة في الثرثرة وقت أن حدد زوجها ميخائيل الرابع إقامتها في القصر الامبراطورى.(٤)

وفى رواية أخرى لبسللوس يمتدح فيها ماريا Maria زوجة الإمبراطور ميخائيل السابع دوقاس Michael VII Dukas، يقدم فيها صورة أخرى للسلوك الأنثوي المثالي، فيقول: "إذا كان الشاعر التراجيدي يقول: الهدوء هو مفخرة المرأة ، فعندئذ تفوق ماريا النساء جميعا استحقاقا لهذا الشرف"، فماريا لم تكن تتحدث مع أي رجل غير زوجها، بل كان وجهها يتورد بحمرة الخجل إذا وجه إليها زوجها كلمة حب واحدة. ولكن إذا عرفنا أن هناك إشاعات وشبهات أحاطت بماريا(٥)، فإن مدح بسللوس لها قد لا يحمل أية صلة حقيقية بسلوكها

---

(1) *Life of St. Mary the younger*, 261.
(2) Garland , *Life and Ideology* , 372.
(3) Psellos , *Chronographia* , 117.
(4) Ibid , 95.
(5) Ibid , 372

الفعلي، كما أن تضمينات حكمه عليها التي توحي بأن مثل هذا السلوك المثالي لم يكن معتادا في كثيرات غيرها، يؤكد حقيقة أنه ليست كل النساء قادرات على الحياة في مثل هذه المستويات المقيدة التي فرضتها أيديولوجية المجتمع العرفية على السلوك الأنثوي .

وإذا كان بسللوس قد عبر عن أيديولوجية ذكورية بوصفه رجلا ، فإن آنا كومنينا نفسها عبرت عن هذه الأيديولوجية عندما راحت تتحدث بمصطلحات ومفاهيم مجتمعها عن نساء أسرتها، فعندما وافت المنية أبيها كان أول تصرف لأمها الإمبراطورة إيرينى ديوكاينا هو تغيير حجابها الإمبراطوري واستبداله بأخر أسود بسيط استعارته من ابنتها يودوكيا Eudokia[١]. كما راحت تقدم صورة أخرى لزوجة وأم مثالية، ونموذجا للكمال الأنثوي والسلوك المثالي، وفى هذه الصورة تحاول آنا كومنينا أن تحمل قراءها على الاعتقاد بأن ايرينى كانت تفضل أن تنأى بنفسها عن كافة الواجبات العامة وأن تبقى فى عزلتها داخل القصر، لولا أن حبها لزوجها وتأثيرها عليه مكنها من التغلب على حيائها الفطري، فراحت تشاركه واجباته بدلا من أن تشغل نفسها بالشئون المنزلية، ومع ذلك فقد كانت "كلما اضطرت للظهور علانية كإمبراطورة، لم تكن أمي رمز الجلال والهيبة، دار الطهارة والورع، ترغب في أن تكشف وجهها أو مرفقيها لنظرات العامة المحدقة، أو أن يسمع صوتها من قبل الغرباء، حقيقة كان حياءها واحتشامها أمرا يفوق الوصف"[٢]، ومن الواضح هنا أن آنا كومنينا هنا تصف نموذج الكمال والسلوك المثالي للمرأة الذي يجب على النساء أن يعجبن به ويقتدين به، أكثر مما تعبر عن الواقع الاجتماعي، فالواقع أن إيرينى نفسها اعتادت مصاحبة زوجها فى حملاته العسكرية، وكانت حريصة على ألا تدعه يغيب عن ناظريها[٣]، وهو ما يتناقض مع هذا النموذج الأيديولوجي، وقد وجدت آنا بعض الصعوبة فى التوفيق بين حقيقة مصاحبة أمها لأبيها فى حملاته، وبين نموذج السلوك الاجتماعي الذي كان يفضل أن تنأى المرأة بنفسها عن مصاحبة الرجال، ومع ذلك فقد راحت تبرر ذلك بأن إخلاص أمها الشديد كزوجة هو فقط الذي دفعها إلى التغلب على ما لا ترغب فيه، والتغاضى عن اللياقة.[٤]

الخاتمة

على أي حال، مما سبق يمكن القول بأن المجتمع البيزنطي خلق نموذجا أيديولوجيا تجاه المرأة، أسهم فى تشكيله عناصر عدة، منها التكوين الذكورى الأبوي لهذا المجتمع، والمؤسسة الكنسية، والقوانين المدنية، والمجتمع العلماني نفسه، نموذج نظر إلى المرأة على أنها

(1) Anna Komnena , *Alexiad* ,513.
(2) Ibid , 375.
(3) Ibid , 374-5 , 376-7.
(4) Ibid ,376.

مصدرا للخطيئة وأداة للشيطان، ومن ثم كان لابد من تقييد حريتها وحمايتها، وفى ذات الوقت إبعادها عن أي مكان أو مجال يمكن أن تخالط فيه الرجل، خاصة مناطق نفوذه، وترك لها منطقة نفوذ وحيدة تتوافق وهذه الأيديولوجية ألا وهى منزلها أو الدير، ومن ثم كان طبيعيا أن تظهر المرأة فى المصادر فى مكانها الطبيعي، لكن الأمر جاء مبالغا فيه في الروايات المصدرية كبسللوس وأطالياتس وغيرهم، وربما كانت هذه المبالغة نتيجة منطقية لحرص هؤلاء الكتاب الشديد على تقديم النساء، خاصة نسائهم، في قالب مثالي ينسجم مع هذا النموذج .

ومع ذلك ينبغي علينا الحذر عند تقرير مدى انطباق هذا النموذج الأيديولوجي مع الواقع، وفى تقرير مدى الحرية التي تمتعت بها المرأة فى المجتمع والحياة العامة، إذ أن عدم توافقه مع الواقع في وجه من الوجوه لا يعنى أنه اختلف عنها جميعا، أو بعبارة أخرى إن عدم توافق هذا النموذج مع الواقع فيما يتعلق بعزلة المرأة داخل منزلها كما صورتها لنا المصادر، لا يعنى بأنه لم يؤثر، حتى و إن كان بصورة جزئية، على نظرة المجتمع للمرأة والأدوار الملائمة لها ، وقد يبدو في ذلك تناقضا، غير أن دور المرأة في الأسرة يؤكد لنا أن المرأة إذا لم تكن قد رضخت لعزلة فُرضت عليها، فإنها في المقابل عندما اضطلعت بدور معين، جاء هذا الدور متوافقا مع الأيديولوجية التي عرضنا لها، بل ويمكن القول أيضا بأن هذه الأيديولوجية هي التي حددت وصاغت الأدوار التي يمكن أن تناسب المرأة في مثل هذا المجتمع الذكورى، وبصفة عامة ظلت أدوار المرأة أدنى و اقل من الرجل، كما ظلت هي نفسها تابعة له سواء فى الحياة العامة أو في الأسرة، وحتى في مجال الرهبانية ظلت أيديولوجية المجتمع لها تأثير كبير على حياة الراهبات ووضعهن وعلاقاتهن بالعالم الخارجي .

وأخيرا، لا يمكن بأي حال القول بأن الآراء التي عبر عنها رجال الدين وكتاب سير القديسين وممثلي الكنيسة والدولة، مبالغ أو مغالى فيها بصورة تامة، أو أنها لم تترك أثرها على المجتمع العلماني، خاصة وأن هذه الآراء صادرة عن أشخاص ومؤسسات لها ثقل وتأثير كبير في صياغة فكر هذا المجتمع، ومن هنا نتجت الأيديولوجية التي عرض لها عبر هذا الفصل، أما الواقع فهو أيضا نتاجا للثقافة المجتمعية، ومن ثم كان لابد أن يتوافر فيه مجالا كبيرا لتأثير فعال للأيديولوجية، فالمؤسسات والأفراد الذين عبروا ورددوا هذه الأيديولوجية هم أنفسهم نتاجا لواقع الثقافة المجتمعية وجزءً منها، ومن خلال كتاباتهم وتشريعاتهم أعادوا تقديم هذه الأيديولوجية، وأسهموا بشكل كبير في إدامتها واستمرارها، وبالتالي أثروا على، حتى وإن لم يكونوا قد عكسوا وحددوا بصورة تامة، رؤية المجتمع لوضع المرأة ودورها داخله.

الخصيان

وسيط مثالي في مجتمع ذكوري

فاطمة إسماعيل عبد الله

شهدت الدراسات البيزنطية طفرة ملحوظة منذ أواخر القرن العشرين، ولم تعد دراسة التاريخ البيزنطي قاصرة على دراسة الأحداث السياسية والعسكرية فقط، بل بدأ كثير من الباحثون في اقتحام مجالات جديدة أهمها القضايا الحضارية والاجتماعية، ومنها قضايا النوع والجنس في المجتمع البيزنطي والاختلافات التي صاغتها الثقافة البيزنطية بين فئات الجنس المختلفة داخل المجتمع ، وأعني هنا الرجل والمرأة والخصيان، ولقد شكلت فئة الخصيان جزءاً هاماً من نسيج المجتمع البيزنطي، ولعبت دوراً حضارياً لا يمكن إغفاله، شمل جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية داخل القصر، فضلاً عما ساهمت به تلك الفئة في تحريك وصياغة بعض الأحداث السياسية والعسكرية خلال تاريخ الإمبراطورية.

ويلقي هذا البحث الضوء على تطور نظرة المجتمع للخصيان منذ بداية القرن التاسع وحتى نهاية القرن العاشر الميلادي، تلك النظرة التي طرأ عليها كثير من التغير خلال تلك الفترة، وهذه النظرة تشمل وجهة نظرة الكنيسة، التي اتخذت موقفا متشددا تجاه الخصيان منذ بداية عهدها، وأصدرت القوانين التي تحرم عملية الإخصاء، واعتبرت أن ذلك عملاً إجرامياً، تنفذ منه الخطيئة إلى الحياة الكنسية المقدسة. غير أنها سمحت لبعض أفراد تلك الفئة من ممارسة العمل الديني ممن تم اخصائهم قهراً او بسبب مرض. فضلا عن موقف المؤسسات الديرية الذي اتسم موقفا بالتناقض تجاه الخصيان، فبعض الأديرة رفضت قبول الخصيان، والبعض الأخر جعل قبولهم مرتبط ببعض الشروط، بينما رأى البعض الثالث ضرورة وجود الخصيان.

كان من الطبيعي أن يتردد صدى تلك النظرة الدينية داخل المجتمع العلماني، وهي النظرة التي اتسمت أيضا بتناقض شديد والذي ظهر واضحاً في كتابات بعض المؤرخين البيزنطيين وبعض مواقف الأباطرة. غير أن وجود الخصيان في المجتمع البيزنطي كان أمراً ضرورياً، باعتبار أن المجتمع البيزنطي مجتمعا ذكوريا، يقوم على أساس عزل المرأة، وهنا دعت الحاجة الملحة لوجود الخصيان للقيام بدور الوسيط بين عالم الرجل وعالم المرأة، كما دعت الحاجة إلى الخصيان للقيام بكثير من الأعمال التي يصعب على كل من الرجل والمرأة

القيام بها، كتربيه الأطفال وتعليمهم، خاصة الفتيات. ومن هنا أصبح وجود الخصيان أمر مقبولا في إطار محدد وهو إطار خدمة الطبقة الأرستقراطية وخدمة البلاط. ولكن عندما تخطى الخصيان حدود هذا الإطار، تنامت ضدهم مشاعر الكراهية والبغض من قبل الطبقة الأرستقراطية سواء المدنية أم العسكرية، وذلك لسيطرة الخصيان على كثير من الوظائف المدنية والعسكرية ولقربهم من الأباطرة وقدرتهم على توجيه شئون الدولة بطرق مباشرة أو غير مباشرة.

ويتضح ذلك في كتابات المؤرخ كدرينوس Cedrenus عندما تعرض لتاريخ الإمبراطورية في بداية القرن التاسع وسيطرة الخصيان على البلاط في عهد الإمبراطورة ايرين، وهو أيضا ما أوضحه المؤرخ ثيوفانيس Theophanesعندما سيطر الخصيان على مقاليد الحكم في عهد الإمبراطورة ثيودورا Theodora.

ومن ناحية أخرى ظهرت بعض القوانين والتشريعات التي منحت الخصيان بعض الحقوق والتي أكدت على أن وجود الخصيان أصبح أمراً مقبولا داخل المجتمع وهكذا بدأت نظرة المجتمع تأخذ منحنى جديد أكثر إيجابية في المجتمع، ساهم في ذلك الخصيان أنفسهم باكتسابهم كثير من الصفات التي ساعدت على اندماجهم داخل المجتمع البيزنطي، وعلى خدمة البلاط على أكمل وجه. كما ساعدهم على ذلك النشأة المنظمة التي خضع لها الخصيان منذ الصغر. وأصبحت عملية الإخصاء تتم داخل الإمبراطورية البيزنطية على مرأى ومسمع من الجميع، بل إن بعض الأسر قامت بإخصاء أبنائها، وتربيتهم ومنحهم قسط وافر من التعليم يمكنهم من الحصول على الوظائف في البلاط الإمبراطوري. وهو ما يؤكد أن وجود الخصيان أصبح مقبولاً داخل الإمبراطورية البيزنطية في القرن العاشر الميلادي، وهو ما ظهر بشكل واضح في بعض الأدبيات التي تعكس وجهة النظر الثقافية للمجتمع.

تتناقض المصادر البيزنطية في الصورة التى تعكسها للخصيان ونظرة المجتمع لهم، فعلى حين يقرر المؤرخ كدرنيوس مع مطلع القرن التاسع أن الخصيان "أسوأ فئة"، وينقل عن خريزاوريوس Chrysaorius[١]"إذا كان لديك أحد الخصيان فاقتله وإلا فاشترى واحداً واقتله"[٢]،

---

[١]أحد الشخصيات الهمهة في تلك الفترة على حد تعبير كدرينوس، ولقد ذكرته رينجروز باسم خريزابوريوس Chrysaborios، بينما ذكره كدرينوس باسم خريزاوريوس

Cedrenus, G., *Historiarum Compendium*, ed. I. Bekker, *CSHB*, Bonn, 1839, vol 2, p.29; Ringrose, *The Perfect Servant. Eunuchs and the Social Construction of Gender in Byzantium, London, 2003.* p.134.

[2]Cedrenus, *Historiarum Compendium*, vol 2, p. 29; Ringrose, *The Perfect Servant .Eunuchs*, p.134.

فإن من المؤرخين البيزنطيين من أشاد بذكاء بعض الخصيان وقدرتهم الفائقة على أداء المهام المنوطة إليهم داخل المجتمع البيزنطى.

ويمكن القول إن نظرة المجتمع البيزنطى إلى الخصيان- كما تعكس المصادر البيزنطية- تأرجحت بين نظرة سلبية ترى فى هؤلاء الخصيان " أسوأ فئة" على حد تعبير كدرنيوس، ونظرة إيجابية ترى فيهم أشخاص صالحين يفيدون المجتمع البيزنطى، وهو ما سيتضح من خلال هذا البحث.

يأتى على رأس المؤسسات التى أسهمت فى تكوين نظرة سلبية للخصيان الكنيسة البيزنطية التى نص القانون الحادى والعشرين الصادرة عن المجمع المسكونى المنعقد عام أن" كل من خصى نفسه لا يجوز له أن يتولى وظيفة كنسية لأنه قتل نفسه وعادى خلق الله"، وأي شخص في السلك الديني يخصى نفسه يُعزل من وظيفته، وأن أي علماني يرتكب الجريمة نفسها في حق نفسه يُحرم من الكنيسة ثلاث سنوات [١]

وربما ترجع تلك النظرة السلبية للخصيان إلى تأثير المسيحية ممثلة في الكنيسة، التي تعامل مع الخصيان بنوع من الحذر. فقد نص القانون الثانى والعشرين في المجمع المسكونى الثامن المنعقد عام ٨٩٧م على "أن الخصى الذى خصاه الناس قسراً أو من فقد رجولته أثناء اضطهاد أو من وُلد خصياً، فيجوز أن يصير أسقفاً" وجاء في القانون رقم الثاني والعشرين لذات المجمع أن "كل من خصى نفسه لا يجوز له أن يتولى وظيفة كنسية لأنه قتل نفسه وعادى خلق الله"، أما القانون رقم الثاني والثلاثين فقد نص على أن أي شخص في السلك الديني يخصى نفسه يُعزل من وظيفته، وأن أي علماني يرتكب نفس الجريمة في حق نفسه يُحرم من الكنيسة ثلاث سنوات [٢].

أما بالنسبة للمؤسسات الديرية فقد اتخذت موقفاً متشدداً تجاه الخصيان، ففي تيبيكون Typikon[٣] دير لافرا Lavra[١] لأثناسيوس الأثونيتي Athanathios Athonite

---

[١] على أنه ينبغى الإشارة إلى أن موقف الكنيسة هذا خاص بمن خصوا أنفسهم اختياراً ، أما من خصاه الناس قسرًا أو ولد خصيًا فقد سمحت له الكنيسة أن يكون أسقفًا، عن ذلك انظر القانون الحادى والعشرين من نفس المجمع مجموعة الشرع الكنسي أو قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة التي وضعتها المجامع المسكونية والمكانية المقدسة، جمع وترجمة وتنسيق الأرشمندريت حنانيا إلياس كساب، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٩٨، ص٨٥٤.

[٢] مجموعة الشرع الكنسي أو قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة، ص٨٥٤.

[٣] التيبكا البيزنطية هي وثائق القواعد والقوانين المنظمة للأديرة البيزنطية، تحتوي على معلومات قيمة عن رهبان الأديرة وعلاقاتهم بالأباطرة والنبلاء الارستقراطيين، والأراضي والمباني والمؤسسات الخيرية التابعة للأديرة، بالإضافة إلى معلومات قيمة عن الطقوس الرهبانية والملابس والاحتفالات والأعياد المختلفة.

Talbot, A-M., "Typikon Monastic", *ODB*. p. 2132.

في القرن العاشر، أمر فيه رؤساء الدير بعدم قبول أي خصي، سواء كان شاباً أم شخصاً طاعناً في السن (٢). ويؤكد ذلك تيبيكون دير باكوريانوس Pakourianos (٣) الذى ينص على أن رئيس الدير يجب أن يكون صارماً ويعطى أوامره بعدم دخول الخصيان الدير حتى وإن كان بغرض القيام بأعمال الخدمة أو الإدارة(٤) كذلك حظر تيبيكون خريستودولوس Christodoulos (٥) إقامة الخصيان والرجال العلمانيين وأطفالهم في جزيرة باتموس Patmos للقضاء على أي طريق قد تنفذ منه الخطيئة (٦). وهكذا كان موقف الكنيسة والأديرة من الخصيان موقفاً متشدداً يعتبرهم خطراً يهدد الكنيسة والحياة الديرية.

وإذا كانت التيبكا السابقة قد تشددت تجاه اقتراب الخصيان من دخول الدير، كانت ثمة أديرة أخرى مضطرة إلى استخدام الخصيان، لا سيما أديرة الراهبات، التي احتاجت إلى الرجال لإنجاز بعض الأعمال التي يصعب على الراهبات الاضطلاع بها كالأطباء والكهنة

محمد زايد عبد الله، " التيبكا البيزنطية (وثائق تنظيمات الأديرة) مصدرا لدراسة الطب والصحة العامة في الدولة البيزنطية" حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العددالأول،٢٠١١م، ص٢٢٥.

(١) يقع هذا الدير في الجزء الجنوبي الشرقي في شبه جزيرة جبل آثوس المقدس، أسسه القديس أثناسيوس الأثونيتى الذي بدأ حياته في القسطنطينية كمعلم، ثم مستشاراً للإمبراطور نقفور فوقاس، ثم انتقل إلى جبل آثوس حيث أنشأ هذا الدير بناء على أمر من الإمبراطور نقفور، الذي أمده بالأموال والمساعدات اللازمة لبناء الدير عام ٩٦٣م، والذي يُعتبر بداية حياة الرهبنة المنظمة في جبل آثوس.

Talbot, "Lavra Great", *ODB*, p. 1190.

(2)*Typikon of Athanathios Athonite for the Lavar Monastery*, trans. G. Dennis, *BMFD*, I, p. 263.

(٣) يقع دير باكور يانوس Pakourianos في بلغاريا بالقرب من Backovo ، أسسه القائد جورج باكوريانوس Gregory Pakourianos وهو ابن لإحدى العائلات الارستقراطية الأرمنية ، وشغل منصباً عسكرياً لفترة طويلة، وفي عام ١٠٦٤م شارك في إحدى الحملات ضد ألب أرسلان.

Typikon of Gregory Pakourianos for The Monastery the Mother of God of Pertrirzonitissa in Backovo, Trans, R., Jordan, *BMFD*,II, p. 507; Talbot, " Pakourianos", *ODB*, p. 1553.

(4)pakourianos, pp.521, 541.

(٥) يقع دير خريستودولرس في جزيرة باتموس، وهي إحدى جزر الدوديكانيز بالقرب من ساحل أسيا الصغرى. أقامه القديس يوحنا اللاهوتي المعروف باسم خريستودولوس والتي تعني باليونانية عبد المسيح. تولى رئاسة هذا الدير في عهد الامبراطور الكسيوس كومنين، ونتيجة للهجوم السلجوقي في الفترة من (١٠٧٦-١٠٧٩م) اضطر للجوء إلى جزيرة كوس.

Christodoulos, Rule, Testament and Codicil of Christodoulos for the Monastery of St. John the Theologian on Patmos, trans. P. Karlin- Hayter, *BMFD*, II, p.564; Talbot, " Christodoulos of Patmos", *ODB*, p. 440.

(6)Christodoulos, P.564; Talbot, "Christodoulos of Patmos *"*, *ODB*, p. 440.

والعمال وحفار القبور والمشرفين الماليين (١). ولتحقيق تلك المعادلة الصعبة لجأت الأديرة المضطرة إلى فرض بعض الشروط على فئة الخصيان، لإنجاز تلك الاعمال مثل تحديد عددهم، واشترطت اختيارهم من الرهبان الخصيان المعروفين بالنزاهة والمشهود لهم بالاحترام والوقار وإتقان قراءة الكتاب المقدس (٢).فقد ورد في سيرة القديسة أثاناسيا الإيجينية Athanasia of Aegina (٣) التي كانت ترأس دير القديس ستيفن Stephen أن كاهن الدير كان من الخصيان، وعندما توفى تم تعيين كاهن آخر من الخصيان يدعى إجناتيوس Ignatios (٤). كذلك نص تيبيكون دير كيشاريتمونى Kecharitomene على اختيار الخصيان الأتقياء لشغل وظائف الكاهن للاضطلاع بإقامة الطقوس والشعائر الدينية، والأب الروحي للراهبات الذي يضطلع بمهمة الاستماع إلى اعترافاتهن، كذلك الأيكونوموس Oikonomos(٥) والطبيب والطبيب الذي نص التيبيكون على ضرورة اختياره من الخصيان الطاعنين في السن لتجنب وقوع الراهبات في الخطيئة (٦).

هكذا كانت المؤسستان الكنسية والديرية تتوخيان الحذر في التعامل مع الخصيان، بوصفهم مصدر من مصادر الإغواء، وأداة من أدوات الشيطان التي تنفذ منها الخطيئة إلى الكنيسة والحياة الرهبنة وهو الموقف الذى انعكس فى بعض الكتابات الدينية، ففى سيرة القديس أندرو الأحمق قصة تدور أحدثها حول ثلاث أشخاص، خصى شاب، يعمل كبير الحجاب لدى أحد النبلاء، وأحد أصدقاءه الذى تربى معه ويدعى إبيفانيوس Epiphanios، والقديس أندروالأحمق الذى كان يجلس أمام منزل إبيفانيوس مرتدياً ملابس ممزقة، حيث يشير صاحب

---

(١) عبد العزيز رمضان، المرأة والمجتمع في الإمبراطورية البيزنطية، القاهرة،٢٠٠٥م، ص٢٠٣.

(2)Typikon of Empress Irene Doukaina Komnene for the Convent of the Mother of the God Kecharitomene in Constantinople, trans, R., Jordan, *BMFD*, II, pp. 677- 678.

(٣) كانت القديسة أثاناسيا الانجينية، ابنة أحدى النبلاء الذي يدعى نكتاس، ولدت في جزيرة ايجينية اليونانية، حصلت على قسط لا باس به من التعليم خاصة الكتاب المقدس، تزوجت لفترة قصيرة، فسرعان ما سقط زوجها في إحدى الغارات العربية على الجزيرة، ثم صدر مرسوم إمبراطوري بزواج النساء غير المتزوجات والأرامل، فاجبرها والديها على الزواج للمرة الثانية، بعد عدة سنوات توفى زوجها فاتجهت إلى حياة الرهبة، حيث تولت إدارة دير القديس ستيفن

Life of ST. Athanasia of Aegina, trans, F., Sherry, *HWB*, p. 137.

(4)Life of ST. Athanasia of Aegina, *HWB*, P. 138.

(٥) موظف إداري كبير في الدير يتم تعينه من قبل رئيسة الدير ومن أهم مسئولياته الإشراف على أملاك الدير من الأراضي والمباني ومتابعة حسابات الدير وأوقافه والقيام على صيانة وإصلاح تلك المباني وتقديم تقريرا سنويا عن حسابات الدير الى رئيس الدير

عبد العزيز رمضان، المرأة والمجتمع، ص٢٣٣.

(٦) عبد العزيز رمضان، المرأة والمجتمع، ص٢٣٣-٢٣٤؛ محمد زايد، "التيبكا البيزنطية"، ص٢٣٨.

السيرة إلى الخصى قائلا "بينما كان أندرو جالساً على الأرض أمام البوابة، أتاه خصى صغير السن، يعمل كبير الحجاب لدى أحد النبلاء، وجهه كالوردة، والجلد الذى يغطى جسده أبيضاً كالثلج، ناعم الملمس، تفوح منه رائحة المسك، يحمل معه بعضاً من حبات البلح، وعندما رأى الجسد العاري للرجل المقدس، اقترب وسأل صديقه "عزيزى إبيفانيوس، من هذا الرجل؟ ولماذا هو عاري في فصل الشتاء، والبرد لا يُطاق؟ لماذا يبدو كالذي تحطمت به السفينة في البحر؟" فأجابه إبيفانيوس بأنه أحد القديسين الهائمين، فأشفق عليه الخصى وذهب يعطيه بعض حبات البلح، لكن القديس رفض هديته، ونظر إليه بقسوة، وأخذ يوبخه قائلا "أيها المخادع، اذهب إلى غرفة نوم سيدك، وقم بالأعمال الشاذة والمريضة معه ....أيها اليائس الذي لا يرى نور ملكوت السماء، ألا تشعر بالعار، فأنت دنس، تفعل ما لا يجب فعله، ما لا تفعله الكلاب والخنازير والأفاعي، أيها الرجل التافه الملعون" فعندما سمع الخصى ذلك ارتعد خوفا، وشعر بالخزي والعار، إلا أن إبيفانيوس أخذ يهدئ من روعه قائلا "ماذا حدث لك يا سيدي؟ ألم أخبرك بأنه مجنون، يقول ما يخطر بباله؟ على اية حال يا صديقي إذا كنت مذنباً بعض الشيء مما قال فاذهب وأصلح من نفسك، ولا تغضب من كلماته، فأنت يا صديقي صغير السن، والشيطان يخدعنا لارتكاب الخطيئة "(١)

وما أن سمع الخصى هذا الكلام ذهب بعيدا، بينما أخذ إبيفانيوس يسأل القديس قائلا "سيدي الموقر. لماذا وبخت صديقى بهذا العنف الشديد؟ فأجابه الرجل المقدس "لأنه عزيز عليك ومحبب إليك لما أعطيته تلك المحاضرة، ولو لم يكن صديقك لما أسمعته كلمة واحدة. إن مهمتي توبيخ العصاة، وإنما الإرشاد إلى الطريق المستقيم الذي يؤدى إلى حياة أفضل" فرد عليه إبيفانيوس "أعلم ذلك، لكن هذا الشاب صغير السن، وعبد، وعندما يجبر على شيء من قبل سيده ماذا يفعل؟" فرد عليه قائلا " أعلم ذلك جيداً، لكن ينبغى على العبد أن يطيع سيده في احتياجاته العادية، وليس في أفعال الشيطان، فرد عليه إبيفانيوس "إذا أمره سيده ولم يفعل، فأنت تعلم كم سيلقى من سوء المعاملة، من الضرب والتهديد وكل انواع العقاب، فرد عليه القديس قائلا "هذه يا بنى التضحية التي أشار اليها السيد المسيح عندما قال "مباركين هؤلاء الذين يتم اضطهادهم من أجل الاستقامة"(٢) .

تلك كانت وجهة الكنيسة والمؤسسة الديرية، فالخصى فيها مخلوق يسهل انقياده للخطيئة، من ثم فهو مصدر من مصادر انتشار الخطيئة في أي مجتمع، الأمر الذي يفرض

---

(1) *The Life of St. Andrew the Fool*, ed. & Trans.L. Ryden, vol 1, *SBU*, Uppsala, 1995, pp.81 -85.

(2) *The Life of St. Andrew the Fool, p.85.*

بدوره تهديداً للحياة الدينية في الكنائس والأديرة، لكن عندما ينجح الخصى فى مقاومة الإغراء، والتخلى عن المتع الدنيوية الزائلة يستطيع أن يصل إلى العفة والطهارة، ويحقق قدرا من الإيمان، ويمكن الترحيب به في عالم الكنيسة.

وتقدم سيرة القديس يوحنا المعطاء John The Almsgiver(١) صورة راهب خصى صغير السن، دخل المدينة بصحبة فتاة صغيرة السن، وجميلة، مما أزعج الجميع وكذلك القديس يوحنا، فتم ضرب الراهب وإلقاءه فى السجن، وفى تلك الليلة ظهر الراهب للقديس يوحنا في الحلم ليريه جسده المضروب قائلاً "هل هذه الأشياء تسعدك سيدى؟ فأنت مخدوع. وفى اليوم التالي طلب القديس يوحنا أن يرى الراهب الخصى وطلب منه أن يخلع ملابسه حتى يرى جروحه، وقد أدرك أنه خصى، وأخذ الراهب يروى قصته، حيث كان في غزة منذ عدة أيام قليلة، بينما كان يتعبد في إحدى الكنائس، استوقفته تلك الفتاة اليهودية وأخذت تتوسل إليه ليصحبها معه، خاصة وأنها أبدت رغبتها في اعتناق المسيحية، فشعر أن من واجبه مساعدتها في ذلك، مؤمنا بأن كونه خصى يحصنه ضد الوقوع في الفاحشة، وعندما وصل الى المدينة أخذ يرتب لتعميدها وإقامتها في أحد أديرة الراهبات.

تلك القصة التى غيرت موقف القديس يوحنا، فأخذ يعتذر للراهب الخصى، محاولا منحه بعض المال، إلا إنه رفض قائلا " إذا كان الراهب يمتلك الإيمان فلن يكون بحاجة إلى المال، وإذا رغب في المال فهو يفتقر إلى الإيمان" (٢) مما يجسد سيرة الخصى الراهب الذي يعتبر نموذجا للرهبنة الحقيقية، أكثر من القديس يوحنا نفسه، والذي أدرك واجبه كراهب فى إرشاد المرأة، دون الخوف من الوقوع في المعصية، ولقد أشار صاحب السيرة إلى الخصى كراهب، دون أن يصفه ببعض الصفات السيئة والمتوارثة عن الخصيان.

هكذا كانت الكنيسة والمؤسسة الديرية رغم موقفهما السلبي من الخصيان إلا أن هذا الموقف يختلف عندما يؤدى الخصى دوراً مستساغاً، خاصة إذا كان دوراً في تحويل يهودية على المسيحية، فعندما يستطيع الخصي التخلي عن رغباته الجسدية، ومقاومة الإغراء، وتجنب المور الدنيوية، فمن وجهة نظر الكنيسة يستطيع أن يحقق قدرا من الإيمان ويرقى إلى مستوى القداسة، ويمكن الترحيب به في الحياة الدينية.

---

(١) ولد يوحنا في أماثوس بقبرص عام ٥٥٥م، وكان ابناً لأحد حكام قبرص، تلقى قدر من التعليم، ثم تزوج وأنجب، إلا أن وفاة زوجته وأولاده في وقت مبكر، قادته إلى حياة الرهبنة، ثم أصبح بطريركا للإسكندرية، وعرف بيوحنا المعطاء لما عرف عنه من أعمال الخير، فأقام سبعة مستشفيات في الإسكندرية، وتقديم الطعام للفقراء والمساكين. توفى عام ٦١٩م.

Talbot, " John Eleemon" *ODB*, pp.1058-1059.

(2)Ringrose, The Perfect Servant, pp. 47-48.

كذلك وضعت بعض الأديرة الأخرى شروطاً لقبول الخصيان، فتيبكون دير كوزموزتيرا Kosmosoteira [١] حظر التحاق الخصيان بالدير، واستثنى خصيان الطبقة الراقية الذين يمتلكون ثروات كبيرة تعود بالنفع على الدير وجاء فى نصه" إذا جاء أحد الأغنياء إلى الدير راهباً وقدم منفعة أو مساعدة للدير كأن يقدم جزءً من أملاكه الثابتة أو المنقولة للدير مقابل الإنضمام إليه، يجب أن يحصل على القبول حتى وإن كان من الخصيان"[٢].

هكذا أصبحت المؤسسات الديرية مؤمنة بقدرة الخصيان على بلوغ أعلى درجات الزهد والقداسة، ففي القرن الحادي عشر اشترط ميخائيل أطالياتيس Michael Attaleiates[٣] ضرورة أن يكون المعيار الأول لاختيار رهبان دير رعاية المسيح الرحيم Christ Panoiktirmon [٤] كونهم من الخصيان ، مبرراً ذلك بأن وجود الدير وسط العاصمة بالقرب من الأجورا *Agora* [٥] يحتم انتقاء نوعية خاصة من الرهبان على قدر فائق من التحكم في النفس والقدرة على كبت الشهوات، وهو أمر لا يتوافر في الرهبان ذوى اللحى بقدر توافره في

---

[١] أسسه إسحاق كومنين ابن الإمبراطور الكسيوس كومنين، يقع هذا الدير بالقرب من منطقة بير Bear في تراقيا، ولقد طلب إسحاق كومنين أن يُدفن بهذا الدير

Kosmosoteria, Typikon of the Sebastokrator Isaac Kommenos for the Monastery of the Mother God Kosmosoterira near Bera, Trans.N. Sevcenko, *BMFD*, III, P.782.

[2]Kosmosoteria, p.842.

[٣] وُلد ميخائيل أطالياتيس، المؤرخ البيزنطي ما بين عامي (١٠٢٠– ١٠٣٠م) و يبدو من اسمه أن أصله يرجع إلى مدينة أضاليا Attaleia الواقعة على ساحل البحر المتوسط في جنوب غرب تركيا، عمل بالمحاماة، وكان عضوا في مجلس الشيوخ، وتولى كثيراً من الوظائف الحكومية في عهد الإمبراطور رومانوس الرابع، كتب مؤلفا بعنوان "التاريخ " *Historia* يغطي الفترة من(١٠٣٤م– ١٠٧٩م)، ,وأهداه للإمبراطور نقفور بوتانياتيس (١٠٧٨– ١٠٨١م).

Attaliates, M., *The History*, Trans. A. Kaldellis., Harvard, 2012,pp. VII- IX; Attaleiates, Rule of Michael Attaleiates for his Almshouse in Rhaidestos and for the Monastery of Christ Panioktirmon in Constantinople, Trans.A- M. Talbot, *BMFD*, I, P. 326.

[٤] أنشأ ميخائيل أطالياتيس دير رعاية المسيح الرحيم *the Monastery of Christ Panoiktirmon* ، في القسطنطينية أواخر القرن الحادي عشر.

Tougher, S., "The Angelic Life: Monasteries for Eunuchs ", p.243.

[٥] الأجورا عبارة عن ساحة كبيرة بها أروقة وأعمدة، زينت بالتماثيل الإمبراطورية، و تعتبر مركز الحياة العامة في القسطنطينية، يوجد بها العديد من المباني الدينية والمدنية والتجارية الهامة.

Johnson, M., "*Agora*", *ODB*, P. 38.

الخصيان، فمن وجهة نظر أطالياتيس أن الخصيان هم أكثر فئة تستطيع بلوغ المستوى الأعلى من الزهد والتبتل(١).

ذلك التناقض في النظرة الدينية كان من الطبيعي أن يتردد صداه في المجتمع العلماني، فالمجتمع البيزنطي مجتمعاً مسيحياً، كانت الكنيسة بالنسبة له الحكم الرئيسي على الأخلاق العامة والخاصة، ومصدر القواعد المنظمة للعلاقات بين الأفراد، وبالتالي انعكس موقفها على نظرة المجتمع للخصيان (٢).

فقد ظهر الكثير من التناقض في مواقف المجتمع العلماني تجاه الخصيان، ويظهر ذلك جليا فى الحوار الذى دار بين الإمبراطور ثيوفيلوس Theophilus (٨٢٩-٨٤٢م)، و الخصى ثيودور كراتيروس Theodore krateros الذى كان يشغل منصب مقدم حملة السيوف Protospatharios الذى استطاع فى فترة وجيزة أن يصبح قائدا فى الجيش، بعد أن سخر الأخير من أسير عربى ماهر كان يقدم استعراضاً فى ساحة الهيبدروم Hippodrome، فخاطبه الإمبراطور قائلاً " مع كل ما تملكه من قوة وتتمتع من مكانة فهل تستطيع أيها المخنث، عديم الرجولة أن تأتى بما أتى به، وبهذه المهارة" فرد ثيودور قائلاً " أنا لا أملك نفس المهارة أيها الإمبراطور، ولا أرى مجالا للمناظرة فى مثل هذا الأمر التافه، وكل ما أستطيع القيام به هو أن أمسك برمحٍ، متسلحاً بإيماني بالله، وأطرحه أرضاً من على جواده"(٣). غضب الإمبراطور من هذا الرد الوقح، متوعداً ثيودور إذا حاول تنفيذ ما قاله. الإ أن ثيودو ما لبث أن امتطى جواده، وأخذ بجعبة سهامه وفى لحظات استطاع قتل الشخص العربي. الأمر الذي جعل الإمبراطور يشعر بالدهشة لمقتل الرجل على يد خصى، وإرضاءً للجماهير أخذ يثنى على شجاعته، ويتحدث معه بطريقة مهذبة ويقدم له الهدايا من الثياب والدروع (٤).

وهكذا بدأت الفكرة التقليدية التي أُخذت عن الخصيان، وعدم قدرتهم على القتال والتي ظلت شائعة ومتوارثة، تتغير في بعض الأحيان. فعندما يستطيع الخصى إثبات نجاحه سواء عسكرياً أم اجتماعياً أم دينيا، فانه يُكرم، ويُشاد بذكائه وقدراته المتميزة، وشجاعته، فضلا عن ولائه للإمبراطور، ويتجنب الجميع الإشارة إليه بالتعليقات السلبية المتوارثة، أما فى حالة فشله

---

(١) على الرغم من هذا الشرط الا أن أطالياتيس وضع بعض الاستثناءات، فقد سمح بوجود بعض الرهبان من زوى اللحى المنتمين إلى أسرته أو تربطهم رابطة دم بأسرة أطالياتيس.
Tougher,S., "The Angelic Life :Monasteries for Eunuchs",p.245.

(٢) عبد العزيز رمضان، المرأة والمجتمع، ص٣١.

(3) Thephanes Continuatus, *Chronographia*, P.114; Ringrose, *the Perfect Servant*, p.135.

(4) Skylitzes, A *Synopsis of Byzantine History 811-1057*, Trans. J. Wortley, Cambridge, pp.70-71; Theopanes Continuatus, *Chrongraphia*, ed. I. Bekker, *CSHB*. Bonn, 1838, p.114; Ringrose, *the Perfect Servant*, P. 135.

فى أداء المهام التى تسند إليه خاصة المهام العسكرية، هنا تُصب عليه اللعنات، والصفات السلبية المتوارثة عن الخصيان. وهذا هو أحد أهم اسباب التناقض والتضارب في الروايات المصدرية المختلفة (١).

فعندما فشل الخصى قسطنطين جونجيليس Constantine Gongyles في حملته على جزيرة كريت عام ٩٤٩م، أرجع المؤرخون سبب الهزيمة إلى جبن الخصى وعدم خبرته، فيشير سكليتزيسيس إلى ذلك قائلا "تحت قيادة قنسطنطين جونجيليس، المخنث، عديم الخبرة، لم يفعل شيئاً يذكر"(٢) وذات الصيغة تقريباً في تعليق المؤرخ ليو الشماس على نفس القائد حيث يشير إلى ذلك قائلا " بسبب جبن وعدم خبرة القائد، الذى كان خصياً في غرفة النوم الإمبراطورية، المخنث، الذى جاء من بافلاجونيا، ويدعى قسطنطين، ويلقب بجونحيليس، وعلى الرغم من حصوله على لقب نبيل، الا أن الجيش الذى أشرنا إليه تعرض لقطع الطريق من قبل البرابرة، وفُقد معظم الجيش، وهُزم"(٣) . كذلك يصف ليو الخصى جوزيف برينجاس Joseph Bringas قائلاً " مخنث، يحار المرء فى جنسه، وإن كان أشبه بامرأة لا تعرف شيئا مما يحيط بها إلا ما يدور فى جلسات النساء"(٤).

وفى الوقت نفسه تشيد بعض الروايات المصدرية بذكاء بعض الخصيان وقدراتهم الفائقة على أداء المهام المنوطة إليهم، وشجاعتهم في الحروب، وتوليهم المناصب القيادية الهامة سواء فى الجيش أم في القصر. فالمؤرخ ليو الشماس يشيد ببراعة الخصى بطرس فوقاس Peter Phokas عندما عينه الإمبراطور نقفور فوقاس قائداً أعلى للقوات البيزنطية في منطقة قليقية Clilicia (٥) قائلاً " النبيل بطرس القائد الأعلى للقوات stratopedarches الخصى، لكنه قوي ونشيط"(٦)، بل ويشير بدوره فى قتال الروس فى عهد الإمبراطور يوحنا تزيميسكيس وبقتله قائد الروس بضربة رمح قوية أدهشت الروس(٧).

ويمتدح سكليتزيس الخصى نفسه، مؤكداً أنه كان على قدر كبير من الخبرة فى الشئون العسكرية(٨)، كما أثنى ليو الشماس على الخصى نيقولاس Nicholas ، أحد خصيان

(1)Ringrose, the *Perfect Servant*, p.131.
(2) Skylitzes, *Synopsis*, p.237.
(3)(Leo the Deacon, *the History of Leo the Deacon. Byzantine Military Expansion in the 10th Century*, Trans. A., Talbot &D., Sullivan, Washington, D.C., 2005, pp. 59-60.
(4)Leo the Deacon, *the History, p.90.*
(5)Leo the Deacon, *the History*, p.132.
(6)Leo the Deacon, *the History, pp.132-133.*
(7)Leo the Deacon, *the History, p.158.*
(8)Skylitzes, *Synopsis, p.299.*

غرفة الإمبراطور يوحنا تزيميسكيس ويحمل لقب نبيل[١]، والذى جعله الإمبراطور قائداً عسكرياً أثناء حروبه مع العرب، ويشير ليو إليه قائلاً " النبيل نيقولاس، أحد خصيان المخدع الإمبراطوري، حصل على الكثير من الخبرة والتدريب في العديد من المعارك"[٢]. ولقد أبدى بعض المؤرخين البيزنطيين إعجابهم بيوحنا أورفانتروفوس[٣] John Orphantrophos، وعلى رأسهم ميخائيل بسللوس، الذي وصفه قائلاً " كان يوحنا موهوباً، نشيطاً، ذو قدرات عقلية عالية"[٤]، كذلك أشار سكليتزيس إليه قائلاً " كان يوحنا شقيق الإمبراطور ميخائيل الربع نشيطاً في العمل"[٥].

ولعل من الملاحظ أن كتابات بعض المؤرخين عن الخصيان استمرت على نهجها الذى بدأت به قبل القرن التاسع من رسم صورة سلبية لهم ورفض وجودهم فى المجتمع البيزنطى، فى الوقت الذى ظهرت-على نحو ما مر- كتابات تثنى عليهم إن أتوا بأفعال تستحق ذلك، ويرجع ذلك- فى رأى الباحثة- إلى أمور عدة أهمها الدور البارز الذى بدأ الخصيان يمارسونه فى الحياة السياسية والاجتماعية وهو ما عبر عنه ثيوفانيس بقوله عن الخصى ستراكيوس فى بداية القرن التاسع: "إنه على رأس كل شيء"[٦]. إلى تنامى مشاعر الحقد والاستياء لدى الطبقة الأرستقراطية والمؤرخون جزء منها، وقد تجسد هذا الحقد فى وصف بعض المؤرخين للخصيان بأنهم أسوأ فئة ودعوة بعضهم إلى التخلص منهم[٧].

كما يمكن أن نعد من الأسباب التى أدت إلى تحامل المؤرخين على الخصيان فى القرن التاسع وما بعده وقوف الخصيان أمام طموح أفراد الطبقة الأرستقراطية فى الإستيلاء على العرش والمناصب العليا فى الدولة، وبخاصة فى الفترات التى يتولى فيها العرش امرأة أو طفل قاصر، إذ كانت الأمور غالبًا ما تسلم إلى يد الخصيان على نحو ما فعلت الإمبراطورة إيرين مع الخصى ستركيوس الذى كان "يدير كل الأمور" على حد تعبير ثيوفانيس[٨]، كذلك الإمبراطورة ثيودورا Theodora زوجة الإمبراطور ثيوفيل (٨٢٩-٨٤٢م) أثناء فترة وصايتها

---

(1) Skylitzes, *Synopsis, p.274.*

(2) *Leo the Deacon, The History,* p.153.

(٣) المشرف على دور الأيتام والواجبات المتعلقة بالمؤسسات الخبرية العامة.

Bury, J., *the Imperial Administrative System in the Ninth Century with a Revised Text of the Kletorologion of Philotheos*, London, 1911, p.104.

(4) Pesllos, *The Chrongraphia of Michael Psellus*, trans. E. Sewter, Penguin Book, 1966, p.48.

(5) Skylitzes, *synopsis*, p.368.

(6) Theophanes, *Chronicle of Theophanes*, p. 629.

(7) Cedrenus, *Historiarum Compendium*, vol 2, p. 29; Ringrose, *The Perfect Servant*, p.13.

(8) Theophanes *Chronicle, of Theophanes*, p. 629.

على الإمبراطور ميخائيل الثالث اعتمدت بشكل كبير على الخصى ثيوكتيستوس Theoktistus، الذي كان يتمتع بنفوذ قوى وثقة عمياء لدى الإمبراطورة. فدام نفوذه وسلطته أربعة عشر عامًا (٨٤٢-٨٥٤م) [١]، ولا شك أن ذلك وقف حائلًا أمام طمع الطامعين فى عرش الإمبراطورية.

كذلك يمكن أن نأخذ فى الاعتبار أن تاريخ الخصيان فى القرن التاسع لم يكتبوه هم بأنفسهم، وأن الذى كتب تاريخهم أو تاريخ الإمبراطورية البيزنطية بصفة عامة كانوا من الطبقة الأرستقراطية التى كانت رافضة لوجود الخصيان فى الإمبراطورية.

مع مطلع القرن العاشر الميلادى أصدر ليو السادس مجموعة من القوانين يمكن عدّها خطوة إيجابية فى سبيل دمج الخصيان فى المجتمع البيزنطى، بل يمكن القول إنها ساعدت على تغير نظرة المجتمع البيزنطى إلى الخصيان، وقد عرف عن ليو نفسه حبه الشديد للخصيان على عكس أبيه باسل الأول الذى أحجم عن تعيينهم فى وظيفة البراكيمومينوس[٢].

لقد جاء فى قوانين ليو حظر عملية الإخصاء، لأنها تؤدى إلى "مخلوق يختلف اختلافًا شديدًا عن المخلوق الذى أراده الله أن يكون"[٣]، وبدافع حبه للخصيان وتعلقه الشديد بهم خفف أحكامًا كانت مطبقة من قبل، فألغى عقوبة الإعدام التى كانت تُطبق على الممارسين لتلك العملية ظنا منه أن القانون القديم قانون وحشي، كما اكتفى بعقاب من يجلبون الخصيان إلى القصر الإمبراطوري بإبعادهم من البلاط، وفرض عقوبات مالية على من هم خارجه، وأقسى ما وصل إليه القانون من عقوبات حلق الرأس، ومصادرة الأموال والأملاك والإبعاد والنفي، كما عفا ليو عمن خصوا بقرار من الأطباء[٤]. بالإضافة إلى أنه منح الخصيان حق التبنى الشرعى للأطفال تعويضًا لهم عن حرمانهم من أعضائهم التناسلية، ظنًا منه أن ذلك يقلل من شعورهم بالوحدة، ويمكنهم في المستقبل من رعاية أبنائهم لهم[٥].

---

[١] توفى الإمبراطور ثيوفيل Theophilas في يناير ٨٤٢م تاركًا ابنه ووريثه الوحيد ميخائيل في الثالثة من عمره، فتحولت دفة الحكم إلى أمه الإمبراطورة ثيودورا ساعدها مجلس وصاية من أهم أعضائه الخصى ثيوكتيسيوس ومن بعده أخوها القيصر برداس. انظر:

علية الجنزوري، المرأة في الحضارة البيزنطية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٥٤،٧٨.

(2)Tougher, sh., *the reign of Leo VI*, p. 198; Guilland, R., "Les eunuques dans l'empire", p. 225.

(3) Leo VI, *les Novelles de Léon VI le sage*, trans. P .Noailles & A. Dain , Paris ,1944 , No. 60 ,p. 222.

(4)Leo VI, *les Novelles*, No 60, pp.222; Guilland, “Les eunuques dans l'empire”, pp. 200- 201.

(5)Leo VI, *les Novelles*, No.26, pp.102-104; Guilland, “Les eunuques dans l'empire”, p. 200.

كما أنشأ الإمبراطور ليو عام ٨٨٦م ديرًا خاصًا بالخصيان، وهو دير القديس لاذاروس Lazaros وألحقه بالكنيسة التى تحمل الاسم نفسه فى القسطنطينية[١]. ونفس الإمبراطور عندما أراد مكافأة الخصى قسطنطين البافلاجونى أمر ببناء دير لتخليد اسمه فى منطقة نوسيا Nosiai[٢].

هكذا بدأت نظرة المجتمع للخصيان تأخذ منحنى أكثر إيجابية، وإذا كانت قوانين ليو قد منحتهم حقوقًا لم يحصلوا عليها من قبل، فإن الخصيان من جانبهم أخذوا يتكيفون فى المجتمع البيزنطى ويندمجون فيه، وإذا كانوا من قبل "أسوأ فئة"، ومن "البربر والوثنيين" فإنهم صاروا يستحقون– كما يشير بسللوس– "الاحترام والشرف عن غيرهم فيما بعد، ولقد اختلفت عيوبهم الجسدية وراء حسن المظهر وتحقيق المنفعة للآخرين وإظهار صفات الرجال"[٣].

لقد تطلب تكييف الخصيان داخل المجتمع البيزنطى كثيرًا من الجهد والتدريب، واتبع الأباطرة فى ذلك، ومعهم الأسر الأرستقراطية التى اتخذت من الخصيان خدمًا ومعاونين، نهجًا شبه ثابت، فبعد أن يجلب الخصى إلى القصر يتم تغيير اسمه وتدريبه على طاعة سيده وخدمته وتلبية احتياجاته[٤].

وعلى الرغم من ندرة المصادر التى تتحدث عن طفولة الخصيان فإن ثمة إشارة فى هذا الشأن فى سيرة القديس نيقتاس St Niketas، التى تشير إلى أنه ولد في بافلاجونيا في أواخر القرن الثامن، وتم إخصاؤه على يد والده، وتلقى قدرًا من التعليم والتنشئة المناسبة، وما إن بلغ سن السابعة عشرة، حتى أرسله والده إلى العاصمة، مستفيدًا من علاقته القوية بالإمبراطورة ثيودورا زوجة الإمبراطور ثيوفيل (٨٢٩–٨٤٢م)، والوصية على عرش ميخائيل الثالث Michael III (٨٤٢–٨٦٧م)، حيث أخذته ثيودرورا وأصبح خادمًا مخلصًا لها[٥] .

---

[١] لا يُعرف الكثير من المعلومات عن هذا الدير، غير أن ما تؤكده رينجروز أنه خُصص للرهبان الخصيان لتلقى الإعداد والتدريب اللازم للإنشاد فى كنيسة آيا صوفيا وغيرها من الكنائس.

Ringrose, *the perfect servant*, p. 75.

[٢] وهى منطقة قريبة من خلقدونية، وذهب قسطنطين بصحبة البطريرك إيثيميوس لتدشين الدير، ولقد ظل هذا الدير موجوداً حتى عهد الإمبراطور يوحنا الثانى كومنين John II Komnenos (١١١٨–١١٤٣م) حيث كان يعيش به اثنا عشر راهبا.

Skylitzes, *Synopsis*, p. 185.

[3] Psellus, *Chrongraphia*, P. 32.

[4] Psellus, *the Chrongraphia*, *P.32*; Magdolin, P., "Court Society and Aristocracy", in: *The Social History of Byzantium*, ed. J. Haldon, 2009, p.220.

[5] Treadgold, W., *The Byzantine Revival 742-780*, California, 1988, p.271; Ringrose, The *Perfect Servant*, *p.73.*

كذلك تشير سيرة القديس نقفور Nikephoros أسقف ميليتوس *Miletos*[١]، إلى أن والديه قاما بإخصائه وتعليمه، بعد أن رأيا فيه نبوغًا في علم الرياضيات[٢]، وأرسلاه إلى القسطنطينية فاستقبله الماجستر موسيلي Mosele، وقام بتربيته وتعليمه المهارات التي تؤهله للحصول على وظيفة عالية [٣].

وشبيه بما تم مع نقفور، ما نجده فى سيرة الخصى قسطنطين البافلاجونى Constantine the Paphlagonia، في نهاية القرن التاسع، وكان والده مزارعًا بسيطًا، قام بإخصاء ابنه محاكاة لجيرانه[٤]، ورباه وعلمه الكتاب المقدس، ويروى ثيوفانيس أن والد قسطنطين رأى رؤية تخبره بأن ابنه سيكون له شأن كبير وسيتولى أعلى المناصب[٥]، فأرسله بعدها إلى العاصمة، لخدمة أحد القادة، ثم أخذه ساموناس خصى الإمبراطور ليو السادس وأهداه إلى الإمبراطورة زوى كاربونوبسينا Zoe Karbonopsina الزوجة الرابعة للإمبراطور ليو[٦] فنال ثقتها، حتى أصبح من أقرب الخصيان إليها وإلى زوجها[٧]. كما أن الخصى يوحنا يوحنا أورفانتروفوس، وهو أحد أشهر الخصيان في التاريخ البيزنطي، ولد في بافلاجونيا لعائلة فقيرة، ثم قام والده بإخصائه وشقيقيه، وأرسلهم جميعًا إلى العاصمة للحصول على وظيفة داخل البلاط أو داخل منازل أحد النبلاء [٨].

ومن جانبهم، فقد أسهم الخصيان أنفسهم فى تغيير صورتهم السلبية داخل المجتمع، حيث أسهم بعضهم ممن حقق ثراء أو نفوذًا في بناء الأديرة، وكان من بينهم كتاب للهجيوجرافيا، سجلوا سير بعض القديسين، كالخصى قسطنطين البافلاجونى الذي أخذ على عاتقه مهمة تسجيل سيرة والده القديس ميتريوس St Metrios [٩].

---

[١] تقع مدينة ميليتوس *Miletos* على الساحل الإيجى لآسيا الصغرى، اشتهرت كثيرًا في عهد الإمبراطور دقلديانوس، وقام جستنيان الأول بتعميرها، فأنشأ بها كاتدرائية جديدة، وأعاد الحمامات وأصلح ميناءها. انظر:
Foss, C.," Miletos", *ODB*, P. 1372-1373.

[2]Delehaye, H., "Vita sancti Nicephori episcopi Milesii", *Analecta Bollandiana*14, (1895), p.133-136; Ringrose, the *Perfect Servant*, p.73.

[3]Delehaye, "Vita sancti Nicephori episcopi Milesii", p.136-138; Ringrose, the *Perfect Servant*, p.73.

[4] Cedrenus, Historiarum, Vol 2, p.271; Ryden, L.," The Portrait the Arab Samoans in Byzantine Literature", *Graeco- Arabica* 3 (1984), P. 101.

[5]Thephanes Continuatus, Chronographia, p.713 Guilland, R.,"les eunuques", p.226.

[6]Tougher, *the reign of leo VI*, P. 200.

[7] Jenkins, R., "Flight of samonas", p.234.

[8]Psellus, *The Chronographia*, p.48-49; Cedrenus, *Historiarum*, vol2, P. 504.

[9] Ringrose, The *Perfect* Servant, *p.86.*

هكذا خضع الخصيان لعمليتى تدريب وتأهيل مستمرين، بهدف إلى تزويدهم بالمعلومات والمعارف وإكسابهم المهارات والخبرات المختلفة، فأصبحوا أفرادًا مميزين اجتماعيًا وثقافيًا وسلوكيًا داخل المجتمع، وعاشوا داخل الإطار الذي حدده المجتمع وهو إطار "الخادم المثالي". كما عرف الخصيان بعدة سلوكيات خاصة بهم كطريقة المشى التى بها كثير من التباهى، وتحريك الأطراف بطريقة بها شىء من اللامبالاة، والتى لا تمت للرجال بصلة، ونبرة الصوت العالية، والثرثرة، وتعبيرات الوجه بها كثير من التعالى والغرور، ويؤكد بسللوس أن الخصى يوحنا الأورفانتروفوس له "تعبيرات وجه نادرًا ما تتغير، فحينما ينظر إليك يرفع حاجبه إلى أعلى"[١]. وكلها سلوكيات عدتها المراجع الحديثة نوعًا من الغرور والتعالى[٢]، كما عرفوا أيضًا بملابس تميزهم تكون دائما بيضاء مرصعة بجواهر فريدة من نوعها من حيث التصميم والشكل، عرفوا بها داخل القصر وخارجه، إذ تروى سيرة القديس تاراسيوس Tarasios بطريرك القسطنطينية أن مجموعة من النساء كانت تعانين من نزيف حاد، أتين إلى مقبرة القديس، متنكرات في زي الخصيان، حتى يتمكن من دخول المقبرة طلبًا للشفاء[٣]. كما أن القديسة ماترونا St. Matrona عندما أرادت أن تتخلص من زوجها، وتلتحق بالدير، تركت منزلها وتخلت عن ثروتها ثم حلقت شعرها وخلعت ملابسها، وتنكرت في زي خصى[٤].

لقد بات الخصيان مميزين فى المجتمع البيزنطى، ونالوا مكانات مرموقة، وتردد صدى ذلك فى كتابات سير القديسين، ففى سيرة القديس أندرو الأحمق يصف صاحب السيرة الخصى صديق إبيفانيوس بقوله: "جاء خصى صغير السن، يعمل كبير الحجاب لدى أحد النبلاء، وجهه كالوردة، يرتدى ملابس بيضاء مثل الثلج، ناعم الملمس، تفوح منه رائحة المسك"[٥]. وهذا وهذا ما تردد في مدح الخصى ثيودور الذي توفى في معركة عمورية عام ٨٤٥م:

"لقد وُلدت من جديد وأنت طيب الأصل وشرفت بواسطة الإمبراطور
الذي أنت تابع له وأظهرت الوفاء والطاعة" [٦].

---

(1) Psellus, *Chronographia*, p.62; Ringrose, The *Perfect Servant*, p.75.
(2) Ringrose, The Perfect Servant, p.75.
(3) *The Life of the Patriarch Tarasios by Ignatios the Deacon*, Trans. S. Efthymiadis, Birmingham Byzantine and Ottoman Monographs, Vol 4, 1998, p.204.
(4) Life of St Matrona of Perge, Trans. J. Featherstone, *HWB*. P.13.
(5) *The Life of St. Andrew the Fool*, p. 81.
(٦) ولقد جاء ذلك فى سيرته التى تعود إلى القرن التاسع الميلادى، ولم تتمكن الطالبة من الاطلاع عليها، فاضطرت إلى الاعتماد على ما ذكرته رنجروز.

Ringrose, The Perfect Servant *p,* 75.

هكذا نجح الخصيان في التكيف داخل المجتمع البيزنطي كفئة منفصلة جنسيا عن الرجل والمرأة، لها سمات مميزة، أهلتها لأداء أدوار ووظائف خاصة بها لا يستطع أن يقوم بها غيرهم، كخدمة الإمبراطور والإمبراطورة في غرف النوم الخاصة، وحراسة الأماكن المقدسة في القصر، والإشراف على الأعمال المنزلية المختلفة: كالطهى، وتقديم الطعام، والعناية بالملابس والعناية بالغرف الخاصة، وتجهيز الموتى لمراسم الدفن، فضلا عن حراسة الأبواب الخاصة بالقصر وتنظيم الدخول، والإشراف على إقامة الاحتفالات، حتى أن رئيس الخصيان كان يتصرف وكأنه الوسيط بين الإمبراطور ومن حوله من النبلاء، وأحيانًا يتحدث نيابة عن الإمبراطور في المناسبات والاحتفالات المختلفة.

كذلك اعتاد الخصيان القيام ببعض الأعمال التي يصعب على نساء الطبقة الأرستقراطية القيام بها، كتربية الأطفال وتعليمهم خاصة الفتيات، مما وطد علاقتهم بسيدات الطبقة الراقية وسيدات البلاط الإمبراطوري، كما لعب الخصيان دورًا مهما فى التواصل بين البلاط الإمبراطورى والعالم الخارجي، وهناك كثير من الأمثلة على خصيان قاموا بأعمال لا يصلح لغيرهم القيام بها، فالخصى بانيس Baanes تولى حمل طفل الإمبراطور باسل الأول إلى التعميد في كنيسة آيا صوفيا، وكان له شرف مصاحبة الإمبراطور والإمبراطورة في العربة الملكية[١]، كما قام الخصى ساموناس بدور الأب الروحي للطفل قسطنطين ابن الإمبراطور ليو السادس حسب التقاليد المتبعة[٢]، بينما تعهد الخصى ثيودور بتربيته والعناية به[٣]، كما تعهد الخصى ثيوفانيس Theophanes بحراسة الأميرة ماريا ليكابينوس Maria حفيدة الإمبراطور رومانوس ليكابينوس أثناء ذهابها لحضور مراسم زواجها من القيصر بطرسPeter البلغارى[٤]. البلغارى[٤]. كما تعهد الخصيان بتربية الأميرة أنا كومنينا Anna Komnene وتعليمها[٥].

ومن أهم ما يلاحظ من تطور على نظرة المجتمع للخصيان فى القرن العاشر هو أن عملية الإخصاء أصبحت تتم داخل حدود الإمبراطورية البيزنطية، بل مارستها الطبقة الأرستقراطية، لأسباب مختلفة[٦] ومن خصيان الطبقة الأرستقراطية الذين خصوا لأسباب

---

[1]Bury, *the Imperial Administrative System*, p.124; Guilland,"Les eunuques", p.218.

[2] Thephanes *Continuatus*, p. 370.

[3]Thephanes*Continuatus*, p. 863.

[4]Thephanes *Continuatus*, p. 413.

[5]Bryennios, N., *Histoire*, Trans. P.Gautier, Byzantion, 1970, p.174.

[٦] ومنها ما يتعلق بوراثة العرش، فعندما تمت الإطاحة بالإمبراطور ميخائيل الأول رانجابيه Michael I Rangab*e*٨١١ –٨١٣م)، تعرض أبناؤه للإخصاء حتى لا يتمكنوا من المطالبة بالعرش: ابنه الأكبر ثيوفلاكت Theophylact خُصى وأرسل معه إلى المنفى.

Skylitzes, *synopsis*, p. 9.

سياسية، باسل ليكابينوس Basil Lecapenus، الابن غير الشرعي للإمبراطور رومانوس ليكابينوس من جارية سلافية الأصل [١]، تم إخصاؤه في طفولته، وقد تولى بعض الوظائف في عهد والده، ثم علا شأنه أكثر في عهد الإمبراطور قسطنطين السابع Constantine VII (٩١٢-٩٥٩م)، فمنحه لقب نبيل وعينه كبير أمناء البلاط Parakimomenos [٢]، كذلك رومانوس ابن القائد البلغاري بطرس من زوجته ماريا ليكابينوس، الذي تعرض للإخصاء وهو طفل لأسباب سياسية على يد الخصي جوزيف برينجاس[٣].

وعندما أراد الإمبراطور ميخائيل الخامس التخلص من سيطرة خاله يوحنا الأورفانتروفوس، قام بنفيه، وإخصاء جميع أفراد أسرته، وهو العمل الذى استنكره بسللوس الذي اعتبر هؤلاء الرجال مسجونين في حياة أقرب إلى الموت[٤]، وأضاف قائلا: "الحقيقة أن ميخائيل الخامس شعر بالخجل من قتل هؤلاء الرجال بصورة واضحة ومباشرة؛ لذلك فضل أن يقضى عليهم عن طريق بتر أعضائهم الذكورية"[٥].

كذلك كان الإخصاء يتم لأغراض دينية، فقد تعرض البطريرك بوليكتوس Polyeuktos للإخصاء وهو طفل على يد والديه، بهدف التدرج سريعا في المناصب الكنسية،

أما ابنه الأصغر نكيتاسNiketas، فقد خُصى وهو في الرابعة عشرة من عمره وأصبح راهبًا، ثم تولى رئاسة أحد الأديرة ثم تولى منصب البطريرك وعرف باسم البطريرك إجناتيوسIgnatius في الفترة من (٨٤٧-٨٥٨ ثم ٨٦٧-٨٧٧م).

Skylitzes, *synopsis*, p.106; Cedrenus, *Historiarum*, vol 2, P .172; Zonaras, I., *Epitome Historiarum*, vol 3, P. 403.

ونفس الأمر تكرر مع الإمبراطور ليو الخامس الأرميني Leo V the Armenian (٨١٣-٨٢٠م)عندما تمت الإطاحة به، حيث تم مصادرة أمواله، وإرسال زوجته وأبنائه إلى جزيرة بورتي *Porte*، وتم إخصاء أبنائه الأربعة، حتى لا يتمكنوا من المطالبة بالعرش، وهم ثيودثيوس Theodosios، الذى توفى بعد إجراء عملية الإخصاء ودفن بجانب والده، وابنه سيمباتوس Symbatios، والذي عرف باسم قسطنطين بعد أن أعلنه والده إمبراطور مشاركاً له في الحكم، والذى فقد القدرة على الكلام بعد إخصائه .

Skylitzes, *synopsis*, pp27, 30.

Psellus, *the Chronographia*, p.12; Skylitzes, *synopsis*, p.230; Cedrenous, *Historiarum*, vol 2, P.327;

(٢) كبير أمناء البلاط والمسئول عن مخدع الإمبراطور فينام بجانب غرفته، وهى من أعلى الوظائف التي وصل إليها الخصيان عن تلك الوظيفة انظر. الفصل الثاني.

Bury, *the Imperial Administrative System, and P.124-125.*

(٣) حدث ذلك عندما كان أسيرًا فى القسطنطينية

Skylitzes, *synopsis, p.230;* Ringrose, *The Perfeet Servant*, p. 62.

(4)Psellus, *the Chronographia*, p.105.

(5)Psellus, *the Chronographia*, p.105.

وقد تولى كرسي البطريركية في الفترة من (٩٥٦-٩٧٠م) [١]. ولقد أبدى سكليتزيس إعجابه به قائلًا:" الراهب بوليكتوس، رجل وُلد ونشأ في القسطنطينية، خُصى على يد والديه، عاش العديد من السنوات راهبًا على درجة كبيرة من الصلاح، ثم وقع عليه اختيار الإمبراطور لتولى منصب البطريرك لحكمته النادرة، حيث اعتاد حياة التقشف وعدم المبالاة بالمتع الدنيوية"[٢]. كذلك تعرض ثيوفلاكت Theophylakt الابن الأصغر للإمبراطور رومانوس ليكابينوس للإخصاء عندما كان طفلًا، ليكون من خدام الكنيسة والكهنة الرئيسيين الذين يحضرون المراسم المختلفة، وما إن بلغ سن السادسة عشرة تولى كرسي البطريركية لمدة ثلاثة عشر عامًا[٣].

وعلى الرغم من عدم قدرة الخصيان على الإنجاب وتكوين أسر خاصة بهم، فإن بعضهم ظل على علاقات قوية بأسرهم، ومنهم من عمل على تدعيم نفوذهم عن طريق جلب أفراد أسرهم الأصلية وترقيتهم في المناصب المهمة داخل البلاط، بل وصل الأمر إلى الصراع حول السلطة لصالح أقاربهم، فعندما مرضت الإمبراطورة إيرين عام ٧٩٩م تطلع الخصيان ستراكيوس وأيتيوس Aetios، لانتزاع السلطة لأقاربهما، وانقسم القصر بينهما[٤].

كما جاء الخصى قسطنطين البافلاجونى بأخته إلى القسطنطينية، وعمل جاهدًا على تزويجها بأحد أبناء الطبقة الأرستقراطية، وقد نجح بالفعل في تزويجها من ليو فوقاس عم الإمبراطور نقفور فوقاس Nikephoros Phokas الذي حكم الإمبراطورية في الفترة من (٩٦٣-٩٦٩م) [٥]، كما جاء قسطنطين بخصيين من أقاربه وألحقهما بالعمل في البلاط، وهما وهما الخصى أناستاسيوس جونجيليس Anastasius Gongyles، والخصى قسطنطين جونجيليس Constantine Gongyles[٦] والذى أصبح له شأن كبير بعد ذلك.

أما المثال الأكثر شهرة لبزوغ الأسرة على يد خصى فيتمثل في أسرة الخصى يوحنا أورفانتروفوس، الذى جاء من بافلاجونيا كما ذكر سابقا، ودخل في خدمة الإمبراطور باسل الثاني (٩٧٦-١٠٢٥م)، حيث عمل في بعض المناصب الثانوية، ثم عينه الإمبراطور في

---

(1) Leo the Deacon, *the History*, p.83; Skylitzes, *synopsis, p.235;*

دونالد نيكول، معجم التراجم البيزنطية، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة،٢٠٠٣م، ص٢٨.

(2) Skylitzes, *synopsis, p. 235.*

(3) Thephanes Continuatus, *Chronographia*, p.409, 422,749; Cedrenus, Historiarum, Vol 2, p. 332.

(4) Thephananes, *chronicle*, p.651; Treadgold, *W., the Byzantine Revival*, p. 115; Garland, L., Byzantine empresses: women and power in Byzantium, AD 527– 1204, London, 1999, p .88.

(5) Jenkins, R., A"Consolatio" of the Patriarch Nicholas Mysticus", in: *Stuaties on Byzantine History*, p.165.

(6) Jenkins, R., A"Consolatio" of the Patriarch Nicholas, P. 163.

منصب كاتب العدل *protonotarios*[١] وقد أثنى عليه الإمبراطور طوال خدمته له[٢]، واستمر يوحنا في القصر الإمبراطوري حتى عهد قسطنطين الثامن (١٠٢٥-١٠٢٨م) ومن بعده رومانوس الثالث (١٠٢٨-١٠٣٤م)، حيث أصبح عضوا في مجلس السناتو، وأصبح مسئولا عن رعاية الأيتام في الإمبراطورية، وأخذت مكانته تزداد وتقوى تدريجيا بشكل جعله يفكر في السعي لدفع مكانة أسرته المتواضعة إلى عرش الإمبراطورية وكان يوحنا الأخ الأكبر لخمسة أشقاء: يوحنا وقسطنطين Constantine، وجورج George من الخصيان، بينما كان ميخائيل Michael، ونكتاس Niketas يعملان بالصرافة، ويقومان بتزييف العملة[٣]، وقد عمل على زيادة نفوذهم باستمرار، فعينهم في مناصب مختلفة[٤]، وتدرج بهم الحال حتى اعتلى أخوه ميخائيل عرش الإمبراطورية وعرف باسم الإمبراطور ميخائيل الرابع Michael IV(١٠٣٤-١٠٤١م)[٥]، كما زوّج أخته ماريا من النبيل ستيفن Stephen قائد الأسطول البيزنطي عام ١٠٣٥م[٦]، ولما علم يوحنا بمرض أخيه الإمبراطور ودنو أجله شعر بالخوف والقلق على مستقبل أسرته من جانب الطبقة الأرستقراطية، لذلك بحث عن أحد أفراد أسرته ليخلف أخاه فوجد ضالته في ميخائيل ابن أخته من زوجها ستيفن، الذي عرف باسم ميخائيل جلفاطى Michael Caliphat[٧] أو ميخائيل الخامسMichael V (١٠٤١-١٠٤٢م)[٨].

هكذا أصبح للخصيان دور كبير في المجتمع، تلك الحقيقة التي أدركها البيزنطيون أنفسهم، كما أدركها من حولهم، حيث يذكر ليوتبراند أسقف كريمونا *Liutprand of Cremona* [٩] في تقريره عن سفارته إلى القسطنطينية عام٩٤٩م أن الإمبراطور قسطنطين السابع بروفيروجينيتوس ثمّن الهدية التي تلقاها منه، وكانت عبارة عن أربعة من الخصيان[١] .

---

(1)Skylitzes, *synopsis*, p. 355.
(2)Psellus, *Chronographia*, p. 48-49.
(3)Psellus, *Chronographia*, p.48-49; Skylitzes, *synopsis*, p. 368.
(4)Skylitzes, *synopsis*, p. 368.
(5)Psellus, *Chronographia*, p. 62.
(6)Skylitzes, *Asynopsis*, p. *376*.

(٧) أى العامل الذي يقوم بسد الثقوب ولحام الفراغات بين ألواح السفن، ويظهر هذا المصطلح في عدد من البرديات المصرية من العصر البيزنطي ابتداء من القرن السادس الميلادي، ولقد عرف ميخائيل بهذا اللقب نسبة إلى حرفة أبيه. انظر:

وسام عبد العزيز فرج، بيزنطة،" أضواء على مجتمع القسطنطينية دراسة فى التاريخ الاجتماعى لمدينة قسطنطين حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى"، قراءة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص٢٠١.

(8)Psellus, *chronographia*. p.87.

(٩) وُلد ليوتبراند عام ٩٢٠م في عائلة ثرية من مدينة بافيا*Pavia* شمال إيطاليا، ثم أحضر صغيرًا إلى البلاط اللمباردى في عهد الملك هيو Hugh (٩٢٧-٩٤٧م) وحصل على قدر كبير من التعليم في مدرسة القصر، فنشأ

ويبدو أن نجاح الخصيان في تحقيق درجة قبول عالية داخل المجتمع البيزنطي، انعكست بوضوح على بعض الكتابات الأدبية التي ظهرت في القرنين العاشر والحادي عشر، فمنذ ذلك الحين أعيد تقديم الخصيان بشكل إيجابي في معجزات القديسين وسيرهم، ولعل أهم نموذج لذلك هو نموذج حياة النبي دانيال Daniel [٢].

وثمة روايتان عن شخصية دانيال في الأدب البيزنطي، إحداهما قدمها القديس يوحنا ذهبي الفم في القرن الرابع ويروى فيها كيف أن دانيال ورفاقه وفدوا إلى مملكة بابل، وكيف كانت نشأته وتعليمه في قصر الملك، حيث تعلم فنون الكلام والبلاغة، وأخذ القديس يوحنا يقارن بين سيرة دانيال، وسيرتى النبيين موسى ويوسف عليهما السلام، فكل منهم انحدر من بيت نبيل، ثم نقل إلى بلد غريب، ونشأ في أكناف الملوك ثم أصبح بعد ذلك من الأنبياء، غير أن يوحنا لم يتطرق إلى أن دانيال ورفاقه كانوا من الخصيان وأرجع اختيار الملك لهم إلى تمتعهم بالقوام الممشوق، وتفوقهم على أقرانهم في الجمال، ومن وجهة نظر يوحنا أن الملك من أصل وضيع، يعتبر أن توافر الجمال وحسن الهيئة فيمن يقومون بخدمته، يضفى عليه شخصيا شيئا من الشرف والعزة[٣].

نشأة دينية حتى أصبح شماسا في بافيا، ثم تولى منصب أسقف مدينة كرمونا القريبة من مدينة بافيا عام ٩٦١م، وجاء إلى القسطنطينية مرتين، الأولى في عهد الإمبراطور قسطنطين السابع، والثانية في عهد الإمبراطور نقفور فوقاس، كممثل لأوتو الأول Otto I the Great ملك ألمانيا من عام ٩٣٦-٩٦٢م

Mccormick, M, " Liutprand of Cremona", *ODB*., pp. 1241-1242;

على السيد، صفحة من العلاقات الدبلوماسية الألمانية البيزنطية، سفارة ليوتبراند أسقف كرمونا إلى القسطنطينية ٩٦٨م، دراسة تاريخية نقدية، كلية الآداب، دمنهور، ١٩٩٩م، ص٧.

(1) Tougher, F., "Byzantine Eunuchs", p. 168.

(٢) دانيال من كبار القديسين في العهد القديم، ولد نحو عام ٦٢٤ق.م وتوفى نحو ٥٣٤ ق.م عن تسعين عامًا، كان دانيال من بين من أسرهم ملك الكلدانيين (نبوخذ نصر الثاني) الذي حارب مملكة أورشليم علم ٦٠٦ق.م، ومعه الكثير من العظماء والقواد والأعيان ومن بينهم دانيال وقد وقع الاختيار على دانيال وثلاثة آخرين ليقيموا في قصر الملك ويعملوا في خدمته. انظر:

الكتاب المقدس، بيروت ١٩٨٩م، سفر دانيال، ص ١٨٥٢.

(3) Ringros, K., "Reconfiguring the prophet Daniel: Gender, Sanctity,and Castration in Byzantium", in: *Gender and Difference in the Middle Ages*, ed. Sh. Farmer& C. Pasternack, Medieval Cultures 32(2003), p.88.

أما الرواية الثانية لقصة دانيال فقدمها في القرن العاشر القديس سيمون ميتافراستيس Symeon Metaphrastes [(١)]، وفيها يؤكد أن دانيال كان خصيا في بلاط ملك ببابل، حيث اختاره الملك هو والغلمان الثلاثة وأمر بإخصائهم، وغير أسماءهم، واستقدم لهم معلمين يلقنونهم العلم، ويروى كيف أن الملك أحبهم وفضلهم على غيرهم، وراح يشيد بذكائهم ورجاحة عقلهم وحسن سلوكهم. والواقع أن رواية سيمون لقصة دانيال على هذا النحو أمر شديد الأهمية في تكوين صورة إيجابية عن الخصيان، فضلا عن المقارنة التي يلمح إليها ضمنيّا بين دور دانيال في بلاط ملك بابل ودور الخصيان في البلاط البيزنطي[(٢)]، وفى هذه الرواية يشير سيمون إلى دانيال ورفاقه بمصطلح الرجال مبتوري الأعضاء[(٣)].

وإذا كان يوحنا قد تعامل مع دانيال بوصفه نبيًا من الأنبياء، وتعامل معه سيمون بوصفه نموذجًا للخصى الصالح، فإن ثمة مقالًا بعنوان "الدفاع عن الخصيان" كتبه أسقف القرن الحادي عشر ثيوفيلاكت الأوخريدى Theophylact of Ochrid[(٤)] بناء على مناشدة أخيه الخصى في كنيسة آياصوفيا Hagia Sophia، والمقال يذكرنا بمحاورات أفلاطون التي تقوم على عرض المشكلة في شكل محاورة تتضمن السؤال والجواب، فقد صاغ ثيوفيلاكت المقال في صورة مناقشة بين أحد الخصيان وشخص آخر، حيث يلقى هذا الشخص اللوم والتهم التي ألصقت عادة بالخصيان، وأهمها اتهامهم بخرق القوانين الدينية، والقانون المدني الذى وضعه جستنيان ونص على حظر استئصال الأعضاء الذكورية في الإمبراطورية الرومانية. وعلى الجانب الآخر أخذ الخصى يرد عليه ويدافع عن الخصيان، مبررا بأن ذلك ليس ذنبا أو عملا ضد إرادة الرب، مستندا إلى وجود عدد كبير من الرهبان والقديسين الذين تبتلوا بإرادتهم، وفضلوا حياة الزهد والتقشف، مشبها الخصى بالرجل المزارع الذي يقطع إحدى الشجرات من

---

(١) وهو موظف كبير وقديس وكاتب، تولى منصبًا كبيرًا في البلاط الإمبراطوري، وكان على علاقة طيبة بالخصى الشهير باسل ليكابينوس Basil Lekapenos الابن غير الشرعي للإمبراطور رومانوس ليكابينوس. ترك سيمون إرثا دينيا كبيرا تمثل في تسجيل سير القديسين الأوائل، التي أعاد صياغتها من حيث اللغة، ووفق المواضيع التي تناولها مع الأعراف والتقاليد التي سادت المجتمع البيزنطي في القرن العاشر.

Ringros, "Reconfiguring the prophet Daniel", P.89.

(2)Ringrose,"Reconfiguring the prophet Daniel", P.90.

(3)Ringrose, the Perfect Servant, p. 92.

(٤) ولد عام١٠٥٠م، كان ثيوفيلاكت تلميذا للمؤرخ ميخائيل بسللوس، خدم كشماس في كنيسة أيا صوفيا، أصبح معلما لميخائيل دوكاس Michael VII Ducas (١٠٧١_١٠٧٨) ابن الإمبراطور قسطنطين العاشر دوكاس Constantine X Ducos، ذهب إلى بلغاريا نحو ١٠٨٧م، وأصبح رئيس أساقفة مدينة Ochrid، وتخصص في علم اللاهوت، توفى١١٢٦م انظر:

Kazhdan, A., "Theophlaktos", *ODB*, p. 2068.

جذورها لأنها لا تعطى الثمار المرجوة منها[١]، وادعى ثيوفيلاكت في مقاله أن دانيال كان من الخصيان، متخذًا من ذلك دليلًا لدفاعه عن الخصيان بوصفهم مجموعة بشرية لها كيانها.

وفى هذا المقال يشير ثيوفيلاكت إلى أن الصفات السيئة التي أُلصقت بالخصيان، مثل حبهم لجمع المال، والبخل والرغبة في الخداع والحقد، جاءت نتيجة لعملية الإخصاء وتأثيرها النفسي على هؤلاء الأشخاص، أما بالنسبة لخصيان البلاط وما عرف عنهم من صفات ترتبط أكثر بالنساء، فعندما يجد الخصى نفسه منفصلا عن عالم الرجال والذكورة، فإنه سوف يتأثر بلا شك من تلك المشاعر الحساسة والصفات الأنثوية التي أصبح في احتكاك مباشر معها[٢].

ربما كانت اللغة الأدبية بمقاييسها وأغراضها الخاصة بعيدة في بعض الأحيان عن واقع الحياة، ومع ذلك يمكن اعتبارها مرآة للمجتمع تعكس فكره وأيدولوجيته. فالروايات والقصص التي تقول إن دانيال كان خصيًا من خصيان بلاط ملك بابل تؤكد أن المجتمع البيزنطي في القرنين العاشر والحادي عشر أَلف وجود الخصيان في البلاط والكنيسة، مما جعل المجتمع يتقبل فكرة أن دانيال كان خصيًّا، وبخاصة أنه كان سجينا في مكان غريب، حيث تغير اسمه وانضم إلى خدمة الملك، وقام بكثير من الأعمال التي كانت تشبه إلى حد كبير أدوار الخصيان في البلاط البيزنطي[٣].

ومن أهم الروايات التي أعيدت صياغتها في القرن العاشر سيرة الخصى يوفراتاس Euphratas الذراع اليمنى للإمبراطور قسطنطين الأول، والسيرة موجودة بالجزء ٣٦٦ في البطريركية اليونانية في القدس وتنسب إلى يوفراتاس الفضل فى تحول الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية[٤]، وتروى أن الإمبراطور قسطنطين في الليلة السابقة لمعركة جسر ميليفيان Milvian Bridge[٥]، كان قلقًا بشأن أعداد قوات ماكسينتيوس، فأتاه الخصى يوفراتاس، وعرض عليه إمكانية كسب المعركة دون خسارة أحد من رجاله، وذلك بأن يتخلى عن آلهته

---

[1]Theophylactus of Ochrid, "Defense of Eunuch", Trans. p. gawtier, *corrus fontium Historia Byzantinae*, vol 16:1, Thessalonica, 1980, p.6

[2]Theophylactus of Ochrid, "Defense of Eunuch", p. 2.

[3]Ringros, Reconfiguring the prophet Daniel, P.86.

[4]Halkin, F., "L'Empereur Constantin converti par Euphrates", *Analecta Bollandiana* 78(1960), p.6.

[٥] يقع جسر ميلفيان فوق نهر التيبر في إيطاليا شمال روما، وهو من الجسور المهمة اقتصاديا وإستراتيجيا في عهد الإمبراطورية الرومانية، وقعت عليه المعركة الشهيرة جسر ميليفيان في ٢٨أكتوبر ٣١٢م، بين الإمبراطور قسطنطين الأول وماكسينتيوس Maxentius الإمبراطور الروماني في الفترة من (٣٠٦-٣١٢م).

Gregory, E., & Cutler,A.," Milvian Bredeg", *ODB*, P.1375.

الوثنية، ويتجه إلى عبادة المسيح، وحثه على الصلاة، وطلب المساعدة منه، فوافق الإمبراطور، بل أمر أن تحمل الصلبان في مقدمة القوات، وبمساعدة المسيح انتصر قسطنطين واعتنق المسيحية في اليوم التالي[١].

تتعارض تلك الرواية مع ما ذكره يوسابيوس القيصرى[٢] عن اعتناق قسطنطين للمسيحية[٣] مما يؤكد أن دور الخصى يوفراتاس أُعيد صياغته فقط في القرن العاشر، إذ يؤكد فرانكيوس هالين François Halkin أن يوفراتاس لم يُشر إليه كخصى في المصادر الباكرة، وإنما ظهر ذلك في مصادر القرنين التاسع والعاشر[٤].

والغريب أن بعض روايات القرن العاشر تنسب إلى يوفراتاس بناء القسطنطينية، فباتموس *the Patmos legend*، يروى أن قسطنطين وجد مكان المدينة الجديدة فوق تل عالٍ، ثم أوكل مهمة بنائها لخادمه المخلص يوفراتاس[٥] فقام بتخطيطها ورسم حدودها، ونظم مناطقها وشق قنوات تحت الأرض لتخزين المياه، وبنى صهاريج، وحفر آبارًا مخصصة للتصريف، فاندهشت حاشية الإمبراطور من تلك الإنجازات وشعروا بالغيرة والحقد، وحاول بعضهم إثارة الإمبراطور ضده بحجة تبديد الأموال وعدم صرفها فى مصارفها الصحيحة، إلا أن الإمبراطور لم يلق بالًا لهذا الكلام، وظل يوفراتاس المفضل لديه[٦]، بل إن الإمبراطور أعجب بحكمة خادمه، وأخذ يشكر الرب على أنه ألهم يوفراتاس بتلك الأفكار، كما أشاد بقدراته

---

[1] Halkin,F.,L'Empereur Constantin converti par Euphrates", p.6

[٢] ولد يوسابيوس القيصرى عام ٢٦٣م في قيصرية في فلسطين، تتلمذ على يد بمفيليوس الذى استشهد في السنة السابعة من اضطهاد دقلديانوس، أما يوسابيوس فقد هرب إلى صحراء مصر وقبض عليه هناك وسجن، ويعتبر يوسابيوس أبا التاريخ الكنسي ومؤسس فكرة نشر أقوال الآباء وكتاباتهم، حيث يعتبر عمله "التاريخ الكنسي" أساسًا قامت عليه مدرسة المؤرخين الكنسيين في العالم كله، وذلك رغم بعض الأخطاء التاريخية.

يوسابيوس القيصرى، تاريخ الكنيسة، ترجمة القمص: مرقص داود، مكتبة المحبة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٨، ص٥.

[٣] يذكر يوسابيوس في مؤلفه عن حياة قسطنطين، أن فى ليلة الحرب مع ماكسينتيوس ظهر لقسطنطين في كبد السماء صليب من نور مكتوب عليه "اغلب بهذا"، ثم ظهر له في منامه في نفس الليلة السيد المسيح، حاملا الصليب موصيا إياه باتخاذه وقاية له في حروبه مع الأعداء.

يوسابيوس القيصرى، حياة قسطنطين العظيم، ترجمة القمص: مرقص داود، مكتبة المحبة، ١٩٧٥، ص٢٤؛ أسد رستم، الروم في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم، وصلاتهم بالعرب، الجزء الأول، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٥٥م، ج١، ص٥٣.

[4] Halkin, F., "L'Empereur Constantin converti par Euphrates", p.6.

[5] Kazhdan, A., "Constantin Imaginaire: Byzantine Legends of the Ninth Century about Constantine the Great", Byzantion 57(1987), p.237; Halkin, F., "Une Nouvelle vie de Constantin dans un légendier de Patmos", AB 77 (1959), P.68.

[6] Halkin, F., "Une Nouvelle vie de Constantin dans un légendier de Patmos", p. 69.

واحترمه وأجله، وأمره أن يجلب إليها الناس ليس فقط من الرومان، ولكن من الأمم كافة[١]، ففعل وبنى فى المدينة كنيسة الرسل المقدسة آيا صوفيا، وتشير الرواية أيضا إلى أن الخصى يوفراتاس وضع أساسًا لكاتدرائية جديدة[٢]. والجدير بالذكر أن المؤرخ كيدرينوس يشير إلى الرواية نفسها[٣]. وسواء صح كل ذلك أو لم يصح، فإنه يؤكد تأثير تلك الروايات على المجتمع البيزنطي وعلى مؤرخيه وأهمهم مؤرخ مثل كيدرينوس.

ومن المؤكد أن كتاب سير القديسين وجدوا في إعادة صياغة تلك الروايات فى القرن العاشر ما يفيد الخصيان بشكل إيجابي، وربما أرادوا من ذلك غرس هذا الشعور الإيجابي في نفوس أفراد المجتمع البيزنطي، فاستخدموا تلك الروايات سلاحًا أساسيًا وفعال في دعاياتهم للدفاع عن الخصيان، فقد أعيد صياغة بعض القصص الخاصة أيضا بالإمبراطور جستنيان، ومنها ما ذكره سيمون ميتافراستيس في سيرة القديس سامبسون Vita of St. Sampson، فعندما أصيب الإمبراطور جستنيان بمرض خطير عجز الأطباء عن علاجه، راح الإمبراطور يتضرع إلى الله أملا في الشفاء، وبعد الكثير من الصلوات رأى الإمبراطور في منامه أحد الخصيان يرتدى ملابس كبير الحجاب، المطرزة بخيوط من ذهب، جاء يقدم له أحد الأطباء، يرتدى ثيابا منسقة، وتظهر على شعره علامات الشيب، قائلا: " هذا الطبيب وحده لا أحد سواه قادر على علاجك"، وعندما استيقظ الإمبراطور استدعى جميع الأطباء، وأخذ ينظر إليهم فلم يجد الطبيب الذى قدمه له الخصى في الحلم، وأخيرًا يقدم له أحد الأطباء قديسا ورعا هو القديس سامبسون، فيدرك الإمبراطور أن الرجل الذى قدمه له الخصى في المنام هو هذا القديس فيبتهج الإمبراطور ويقبله، ويتمكن الخصى من علاج الإمبراطور[٤]، وكأن صاحب الرواية أراد أن يقول إن كبير الحجاب كان وسيلة الاتصال بين الرب والإمبراطور، تلك الحقيقة التي أصبحت أمرًا طبيعيًا ومقبولًا بالنسبة للمجتمع البيزنطي.

المعنى نفسه تقريبا تكشفه رواية أخرى أوردتها رنجروز، تدور حول الإمبراطور جستنيان وبناء كنيسة آيا صوفيا، فعندما يتعذر على الإمبراطور توفير المال اللازم لبناء الكنيسة، يظهر له أحد الخصيان أثناء تفقده لموقع البناء، ويطلب منه أن يرسل معه في اليوم التالي مجموعة من النبلاء لإخراج قدر من الذهب الذى يغطى احتياجات بناء الكنيسة، وفى اليوم التالي خرجت المجموعة بقيادة الخصى إلى أحد أحياء القسطنطينية، فإذا بهم يتوقفون

---

(1) Halkin, F., “Une Nouvelle vie de Constantin dans un légendier de Patmos”, p. 69.
(2) Halkin, F., “Une Nouvelle vie de Constantin dans un légendier de Patmos”, p. 69.
(3) Cedrenus, G., Historiarum Compendium, ed. I.Bekker, CSHB, Bonn, 1838, vol 1, p.496.
(4) Symeon Metaphrastes, Vita of St. Sampson, *PG*115, p. 283.

أمام أحد القصور الرائعة، يصعد الخصى، يتبعه النبلاء مجموعة من الدرج، ثم يفتح باب القصر بمفتاح ذهبي، ويدخلون إحدى الغرف التي يغطي الذهب وقطع النقود أرضيتها، ثم يمسك الخصى بمعول ويبدأ في جمع الذهب والنقود ويحمله النبلاء على الدواب ويعودون إلى الإمبراطور، فيرسل الإمبراطور رجاله إلى القصر مرة ثانية، ولكنهم لا يجدون الخصى، بل يجدون المكان فارغًا(١).

ووفقا لهذه الروايات فإن الخصيان لديهم بعض القدرات الخارقة والمواهب الربانية، يقومون من خلالها بدور الوسيط بين الرب والبشر من الأباطرة أو غيرهم، بل إن أدوار الخصيان اختلطت فى العقلية البيزنطية بأدوار الملائكة، وتفسير ذلك لدى كيريل مانجو Cyril Mango أن العقلية البيزنطية الشعبية كانت ترى البلاط الإمبراطوري مرآة للبلاط السماوي، حيث يلعب الخصيان في البلاط الإمبراطورى نفس الأدوار التي يلعبها الملائكة في البلاط السماوي(٢)، ومن ناحية أخرى اعتقد البيزنطيون أن الخصيان يستطيعون العيش خارج نطاق الزمن مثل الملائكة، الذين يحملون فى أيديهم كرة بيضاء علامة على اختراق المكان والزمان في أي لحظة والوصول إلي أي مكان وقت ما شاءوا بينما البشر يحكمهم عامل الوقت والزمن، والحركة البطيئة المرتبطة بجاذبية الأرض التي يعيشون عليها(٣).

لقد رسخ كتاب سير القديسين لهذا المعتقد، ففي إحدى الروايات التي تدور حول بناء كنيسة آيا صوفيا في عهد جستنيان يخلط الطفل الذى كان مكلفًا بحراسة أدوات العمال ريثما يعودون من الوليمة التى أعدها لهم الإمبراطور بين الخصى وميخائيل رئيس الملائكة الذى جاء لحراسة المكان المقدس(٤) وفى سيرة القديس بول الصغير من لاتروس Paul the Younger of Latros، يظهر ميخائيل كبير الملائكة مع حاشية كبيرة، يرتدون ملابس كبير الحجاب(٥)، ويقوم كبير الملائكة ذو المظهر المشرق فى سيرة القديس فيلاريت الرحيم St. Philaret the Merciful بالدور الذي يقوم به الخصيان في البلاط الإمبراطوري (٦).

وفى سيرة القديس أندرو المجذوب يرد وصف من جاءوا يخففون عن الشهيد ثيودور التعذيب الذى تعرض له في عهد الإمبراطور جوليان المرتد، ومما رواه ثيودور على أهله: "وُضعتُ على العمود نظرت إلى أعلى فوجدت أربعة من الخصيان، ذوى وجوه جميلة تشبه الورود، يحمل أحدهم حوضًا، وكان أبيض، وجهه يشع نورًا لم أقو على رؤيته، بينما كان يحمل

---

(1) Ringrose, *The Perfect Servant*, p.158.
(2) Mango, C., "St Michael and Attis", Δελτίον XAE 12 (1984), p.44.
(3) Mango, C., "St Michael and Attis", p.39.
(4) Ringrose, The *Perfect Servant .Eunuchs*, p.149.
(5) Delehaye, H., "Vita S. Pauli Iunioris in monte Latro", *AB* 11(1892), p.141-142.
(6) Fourmy, M., " La vie de S. Philarète", *Byzantion* 9 (1938), p.162.

الثاني قارورة ذهبية مليئة بالزيت المقدس رائحته مثل ماء الورد، بينما يحمل الآخران ملابس بيضاء، مطوية على أيديهم الممدودة، ثم أحضروني إلى الحوض وسكبوا عليّ الزيت الذى تغلب على كل آلامي الشديدة بسبب التعذيب، بينما أحدهم يحمل ملابس منقوعة في الحوض ووضعها على وجهى وظلت على وجهى طويلًا حتى زال الألم، واستمر هذا الأمر حتى انتهى التعذيب"[١]، وهو يقصد بالخصيان الملائكة، وفى سيرة القديس لازاروس St. Lazaros، يُرى المسيح مع اثنين من الخصيان أحدهما عن يمينه ويحمل شارة وردية، والآخر على يساره، شعره أسود، ووجهه لون القمح الناضج، ويفسر مدير الدير ذلك بأن هؤلاء الخصيان من الملائكة [٢]. وفى سيرة القديس نيفون Niphon، عندما كان القديس عائدًا من الصلاة، وأمام منزل إحد العاهرات وجد رجلا يبدوا أنه خصى يبكي بشدة، وينظر إلى السماء، ويدعو فسأله عن سبب بكائه، فيجيبه بأنه ملاك الرب لحراسة شخص[٣] وقع في المعصية مع إحدى العاهرات في هذا المنزل، وأنه رأى ذلك بنفسه مما أبكاه كثيرًا على صورة الرب التي وقعت في المعصية، ثم سأله القديس لماذا لا تساعده على ترك المعصية، فأجابه هذا الملاك بأنه ليس لديه القدرة على الاقتراب منه منذ بدأ يرتكب المعصية، فهو الآن خادم للشيطان، وليس لديه أي سلطة عليه[٤].
عليه[٤].

وفى جزء آخر من السيرة يروى القديس نيفون لتلاميذه قصة مباركة عن سوزومينوس Sozomenos، الذي قام ببعض الأعمال الصالحة لأحد الفقراء، فرأى في منامه أن الله أرسل إليه خصيًّا قاده إلى أبواب السماء، حتى يكافئه المسيح[٥].

وتشير سيرة القديس إيفروسينا Euphrosyna أن الإمبراطور ليو السادس وزوجته الإمبراطورة زوى، عندما اجتهدا في الصلاة والتضرع إلى الله حتى يرزقهما بطفل ذكر، ثم رأت الإمبراطورة في منامها أحد الملائكة يبشرها بأن الله قد استجاب لدعائهما، وأنها سوف ترزق بطفل ذكر، وعندما استيقظت الإمبراطورة استدعت الراهب نيكولا Nicholasالخصى المقرب من الإمبراطورة، وعهدت إليه بتسليم رسالة كتبتها للإمبراطور لتخبره بما رأت[٦].

---

(1)*The Life of St. Andrew the Fool*, P. 291.

(2)Ringrose, *the Perfect Servant*, P. 151.

(٣)يشير الخصى إلى أن جميع المسيحيين منذ معموديتهم يتم تعين ملاك لحراسة حياتهم

Ringrose, *the Perfect Servant*, p. 153.

(4)Ringrose, *the Perfect Servant*, p.153.

(5)Ringrose, *the Perfect Servant*, p. 154.

(6)Ringrose, *the Perfect Servant*, p.161.

لابد من التأكيد أن تلك المعتقدات الدينية كان لها تأثيرها القوى على حياة المجتمع البيزنطي بجميع طبقاته، وهذا ما أدركه كتاب تلك السير عندما أرادوا الدعاية والترويج للخصيان وتقديمهم بصورة أكثر إيجابية من ذي قبل.

الخاتمة

بات واضحاً مما سبق النظرة المتناقضة التى عكستها المصادر البيزنطية، فبعضها يراهم أسوأ فئة فى المجتمعن والبعض الأخر يثنى على وجودهم وأدوارهم التى قاموا بها. وكشف هذا البحث عن أسباب هذا التناقض، فوجد أنه يرجع لعدة أسباب؛ أهمها الدور الذى قام به الخصيان فى الحياة السياسية والإجتماعية والذى وقف عائقاً أمام طموح أفراد الطبقة الأرستقراطية فى الإستيلاء على العرش والمناصب العليا، مما أدى الى تنامى مشاعر الحقد والإستياء لدى أفراد الطبقة الأرستقراطية والتى كان المؤرخون جزء منها.

كما أظهر هذا البحث مدى حاجة المجتمع البيزنطى للخصيان، باعتباره مجتمعاً ذكورياً يقوم على أساس عزل المرأة ، وهنا دعت الحاجة لوجود الخصيان للقيام بدور الوسيط بين عالم الرجل وعالم المرأة، وبذلك أصبح وجود الخصيان أمراً مقبولا داخل إطار محدد رسمه المجتمع البيزنطى. كما أظهر البحث خضوع الخصيان لعمليات التدريب والتأهيل لكسب المهارات والخبرات التى ساعدتهم على التكيف داخل المجتمع. كما أبرزت الدراسة كيف ساهم الخصيان أنفسهم فى تغيير صورتهم السلبية كالقيام ببناء الأديرة وغيرها من الأعمال الصالحة. كما أبرز البحث ممارسة الطبقة الأستقراطية عملية الإخصاء لأبنائها منذ القرن العاشر الميلادى وذلك لأسباب مختلفة منها ما هو سياسى وأخر دينى. كما أوضح البحث المكانة المرموقة التى وصل اليها الخصيان داخل المجتمع البيزنطى والتى تردد صداها فى كتابات سير القديسين.

التركيب العِرقي والطبقي للمجتمع البيزنطي

محمد زايد عبد الله

أولا.التركيب العرقي للسكان:

لم تقم الإمبراطورية البيزنطية في فترات تاريخها الطويل على عرقٍ واحدٍ، بل على التعدد العرقي لسكانها، شرط التمسك بالعقيدة المسيحية الأرثوذوكسية واللغة اليونانية، فظل سكانها أخلاطًا من الناحية العرقية، حيث كانت نسبة الإغريق الخُلَص قليلة، بينما امتزجت عناصر عديدة كالآسيويين واللاتين بالدم الإغريقي، وقد شَكَّلَ سكان آسيا الصغرى – وهم خليط من عدة سلالات – العمود الفقري للإمبراطورية البيزنطية[١]؛ فقد كانوا القوة الأساسية للإمبراطورية سواء البشرية أو الروحية، خاصة في عصر الأسرة المقدونية (٨٦٧ – ١٠٥٦م)؛ فقد جاءت القيادات الإمبراطورية والعائلات الأرستقراطية الكبيرة والقيادات الكنسية من آسيا الصغرى، بالإضافة إلى الجنود الفلاحين[٢]، أما في الجانب الأوروبي فكَثُرَ السِلاف Slavs والبلغار Bulgars واللاتين[٣].

---

(1) Cheynet, J. C., "Basil II and Asia Minor", in: *Byzantium in the year 1000*, ed. P. Magdalino, The Medieval Mediterranean People, Economies and Cultures 400-1500, Vol. 45 (Leiden & Boston 2003), p. 71.

انظر أيضًا، رنسيمان (ستفن)، *الحضارة البيزنطية*، ترجمة/ عبد العزيز توفيق جاويد، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٢١٤.

(2) Vryonis, S., "Byzantium: The Social Basis of Decline in the Eleventh Century", Greek, Roman and Byzantine Studies 2/2 (Cambridge 1959). Reprinted in: Idem, Byzantium: Its Internal History and Relations with Muslim World, Collected Studies (London 1971), no. II, p. 168; Charanis, P., "Cultural Diversity and the Breakdown of Byzantine Power in Asia Minor", Dumbarton Oaks Papers 29 (1975), p. 3.

(3) Vryonis, "Byzantium", p. 167.

كانت الإمبراطورية البيزنطية بعد القرن السادس الميلادي تستمد ما تحتاج إليه من الموارد البشرية من بين العناصر السلافية التي سكنت البلقان، والأرمن الذين أقاموا وراء حدودها الشرقية في آسيا الصغرى، وقد عمل السلاف في فلاحة الأرض، بينما أمد الأرمن الجيوش الإمبراطورية بأبرع جنودها. للمزيد انظر، وسام عبد العزيز فرج، "الدولة البيزنطية بين أوهام النظرية وحقيقة الهوية"، *مجلة جمعية الآثار بالإسكندرية*، عدد ٤٦، ٢٠٠١م. وقد أُعيد نشره

واتبعت الحكومة الإمبراطورية في كثير من فترات تاريخها سياسة التهجير الإجبارية للعناصر الأجنبية من خارج حدودها إلى داخل أراضيها، وتوطينها في المناطق التي هجرها سكانها تحت وطأة الغزو الخارجي؛ لتعويض النقص في الأيدي العاملة التي تقوم على فلاحة الأرض دون الاكتراث لأصول مواطنيها وتعدد لغاتهم الأولى، أو لاختلاف لون بشرتهم(١). وفى الواقع كانت هناك هجرة مضادة في الاتجاه المعاكس، ففي الفترة ما بين (سبتمبر ٨٠٩م– مارس ٨١٠م)، فقد قام نقفور الأول Nicephor I (٨٠٢–٨١١م) بتهجير أعداد كبيرة من البيزنطيين القاطنين في الثيمات Themes الآسيوية إلى المناطق التي استقر فيها السلاف – مقدونيا واليونان – بعد أن أجبرهم على بيع ممتلكاتهم(٢)، والحقيقة أن كثرة أعداد السلاف القاطنين أقاليم مقدونيا Macedonia واليونان Hellas والبيلوبونيز Peloponnes بالمقارنة مع عدد السكان البيزنطيين المستقرين هناك كان السبب المباشر وراء تلك الهجرة، حيث عجزت الحملات العسكرية البيزنطية التي أُرسلت إلى هناك من تأكيد سيطرتها، فتطلب الأمر وجود أعداد كبيرة من البيزنطيين الذين يتحدثون اليونانية ويعتنقون المسيحية الأرثوذكسية كي يتحقق اندماج العناصر السلافية وانصهارها في بوتقة الحضارة البيزنطية(٣).

ضمن كتاب: وسام عبد العزيز فرج، *بيزنطة – قراءة في التاريخ السياسي والإداري*، ط ١، دار عين، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ١٦.

(1) Charanis, P., "The Transfer of Population as a Policy in the Byzantine Empire", *Comparative Studies in Society and History* 3/2 (Jan., 1961), p. 141.

(2) Theophanes, The Chronicle of Theophanes Confessor: Byzantium and Near Eastern History, 284-813 A.D., trans. C. Mango & R. Scott (Oxford 1997), p. 667; See also, Charanis, P., "The Chronicle of Monemvasia and the Question of the Slavonic Settlements in Greece", Dumbarton Oaks Papers 5 (1950), pp. 148, 152-153; Idem., "Transfer of Population", p. 145.

عاد المُهَجَّرُون البيزنطيون إلى آسيا الصغرى مرة أخرى بعد أن بسط البلغار سيادتهم على تراقيا ومقدونيا في يونيه عام ٨١٢م. Theophanes, p. 679.، وكلمة ثيم تعنى "فرقة عسكرية" ترابط في أحد الأقاليم الإمبراطورية، ثم أصبح المصطلح يُطلق على الأقاليم العسكرية نفسها. طارق منصور، *قطوف الفكر البيزنطي*، جـ١(الأدب)، ص١١٦–١١٧.

(3) Charanis, "Transfer of Population", p. 145.

وانظر أيضًا، وسام عبد العزيز فرج، "السلاف في شبه جزيرة البلقان وجهود الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد سيادتها (٥٩١–١٠١٨م)"، *مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية*، العدد ٣٠، ١٩٨٤م . وقد أُعيد نشره ضمن كتاب: وسام عبد العزيز فرج (د.)، بيزنطة – قراءة في التاريخ السياسي والإداري، ط ١، دار عين، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ١٦٧–١٧٠. ويرفض توماس هيربست الرأي القائل بأن السبب الرئيس في نقل الإمبراطور نقفور الأول للفلاحين من آسيا الصغرى إلى البلقان هو تحجيم دورهم في مناوأة السلطة الإمبراطورية؛ ويدلل هيربست على صحة وجهة نظره بأن دور الفلاحين تجاه السلطة الحاكمة لم يظهر إلا خلال القرن العاشر الميلادي. انظر،

وفى عام ٩٥٤م كان هناك الكثير من الجند البلغار العاملين كمرتزقة في الجيش البيزنطي، وخلال القرن الحادي عشر الميلادي، وبعد أن قضى باسيل الثاني Basil II (٩٧٦ – ١٠٢٥م) على دولة البلغار الأولى بعد حروب دامت لأكثر من أربعين عامًا، سبى البلغاريين ونقلهم إلى الأراضي البيزنطية، في الوقت الذي نقل فيه عددًا من البيزنطيين وأسكنهم الأراضي البلغارية [(١)]، بينما في القرن الثاني عشر الميلادي شن يوحنا الثاني كومنين John II Comnenus (١١١٨– ١١٤٣م) حملة ضد الجماعات الصربية عام ١١٢٣م، وقام بنقل أَسراهم إلى نيقوميديا Nikomedeia بآسيا الصغرى، حيث وزع الأراضي الخصبة عليهم، وأدرج بعضهم في قوائم الجيش البيزنطي[(٢)]. وفي عام ١١٢٤م أسر يوحنا عددًا كبيرًا من البجناك

Herbst, M. Th., "The Medieval Art of Spin: Constructing the Imperial Image of Control in Ninth-Century Byzantium", Ph.D. Dissertation (The University of Michigan 1998), p. 51.

– نشأ إقليم مقدونيا بعد اقتطاعه من إقليم تراقيا في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الميلادي، ويحده تراقيا شرقًا، وستريمون غربًا، والحدود البلغارية شمالًا، وبحر إيجة جنوبًا، أما إقليم هيلاس (اليونان) فنشأ في عهد الإمبراطور جستنيان الثاني في أواخر القرن السابع الميلادي، ويحده بحر إيجة شرقًا، ونيقوبوليس غربًا، وتسالونيك شمالًا، والبيلوبونيز جنوبًا، ونشأ إقليم البيلوبونيز في العقد الأول من القرن التاسع الميلادي بعد اقتطاعه من إقليم الهيلاس، ويحده بحر إيجة شرقًا، والبحر المتوسط غربًا وجنوبًا، وهيلاس شمالًا.

Constantine Porphyrogenitus, *De Thematibus*, ed. I. Bekker, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (Bonn 1840), II, pp. 48-49, 51-53.

وانظر، طارق منصور، *قطوف الفكر البيزنطي*، جـ١(الأدب)، ص ١٨٠–١٨١، ١٨٤–١٨٥.

(١) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، تحقيق/ أبي الفداء عبد الله القاضي، د. محمد يوسف الدقاق، (بيروت ١٩٨٧م)، مج ٧، ص ٢٥٠؛ مج ٨، ص ٢٥١، كذلك،

Kolia-Dermitzaki, A., "Some remarks on the fate of prisoners of war in Byzantium (9th -10th Centuries)", in: La Liberazione dei Captivi tra Cristianita e Islam: Oltre La Crociata e il Ğihād: Tolleranza e Servizio Umanitario, Atti del Congresso interdisciplinare di studi Storici (Roma, 16 – 19 settembre 1998), organizzato per l'VIII Centenario dell'approvazione della regola dei Trinitari de parte del Papa Innocenzo III il 17 dicembre 1198/ 15 safar 595H, a curs di Giulio Cipollone, Collectanea Archivi Vaticani 46 (Vaticano 2000), p. 61.

انظر أيضًا، ليلى عبد الجواد، "أضواء جديدة على تاريخ بلغاريا تحت الحكم البيزنطي (١٠١٨–١٠٩٧م)"، *مجلة المؤرخ المصري* (آداب القاهرة)، العدد ١٤ – يناير ١٩٩٥م، ص ٣١٤؛ أحمد محمود أبو حرام، "مملكة البلغار الأولى (٦٧٩ – ١٠٢٥م)"، رسالة دكتوراة غير منشورة، آداب سوهاج – جامعة جنوب الوادي، ١٩٩٩م، ص ١٦٧.

(2) Choniatēs, N,. *O City of Byzantium*: *Annals of Niketas Choniatēs*, trans. H. Magoulias, (Detroit 1984), I, p. 11.

ازداد عدد الصرب في الإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل كومنين، حيث ألف الإمبراطور منهم ومن الهنغاريين جيشًا عام ١١٧٦م لمحاربة السلاجقة في قونية. انظر، يوحنا كيناموس، *أعمال يوحنا ومانويل*

(البُشناق) Patzinaks أثناء حملته على منطقة الدانوب، وجرى تجنيدهم وتسجيلهم بالسجلات العسكرية البيزنطية(١).

وقد امتلأ التاريخ البيزنطي بفيض من المغامرين الذين لجأوا إلى التماس الثروة في ظل تزاحم أرجاء الإمبراطورية بالغادين والرائحين، حتى لقد شبه أحد الباحثين الحديثين سكان الإمبراطورية بلوحة الفسيفساء التي احتوت على عددٍ مختلفٍ من القطع في الحجم والشكل واللون(٢)، وكان الشماليون هم أكثر النماذج ظهورًا على الساحة البيزنطية، وكان التجار الروس أهم تلك العناصر، وقد استقروا في أحد أحياء العاصمة البيزنطية، وكان يُعرف بحي القديس ماماس St. Mamas؛ وذلك وفقًا لبنود المعاهدة المبرمة بين الطرفين البيزنطي والروسي عام ٩٠٧م(٣)، وكان منهم فئة المرتزقة الفارانجيين Varangians أو الورنك(٤)، الذين عملوا في فرقة الحرس الإمبراطوري منذ عام ٩٨٨م(٥)، كذلك الإنجليز الذين هاجروا إلى القسطنطينية،

كومنينوس، منشور ضمن: *الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية*، ترجمة/ د. سهيل زكار، ج ٢٨ (دمشق ١٩٩٧م)، ص ٢٨٥. وقد قدر جون بيركينماير عدد الصرب والهنغاريين في حملة عام ١١٧٦م بحوالي ٣٠,٠٠٠- ٤٠,٠٠٠ جندي. انظر،

Birkenmeier, J. W., “The Development of the Comnenian Army”, Ph. D. Dissertation (The Catholic University of America: Washington, D.C. 1998), p. 303.

(١) كيناموس، ص ٢٩. والبُشناق أو البجناكية هما اسمان لقومٍ من الأتراك سكنوا على الحدود الشمالية للبحر الأسود، وجاوروا إقليم خرسون البيزنطي، وقد استخدمهم البيزنطيون كحلفاء في بعض الأوقات ضد الروس والبلغار. قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية*، عرض وتحليل وتعليق/ أ.د. محمود سعيد عمران (بيروت ١٩٨٠م)، ص ٥٣-٥٥؛ ١٣٦-١٤١.

(2) Charanis, “Cultural Diversity”, p. 13.

(3) *The Russian Primary Chronicle*, *Laurentian Text*, trans. S. H. Cross & O. P. Sherbowitz – Wetzor (Cambridge 1953), p. 65.

والجدير بالملاحظة أن طارق منصور يؤكد على إبرام تلك المعاهدة في عام ٩١١م، وأنها تفصيل لِمَ جاء في معاهدة عام ٩٠٧م. انظر، طارق منصور محمد، *الروس والمجتمع الدولي ٩٤٥ – ١٠٥٤م*، (القاهرة ٢٠٠١م)، ص ٨.

(٤) ومُسمي الفارانجيين في لغة الإسكندفافيين Vaeringjar مُشتق من vár ويعني عهد أو عقد، وعلى ذلك فالاسم يعني "المعاهدين" أو "الحلفاء" الذين ارتبطوا بعهدٍ أو تضامنٍ. انظر، عبد العزيز رمضان، "المرتزقة الإنجليز في الإمبراطورية البيزنطية ١٠٦٦-١٢٠٤م"، *حولية التاريخ الإسلامي والوسيط*، آداب عين شمس، مج ٤ (٢٠٠٤-٢٠٠٥م)، ص ١٧١، هامش ٢٩.

(5) *Russian Primary Chronicle*, p. 93.

وقد ذكر الدكتور طارق منصور أن المرتزقة الفارانجيين لم يصلوا إلى القسطنطينية قبل عام ٩٨٨م، والدليل على ذلك أن العلاقات البيزنطية الروسية كانت عدائية حتى عام ٩٨٧م. للمزيد انظر، طارق منصور، *الروس*، ص

وانضموا إلى فرقة حرس الورنك، وأصبح اسمهم مقرونًا بِمُسمى "الورنك حاملي الفئوس"(١)، إشارة إلى نوعية خاصة من الأسلحة التي ارتبطت بأفراد الفرقة(٢)، أو سكان جزيرة ثول Thule إشارة إلى الجزيرة الإنجليزية التي جاءوا منها(٣).

أما الأرمن فلهم شأن مختلف قليلًا، فإنهم لم يهاجروا في شكل قبائل كاملة إلا إذا اضطروا إلى الانتقال اضطرارًا بسبب إبعادهم عن أوطانهم(٤)، ولكن الغالبية العظمي من الأرمن أُضطروا إلى هجر أوطانهم والرحيل عنها كمغامرين، وذلك بسبب كثرة نسلهم، وعدم خصوبة أراضيهم وقلة إنتاجها، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وقد بلغت تلك الهجرة أقصاها خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين(٥)، ففي القرن العاشر الميلادي كانت الإمبراطورية البيزنطية بأكملها في يد أرمنّية، فقد كان رومانوس الأول ليكابينوس Romanus I Lecapenus (٩١٩-٩٤٤م) قابعًا على عرش الإمبراطورية، وابنه البطريرك ثيوفيلاكت Theophylactus

---

٩٢. ولكن ابن الأثير ذكر استعانة الإمبراطور قسطنطين السابع بالروس المرتزقة في حملته التي شنها على الحمدانيين عام ٩٥٤م/ ٣٤٣هـ. انظر، ابن الأثير، *الكامل*، مج ٧، ص ٢٥٠.

(١) كيناموس، ص ٢٩.

(٢) عبد العزيز رمضان، "المرتزقة الإنجليز"، ص ١٧١.

(3) Choniatēs, *Annals*, VI, p. 265.

(٤) هاجر الكثير من الأمراء الأرمن إلى الأراضي البيزنطية حاملين معهم أتباعهم، الذين وصل عددهم في بعض الأحيان إلى ١٦٠٠٠، ودخلوا الأراضي البيزنطية واستوطنوا مناطق قبادوقية وقيليقية. انظر،

Charanis, "Transfer of Population", p. 147.

وكان سنكريم (سنحريب) ملك الأرمن قد تنازل للإمبراطور باسيل الثاني عام ١٠٢٢م عن إقليم فاسبوركان بمدنه العشر؛ خشية أن يستولي عليه السلاجقة، ثم هاجر سنكريم مع أولاده إلى قبادوقية وحذا الكثير من الأرمن حذوه؛ لعدم قدرتهم على مواجهة الأطماع السياسية للبيزنطيين والسلاجقة في أراضيهم. انظر، ميخائيل السرياني، *تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير بطريرك إنطاكية*، عربه عن السريانية/ مار غريغوريوس صليبا شمعون، ثلاثة أجزاء، (حلب ١٩٩٦م)، ج ٣، ص ١٠٠. وانظر أيضًا، علية عبد السميع الجنزورى، *الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى*، (القاهرة ١٩٧٩م)، ص ١٥٤؛ عاطف مرقص، "الأرمن وعلاقاتهم السياسية والحضارية بكل من البيزنطيين والمسلمين ١٠٧١-١١٧١م/ ٤٦٣-٥٦٧هـ"، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب عين شمس، ١٩٨٦م، ص ١٣٦-١٣٧.

(٥) كانت الأسرة المقدونية التي تربعت على عرش الإمبراطورية البيزنطية لقرنين من الزمان ذات أصول أرمنِّية. انظر،

Constantine Porphyrogenitus, *Historia de Vita et Rebus Gestis Basilii Inclyti Imperatoris*, in: Theophanes Continuatus, *Chronographia*, ed. I. Bekker, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (Bonn 1838), V, pp. 212-216; Jean Skylitzès, *Empereurs de Constantinople*, trad. B. Flusin (Paris 2003), pp. 101-102; George Cedrenus, *Historiarum Compendium*, ed. I. Bekker, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (Bonn 1839), vol. II, pp. 183-184.

(٩٣٣-٩٥٦م) متربعًا على كرسي الكنيسة البيزنطية، ويوحنا كوركواس John Kourkouas قائدًا للجبهة الشرقية (دمستق الشرق)، كما أصبح من الشائع العثور على أحد الصناع المهرة أو التجار الأرمن في أي مدينة بيزنطية[١]، كما التحق الكثير من الأرمن في الجيوش الإمبراطورية المرابطة في أقاليم آسيا الصغرى[٢]، فتسبب ذلك في اضطراب التركيب الاجتماعي والعرقي بالإمبراطورية البيزنطية، ناهيك عن المشاكل الدينية التي نشأت من جراء إلحاق الأراضي الأرمينية بالإمبراطورية البيزنطية خلال الربع الأول من القرن الحادي عشر الميلادي؛ بسبب إصرار البيزنطيين على فرض المذهب الأرثوذكسي في العقيدة المسيحية على الأرمن المونوفيزيت monophysites (مذهب الطبيعة الواحدة)[٣]، كما اتبع الكثير من الأباطرة

---

(١) رنسيمان (ستيفن)، *الحضارة البيزنطية*، ترجمة/ عبد العزيز توفيق جاويد (القاهرة ١٩٩٧م)، ص ٢١٥. كان ثيوفيلاكتوس رابع أبناء الإمبراطور رومانوس الأول ليكابينوس، الذي أدخله أبوه السلك الكهنوتي بغية أن يصبح بطريركًا، فلما عُزل البطريرك تريفون Tryphon عام ٩٣١م تولى ثيوفيلاكتوس البطريركية عام ٩٣٣م، رغم أنه لم يبلغ السادسة عشرة من عمره، ولم يكن رجل دين بالمعنى الصحيح، بل كان يؤثر الصيد والقنص على الأعمال الدينية، ورغم ذلك ظل في كرسي البطريركية حتي بعد عزل والده الإمبراطور رومانوس الأول عام ٩٤٤م/ ٣٣٣هـ، ولكنه مات على إثر حادثة صيد عام ٩٥٦م. أما يوحنا كوركواس فقد كان جنديًا أرمنّيًا، تدرج في السلك العسكري حتى أصبح رئيسًا للحرس الإمبراطوري، ثم أصبح دومستقًا (قائد الجيوش الشرقية) زمن الإمبراطور رومانوس الأول، نجح في مد السيطرة البيزنطية إلي ما وراء الفرات وجنوب الرها وحلب، ويُنسب إليه استرداد المنديل المقدس من الرها الذي طُبعت عليه صورة وجه السيد المسيح، كما كان له دور مهم في التصدي للروس والدفاع عن القسطنطينية عام ٩٤١م، إلا أنه جُرِدَ من كل ألقابه وعُزِلَ من وظائفه بعد عزل الإمبراطور رومانوس الأول عام ٩٤٤م. نيكول (دونالد)، *معجم التراجم البيزنطية*، ترجمة وتعليق/ د. حسن حبشي، (القاهرة ٢٠٠٣م)، ص ٣١-٣٢، ٢٥٢-٢٥٣.

(2) Leo the Deacon, *The History of Leo the Deacon, Byzantine military expansion in the tenth century*, trans. A. M. Talbot & D. E. Sullivan, Dumbarton Oaks Center (Washington, D.C. 2005), pp. 67, 80.

(٣) آنّا كومنينا، *الألكسياد*، ترجمة/ د. حسن حبشي، (القاهرة ٢٠٠٤م)، ص ٣٧٦. وانظر ، أحمد عبد الكريم سليمان، *المسلمون والبيزنطيون في شرقي البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث والسادس الهجري/ التاسع والثاني عشر الميلادي*، (القاهرة ١٩٨٢م)، ص ٢١٧؛ عاطف مرقص، "الأرمن"، ص ١٥٣، ١٥٩. وفي مجمع إفسوس الثاني عام ٤٤٩م أكد الراهب القسطنطيني يوطيخا Eutychus على الطبيعة الإلهية الواحدة للمسيح، وعُرِفَ أصحاب هذا الرأي بالمنافزة monophysites، وقد تحمس لتلك الآراء كنيسة الإسكندرية ورهبان القسطنطينية، وعارضها القائلون بوجود طبيعتين منفصلتين في شخص المسيح واحدة إلهية والأخرى بشرية، وتبنى هذا المذهب كنائس القسطنطينية وروما وأنطاكية، ولكن مجمع خلقدونية ٤٥١م رفض القول بالطبيعة الواحدة، ومن ذلك التاريخ انقسمت المسيحية على نفسها إلي كنيستين: الأرثوذكسية المصرية القائلة بطبيعة إلهية واحدة وتضم الإسكندرية والكنائس الإثيوبية والسريانية والأرمنّية؛ والكنيسة الأرثوذكسية الخلقدونية القائلة بطبيعتين للمسيح والتي عُرفت فيما

البيزنطيين سياسة التهجير الإجباري للأرمن ونقلهم إلى أقاليم آسيا الصغرى؛ مما ترتب عليه خلو أرمينية من العنصر الوطني القادر على الدفاع عن بلاده، كما حُرِمَت الإمبراطورية درعًا واقيًا لحدودها الشرقية[(١)]، فسهَّل ذلك الأمر على المسلمين للاستيلاء عليها، وهزيمة البيزنطيين في معركة مانزكرت عام ١٠٧١م/٤٦٣هـ[(٢)]، والذي كان سببًا في قطع اتصال أرمينية بالإمبراطورية البيزنطية، وفقدان بيزنطة مصدرًا مُهمًا من خيرة العاملين في المجالين الحرفي والتجاري[(٣)].

وإلى جانب العناصر السابقة كَثُرَت أعداد اللاتين في الأراضي البيزنطية، فها هو ليودبراند أسقف كريمونا Liudprand of Cremona – مبعوث الإمبراطور الألماني أوتو الأول Otto I (٩٣٦ – ٩٧٣م) إلى القسطنطينية عام ٩٦٨م – قد أشار إلى وجود الكثير من اللاتين داخل أسوار العاصمة [(٤)]، وفى بداية القرن الثالث عشر الميلادي وتحديدًا عند سقوط

بعد باسم المذهب الملكاني، وتضم كنائس القسطنطينية وروما وأنطاكية والقدس وروسيا (خلال القرن العاشر الميلادي).

Khalil, N., *English – Arabic Dictionary of the Three Great Religions, Judaism – Christianity – Islam* (Alexandria 2005), p. 492.

وانظر أيضًا، السيد الباز العريني، *مصر البيزنطية*، (القاهرة ١٩٦١م)، ص٧١–٧٤، ٨٠؛ رأفت عبد الحميد، *بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة*، (القاهرة ١٩٩٧م)، ص ٨٧–٨٨، ٩٧–٩٨؛ رأفت عبد الحميد وطارق منصور، *مصر في العصر البيزنطي ٢٨٤–٦٤١م*، (القاهرة ٢٠٠١م)، ١٦٩–١٧٠، ١٧٥–١٧٦.

(١) عاطف مرقص، "الأرمن"، ص ١٣٧، ١٤٦–١٤٧.

(٢) بدأت الحملة السلجوقية الأولى على أرمينية في عام ١٠٤٧م/ ٤٢٩هـ، وأسرت كثيرًا من الأرمن، وتوالت الحملات حتى سقطت العاصمة آني Ani في قبضة ألب أرسلان عام ١٠٦٤م/٤٥٦هـ، للمزيد انظر، فايز نجيب إسكندر، أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة (١٠٠٠–١٠٧١م/٣٩٢– ٤٦٣هـ) في مصنف أريستاكيس اللستيفرتي، (الإسكندرية ١٩٨٣م)، ص ٤٦–٤٧، ٨٧–٩٠؛ فايز نجيب إسكندر، استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية "آني" سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م، (الإسكندرية ١٩٨٧م)، ص ٧–٢٧. وقد أُعيد نشر تلك المقالة ضمن كتاب: فايز نجيب إسكندر، دراسات في تاريخ العصور الوسطي، ج ١، (القاهرة ٢٠٠٣م)، ص ٨١–١٠١.

(٣) رنسيمان، *الحضارة البيزنطية*، ص ٢١٦. وهناك إشارة في مصنف آنّا كومنينا يشير إلى وجود الكثير من الأرمن في القسطنطينية نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر الميلادي، حيث قالت: "كان في هذا الوقت بالعاصمة كثير من الأرمن الذين تفاقم فجورهم من جديد"، كما أشارت في موضع آخر إلى وجود الكثير من الأرمن في مدينة فيليبوبوليس بتراقيا (بولوفيديف Polovdiv الحديثة في بلغاريا) في عام ١١١٤م. انظر، آنّا كومنينا، *الألكسياد*، ص ٣٧٦،٥٨٠. وانظر أيضًا،

Sharf, A., “Armenians and Byzantines in the time of Alexius I Comnenus”, in: *Bar-Ilan Studies in History*, vol. II, ed. P. Artzi (Jerusalem 1984), pp. 102, 106.

(٤) *صفحة من العلاقات الدبلوماسية الألمانية البيزنطية، سفارة ليوتبراند أسقف كرمونا إلى القسطنطينية ٩٦٨م – دراسة تاريخية نقدية*، ترجمة وتعليق/ د. علي أحمد محمد السيد، (الإسكندرية د.ت)، ص ٧٨.

القسطنطينية عام ١٢٠٤م ذكر المؤرخ الفرنسي جيفري من فلهاردوين Geoffrey de Villehardouin أنه عند دخول الحملة (الرابعة) مدينة القسطنطينية لم يكن أعداد اللاتين قليلًا، إذ بلغوا قرابة خمس عشرة ألف نسمة ما بين صغيرٍ وكبيرٍ [١].

وإلى جانب العناصر السابقة تواجد المسيحيون السُرْيَان من الشوام، فقد احتاج البيزنطيون هؤلاء السُرْيَان لإعادة إعمار المدن التي سيطر البيزنطيون عليها وهجرها المسلمون، وهذا ما يبدو في دعوة نقفور الثاني فوقاس Nikephor II Phocas (٩٦٣–٩٦٩م) عام ٩٦٥م للبطريرك الأنطاكى باستيطان السُرْيَان الشوام في الأراضي التي تم السيطرة عليها من قِبل البيزنطيين في منطقة الجزيرة بأعالي الفرات [٢]، وفي الواقع كان هؤلاء المدعوون من قِبل نقفور سُرْيَان يعاقبة يدينون بالمذهب المونوفيزيتى (مذهب الطبيعة الواحدة)، وقد وعدهم نقفور فوقاس بحمايتهم من المِلْكَانِيين (مذهب الطبيعتين) – مذهب الإمبراطور؛ والسبب في ذلك حاجته إليهم لإعمار تلك المنطقة بعد الاستيلاء عليها من أيدي المسلمين[٣]، وقدرة هؤلاء السُرْيَان على معايشة الجانبين البيزنطي والإسلامي، وعلى الجانب الآخر أراد البطريرك السُرْيَاني الابتعاد عن البطاركة الخلقدونيين (أصحاب الطبيعتين) في إنطاكية؛ لما يلحقون به وبأتباعه اليعاقبة من الأذى[٤].

ولكن هل كانت هناك جالية عربية إسلامية وسط هذا الخليط الكبير من الأجناس المختلفة؟

نعم كانت هناك جالية عربية إسلامية منتشرة عبر الأراضي البيزنطية كلها، والدليل على ذلك ذكر التجار الشوام في مدينة القسطنطينية في كتاب الوالي، الذين بلغت مدة إقامتهم بالعاصمة عشر سنوات متصلة، حيث أقاموا في خان (فندق) واحد[٥]، كذلك مسجد

---

(١) جيفري فلهاردوين، *فتح القسطنطينية*، ترجمة/ د. حسن حبشي، (جدة ١٩٨٣م)، ص ١١٣.

(٢) *تاريخ ميخائيل السرياني*، ج ٣، ص ٩٥..

(3) Fiey, J. M., “The Syriac Population of the Thughūr al-Shāmiya and the Άwāsim and its Relation with the Byzantines and Muslims”, in: M. Adnan al-Bakhit & R. Schick (eds.), *Bilād al-Shām During the Abbasīd Period (132 A.H./ 750 A.D.-451 A.H./ 1059 A.D.), Proceeding of the Fifth International Conference on the History of Bilad al-Sham 7-11 Sha'ban 1410 A.H./ 4-8 March 1990* (Amman 1991), pp. 45, 48, 50, 52.

(٤) *تاريخ ميخائيل السرياني*، ج ٣، ص ٩٥.

(٥) *كتاب والي المدينة*، ترجمة/ د. السيد الباز العريني، *حولية كلية آداب القاهرة*، مج ١٩، ج ١، ١٩٥٧م، ص ١٣٥–١٨٧؛ وأيضا منشور ضمن كتاب: *نهاية الرتبة في طلب الحسبة* (بيروت ١٩٨١م)، ص ١٥٤– ١٥٥.

القسطنطينية[١]، الذي مازال قائمًا حتى عصر إسحاق الثاني أنجيلوس Isaakios II Angelos (١١٨٥–١١٩٥م)، الذي سمح للمسلمين الموجودين داخل العاصمة بممارسة شعائرهم بناءً على الاتفاق المبرم بينه وبين سلاجقة الروم في آسيا الصغرى[٢]، كما وُجِدَت مستوطنة عربية إسلامية في أثينا خلال النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، كانت على الأرجح من الحرفيين أو التجار[٣].

كما تواجد الكثير من المسلمين داخل حدود الإمبراطورية البيزنطية إما تجارًا أو أسرى حرب، وقد تعرض الأخيرون لكثير من المحن، كان أشدها على الإطلاق تعرضهم للتنصير،

---

(١) قام ليو الثالث الأيسوري Leo III the Isaurian (٧١٧–٧٤٠م)، بعد حصار المسلمين لمدينة القسطنطينية (٧١٧–٧١٨م/٩٩–١٠٠هـ) بقيادة مسلمة بن عبد الملك ببناء مسجد بناءً على المعاهدة المبرمة بينه وبين مسلمة ليؤدي المسلمون (أسرى أو تجار) الموجودون في العاصمة شعائرهم فيه. انظر،

Canard, M., "Les relations politiques et sociales entre Byzance et les arabes", *Dumbarton Oaks Papers* 18, (1964), p. 39; Ciggaar, K. N., *Western Travellers to Constantinople, The West and Byzantium 962- 1204: Cultural and Political Relations* (London 1996), p. 53.

وانظر، إبراهيم أحمد العدوي، *الأمويون والبيزنطيون – البحر المتوسط بحيرة إسلامية*، (القاهرة ١٩٥٣م)، ص ٢٦١. وأُطلق على المسجد لفظ Mitaton في اللغة العامية اليونانية. Choniatēs, *Annals*, VII, p. 303.

(٢) *الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد)*، ترجمة وتعليق/ د. حسن حبشي، ج ١، (القاهرة ٢٠٠٠م)، ص ٦٩. ولكن أبو شامة ذكر في كتاب الروضتين أن الاتفاق المبرم بين الإمبراطور البيزنطي والسلطان المسلم إنما كان مع السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبي، بناءً على السفارة التي أرسلها إلى القسطنطينية عام ٥٨٥هـ/١١٩٠م، وكانت تشتمل على خطيبٍ ومنبرٍ وجَمْعٍ من المؤذنين والقراء. للمزيد انظر، أبو شامة، *منتخبات من كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية*، منشور في:

Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux 4, ed. B. de Minar (Paris 1898), pp. 470-471.

(3) Miles, G. C., "Byzantium and the Arabs: Relations in Crete and the Aegean Area", *Dumbarton Oaks Papers* 18 (1964), pp. 19-20.

وفى التاسع عشر من مارس عام ١٩٣٦م تم اكتشاف مكان المسجد الإسلامي في مدينة أثينا، والذي كان يقع في شمال كنيسة الحواريين المقدّسين في الزاوية الجنوبية الشرقية للسوق القديم في أثينا، ويرجع تاريخ بناء المسجد إلى القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، وقد زُخْرِفَت واجهته بكتابات كوفية. انظر،

Miles, G. C., "The Arab Mosque in Athens", *Hespira* 25/4, (Oct. - Dec., 1956), pp. 329, 335.

وكان للعرب تأثير كبير كذلك في منطقة قبادوقية وقيليقية بآسيا الصغرى، وخاصة في القرن التاسع الميلادي، حيث تأثرت المباني البيزنطية بالنموذج الإسلامي في البناء، خاصة الأقواس والعقود والزخارف الداخلية. انظر،

Mathews, Th. F. & al., "Islamic-Style Mansions in Byzantine Cappadocia and the Development of the Inverted T-Plan", *The Journal of the Society of Architectural Historians* 56/3, (Sep., 1997), pp. 294-315.

وهذا ما جاء في تاريخ جينيزيوس عندما ذكر قصة المرأة العربية التي تنصرت في مدينة القسطنطينية في عصر الإمبراطور ميخائيل الأول رانجابيه[١]، كما أن الإمبراطورة الوصية ثيودورا Theodora أجبرت عام ٨٥٥م/٢٤١هـ ما يقرب من ستة آلاف من الأسرى المسلمين من عين زربة على التحول إلى المسيحية[٢]، كما أُضطر بعض أهالي المصيصة وطرسوس إلى التنصر عام ٩٦٥م/٣٥٥هـ[٣]، وفى أحيان أخرى أُجبر الأسرى على القتال والدفاع عن العاصمة في أوقات الشدة[٤]، ومن الجدير بالذكر أن التنصر كان شرطًا للزواج من البيزنطيات[٥]، والإعفاء من الضرائب[٦].

وإلى جانب التنصر تعرض العرب للتعذيب على يد البيزنطيين، فقد تعرض أهل مدينة زبطرة في منطقة الثغور الإسلامية للأسر على يد الإمبراطور ثيوفيل في عام ٨٣٧م/٢٢٢هـ، فقام بسمل أعينهم وقطع آذانهم وجدع أنوفهم[٧]، وفى عام ٨٨٠م/٢٦٧هـ تعرض بعض الأسرى

---

(1) Genesios, *On the Reigns of the Emperors*, trans. A. Kaldellis, *Byzantina Australiensia* 11, (Canberra 1998), pp. 11-12.

(٢) الطبري، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ١١ جزء ، (القاهرة ٢٠٠٦م)، ج ٩، ص ٢٠٢. ومن الجدير بالذكر أن عددًا من الباحثين المحدثين قد أكد على أن عدد الذين تنصروا من الأسرى المسلمين على يد ثيودورا كانوا ثمانية آلاف. انظر، عليه الجنزورى، *الثغور البرية*، ص ١٦٧؛ رضا السيد حسن، "أسرى الحرب بين العرب والروم في العصر العباسي"، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة القديس يعقوب، بيروت، ١٩٨٣م، ص ١٦٦–١٦٧. ولكن العدد الصحيح هو ستة آلاف، والدليل على ذلك أن عدد الأسرى المسلمين كان عشرين ألفًا، قتلت ثيودورا منهم اثنى عشر ألفًا، وافتدى المسلمون ألفين، وبذلك يتبقى ستة آلاف هم مَنْ تنصروا، ويذكر الطبري أن أكثر المسلمين المتنصرين كانوا من مسلمي صقلية الذين سكنوا مدينة القسطنطينية، ولكن يجب توخي الحذر عند تناول تلك الروايات، فربما كان الغرض من ذكر تلك الأرقام الضخمة التشهير بالآخر. انظر، الطبري، *تاريخ الرسل والملوك*، ج ٩، ص ٢١٩–٢٢٠.

(٣) ابن العبري، *تاريخ الزمان*، نقله إلى العربية/ الأب إسحق أرملة، تقديم/ جان موريس فييه (بيروت ١٩٩١م)، ص ٦٤؛ أبوالفدا، *المختصر في أخبار البشر*، ج ١، تحقيق/ د. محمد زينهم عزب، (القاهرة ١٩٩٨م)، ص ٢٣٥.

(٤) الطبري، *تاريخ الرسل والملوك*، ج ١٠، ص ٤٥؛ مسكويه، *تجارب الأمم*، ج٤، تحقيق/ أبو القاسم إمامي (طهران ٢٠٠١م)، ص ٥٠٣–٥٠٤. وعلى حد قول أحد الباحثين الحديثين: "إن عددًا من المتنصرين شاركوا بفاعلية في الحرب ضد المسلمين مُسْتَغِلِين أسماءهم ولغتهم ومظهرهم العربي في خداع المحاربين المسلمين". انظر، طارق منصور، *قطوف الفكر البيزنطي*، جـ١(الأدب)، ص ٧٢ – ٧٣، ٧٧، ٨٠.

(٥) الطبري، *تاريخ الرسل والملوك*، ج ٩، ص ٦٣.

(٦) الأمين أبو سعدة، "بيزنطة في الملاحم العربية – قراءة في سيرة الأميرة ذات الهمة"، بحث منشور ضمن كتاب: *دراسات في تاريخ العصور الوسطي – مجموعة أبحاث مهداة إلى الأستاذ الدكتور/ قاسم عبده قاسم بمناسبة بلوغه الستين عامًا*، تحرير/ د. حاتم الطحاوى، (القاهرة ٢٠٠٣م) ص ٣٢٠.

(٧) الطبري، *تاريخ الرسل والملوك*، ج ٩، ص ٥٥.

الأسرى العرب للتعذيب على يد الإمبراطور باسيل الأول Basil I (٨٦٧ – ٨٨٦ م)، حيث قام بجلدهم، ثم أمر بإعدامهم[١]، وقد عَبّرَ أبو فراس الحمداني – الأسير العربي لدى البيزنطيين في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي – في قصائده عن مدى ما يعانيه الأسير العربي من الذل والهوان على يد البيزنطيين، وفَرّضِهِم عليه الأعمال الشاقة، وإلباسهم إياه الثياب الخشنة[٢].

وإلى جانب المتنصرين جبرًا، نزح بعض العرب طواعية إلى الأراضي البيزنطية، وقد ذُكرت حالة في بداية القرن التاسع الميلادي عن عربي كان ماهرًا في علم الهندسة قد نزح إلى الأراضي البيزنطية، واعتنق المسيحية الأرثوذوكسية، وعَمِلَ في بلاط الإمبراطور نقفور الأول،

---

(1) Skylitzès, *Empereurs*, p. 130.

(٢) ففي إحدى قصائده يصف الأصفاد في السجون البيزنطية قائلًا:

أُقَلّبُ طَرْفِي بين خِلٍّ مُكَبَّلٍ، وبين صَفِيٍّ بالحديدِ مُصَفَّدِ

....

يا مَنْ رَأَى لي القُيودَ، مُوَثَّقَةً على حبيبِ الفؤادِ أَثْقَلُهَا

كما يصف في قصيدة أخرى السجون والملابس التي يلبسها الأسرى:

يا واسِعَ الدّارِ ! كيف تُوَسِعُهَا ونحن في صخرةٍ نُزَلْزِلُهَا!

يا ناعِمَ الثوبِ ! كيف تُبَدِلُـهُ؟ ثيابُنا الصوفُ ما نُبَدِّلُهَا!

يا راكِبَ الخَيْلِ ! لو بَصُرْتَ بنا نحملُ أقيادَنَا ونَنْقُلهَـا!

وفى قصيدة ثالثة يقول:

أُسِرْتَ فلم أَذُقْ للنومِ طعمـًا، ولا حَلَّ المُقَامُ لنا حُزَامَا

انظر، أبو فراس الحمداني، *ديوان أبي فراس الحمداني*، تحقيق وشرح/ كرم البستاني (بيروت ١٩٩٢م)، ص ٨٣، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٥٣. وأيد المقدسى ذلك بقوله: "وسائر الأسارى من عامة المسلمين يُستعبدون ويُستعملون في الصنائع، فالحازم الذي إذا سُئل عن صنعته لم يقر بها". انظر، المقدسي، *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*، (القاهرة ١٩٩١م)، ص ٧٥. ومن الملاحظ أن هناك وثيقة من القرن العاشر الميلادي هي عبارة عن خطاب من البطريرك البيزنطي نيقولاس مستيقوس Nicholas Mystikos (٩٠١–٩٠٧م، ٩١٢–٩٢٥م) مُرسَل إلى الخليفة العباسي المقتدر، يبرهن فيه البطريرك على ما يتمتع به الأسرى العرب في القسطنطينية من المعاملة الحسنة، فقد سُمِحَ لهم بالصلاة في المسجد الموجود بالمدينة، ولم يُجْبَر أحد منهم على ترك دينه، كما تمتع هؤلاء الأسرى بمخالطة الإمبراطور، ولكن السفارة التي أرسلها الخليفة وجدت عكس ما جاء في رسالة البطريرك، فقد عاني الأسري من التعذيب والتجويع علي يد البيزنطيين. للمزيد انظر، أحمد عبد الكريم سليمان، " رسالة من البطريرك نيقولا مستيقوس إلى الخليفة العباسي"، *الجمعية المصرية للدراسات التاريخية*، مج ٢٨–٢٩ (١٩٨١–١٩٨٢م)، ص ٥٤–٥٦. وأُودِع المسلمون في سجن برايتوريوم Praetorium القريب من القصر الإمبراطوري شرقي القسطنطينية. انظر،

Vita S. Euthymii, trans. P. Karlin-Hayter, in: *Byzantion* 25-27(1955-1957), p. 21.

ثم انتقل إلى مدينة أدرنة، ثم انضم عام ٨١٣م إلى كروم Krum خان البلغار[١]. وقد رصدت المصادر بعض الحالات لقبائل نزحت من الأراضي الإسلامية إلى الأراضي البيزنطية، وكانت قبيلة بنى حبيب أثناء القرن العاشر الميلادي من أشهر تلك القبائل العربية التي نزحت إلى الأراضي البيزنطية، فقد هاجرت من منطقة أعالي الفرات هربًا من ظلم ناصر الدولة الحمداني في الموصل الذي سلبها أرضها، ودخلت القبيلة الأراضي البيزنطية، لتكون حاجزًا بين البيزنطيين والمسلمين على الحدود[٢].

وإلى جانب العرب وُجِدَ الكثير من الأتراك داخل المجتمع البيزنطي، فخلال القرن الحادي عشر الميلادي اُضطر ميخائيل السادس Michael VI (١٠٥٦-١٠٥٧م) إلى نقل سكان الساحل الجنوبي لبحر بنطس (الأسود) إلى تراقيا؛ بسبب ضغط الأتراك السلاجقة على تلك المنطقة؛ مما أدى إلى إقفار المدن والقرى في تلك النواحي من سكانها، وهو نفس الأمر الذي قام به ميخائيل السابع Michael VII (١٠٧١-١٠٧٨م) بعد هزيمة البيزنطيين في معركة مانزكرت (ملازكرد) Manzikert على أيدي السلاجقة عام ١٠٧١م/ ٤٦٣هـ[٣]؛ مما أدي إلى زيادة أعداد الأتراك داخل المجتمع البيزنطي بعد تلك المعركة . وخلال القرن الثاني عشر الميلادي كَثُرَ أعداد الأسرى من الأتراك؛ فقد أسر الإمبراطور يوحنا الثاني كومنين عددًا من السلاجقة في شتاء ١١٢٤م/٥١٨هـ، وقام بتحويل عدد كبير منهم إلى المسيحية، وأدرجهم في قوائم الجيش البيزنطي[٤].

وقد هاجرت بعض القبائل الفارسية إلي الأراضي البيزنطية، وكانت أولى تلك الحالات في العصر البيزنطي الأوسط هى حالة الخُرَّمِية أتباع بابك الخُرَّمِي، فبعد أن قُتل بابك على يد

---

(1) Theophanes, *Chronicle,* p. 682.

(٢) ابن حوقل، *كتاب صورة الأرض*، تحقيق/ م. ي. دي خويه، القسم الأول، (ليدن ١٩٣٨م)، ص ٢١٦. وانظر أيضًا،

Canard, "Relations politiques et socials", p. 43; Charanis, "Transfer of Population", p. 148.

(٣) *تاريخ ميخائيل السرياني*، ج ٣، ص ١٣١، ١٤١. وعن معركة مانزكرت ونتائجها على الإمبراطورية البيزنطية، انظر، أحمد عبد الكريم، *المسلمون والبيزنطيون*، ص ٢٣٢- ٢٣٦؛ فايز نجيب إسكندر، *البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملازكرد (١٠٧١م/ ٤٦٣هـ) في مصنف نقفور برينيوس – دراسة مقارنة للمصادر*، (الإسكندرية ١٩٨٤م)، ص ١٢-٢٢.

(٤) كيناموس، ص ٢٩-٣٠. وللمزيد عن التواجد التركي في الإمبراطورية البيزنطية خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، انظر الدراسة القيمة لشارل براند،

Brand, Ch. M., "The Turkish Element in Byzantium, Eleventh-Twelfth Centuries", *Dumbarton Oaks Papers* 43 (1989), pp. 1-25.

الأفشين قائد الخليفة المعتصم، هرب أتباع بابك وعددهم حوالي ثلاثين ألفًا إلى الأراضي البيزنطية بقيادة زعيمهم نصر، الذي اعتنق المسيحية هو وأتباعه، واتخذ اسم ثيوفوبوس Theophobos، وضمهم الإمبراطور ثيوفيل Theophilus (٨٢٩–٨٤٢م) إلى الجيش البيزنطي، ولكنهم قاتلوا في فرقة منفصلة سُميت "تورما الفرس"، وقد سمح لهم الإمبراطور ثيوفيل بالزواج من البيزنطيات، وبعد هزيمة الإمبراطور ثيوفيل في معركة عمورية عام ٨٣٨م/ ٢٢٣هـ، ثار الخُرَّمِيون ضده، فوزع فرقتهم على بقية الأقاليم، ثم قتل قائدهم ثيوفوبوس[١].

وإلى جانب الطوائف السابقة، وُجِد اليهود، فقد ورد ذكرالقاطنين منهم مدينة عمورية خلال الحملة الإسلامية عليها عام ٨٣٨م/٢٢٣هـ في عصر الإمبراطور ثيوفيل، حيث تعرضوا لكثير من المضايقات من البيزنطيين، حكامًا وشعبًا[٢]، فها هو باسيل الأول يحاول تنصير اليهود، وإغرائهم بالتحول إلى المسيحية بكل الوسائل الممكنة، مثل التعيين في المناصب المهمة والإعفاء من الضرائب[٣]، ولكنهم تمسكوا بيهوديتهم سرًا، وفروا إلى أماكن شتى، وفي عام ٩٣٠م/ فرض رومانوس الأول ليكابينوس التنصير على اليهود، ففر عدد كبير منهم إلى مملكة الخزر اليهودية؛ مما أدى إلى تناقص أعدادهم داخل الأراضي البيزنطية خلال النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي؛ نظرًا للمُناخ السياسي العام، والحركة السكانية في تلك الفترة[٤].

وخلال الربع الأول من القرن الحادي عشر الميلادي هاجر الكثير من اليهود المصريين إلى الأراضي البيزنطية بسبب جفاف ماء النيل واشتداد المجاعة بمصر[٥]، فنزح اليهود إلى بلاد الشام ومنها إلى آسيا الصغرى، ولم يلبث بعض المهاجرين اليهود أن اتجهوا عام ١٠٢٨م إلى مدينة القسطنطينية[٦]، وفى النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي ازدادت هجرة

---

(1) Genesios, pp. 50-52; Theophanes Continuatus, III, pp. 101-102.

(2) Genesios, p. 60.

(3) Constantine Porphyrogenitus, *Vita Basilii*, V, p. 341; “The Andreas Salos Apocalypse”, trans. L. Rydén, in: *Dumbarton Oaks Papers* 28 (1974), p. 216; See also, Holo, J., “An Economic History of the Jews of Byzantium from the Eve of the Arab Conquest to the Fourth Crusade”, Ph.D. Dissertation (Chicago University 2001), pp. 38-39, 148.

(4) Jacoby, D., “The Jews of Constantinople and their demographic hinterland”, in: C. Mango & G. Dagron (eds.)., *Constantinople and its Hinterland*: *Papers from the Twenty – seventh Spring Symposium of Byzantine Studies*, Oxford, April 1993 (London 1995), p. 223; Holo, “Economic History of the Jews”, p. 41.

(5) Holo, “Economic History of the Jews”, p. 44.

(6) Jacoby, “Jews of Constantinople”, p. 225; Holo, “Economic History of the Jews”, p. 56.

اليهود من آسيا الصغرى صوب الولايات البيزنطية في الشطر الأوروبي بسبب الضغط السلجوقي، وهذا ما نلمسه في خطاب يهودي مصري أرسله إلى ابنه المُقيم بالإسكندرية بتاريخ ١٠٩٠م، أوضح فيه أنه سافر إلى القدس ليُدفن بها، ولكنه نزح إلى دمشق، ومنها إلى آسيا الصغرى، ولم يهنأ له بال، فتوجه ناحية بلاد اليونان حتى انتهى به المطاف إلى مدينة تسالونيك، فوجد بها الكثير من اليهود المتعلمين الذين يرتادون الكنيس اليهودي بالمدينة(١)، وخلال القرن الثاني عشر الميلادي كَثُرَ اليهود، وسُمح لهم بالإقامة في مناطق منفصلة عن المدن البيزنطية، وكذلك أقاموا في القسطنطينية في حي خاص بهم أَطلق عليه المؤرخ اللاتيني جيفري من فلهاردون اسم "أستنون" Astnon، ويقع في حي غلاطية Galatia شمال القرن الذهبي(٢).

أقام بعض اليهود في عددٍ من المدن البيزنطية كان أهمها مدينة كورنثة Corinth، حيث وَجَدَ الأثريون شاهد قبر في تلك المدينة يرجع إلى الفترة ما بين أواخر القرن التاسع والقرن الثاني عشر الميلاديين لشاب يهودي يُدعي إلياقيم بن إلياقيم Eliaqim b. Eliaqim، والذي توفى عن عمر لا يتعدى الرابعة والعشرين، وكان يعمل في حرفة الصباغة (٣)، كما وُجِدَ اليهود في بعض المدن البيزنطية في آسيا الصغرى مثل مدينة بلايا Palaia، التي تبعد عن مدينة سلوقية بمنطقة قيليقية حوالي سبعون كيلو مترًا، حيث ذكر أحد الأطباء اليهود المقيم بتلك المدينة في رسالةٍ له إلى أحد أصدقائه المقيم بمدينة الفسطاط، والمؤرخة بتاريخ ٢١ يوليو ١١٣٧م، أن

---

(1) Goitein, S. D., *A Mediterranean Society*, Vol. V: *The Individual Portrait of a Mediterranean Personality of the High Middle Ages as Reflected in the Cairo Geniza* (Los Angeles 1988), pp. 438- 440; Holo, “Economic History of the Jews”, p. 46.

(٢) فلهاردوين، *فتح القسطنطينية*، ص ٩٨. ومن الجدير بالذكر أن الباحث يوشع هولو ذكر أن اليهود قد تم نقلهم إلى ضاحية غلاطية في عهد رومانوس الأول ليكابينوس بسبب ما أحدثته دباغة الجلود اليهودية من تلوث داخل المدينة.

Holo, J., “A Genizah Letter from Rhodes Evidently Concerning the Byzantine Reconquest of Crete”, *Journal of Near Eastern Studies* 59/1, (Jan., 2000), p. 9.

بينما ذكر الباحث ديفيد جاكوبي أن نقل اليهود يرجع إلى عام ١٠٧٧م، ويدلل على ذلك أن ألكسيوس الأول كومنين (١٠٨١–١١١٨م) قد منح التجار البنادقة المنطقة اليهودية عام ١٠٨٢م. انظر،

Jacoby, D., “Les quartiers juifs de Constantinople à l'époque byzantine”, *Byzantion* 37 (1967), p. 179.

وهذا الرأي الأخير له ما يسانده تاريخيًا في تاريخ آنّا كومنينا عن حياة أبيها ألكسيوس الأول حيث قالت: "كما وهبهم (ألكسيوس الأول للبنادقة) أيضًا الحوانيت الممتدة من رصيف العبرانيين القديم حتى فيجلا بما في ذلك أماكن الرسو الواقعة بين هاتين المنطقتين"، للمزيد انظر، آنّا كومنينا، *الألكسياد*، ص ٢٤٦.

(3) Starr, J., “The Epitaph of Adyer in Corinth”, *Byzantinisch - Neugriechische Jahrbucher* 12, (1935-1936), pp. 42, 45.

الجالية اليهودية في مدينة بلايا تكونت من خمسين عائلة(١)، وإلى جانب اليهود المقيمين في المدن انتشر اليهود في القرى الريفية، حيث عَمِلَ بعضهم بالزراعة(٢)، كما استخدم اليهود اللغة اليونانية في المراسلات وفي كتابة بعض كتبهم خلال الفترة ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين(٣). أما من الناحية الاجتماعية فكان البيزنطيون ينتقصون من شأن اليهود الفقراء داخل الإمبراطورية البيزنطية، وهو ما يؤكد عليه الرحالة اليهودي بنيامين التطيلى خلال زيارته للقسطنطينية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي(٤)، ويؤكد ذلك أيضًا الرابي بيتاخيا من راتيسبون الذي مر عبر الأراضي البيزنطية خلال توجهه إلى بيت المقدس فيما بين عامي ١١٧٠-١١٨٧م قائلًا: "وكان اليهود في بلاد اليونان قد تعرضوا لظلمٍ كبيرٍ، حتى أنهم أُجبروا على القيام بالأعمال الدنيئة ... وهناك شباب من اليهود أُجبروا على خدمة اليونانيين مثل العبيد"(٥).

ومن العرض السابق لسكان الإمبراطورية البيزنطية من حيث الأجناس والملل نجد أن المَيْزَة التي امتاز بها التكوين الاجتماعي للسكان أنهم تمتعوا بحقوق المواطنة مهما كانت جنسياتهم، سواءً كانوا أغنياء أو فقراء، باستثناء اليهود في بعض الفترات(٦)، وتركزت الروابط التي وحدت بين جماهير السكان ذوي الأصول المتباينة واللغات المتعددة في ثلاث روابط رئيسة:

- دينية تمثلت في اعتناق المسيحية على المذهب الأرثوذوكسي الخلقدوني.
- شخصية تمثلت في الولاء للإمبراطور.
- ثقافية والتي ينتمي البيزنطي من خلالها للحضارة الهللينستية والثقافة اليونانية، وذلك لن يتأتى إلا عن طريق اكتساب اللغة اليونانية، حتى يحقق الفرد ارتقاءه الاجتماعي والسياسي.وبذلك فإن الفرد الذي يعتنق المسيحية الأرثوذوكسية الخلقدونية، ويعترف

---

(1) Goitein, S. D., “A Letter from Seleucia (Cilicia): Dated 21 July 1137”, *Speculum* 39/2 (Apr., 1964), pp. 298-301.

(٢) بنيامين التطيلى، *الرحلة*، ص ٧٢.

(3) De Lange, N., “Jewish Use of Greek in the Middle Ages: Evidence from Passover Haggadoth from the Cairo Genizah”, *The Jewish Quarterly Review* 96/4, (2006), pp. 490–497.

(٤) قال بنيامين التطيلي: "ويلحق باليهود أذىً شديد من سائر السكان، فركوب الخيل محظور عليهم.. ويزداد الروم كراهية لهم، فيصبون جام غضبهم على البريء والمذنب من اليهود سواء بسواء، يضربونهم على رؤوس الأشهاد ويعاملونهم معاملة سيئة". انظر، بنيامين التطيلى، *الرحلة*، ص ٨٢.

(5) *Rabbi Petachia of Ratisbon (1170-1187)*, in: *Jewish Travellers*, ed. E. N. Adler (London 1930), p. 91.

(٦) عفاف سيد صبره، *الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان*، (القاهرة ١٩٨٢م)، ص ٢٠٠.

بسيادة الإمبراطور، ويتحدث اليونانية، فلن يهتم أحد بالبحث عن أصله أو من أين جاء، فهذا الشخص أصبح رومانيًا بصورة مقبولة[١].

ثانيا. التركيب الطبقي للمجتمع البيزنطي

ومما سبق، فإنه يمكننا القول بأن المجتمع البيزنطي تكون من خليط كبير من أعراقٍ شتى، وجدير بالذكر أن البناء الاجتماعي لأي مجتمع قديم في صورته المبسطة كان يأخذ شكلًا هرميًا ذا طبقات أفقية ثلاث: طبقة دنيا عريضة في القاعدة، تعلوها طبقة وسطى أقل حجمًا من سابقتها، ثم تعلوها طبقة عليا صغيرة تمثل رأس الهرم الاجتماعي [٢]، وهذا الأمر يمكن أن ينطبق على المجتمع البيزنطي، الذي انقسم إلى ثلاث طبقات رئيسة هي:

أ- الطبقة العليا (الأرستقراطية):

لقد كان الإمبراطور وأفراد عائلته – الزوجة والأولاد والأحفاد والأخوة والأخوات – هم العنصر الرئيسي في تلك الطبقة، والتي يدور حولها كل الأحداث، وقد ساعد الإمبراطور مجموعة من الفئات ضمتها تلك الطبقة وهى:

- **النبلاء الأرستقراطيون العسكريون**، الذين شكلوا قمة الهرم الاجتماعي في الإمبراطورية البيزنطية، حيث حازت تلك الفئة على المال والجاه والسلطان، فتمكن هؤلاء من تكوين ثروات ضخمة والعيش في رغدٍ ويسر[٣]. وكانت تلك الأرستقراطية خليطًا عرقيًا من اليونانيين والأرمن والبلغار واللاتين، ومن هؤلاء أُكتسبت النبالة بالمولد أو بالانخراط في الجيش البيزنطي[٤]، وضمت الأرستقراطية العسكرية العائلات من كبار مُلاك الأراضي

---

(١) أحمد عبد الكريم، *المسلمون والبيزنطيون*، ص٢١٣، وسام فرج، "الدولة البيزنطية بين أوهام النظرية"، ص ١٦- ١٧. ويختلف هذا الرأي مع الرأي القائل بأن الجماعات الإثنية مثل الأرمن والبلغار والسلاف والأتراك واللاتين وغيرهم أُشِيرَ إليهم بأسمائهم الإثنية (العِرقية) وليس كرومان أو هللينيين، كما أُستُخدِمَ مصطلح " الأجناس" □□□□□θ□ للإشارة الإثنية إلى كافة العناصر الأجنبية؛ لأن البيزنطيين ظلوا متمسكين بحقهم في كونهم الرومان الحقيقيين وما عداهم برابرة أجلاف. للمزيد انظر، عبد العزيز محمد عبد العزيز، "البيزنطيون بين الهويتين اليونانية والرومانية "، *مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية*، مج ٤٣، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ٦٥-٦٦، ٧١.

(٢) وسام عبد العزيز فرج، "أضواء على مجتمع القسطنطينية – دراسة في التاريخ الاجتماعي لمدينة قسطنطين حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي"، *مجلة كلية الآداب – جامعة المنصورة*، عدد ٥ (١٩٨٤م). وقد أُعيد نشره ضمن كتاب: وسام عبد العزيز فرج، *بيزنطة – قراءة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي*، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ١٧٢.

(٣) رنسيمان، *الحضارة البيزنطية*، ص ٢٣٥.

(4) Vryonis, “Byzantium”, p. 162.

الزراعية، والتي قادت الجيوش في الولايات الإمبراطورية(١)، وقد امتلك هؤلاء مساحات كبيرة من الأراضي الخصبة والمراعى الواسعة والكثير من العبيد الذين قاموا بشرائهم لزراعة أراضيهم ورعي ماشيتهم(٢)، وكان الكثير من كبار المُلاك يحتلون الوظائف العليا في العاصمة والأقاليم البيزنطية، وكان من أهم القادة العسكريين في الدولة البيزنطية الماجستير μαγιστρος، وهو قائد الجنود وأعلى رتبة بين العسكريين، ويندرج تحت الماجستير عدد من الماجستيرات الأقل رتبة هم: ماجستير الجبهة الأرمنِّية، وماجستير جيش الشرق، وماجستير جيش البلقان، وماجستير جيش العاصمة(٣)، ثم يأتي الدمستق Ὁ δομέστικος، وهو القائد العام للجيش الإمبراطوري في العاصمة، أو ما عُرفت باسم فرقة التاجماتا tagmata، والتي انقسمت خلال القرن التاسع إلى أربع فرق هى: فرقة المدارس، وفرقة الحرس الإمبراطوري، وفرقة الفرسان، وفرقة مشاة العاصمة(٤)، ثم يأتي بعد

---

(١) ففي آسيا الصغرى وخلال القرن التاسع الميلادي برزت عائلات كان أهمها عائلات فوقاس، ودوقاس، وأرجيروس، وسكليروس، وبوتانياتيس، وتزيميسكيس، وكوركواس، وفى نهاية القرن العاشر الميلادي ظهرت عائلات كومنين، وديوجينيس، ومالاسينوس، وكيكايومينوس، في حين ظهرت عائلات مانياكس، وباليولوجوس خلال القرن الحادي عشر الميلادي . وفي الجانب الأوروبي ظهر خلال القرن التاسع الميلادي عائلات برينيوس، وخويروسفاكتيس، ومونوماخوس، وفي القرن العاشر الميلادي برزت خمس عائلات هي: تورنيكيوس، وتارونيتوس، وكورتيكيوس، وفاتاتزيس، وجلاباس.

Vryonis, “Byzantium”, p. 161.

وعن أهمية تلك العائلات في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، انظر،

Holmes, C., “Political Elites in the reign of Basil II”, in: *Byzantium in the year 1000*, ed. P. Magdalino, *The Medieval Mediterranean People, Economies and Cultures, 400-1500* 45 (Leiden & Boston 2003), pp. 44-56.

وعن النبلاء الأرستقراطيين خلال القرن الحادي عشر الميلادي، انظر،

Theodulus, *The Will of a Provincial Magnate, Eustathius Boilas (1059)*, trans. S. Vryonis, in: *Dumbarton Oaks Papers* 11 (1957), p. 266; See also: Teall, J. L., “The Byzantine Agricultural Tradition”, *Dumbarton Oaks Papers* 25 (1971), p. 53.

(٢) تركت النبيلة دانيليس – في مدينة بتراس البيزنطية بإقليم البيلوبونيز – عند موتها في نهاية القرن التاسع الميلادي ما يقرب من ثلاثة آلاف من العبيد والخصيان. Constantine Porphyrogenitus, *Vita Basilii*, V, p. 321، ولكن سكيليتزيس ذكر أن عددهم كان قرابة الثلاثمائة شاب فقط. Skylitzès, *Empereurs*, p. 134.

(3) Bury, J., *The Imperial Administrative System in the Ninth Century, With a Revised Text of The Kletorologian of Philotheos* (London 1911), pp. 22, 29.

(4) Bury, *Imperial Administrative System*, pp. 47-48.

وذكر كل من ابن حوقل وابن فقيه الهمذاني أن الدمستق هو القائد العام للجيش البيزنطي، ويتبعه اثنا عشر بطريقًا. انظر، ابن حوقل، *صورة الأرض*، ق ١، ص ١٩٦؛ ابن فقيه الهمذانى، *مختصر كتاب البلدان*، تحقيق/ م. ى. دي

ذلك قائد الأسطول أو أمير البحر Ὁ λογοθέτης τοῦ δρόμου[١]، ثم الإستراتيجوس στρατηγός وهو الحاكم أو القائد العسكري للإقليم، وقد تقدم حكام الأقاليم الشرقية على أمثالهم في الأقاليم الغربية، حيث تلقى الأولون رواتبهم من الخزانة الإمبراطورية، بينما تلقى الآخرون رواتبهم مما جمعوه من الضرائب في أقاليمهم[٢]، ويساعد الإستراتيجوس مجموعة من القادة الفرعيين مثل: الطرامخة turmarches وهم أعلى الضباط في الإقليم، ويقود كل منهم تورما turma (لواء) من تورمات الإقليم، ثم يليهم الدرونجيرات drungarioi وهم قادة الوحدات (الكتائب) العسكرية، ثم القمامسة comites، وقائد الحرس الشخصي لحاكم الإقليم (كنتارخوس سباثاريورات) centarchus spathariorum، يليه البروتوكانكيلاريوس protocancellarius وهو المكلف بإدخال الراغبين في الانضمام إلى الخدمة العسكرية، وقد وضعت الحكومة المركزية بجانبه مجموعة من الموظفين مثل: البروتونتاريوس protontarius نائبًا عن الشئون المدنية، والكارتولاريوس chartularius مسئولًا عن حفظ السجلات العسكرية في الإقليم، والإشراف على الشئون المالية ورواتب الجند[٣].

- **الموظفون المدنيون**، وكان أهمهم على الإطلاق اللوجثيت Logothetes أو القربلاط Curpolates، وهو بمثابة وزير الخارجية ومستشار الإمبراطور والمشرف على الخزانة الإمبراطورية، ورئيس دار الإنشاء الإمبراطورية، والمشرف على ميدان السباق، وفي بعض الأحيان كان يُعَيّن قائدًا للأسطول البيزنطي [٤]، وكان القربلاط يحمل رتبة قيصر (نائب الإمبراطور)، وعلى ذلك لبس تاجًا بدون صليب [٥]، ثم يأتي الإيبارخ (والي العاصمة)

خويه (ليدن ١٨٨٥م)، وأُعيد نشره في: *سلسلة الجغرافيا الإسلامية بمعهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية*، مج ٣٨، (فرانكفورت ١٩٩٢م)، ص ١٤٧.

(١) قسطنطين السابع، *إدارة الإمبراطورية*، ص ١٩٨–١٩٩.

(2) Bury, *Imperial Administrative System*, pp. 39 - 40.

(3) Bury, *Imperial Administrative System*, pp. 41 - 44.

(4) Bury, *Imperial Administrative System*, pp. 33-34, 91-92.

ومن أهم مَنْ تلقى لقب قربلاط خلال ن القرن التاسع الميلادي ميخائيل (الأول رانجابيه) زوج ابنة الإمبراطور نقفور الأول، وبارداس (خال الإمبراطور ميخائيل الثالث). انظر،

Theophanes, *Chronicle*, p. 674; Theophanes Continuatus, p. 176; Skylitzès, *Empereurs de Constantinople*, pp. 5, 87.

وفي القرن العاشر الميلادي أعطى نقفور الثاني فوقاس اللقب لأخيه ليو. Skylitzès, *Empereurs*, p. 239.

(5) Bury, *Imperial Administrative System*, p. 22.

Eparchion Biblion، وهو المشرف العام على العاصمة، والمشرف على مراسم الاحتفالات الإمبراطورية(١)، كما كان الوالي يرأس محكمة العاصمة، والتي أُطلق عليها محكمة الوالي(٢). ومن أهم الوظائف المدنيـة الباراكويمومينوس (كبير الأمناء) Ὁ παρακοιμώμενος وهو الحارس الأمين لمخدع الإمبراطور(٣)، وكانت تلك الوظيفة تُعطى عادةً للخصيان في القصر الإمبراطوري(٤)، ثم يأتي البرايتور (قاضي القضاة)، وهو الموظف المسئول عن تطبيق القانون والنظام في العاصمة؛ وقد كان لكل إقليم قاضٍ يعمل تحت سلطة الإستراتيجوس(٥)، ثم يأتي الكويستور (صاحب الشرطة) Quaestor وهو المشرف على السجون، ورئيس محكمة الاستئناف في القضايا المقامة ضد حكام الأقاليم والنبلاء، والمشرف على إدارة أملاك القُصر، ومراقبة العاطلين القادمين إلى العاصمة من الولايات، وتلقي شكاوى الفلاحين المُستأجِرين ضد كبار الملاك الزراعيين(٦). ومن الوظائف المدنية المهمة وظيفة أرخون دار سك العملة ἄρχων τῆς χαραγῆς، وهو المشرف على دار سك العملة بالعاصمة(٧).

- **حاملو الألقاب الشرفية**، حمل بعض النبلاء لقب بازيليوباتور (أبو الإمبراطور) Ὁ βασιλεοπάτωρ، وهو لقب شرفي يُعْطِي لحامله الوجاهة والسلطة، ويصبح بمقتضاه الوزير الأول في البلاط الإمبراطوري (٨)، وأول من حمله هو ستليانوس زاويتزس Stylianos Zaoutzes حمو الإمبراطور ليو السادس Leo VI (٨٨٦–

---

(١) *والي المدينة*، ص١٧٢؛ وانظر كذلك،

Bury, *Imperial Administrative System*, p. 69; Bréhier, L., *Les institutions de l'empire byzantine* (Paris 1949), p. 188.

(2) Theophanes, *Chronicle*, p. 684.

(٣) قسطنطين السابع، *إدارة الإمبراطورية*، ص ١٩٨.

(4) Whittow, M., *The Making of Orthodox Byzantium 600 – 1025* (London 1996), p. 346.

(5) Theophanes, *Chronicle*, p. 692.

وقد ذكره ابن بطوطة بلقب "النجش كفالي"، ولم نعثر له على معنى. انظر، ابن بطوطة، *رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*، (القاهرة ١٩٦٦)، ص ٢٣٦.

(6) Bury, *Imperial Administrative System*, pp. 73-74.

(7) Bury, *Imperial Administrative System*, p. 96.

(8) Bury, *Imperial Administrative System*, pp. 114-115.

٩١٢م/ ٢٧٣-٣٠٠هـ) عام ٨٩٤م/ ٢٨١هـ[١]، ثم مَنْ حمل لقب بطريق πατρίκος ، ويعني (الشريف أو النبيل)، وهى رتبة أنشأها قسطنطين الأول، وظلت أعلى رتبة حتى بداية القرن العاشر الميلادي[٢]، كذلك حملت النبيلات من النساء لقب زوستي بطريقة ζωστη πατρικία، وتعني "سيدة الحُلَل"[٣]، وأول من حملته خلال القرن التاسع الميلادي ثيوكتستي Theoktiste أم الإمبراطورة ثيودورا زوجة الإمبراطور ثيوفيل[٤]، ثم حاملو لقب البروتوسباثاريوس πρoτoσπαθαριος، وهو يعني في اللغة اليونانية (مُقدم حملة السيوف)[٥]، ثم حاملو ألقاب سباثاروكانديدات σπαθαροκανδιδατος ، وهو لقب مركب من مقطعين: سباثاريوس (حامل السيف)، وكانديداتوس (مرشح) أي (المرشح للحصول على لقب حامل السيف)[٦]، ثم حاملو ألقاب سباثاريوس σπαθάρίος (حامل السيف)[٧].

- **رجال الإكليروس (الدين)**، وعلى رأسهم البطريرك والمطارنة والأساقفة والقساوسة ورؤساء الشمامسة والشمامسة والقارئون والمنشدون، وقد احتلوا مكانة كبيرة في المجتمع البيزنطي، اتسمت بالاحترام من كل الطبقات[٨].

ب – __الطبقة الوسطى:__ وهي التي امتلكت المال ولكنها افتقدت السلطة التي كانت للطبقة العليا (١)، وقد انقسمت إلى عدة فئات:

---

(1) *Vita S. Euthymii*, p. 13; Georgius Monachus, *Vita Imperatorum Recentiorum*, in: *Theophanes Continuatus*, ed. I. Bekker, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (Bonn 1838), p. 852; Theophanes Continuatus, p. 357; Symeon Magister, *Annales*, in: *Theophanes Continuatus*, ed. I. Bekker, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (Bonn 1838), p. 701.

(2) Bury, *Imperial Administrative System*, pp. 73-74.

(3) Bury, *Administrative System*, p. 33.

(4) Theophanes Continuatus, p. 90.

(5) Bury, *Imperial Administrative System*, pp. 22, 27.

(6) Constantine Porphyrogenitus, *De Cerimoniis Aulae Byzantinae*, vol. II, ed. I. Reiskii, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (Bonn, 1829); *Le livre des cérémonies*, vol. 1, trad. A. Vogt (Paris 1935), pp. 25- 26; See also, Bury, *Imperial Administrative System*, pp. 26- 27.

(٧) قسطنطين السابع، *إدارة الإمبراطورية*، ص ٢٠٢. Bury, *Imperial Administrative System*, p. 22.

(8) Schroeder, H. J., *Disciplinary Decrees the General of Councils*: *Text, Translation and Commentary*, St. Louis: B. Herder,1937, p. 170.

- **كبار التجار**(٢).
- **الفنانون** ووقع على كاهلهم تزيين جدران الكنائس بصور المسيح والعذراء والرسل والقديسين ومشاهد الآخرة(٣).
- **المهندسون** وتجلت أهميتهم في دورهم في تصميم وتنفيذ الحصون والقلاع على الحدود البيزنطية(٤).
- **المثقفون،** وهم المدرسون في المدارس وفي جامعة القسطنطينية وفي منازل الأثرياء، والشعراء، والموثقون القانونيون في الإدارات الحكومية كإدارة التسجيل والتوثيق وإدارة الأرشيف والسكرتارية، والكُتاب في القصر الإمبراطوري وكنيسة الحكمة المقدسة بالقسطنطينية(٥).
- **الناسخون** الذين عملوا في نسخ المخطوطات والكتب الدينية بالأديرة(٦).
- **الأطباء ومساعدوهم،** الذين عملوا في المستشفيات الحكومية والديرية، وكذلك الصيادلة(١).

---

(1) *The Life of St Thomais of Lesbos*, trans. P. Halsall, in: *Holy Women of Byzantium, Ten Saints Lives in English Translation*, ed. A. M. Talbot, Byzantine Saints Lives in Translation 1 (Washington, D.C. 1996), p. 299.

(٢) هم أصحاب المؤسسات التجارية الكبيرة، ويُعيّن رؤساء النقابات (الإكزارخات) έ من بينهم. انظر،

Bury, *Imperial Administrative System*, pp. 72-73.

(٣) ومن أشهر الرسامين خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين رسام يسمى يوحنا. انظر،

The Life of St. Theodora of Thessalnike, trans. A. M. Talbot, in: *Holy Women of Byzantium*, *Ten Saints Lives in English Translation*, ed. A. M. Talbot, Byzantine Saints Lives in Translation 1 (Washington, D.C. 1996), pp. 209- 210.

وعن مقدرة الرسامين على رسم أشكال الرُسل على قطع الخشب الصغيرة، انظر،

Phoberos, *Rule of John for the Monastery of St. John the Forerunner of Phoberos*, trans. R. Jordan, in: *Byzantine Monastic Foundation Documents, A complete Translation of the Surviving Founders Typika and Testaments*, ed .J. Thomas & A. C. Hero, 5 vols. (Washington, D.C. 2000), vol. 3, pp. 887-888.

(٤) *تاريخ ميخائيل السرياني*، ج٣، ص ١٣٤.

(5) Treadgold, W. T., "The Revival of Byzantine Learning and the Revival of the Byzantine State", *American Historical Review* 84/5 (Dec., 1979), pp. 1250-1251.

وانظر أيضًا، نجلاء مصطفى شيحه، "مدينة القسطنطينية في القرن العاشر الميلادي"، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٨٣-٨٤.

(6) Studios, *Rule of the Monastery of St. John Studios in Constantinople*, trans. T. Miller, in: *Byzantine Monastic Foundation Documents, A complete Translation of the Surviving Founders Typika and Testaments*, ed .J. Thomas & A. C. Hero, 5 vols. (Washington, D.C. 2000), vol. 1, p. 112.

جـ- طبقة العامة:

إن لفظ العامة plēbēs (plēbs) حسب القانون الروماني ينسحب على كل المواطنين ما عدا النبلاء ورجال السناتو [٢]، وعلى ذلك فإن الطبقة العليا تشمل كل من النبلاء ورجال السناتو فقط، وما عدا ذلك يدخل ضمن نطاق طبقة العامة. كما يعني اللفظ السابق السوقة أو الرعاع أو الدهماء أو سواد الأمة [٣]، وهناك لفظ آخر وهو vulgus، والجمع vulgi، ويعني "الطبقة الدنيا"، وهي كلمة جماد، عادةً ما تأتي في صيغة المذكر[٤]. أما قسطنطين السابع فيُعَرِّف العامي على أنه "ذلك الشخص الذي لا يملك دخلًا على الإطلاق"[٥]. وكانت طبقة العامة هي الطبقة العريضة التي احتلت قاعدة الهرم الاجتماعي، وانحدرت من أعلى إلى أسفل مكونة مجموعة من الفئات، تداخلت أحيانًا، وتمايزت أحيانًا أخرى . ويُقَسِم لنا أحد الباحثين المحدثين طبقة العامة إلى ثلاث فئات[٦]:

- فئة صغار الحرفيين، وصغار التجار، وأصحاب الحانات.
- فئة المتسولين، والعمال المؤقتين، وعمال اليومية.
- فئة العبيد وأنصاف الأحرار.

ولكن إذا نظرنا إلى التقسيم السابق نجده يخلو من فئة لم تكن تنتمي إلى الطبقتين العليا والوسطى، وتلك الفئة هي الفلاحين، سواء من صغار ملاك الأراضي الزراعية من المزارعين الأحرار، أو من الفلاحين المُسْتَأْجِرين لأراضي الغير الذين لا يملكون أرضًا، وعلى ذلك يمكننا تقسيم طبقة العامة إلى عدة فئات هى:

- الفلاحون.
- صغار التجار.
- الحرفيون والعمال.

---

(1) Pantokrator, *Typikon of Emperor John II Komnenos for the Monastery of Christ Pantokrator in Constantinople*, trans. R. Jordan, in: *Byzantine Monastic Foundation Documents, A complete Translation of the Surviving Founders Typika and Testaments*, ed .J. Thomas & A. C. Hero, 5 vols. (Washington, D.C. 2000), vol. 2, p. 759.

(٢) *مدونة جوستنيان في الفقه الروماني*، ترجمة/ عبد العزيز فهمي، (القاهرة ٢٠٠٥م)، ص ٨.

(3) *Collins York Latin Dictionary and Plus Grammer* (Beirut– Lebanon 2000), p.163.

(4) *Collins Latin Dictionary*., p. 235.

(٥) قسطنطين السابع، *إدارة الإمبراطورية*، ص ٢٠٥.

(٦) وسام فرج، "مجتمع القسطنطينية"، ص ١٨٧.

- عمال اليومية والمتسولون.
- العبيد.
- الخصيان.

ومن الملاحظ أن الحياة الريفية كانت هي النمط السائد في الإمبراطورية البيزنطية، وعاش أكثر سكان الإمبراطورية في المناطق الريفية[١]. ولكن مَنْ هو الفلاح؟ وهل كان كلُ الفلاحين متشابهين في أنماط حياتهم؟ عند تفسير كلمة الفلاح (جيورجوس) γεωργός في اللغة اليونانية نجدها تتكون من مقطعين: (جيو) γεω ويعني "الأرض"، والفعل (أرجوس) ἀργός "يعمل أو يفلح"، أي "مَنْ يعمل في الأرض"، كما أُشتق منها لفظ γεωργία ويعني "الفلاحة أو الزراعة" (٢)، وهناك مصطلحات أخرى تصف الفلاح منها على سبيل المثال : "الخوريتاي" choritai أي قاطنو الأرض، و"البارويكوي" paroikoi أي "ساكنو القرى"، وهو يشير إلى الفلاحين المُسْتَأْجِرين. كذلك مصطلح "ديموسلاريوي" dēmoslarioi أي "دافعو ضريبة الدولة"، و"خينوي" xenoi أي "التابعون"، و"زيوجاراتوي" zeugaratoi أي "مالكو زوجين من الثيران"، و"كاليبيوتاي" kalybiotai أي "مالكو الأكواخ"، و"كابنيكاريوي" kapnikarioi أي "مالكو المواقد"[٣]، و"خوروأويكوديسبوتاي" χωροοικοδεσπόται أي "مالكو المنازل الريفية"، و"أبلوس خوريتاي" ἁπλῶς χωρῖται أي "الفلاحون البسطاء"[٤]، البسطاء"[٤]، وأخيـرًا كلمة agroikos وتعني "العامي" أو "الخشن"[٥].

وقد عاش الفلاحون في القرية chōrion، والتي جاءت في المصادر البيزنطية خلال العصر البيزنطي الأوسط بمعنى "المكان"، كما ظهر مصطلح (كوموبوليس) kōmopolis ويعني "البلدة"، ليعبر عن القرى الكبيرة التي أُقيمت على الحدود البيزنطية، والجدير بالذكر أن القرى في آسيا الصغرى كانت أكبر حجمًا و تمركزًا من قرى البلقان، حيث احتوت القرية الواحدة في الجانب الآسيوي على حوالي ٤٥٠ – ٥٠٠ فلاح، أما البلقان فقراها الصغيرة سُميت

---

(1) Kažhdan, A., “The Peasantry”, in: *The Byzantines*, ed. G. Cavallo, trans. Th. Dunlop, T. L. Fagan & Ch. Lambert (Chicago & London 1997), p. 43.

(2) Liddell & Scott, *Greek- English Lexicon* (Oxford 1986), p. 163.

(3) Kažhdan, “Peasantry”, p. 43.

(4) Neville, A. L., “Local Provincial Elites in Eleventh Century Hellas and Poloponnese”, Ph.D. Dissertation (Faculty of Princeton University 1998), p. 194.

(5) Kažhdan, “Peasantry”, p. 43.

(مونوسبيتا) monospita وتعني "المنزل الواحد"؛ بسبب صغر حجمها وقلة سكانها(١). وقد انقسم الفلاحون في مجتمع القرية البيزنطية إلى عدة فئات:

- الجنديّ الفلاح (إستراتيوتيس) stratiōtes .
– صغار ملاك الأراضي الزراعية الأحرار (بتوخوي) ptôchoi .
– الفلاح المُسْتَأْجِر (بارويكوس) paroikus .
– الفلاح الأجير (أوبراريوس) operārius.
– الفلاح التابع (خينوس) xenus ، أو قن الأرض (جيو دولوس) γεω δοῦλος.

شهدت الأقاليم العسكرية نموًا كبيرًا لفئة "الفلاحين الجنود" في مطلع القرن التاسع الميلادي، فقد كان وقوع بيزنطة بين عدد من الدول المعادية لها سببًا في إنشاء نظام الثيمات الحدودية، واستحداث ما عُرف بنظام الكاليزورا kalisora (الممرات الجبلية)، مما يعني زيادة في النفقات، فقامت الحكومة البيزنطية بحصر الأصقاع الكبيرة، وتوزيعها على السكان المحليين لاستصلاحها(٢)، وقامت الإدارة الإمبراطورية بتوزيع قطعٍ من الأراضي الزراعية في تلك الأقاليم على الفلاحين في شكل منح ممنوع التصرف فيها، عُرفت باسم "استراتيوتيكا كاتيماتا" stratiotica Katimata، أي الأراضي العسكرية، بشرط أن يتقدم الفلاح كجنديّ لتأدية الخدمة العسكرية في قوات الإقليم التابع له، ويتم توارث هذه الخدمة العسكرية مثلما يتم توارث حيازة الأرض الزراعية(٣)، كما يتم تأدية الضرائب المفروضة عليها(٤)، وبذلك تنتقل الأرض من الأب إلى أكبر الأبناء(٥)، أما بقية أفراد الأسرة فقد كان لهم الحق في استصلاح الأراضي،

---

(1) Kažhdan, "Peasantry", pp. 44- 45.

وهذا ما أكده ابن حوقل عندما تحدث عن القرى البيزنطية قائـلًا: "وذلك أن جلها جبال وقلاع وحصون ومطامير وقرى في الجبال منحوتة وتحت الأرض منقوبة". انظر، ابن حوقل، *صورة الأرض*، ق ١، ص ٢٠٠.

(2) Andréadès, A., "Public Finances: Currency, Public Expenditure, Budget, Public Revenue", in: *Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization*, ed. N. H. Baynes & H. St. Moss (Oxford 1948), pp. 72-73.

(٣) طارق منصور محمد، "الجيش في الإمبراطورية البيزنطية من بداية القرن السابع إلى نهاية القرن التاسع الميلادي"، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب بنها – جامعة الزقازيق، ١٩٩٣م، ص ١٠٢.

(4) رنسيمان، *الحضارة البيزنطية*، ص ٢٤٩. بلغ عدد الجنود الفلاحين الذين وُزِعَت عليهم الأراضي من قبل الدولة حوالي ستين ألفًا آنذاك، للمزيد انظر،

Andréadès, A., "The Economic Life of the Byzantine Empire, Population, Agriculture, Industry, Commerce", in: *Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization*, ed. N. H. Baynes & H. St. Moss (Oxford 1948), p. 57.

(٥) هسي (جوان)، *العالم البيزنطي*، ترجمة وتعليق/ د. رأفت عبد الحميد، (القاهرة ١٩٩٧م)، ص ٢٧٧.

وامتلاك الأراضي الشاغرة التي لا وارث لها؛ مما زاد من أعداد الجنود من صغار ملاك الأراضي الزراعية الأحرار، وهذا يعني أن أراضي الفلاحين الجنود أصبحت وسيلة لاكتساب الرزق، وكذلك مصدرًا للتموين الحربي للجيش البيزنطي(١)، وفي القرن الثاني عشر الميلادي قام عدد من العاملين في حياكة الملابس والأساكفة وعمال البناء ومُرَبِي الخيول بتقديم رشوة للموظفين العاملين في السجلات العسكرية لتجنيدهم بالجيش؛ بسبب عدم كفاية دخولهم لضروريات الحياة اليومية، ورغبتهم في الحصول على قطعة أرض لزراعتها بالقمح، والحصول على مجموعة من العبيد الذين يعملون في الأرض(٢)؛ مما يدل على أهمية تلك الفئة، وما تميزت به من ميزات[٣].

وقد انخفضت أعداد الجنود من الفلاحين خلال العصر البيزنطي الأوسط؛ بسبب ازدياد قوة كبار ملاك الأراضي الزراعية، واستيلائهم على أراضى صغار المزارعين؛ مما أدى إلى خلل في التركيب الاجتماعي للسكان في الأقاليم البيزنطية خلال تلك الفترة[٤]، كذلك فإن حركة الهجرة الإجبارية للجنود الفلاحين في آسيا الصغرى لإعمار البلقان وتراقيا أدى إلى بيعهم لأراضيهم الزراعية(٥)، إلى جانب تراكم الضرائب المختلفة عليهم مثل ضريبة الأرض وضريبة وضريبة الرأس(٦)، بالإضافة إلى سيطرة الأتراك السلاجقة على أجزاء كبيرة من آسيا الصغرى، الصغرى، والتي كانت العمود الفقري للجيش البيزنطي، إلى جانب الصراع الذي نشب بين الحزبين العسكري والمدني . وقد كان لكل ذلك أكبر الأثر في اختفاء فئة الجنود الفلاحين، وهبوطهم إلى درجة الفقر، ولم يعد لديهم الرغبة أو العدة للحرب؛ مما اضطر الحكومة إلى الاعتماد على الجند المرتزقة[٧].

---

(1) Ostrogorsky, G., "Agrarian Conditions in the Byzantine Empire in the Middle Ages", The Cambridge Economic History of Europe 1:*The Agrarian Life of the Middle Ages*, ed. J. H. Clapham & E. Power (Cambridge 1941), p. 196.

وأكد ابن خرداذبه ذلك قائلًا : "كان الرجل يحمل من منزله كعكه وزيته وخمره وجبنه". انظر، ابن خرداذبه، *المسالك والممالك*، ص ١١٢.

(2) Choniatēs, *Annals*, pp. 118-119.

(3) وعن كيفية استدعاء الجنديّ الفلاح إلى الحرب، وتدريباته العسكرية، والمدة التي يقضيها في الحرب. انظر، Leo the Deacon, *History*, pp. 87, 90-91, 103 .

(4) Charanis, P., "The Byzantine Empire in the Eleventh Century", in: *A History of the Crusades*, ed. K. M. Setton (Philadelphia 1955), p. 202.

(5) Theophanes, *Chronicle*, p. 667; Charanis, "Transfer of Population", p. 145.

(6) Haldon, J., "Military Service, Military Lands, and the Status of Soldiers: Current Problems and Interpretations", *Dumbarton Oaks Papers* 47 (1993), p. 24.

(7) Charanis, "Byzantine Empire", pp. 204, 207.

وتأتي الفئة الثانية من الفلاحين وهم "صغار مُلاك الأراضي الزراعية من الفلاحين الأحرار"، وهؤلاء كانوا من أولاد الجنود الذين لا يحق لهم وراثة آبائهم، وكان عليهم تطهير الأراضي البور، واستصلاحها وزراعتها مقابل دفع الضرائب المقررة عليها من قِبل الحكومة، وهكذا نمت فئة الفلاحين الأحرار بجانب فئة الجنود الفلاحين، وشكل الاثنان الشكل الأساسي للجيش، والعمود الفقري للقوة الاقتصادية والمالية للإمبراطورية البيزنطية. وقد اختلف الباحثون المحدثون حول هذين الفئتين، فهل هناك فئة مميزة عن الأخرى؟ أم أنهما متساويتان من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية؟ فمن الناحية الاقتصادية هل كانت ممتلكات الجنود مثل أمثالهم من الفلاحين الأحرار؟ ومن الناحية الاجتماعية هل كان الاثنان في نفس الطبقة ونفس المجموعة الإدارية والمالية، ويُعَامَلان كطبقة واحدة من جانب قوانين الملكية الزراعية؟[١].

أما الفئة الثالثة من الفلاحين فهو "الفلاح المُسْتَأْجِر"، الذي عَمِلَ في أراضي كبار الملاك كمستأجر حر، وليس كعبدٍ مُسَخَرٍ بسبب ديونه، فقد كان لديه من المال ما يكفي لاستئجار الأرض، وتسوية ديونه، وكان الأبناء يرثون الأراضي المستأجرة عن آبائهم مقابل الاستمرار في دفع الإيجارات المقررة عليها نقدًا أو عينًا[٢]، ومن الجدير بالذكر أن تلك الفئة وجدت صعوبة

---

(١) رأى جورج أوستروجورسكي تماثل كل من الفلاحين الجنود والفلاحين الأحرار من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، فمن الناحية الاقتصادية فإن الفلاحين الجنود يؤدون ما على الأرض من التزامات في شكل التجنيد الإجباري، أما فئة الفلاحين الأحرار فيؤدون ما على الأرض في شكل ضريبة الأرض، ومن الناحية الاجتماعية فهما يقعان في نفس الفئة ويتميزون بنفس الميزات، وهو ما يتفق معه هالدون الذي يرى أنه خلال القرن العاشر الميلادي امتلك كل من الجنود الفلاحين وصغار الفلاحين مساحات متساوية من الأرض.

Ostrogorsky, "Agrarian Conditions", p. 197; Haldon, "Military Service", pp. 24, 58.

ويختلف الدكتور طارق منصور مع هذا الرأي، إذ يرى أن طبقة الجند طبقة ثرية عن طبقة الفلاحين. للمزيد انظر، طارق منصور، *قطوف الفكر البيزنطي*، جـ ١، ص ١٢٢. ويعضد الرأي الأخير الباحثة جاكلين لوفورت، التي ذكرت أن أقصى مساحة من الأراضي الزراعية التي امتلكها صغار الفلاحين لم تتعد ٥,٢٥ فدان، وذلك بناءً على وثائق قرى جبل آثوس، وهذا ما يختلف تمامًا مع رأي هالدون. انظر ،

Lefort, J., "Rural Economy and Social Relations in the Countryside", *Dumbarton Oaks Papers* 47 (1993), p. 107.

وربما يُقبل رأي كل من هالدون والدكتور طارق منصور إذا عرفنا أن الجنود البيزنطيين خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين انقسموا إلى فئتين: الأولى هم الجنود الذين جهّزوا أنفسهم بالأسلحة والدواب والمؤن؛ أما الفئة الثانية فهم الجنود الفقراء الذين كانوا مسئولين عن دواب حملهم وأسلحتهم، ولكنهم تلقوا أيضًا siteresia (التجهيزات والمؤن) من الحكومة، وربما أن الفئة الأولى هي تلك التي أشار إليها الدكتور طارق منصور.

(2) Charanis, "Byzantine Empire", p. 203.

لتغيير أوضاعها إلى الأفضل، فظلت ثابتة على ما هى عليه من استئجار الأرض، والانتفاع بها[١].

ويأتي "الفلاح الأجير" في المرتبة الرابعة من فئة الفلاحين، حيث عَمِلَ هؤلاء كأجراء في المزارع الملحقة بالأديرة [٢]، أو مزارع الكروم، وحدائق صغار الفلاحين[٣].

أما الفئة الأخيرة من الفلاحين فهي فئة "الفلاح التابع"، أو "قِن الأرض"، وهو الذي عَمِلَ كعبد في أراضى كبار الملاك؛ بسبب الديون المتراكمة عليه للحكومة، فاختار التنازل عن أراضيه لكبار الملاك الأرستقراطيين، وكذلك التنازل عن حريته، والعمل في تلك الأرض كعبد، مقابل تحمل هؤلاء السادة من كبار الملاك الأعباء الضريبية والديون المتراكمة عليه[٤]. وانطبق الأمر نفسه على الفلاحين المتنازلين عن أراضيهم للأديرة، والعمل كأقنان أرض بمزارع الكروم الملحقة بالدير[٥]، حيث يقومون بطحن الدقيق في الطواحين المُلحقة بالأديرة، وحمل الأخشاب والماء، والقيام بالأعمال الخاصة بمضايف الأديرة[٦]، وكان أبناء هؤلاء العبيد يتبعون آباءهم، فهم عبيد مثلهم، إلا إذا تفضل السيد النبيل بالسماح لهم بمغادرة أراضيه، والالتحاق بحرف أخرى[٧]. ولدينا وثيقة تخص إسحق كومنين Isaac Komnenos – الابن السادس للإمبراطور

(١) رنسيمان، *الحضارة البيزنطية*، ص ٢٤٨.

(2) Pakourianos, *Typikon of Gregory Pakourianos for the Monastery of the Mother of God Petritzonitissa in Bačkovo*, trans. R. Jordan, in: *Byzantine Monastic Foundation Documents, A complete Translation of the Surviving Founders Typika and Testaments*, ed .J. Thomas & A. C. Hero, 5 vols. (Washington, D.C. 2000), vol. 2, p. 545; Kecharitomene, *Typikon of Empress Irene Doukaina Komnene for the Convent of the Mother of God Kecharitomene in Constantinople*, trans. R. Jordan, in: *Byzantine Monastic Foundation Documents, A complete Translation of the Surviving Founders Typika and Testaments*, ed .J. Thomas & A. C. Hero, 5 vols. (Washington, D.C. 2000), vol. 2, p. 685.

(3) Heliou Bomon, *Typikon of Nikephoros Mystikos for the Monastery of the Mother of God ton Heliou Bomon or Elegmon*, trans. A. Bandy, in: *Byzantine Monastic Foundation Documents, A complete Translation of the Surviving Founders Typika and Testaments*, ed .J. Thomas & A. C. Hero, 5 vols. (Washington, D.C. 2000), vol. 3, p. 1065.

(٤) رنسيمان، *الحضارة البيزنطية*، ص ٢٤٩.

(5) *Pakourianos Typikon*, p. 545; *Heliou Bomon Typikon*, p. 1065.

(6) *Pakourianos Typikon*, p. 549.

(٧) رنسيمان، *الحضارة البيزنطية*، ص ٢٤٨.

ألكسيوس الأول كومنين – ترجع إلى عام ١١٥٢م، ذكرت أن ثلاث عشرة قرية في إقليم التراقيسيان Thracesian كانت تابعةً له، وكل فلاحيها من عبيد الأرض(١).

ومن الفئات المهمة في طبقة العامة فئة "صغار التجار"، الذين عانوا من انخفاض رأس المال المُستثمَر في تجارتهم، في حين تضخمت رؤوس الأموال لدى كبار التجار؛ مما أدى إلى تحكم هؤلاء الكبار في السوق البيزنطي، إلى جانب سيطرتهم على رئاسة النقابات التجارية، بالإضافة إلى عدم السماح لصغار التجار بالنمو والتوسع في تجارتهم، ولكن رغم ذلك استمرت المشروعات التجارية الصغيرة في السوق البيزنطي؛ والسبب في ذلك القواعد التي وضعها والي المدينة لتنظيم التجارة، وخاصة في العاصمة(٢).

والآن نتعرف على فئة مهمة للغاية في المجتمع، ألا وهى فئة "صغار الحرفيين والعمال"، ويمكن تعريف العامل (إرجون) ἔργον اصطلاحيًا بأنه : "مَنْ يعمل" (إرجو) ἐργῶ(٣)، وهذا المصطلح يشمل مَنْ يعمل في أي حرفة مثل: الغزالـين، أو النساجين، أو الخبازين، بالإضافة إلى صُناع الشمع، وصُناع الصابون، وصُناع الجلود والسروجية، والقصابين (الجزارين)، والسباكين والمرخمين وعمال البناء، وهى الحرف التي وردت في كتاب والي المدينة(٤).

وتكونت فئة صغار الحرفيين من العاملين في الورش والمتاجر المملوكة للغير، وقد عَمِلَ هؤلاء في الورش المملوكة للدولة (بازيليكا إرجودوسيا) Basilika Ergodosia، أو في ورش ومحلات مملوكة للقطاع الخاص (إرجاستيرا) Ergasteria، ويمكن القول أن العاملين في الورش الحكومية كانوا يعملون في صناعة الأسلحة، وصناعة أنواع معينة من المنسوجات الحريرية التي يقتصر استعمالها على القصر الإمبراطوري، أو كانوا يعملون في دُور سك العملة

---

(1) Kosmosoteira, *Typikon of the Sebastokrator Isaac Komnenos for the Monastery of the Mother of God Kosmosoteira near Bera*, trans. N. P. Ševčenko, in: *Byzantine Monastic Foundation Documents, A complete Translation of the Surviving Founders Typika and Testaments*, ed .J. Thomas & A. C. Hero, 5 vols. (Washington, D.C. 2000), vol. 2, pp. 828- 829.

وقع إقليم التراقيسيان غرب آسيا الصغرى، عاصمته مدينة إفسوس، أنشأه الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى ما بين عامي ٧٤٠- ٧٤٣م. وانظر، Constantine Porphyrogenitus, *De Thematibus*, I, pp. 22-24.

وانظر أيضًا، طارق منصور، *قطوف الفكر البيزنطي*، جـ ١، ص ١٥٣-١٥٦.

(٢) وسام عبد العزيز فرج، "مجتمع القسطنطينية"، ص ١٩٠.

(3) Liddell & Scott, *Greek- English Lexicon*, p. 311.

(٤) *كتاب والي المدينة*، ص ١٦٣-١٦٨.

الحكومية، وعلى الرغم من أن العاملين في ورش القطاع الخاص تمتعوا ببعض الحرية في الانتقال من حرفة إلى أخرى(١)، إلا أن العرف السائد أن الابن كان يتبع أباه في حرفته(٢).

وكان العاملون في حرفة البناء عادة ما يعملون في ترميم الأسوار وحفر الخنادق حول المدن الحدودية بأمر من الحكومة(٣)، إلى جانب بناء المنازل للسكان من مختلف الطبقات(٤)، كما كان البعض منهم يُرسَل من قِبل الحكومة إلى البلاد المجاورة، مثلما حدث أيام باسيل الثاني، الذي أرسل إلى الأمير الروسي فلاديمير عام ٩٨٩م مجموعة من عمال البناء لبناء كنيسة العذراء في مدينة كييف(٥).

لقد كانت الأديرة البيزنطية الكبيرة تمتلك عددًا من المشروعات الصناعية مثل: إنتاج الشمع، وزيت الزيتون، وقطع الأخشاب من الغابات(٦)؛ مما استلزم وجود بعض الحرفيين لتنفيذ تلك الأعمال التي تحتاجها الأديرة(٧)، والذين أُشرف عليهم من خلال مراقب الخزانة بالدير، والذي كان مسئولًا عن تحديد نوع العمل، وكذلك تحديد أجور العاملين(٨).

كما عَمِلَ الفقراء عمالًا في المستشفيات الحكومية، وخاصة النساء اللواتي عَمِلْنَ في غسل ملابس المرضى، أما الرجال فكان معظم أعمالهم تقوم على تسخين المياه وطهي الطعام، والاعتناء بالخيول الخاصة بالأطباء أثناء مداواتهم المرضى، كما عَمِلَ البعض منهم كحراس، ومتعهدي توريد للأطعمة وأدوات المستشفى، كما عملوا خبازين في المخبز الخاص بالمستشفى، أو طحانين في طاحونة المستشفى، أو حتى حانوتية ومنظفين للمجاري الخاصة بالمستشفيات(٩).

---

(1) Leo the Deacon, *History*, p. 191.

وانظر أيضًا، وسام فرج، "مجتمع القسطنطينية"، ص ١٩٠. وقد اتهم والي المدينة هذه الفئة من الشعب بالميل إلى الشر والطمع. انظر ، *كتاب والي المدينة*، ص ١٧٥.

(2) Runciman, “Byzantine Trade and Industry”, p. 112.

(٣) الطبري، *تاريخ الأمم والملوك*، ج ٥، ص ٢٦٦-٢٦٧؛ *تاريخ ميخائيل السرياني*، ج٣، ص ١٣٤.

(4) *كتاب والي المدينة*، ص ١٧٥-١٧٦.

(5) *Russian Primary Chronicle*, p. 119.

(6) Runciman, “Byzantine Trade and Industry”, p. 106.

(7) *Kosmosoteira Typikon*, p. 841.

(8) Christodoulos, *Rule, Testament and Codicil of Christodoulos for the Monastery of St. John the Theologian on Patmos*, trans. P. Karlin- Hayter, in: *Byzantine Monastic Foundation Documents, A complete Translation of the Surviving Founders Typika and Testaments*, ed .J. Thomas & A. C. Hero, 5 vols. (Washington, D.C. 2000), vol. 2, p. 590.

(9) *Pantokrator Typikon*, p. 759.

كما عَمِلَ بعض الأفراد من الطبقة الدنيا كبحارة (ستراتوس) stratos على السفن الخاصة بكبار التجار(١)، أو في الأسطول الحربي الإمبراطوري(٢)، وكان عمل هؤلاء البحارة يتمثل في عدد من الأعمال الموكلة إليهم، كان أهمها على الإطلاق المجدفين الذين قاموا بثلاثة أعمال هي: التجديف والرمي بالنبال والرشق بالأحجار إما بالمقاذيف أو بالأيدي(٣)، كما عمل بعض المجدفين كزراقين (مَنْ يقومون بإلقاء النفط السائل على سفن الأعداء)، وانحصر عملهم في وضع كائنات سامة في جِرار مثل العقارب والثعابين، أو ملء تلك الجِرار بالجير الحي أو المواد الملتهبة، وإلقائها على الأعداء(٤). وإلى جانب البحارة والزراقين، عَمِلَ البعض كنجارين أو أو قلافطة kalphates (مُرَمِمِو السفن)، وهؤلاء يقع على عاتقهم الحفاظ على السفن سليمة حتى لا تتعرض للغرق(٥).

وعَمِلَ بعض الفقراء البيزنطيين كخدم لدى العائلات الأرستقراطية الميسورة(٦)، أو كخدم في الأديرة، حيث كان بعض الرهبان أو الراهبات ذا الأصل الأرستقراطي يستعملون الخدم في الأديرة(٧)، وذلك بعد موافقة رئيس الدير(٨)، وقد أُطلق على هذا النوع من الخدم مصطلح "رفيق

---

(1) Pryor, J. H. & Jeffreys, E. M., *The Age of the* [illegible], *The Byzantine Navy ca 500-1204* (Leiden & Boston 2006), p. 254.

(٢) قسطنطين السابع، *إدارة الإمبراطورية*، ص ٢٠٠.

(3) Leo VI, [illegible], ed. & trans. Pryor & Jeffreys, in: Idem., *The Age of The* [illegible], Appendix Two [a], pp. 490 – 491; Nikēphoros Ouranos, [illegible], ed. & trans. Pryor & Jeffreys, in: Idem., *The Age of The* [illegible], Appendix Five, pp. 578; Anonymous, [illegible], ed. & trans. Pryor & Jeffreys, in: Idem., *The Age of The* [illegible], Appendix Three, ch. 2.7, pp. 532 – 533.

(4) Leo VI, [illegible], pp. 486-487, 508-509; Nikēphoros Ouranos, [illegible], pp. 576- 577, 596- 597.

(5) Nikēphoros Ouranos, [illegible], pp. 574- 575.

(6) *Life of St. Theodora of Thessalnike*, pp. 257- 260.

(7) Evergetis, *Typikon of Timothy for the Monastery of the Mother of God Evergetis*, trans. R. Jordan, in: *Byzantine Monastic Foundation Documents, A complete Translation of the Surviving Founders Typika and Testaments*, ed .J. Thomas & A. C. Hero, 5 vols. (Washington, D.C. 2000), vol. 2, p. 490.

سُمِحَ للنبيلات المترهبات باتخاذ امرأتين حرتين أو إماء يعملن كخدم لهن، ويجب على هؤلاء أن يبقين بالدير، ولا يُغادرنه. انظر، *Kecharitomene Typikon*, p. 670.

(8) *Heliou Bomon Typikon*, p. 1069.

"رفيق الصومعة"(١)، وأصبح وجود هؤلاء الخدم في بعض الأحيان من الضرورات والأسس التي يتطلبها إنشاء تلك الأديرة(٢). ومن الملاحظ أن بعض الأديرة منعت دخول العمال العلمانيين إلى إلى الدير(٣)، كما لم يُسْمَح لهم في بعض الأديرة بتناول الطعام أو شرب النبيذ على موائد الرهبان حتى يبلغوا مبلغ الرجال، منعًا لوقوع الفتنة(٤)، وإلى جانب الأديرة عَمِلَ بعض الفقراء كخدم في الكنائس، حيث اتخذ بعض رجال الدين خدمًا شخصيين لهم، يعملون كنجارين أو طهاة(٥).

ومن الفئات المكونة لطبقة العامة فئة المتسولين، والعمال المؤقتين وعمال اليومية . ولاشك أن أحوال هذه الفئة كانت بائسة، ولهذا كانوا يتجولون ليلًا ونهارًا في الشوارع، وفى أفنية الكنائس والأديرة وأمام القصور(٦). وكان بعض الفلاحين قد طُردوا من أراضيهم، وبقوا في قراهم، قراهم، واستأجروا الأرض من مُلاكها الجدد، ولكن بسبب فداحة الضرائب هرب البعض منهم إلى المدن، وأصبحوا عمال يومية أو متسولين(٧)، فأصبح من مهام صاحب الشرطة في العاصمة حفظ النظام في المدينة، ومتابعة زوارها، والتأكد من عودتهم إلى أقاليمهم بمجرد قضاء حوائجهم، كما كان عليه ترحيل العاطلين الذين لا مأوى لهم في العاصمة، وفى القرن العاشر الميلادي زادت هجرة صغار المزارعين من الريف إلى العاصمة؛ بسبب وطأة الضرائب الحكومية، أو بسبب الضغط الزاحف عليهم من قِبل طبقة كبار الملاك، وأصبح صغار المزارعين إما أتباعًا لهؤلاء السادة الجدد، أو هاربين من ديونهم إلى العاصمة(٨)، مما زاد من أعداد العاطلين، وبالتالي زيادة الجريمة، ففي كثير من الأحيان تكررت حالات سرقة العاطلين

---

(1) Mamas, *Typikon of Athanasios Philanthropenos for the Monastery of St. Mamas in Constantinople*, trans. A. Bandy, in: *Byzantine Monastic Foundation Documents, A complete Translation of the Surviving Founders Typika and Testaments*, ed .J. Thomas & A. C. Hero, 5 vols. (Washington, D.C. 2000), vol.3, p. 1012.

(2) *Pantokrator Typikon*, p. 753.

(3) *Kosmosoteira Typikon*, p. 836.

(4) *Christodoulos Rule*, p. 599.

(5) Leo the Syncellus, *The Correspondence of Leo, Metropolitan of Synada and Syncellus*, trans. M. P. Vinson, Corpus Fontium Historiae Byzantinae 23 (Washington, D.C. 1985), pp. 30- 31.

(6) Nikephoros the Priest, *Life of St. Andrew*, trans. L. Rydén, Studia Byzantina Upsaliensia 4/I-II (Uppsala 1995), pp. 31-33.

(7) Každan, “Peasantry”, pp. 66-67.

(٨) وسام فرج، "مجتمع القسطنطينية"، ص ١٨٨-١٨٩.

لبعض الأديرة[١]، فكان على صاحب الشرطة الحصول لهم على عمل في مخابز الدولة أو الحدائق العامة[٢].

واحتوى المجتمع البيزنطي – مثل مجتمعات العصور الوسطى الأخرى – على العبيد بين أعضائه الذين لعبوا دورًا مهمًا في الحياتين الاقتصادية والاجتماعية[٣]، ولكن ما معنى العبودية في المجتمع البيزنطي؟

يُعَرِّف أحد الباحثين المحدثين العبد (دولوس) doulos في المجتمع البيزنطي بأنه: "كل مَنْ أُثْقِل كاهله بالخدمات العامة والضرائب الكثيرة، وذلك عكس الحُر، والذي يعني المعفي من الضرائب ومن الخدمات العامة"[٤]، ولكن لا يعني ذلك أن كل حُر هو مَنْ عُفِي عُفِي من دفع الضرائب، وأن كل عبد هو مَنْ دفع الضرائب، ولتوضيح ذلك يجب أن نعرف النظام الاقتصادي في الإمبراطورية البيزنطية؛ فالنظام الضريبي الذي أثقل كاهل الفلاحين على الخصوص هو الذي أفرز نظام العبودية المرتبط بالاقتصاد، فكل فلاح لم يعد قادرًا على دفع الضرائب المقررة على أرضه كان عليه الانضواء تحت سيادة أحد كبار مُلاك الأراضي، وبذلك تحول إلى تابع لسيده، وهو عكس الحر الذي لا سيد له(٥)، ولكن كان هناك نوع آخر من التبعية لا يرتبط بالعبودية، فالتابع هو شخص حر يقوم بالخدمة والتبعية لسيده(٦)، فقد أراد باسيل الأول ذو الأصل القروي البسيط أن يلتحق بتبعية أحد السادة ذوي النفوذ في العاصمة

---

(1) Ath. Rule, *Rule of Athanasios the Athonite for the Lavra Monastery*, trans. G. Dennis, in: *Byzantine Monastic Foundation Documents, A complete Translation of the Surviving Founders Typika and Testaments*, ed .J. Thomas & A. C. Hero, 5 vols. (Washington, D.C. 2000), vol. 1, p. 228.

(2) Runciman, "Byzantine Trade & Industry", p. 113.

(3) Kolia-Dermitzaki, "Prisoners of War", p. 583.

(4) Kažhdan, A., "The concepts of Freedom (eleutheria) and Slavery (duleia) in Byzantium", in: Makdisi. G., Sourdel. D. & Sourdel. Th. J.(eds.), *La notion de liberte au moyen age: Islam, Byzance et Occident*, Penn.- Paris- Dumbarton Oaks Colloquia IV, session des 12-15 octobre 1982 (Paris 1985), p. 218.

(٥) كيناموس، ص ٢٦٣. عُرف هذا النظام باسم "العبودية مقابل أجر" misthoma ويتلخص في بيع العديد من الأفراد لحريتهم، والانضواء تحت حماية السادة الأقوياء حتى يجدوا الحماية من جامعي الضرائب، ولكن كاجدان يرى أن هذا النظام أفرز عُمالًا أُجراء يتلقون أجرًا مقابل أعمالهم. Kažhdan, "Freedom and Slavery", p. 221.

(٦) وسام فرج، "الأتباع والسادة"، ص ١٣٩. وكان العديد من أباطرة القرن التاسع الميلادي ذا الأصل غير النبيل قد عملوا أتباعًا في جماعة الإمبراطور الخاصة، ثم ارتقوا حتى اعتلوا منصب الإمبراطور، وكان أشهرهم ليو الأرمنّي وميخائيل العمورى.

حتى يحقق الارتقاء الاجتماعي، ثم يصبح هو نفسه بعد ذلك سيدًا له أتباع من أقاربه القرويين في بلدته الذين تربطه بهم علاقة حرة(١).

وقد كَثُرَت أعداد العبيد في الإمبراطورية البيزنطية خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، فقد أهدت سيدة أرستقراطية من البيلوبونيز تُدعى دانيليس Danilis الإمبراطور باسيل الأول ثلاثة آلاف tria milia من العبيد(٢)، فآلت ملكيتهم إلى الإمبراطور ليو السادس، الذي اعتقهم ونقلهم إلى صقلية ليعيشوا فيها(٣)، كما ذكرت إحدى السِير البيزنطية أن أحد النبلاء خلال القرن العاشر الميلادي امتلك ما يقرب من ثلاثمائة من العبيد(٤)، وقد تناقصت تلك الأعداد خلال القرن الثاني عشر الميلادي، وأصبح الأمر قاصرًا على أسرى الحرب، خاصة بعد ظهور ما سُمي بنظام الافتداء الشخصي(٥)، ومقاومة كل من الأباطرة البيزنطيين ورجال الكنيسة لنظام الرق(٦).

وكانت مصادر الحصول على العبيد إما عن طريق التجارة أو الأَسر، فقد كانت تجارة العبيد هي الأساس لهؤلاء الذين تم أَسرهم أثناء غارات المعارك الحربية(٧)، حيث كان الجزء الأكبر من الأَسرَى يتم بيعهم، أو يحتفظ بهم المنتصرون كعبيد لأنفسهم، وكان أكثرهم من المدنيين وسكان القرى الحدودية(٨)، والمتصفح للتاريخ البيزنطي يجد الكثير من الكتابات تدور حول أسرى الحروب البيزنطية مع جيرانهم سواء من المسلمين أو المسيحيين أو الوثنيين؛

---

(1) Constantine Porphyrogenitus, *Vita Basilii*, p. 223.

(2) Constantine Porphyrogenitus, *Vita Basilii*, p. 321.

من الملاحظ مبالغة الإمبراطور قسطنطين السابع في ذكر أعداد العبيد الذين امتلكتهم دانيليس، ولكن سكيليتزيس ذكر أن عددهم كان قرابة الثلاثمائة شاب فقط. انظر: Skylitzès, *Empereurs de Constantinople*, p. 134.، ولكن أحد الباحثين الحديثين رأى أن ذلك دليلًا على ما كان يتمتع به الأرستقراطيون من غنى.
Cameron, A., *The Byzantines* (Oxford 2006), p. 125.

(3) Theophanes Continuatus, p. 368.

(4) Nikephoros the Priest, *Life of St. Andrew*, pp. 115-117.

(٥) هو نظام قام على افتداء الشخص لنفسه وشراء حريته من خلال عمله لدى سيده. انظر،
Runciman, "Byzantine Trade & Industry", p. 112.

(6) هسي، *العالم البيزنطي*، ص ٢٦٦. أصدر الإمبراطور مانويل الأول كومنين مرسومًا يعطي الحق لهؤلاء الذين باعوا أنفسهم – بسبب الفاقة – التحرر؛ لأنه أراد أن يحكم شعبًا من الأحرار وليس من العبيد. كيناموس، *أعمال يوحنا ومانويل كومنينوس*، ك ٦، ف ٨، ص ٢٦٣. وقد اشترط القانون الكنسي ضرورة وجود ثلاثة شهود لدى إعتاق السيد لعبده. انظر، مجموعة *الشرع الكنسي*، ج ٢، ص ٦٠٠.

(7) The *Life of Lazaros of Mt. Galesion*: *an Eleventh-Century Pillar Saint*, trans. R. P. H. Greenfield, *Byzantine Saints Lives in Translation* 3 (Washington, D.C. 2000), p. 86.

(8) Kolia-Dermitzaki, "Prisoners of War", pp. 583-585.

فالإمبراطور نقفور الثاني فوقاس في حملته على جزيرة كريت عام ٩٦١م أرسل جيشه إلى القرى الريفية في أنحاء الجزيرة من أجل جمع الغنائم والعبيد(١)، أما الأسرى المسيحيون فقد كان البيزنطيون لا يبيعونهم في كثير من الأحيان، بل يحتفظون بهم في السجون من أجل المبادلة أو الفداء، وهذا ما دفع الإمبراطور ليو السادس إلي رفض بيع الأسرى البلغار – الذين تم أسرهم في حربه مع سيمون قيصر البلغار – للهنغاريين(٢)، ولكن على العكس استعبد البيزنطيون القبائل الوثنية على الحدود، وخاصة القبائل السلافية خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين(٣)، كما استعبد الإمبراطور يوحنا الثاني كومنينوس في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي جماعة من الكومان، وهم جماعة من الأتراك لا يؤمنون بأي ديانة(٤).

أما عن المصدر الثاني للعبيد فكان عن طريق التجارة، حيث كان العبيد من البضائع المهمة التي يُصَدِّرها البنادقة للبيزنطيين(٥)، ويقع سوق الرقيق المجلوب من غرب أوربا في مدينة أبيدوس Abydos على شواطيء بحر إيجة(٦)، أما في أسواق آسيا الصغرى فيُباع فيها فيها الرقيق التركي(٧)، وإلى أسواق القسطنطينية جلب الروس رقيقهم(٨)، كما جاءت جماعات جماعات من المجريين Magyars إلى الحدود الشمالية للإمبراطورية البيزنطية، حيث يُقام هناك سوق تجاري لبيع الرقيق للبيزنطيين(٩)، أما عن أثمان العبيد فلم يرد إلا إشارات قليلة في بعض بعض الكتابات البيزنطية، فهناك إشارة في وصية النبيل الأرستقراطي يوستاثيوس بويلاس

---

(1) Leo the Deacon, *History*, pp. 79-80.

وهذا ما أكده سكيليتزيس قائلًا: "كانت الدُور في الحضر والريف قد ازدحمت بالعبيد".

Skylitzès, *Empereurs*, p. 211.

(2) Kolia-Dermitzaki, “Prisoners of War”, pp. 608- 610.

(3) Nikephoros the Priest, *Life of St. Andrew*, p. 13.

(٤) *تاريخ ميخائيل السرياني*، ج٣، ص ١٧٧.

(٥) رنسيمان، *الحضارة البيزنطية*، ص ٢٠٠.

(6) Theophanes, p. 668.

(٧) القزويني، *آثار البلاد وأخبار العباد*، (بيروت ١٩٧٩م)، ص ٥٣٠-٥٣١.

(8) *Russian Primary Chronicle*, p. 68.

انظر أيضًا، ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م*، تحقيق/ سامي الدهان، ط ٢، مكتبة الثقافة العالمية، (بيروت،١٩٨٧م)، ص١٥١؛ ابن فقيه الهمذاني، مختصر *كتاب البلدان*، ص ١٤٨.

(٩) ابن رسته، *الأعلاق النفيسة*، مج ٧، تحقيق/ دي خويه (ليدن ١٨٨٩م)، وأُعيد نشره في: *سلسلة الجغرافيا الإسلامية* بمعهد *تاريخ العلوم العربية والإسلامية*، مج٤٠ (فرانكفورت ١٩٩٢م)، ص١٤٣-١٤٤.

Eustathius Boilas عام ١٠٥٩م عن ثَمن جارية لديه تُدعى زوي اشتراها بأربعين نوميزماتا ذهبية(١).

وقد عَمِلَ العبيد في كثير من الأعمال، كان أهمها العمل كخدم في المنازل، فكل أسرة حتى الطبقة الوسطى كان لديها اثنان على الأقل من العبيد يقومان على خدمتها(٢)، أما القصر القصر الإمبراطوري الكبير فكان مدينة صغيرة تزدحم بآلاف العبيد(٣).

أما في مجال الصناعة فقد كان معظم العمال في المشروعات الإمبراطورية من العبيد، حيث كان رجال السلطة يرغبون في عدم إفشاء أسرار بعض الصناعات – لأسباب سياسية – بين الكثير من الحرفيين، مُفَضِلين استعمال العبيد خاصة في الولايات حينما سُمح لبعض النبلاء بتصنيع الحرير، كذلك أُستخدم العبيد من أسرى الحرب في أعمال المناجم وقطع الأحجار والتنقيب عن المعادن، وكان هؤلاء من العبيد غير المسيحيين، سواء من العرب أو الوثنيين(٤)، الوثنيين(٤)، أما في مجال الزراعة فقد ازداد أعداد العبيد المُستَخْدَمين في الزراعة، وخاصة من من الأرقاء الشماليين المجلوبين من قِبل الروس؛ مما أدى إلى استصلاح كثير من الأراضي(٥)، وبالنسبة لمشاركة العبيد في مجال التجارة فقد عَمِلُوا في دكاكين بيع الملابس

---

(1) Theodulus, *Will of Eustathius Boilas*, p. 172.

والنوميزما nomisma أو النوميزماتا الذهبية هي الاسم اليوناني للصولدي solidus الروماني، وهي تساوي ٧٢/١ من الرطل الذهبي، أي ٢٤ قيراط، وهو ما يساوي ٤,٥٥ جرام ذهبي، وظلت النوميزماتا هي العملة الذهبية الرئيسية للإمبراطورية البيزنطية حتى منتصف القرن العاشر الميلادي، حيث استبدلها نقفور فوقاس بعملة أطلق عليها تيتارتيرا tetartera أي الربع؛ لأنها كانت تساوي ربع قيمة النوميزماتا. انظر الملحق الثالث.

Grierson, Ph., *Byzantine Coinage*, *Dumbarton Oaks Studies* (Washington, D.C. 1999), pp. 1, 9.

(٢) عفاف سيد صبره، *الإمبراطوريتان*، ص ٢٢٣.

(3) Andréadès, “Public Finances”, p. 75.

نظرت الطبقة الأرستقراطية إلى العبيد على أنهم فئة ضالة، حيث قالت آنّا كومنينا: "ويلاحظ أنه من الحقائق الثابتة أن العبيد يُعَادُون ساداتهم، فهي طبيعة رُكِبَت فيهم، وأنهم إذا عجزوا عن الإضرار بهم عملوا على الإيقاع بينهم". *الألكسياد*، ص ٩٨.

(4) Runciman, “Byzantine Trade & Industry”, p. 106.

(5) Andréadès, “Economic Life”, p. 57.

الحريرية(١)، ودكاكين بيع الجواهر[٢]، ولكنهم مُنعوا من ممارسة الصيرفة، حتى لا يتطرق إلى هذا العمل أمور الغش والخداع[٣].

ومن الملاحظ أنه بمرور الوقت كان هناك شعور متزايد ضد الرق، فقد منعت كثير من الأديرة استخدام الرقيق[٤]، كما فرضت الدولة على تجارتهم ضريبة خاصة، ولم يلبث أن قام الكثير من السادة بالإحجام عن شراء العبيد، خاصة بعد ارتفاع أثمانهم إلى درجة كبيرة[٥].

أما الفئة الأخيرة في طبقة العامة هى فئة الخِصْيَان (كوبيكلاري) cubicularii، أو الرقيق الذين تم شراؤهم للخدمة في جناح الحريم الإمبراطوري[٦]. لقد رأى المجتمع البيزنطي كأحد مجتمعات الحوض الشرقي للبحر المتوسط ضرورة وجود فئة الخِصْيَان في بلاط الأباطرة وقصور النبلاء الأرستقراطيين على الرغم من نهي الدين المسيحي عن تشويه الأعضاء الجسدية، كما أن القانون المدني شدد على معاقبة مُرتكب تلك الجريمة[٧]، ومع ذلك فقد وُجِدَ الخِصْيَان بكثرة داخل المجتمع البيزنطي؛ لأن الأباطرة والأرستقراطيين استمروا في جلبهم من خارج الأراضي البيزنطية، وخاصة من منطقة أبخازيا Abchasia شمال غرب القوقاز على الساحل الشرقي للبحر الأسود[٨]، ولكن علينا أن نعرف أن الخِصَاء بين أفراد الطبقة الدنيا كان نادرًا، وفى حالات خاصة مثل مساعدة الأطباء في مهنتهم حتى يُسمح لهم بالدخول إلى الأديرة

(١) *كتاب والي المدينة*، ص ١٥٢، ١٥٦.

(٢) *كتاب والي المدينة*، ص ١٥٠.

(٣) *كتاب والي المدينة*، ص ١٥١.

(4) Theodore Studites, *Testament of Theodore the Studite for the Monastery of St. John Stoudios in Constantinople*, trans. T. Miller, in: *Byzantine Monastic Foundation Documents, A complete Translation of the Surviving Founders Typika and Testaments*, ed .J. Thomas & A. C. Hero, 5 vols. (Washington, D.C. 2000), vol. 1, pp. 77-78; Ath. Typikon, *Typikon of Athanasios the Athonite for the Lavra Monastery*, trans. G. Dennis, in: *Byzantine Monastic Foundation Documents, A complete Translation of the Surviving Founders Typika and Testaments*, ed .J. Thomas & A. C. Hero, 5 vols. (Washington, D.C. 2000), vol. 1, p. 259.

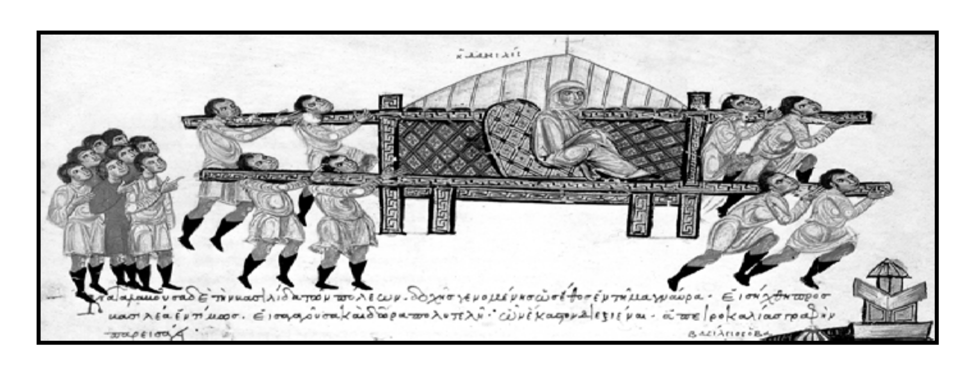
(٥) رنسيمان، *الحضارة البيزنطية*، ص ٢٤٠.

(6) Guilland, R., "Les eunuques dans l'empire byzantin: étude de titulature et de prosopographie byzantines", *Études Byzantines* 1 (1943), p. 203; Ringrose, K. M., *The Perfect Servant, Eunuchs and Social Construction of Gender in Byzantium* (Chicago & London 2003), pp. 14, 63.

(٧) شدد ليو السادس في قوانينه على عدم إخصاء الأطفال، وكان جزاء مَنْ قام بذلك تغريمه عشرة نوميزمات ذهبية، وجَلده ونفيه خارج البلاد لمدة عشر سنوات، أما إذا كان الفاعل أحد موظفي البلاط الإمبراطوري فيتم عزله من منصبه ومصادرة أملاكه. Leo VI., *Novelles*, pp. 222-226.

(8) Ringrose, *Perfect Servant*, pp. 10-13.

ومستشفيات النساء(١)، وكان بعض البيزنطيين الأحرار يخصون أولادهم لضمان الحصول على وظيفة داخل البلاط أو الكنائس أو الأديرة البيزنطية(٢)، وقد أُستخدم الكثير من الخِصْيَان في القصور الإمبراطورية أو قصور النبلاء، وكان معظمهم من العبيد أو الرقيق المُشترى من أسواق النخاسة، الذين تم إخصاؤهم للقيام بالخدمة داخل القصور(٣)، أو الخروج في المواكب الاحتفالية للإمبراطور(٤)، وقد أهدت النبيلة دانيليس العديد من الخِصْيَان للإمبراطور باسيل الأول عند زيارتها للقسطنطينية (انظر صورة رقم ١)(٥).



صورة (١): الأرملة دانيليس يحملها خصيان على محفة، مخطوط يوحنا سكيليتزيس، ق١١م، مكتبة الأسكوريال، مدريد . نقلًا عن: Ringrose, *Perfect Servant*, p. 79.

وقد أشرف الخصيان على خزانة الملابس والمنضدة الإمبراطورية، والقبو السري للقصر، وأشرف عليهم داخل القصر الإمبراطوري موظف برتبة "برايبوسيتوس" praepositus، أي رئيس الخدم[٦]، أما خصيان المخدع الإمبراطوري فكانوا تحت إشراف كبير الحجاب[٧]، وهناك وهناك من الخصيان الذين أشرفوا على بنايات القصر الكبير وملحقاته، وحراسة أبوابه، وكل

(١) رنسيمان، *الحضارة البيزنطية*، ص ٢٤٤–٢٤٥؛ يوسف سمير كامل، "مدينة القسطنطينية ومراسمها في الكتابات اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية البنات – جامعة عين شمس، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ١٣٠.

(٢) القزويني، *آثار البلاد*، ص ٥٨٧.

(3) Nikephoros the Priest, *Life of St. Andrew*, p. 81.

(4) ابن رسته، *الأعلاق النفيسة*، مج ٧، ص ١٢٤.

(5) Constantine Porphyrogenitus, *Vita Basilii*, p. 321; Skylitzès, *Empereurs*, p. 134.

(6) Rydén, L., “The Portrait of the Arab Samonas in Byzantine Literature”, *Graeco-Arabica* 3 (1984), pp. 101-103.

(7) Bury, *Imperial Administrative System*, pp. 120, 125.

الأمور المتعلقة بالنظافة والإضاءة والعمل في الغرف والحمامات، والمُكلفين بالتدفئة، والقائمين على دق الأجراس في أوقات الصلوات وإقامة القُداس(١).

وعلى الرغم من أن الثقافة البيزنطية احتقرت الخصيان، ووُصفوا بأوصاف بشعة، وأُتصفوا بالخواص السلبية التي ارتبطت بها النساء، إلا أن الخصيان كانوا من الذكاء والحنكة لدرجة كبيرة مكنتهم من لعب بعض الأدوار المهمة في الإمبراطورية البيزنطية(٢)، وكان على رأس هؤلاء الخصي ساموناس ذا الأصل العربي(٣)، الذي كان له دور سياسي مهم في البلاط البيزنطي خلال النصف الثاني من عصر الإمبراطور ليو السادس، وقد استمر عمله فترة تجاوزت ثماني سنوات، حمل خلالها عدة ألقاب، كان أهمها لقب الباراكويمومينوس Ό παρακοιμώμενος "كبير أمناء القصر" في عام ٩٠٦م، وقد عمل ساموناس خادمًا في منزل أحد الأثرياء المدعو ستليانوس زاويتزيس والد الإمبراطورة زوي زوجة ليو السادس، وبعد موت زاويتزيس أظهر ساموناس تبعيته للإمبراطور ليو السادس، فكافأه ليو وأعطاه ثلث تركة زاويتزيس، ثم تم ترقيته حتى أصبح الرجل الثاني بعد الإمبراطور(٤).

وكان خليفة ساموناس في وظيفة حارس الحجرة الإمبراطورية هو الخصي قسطنطين البافلاجوني، وقد تم خصيه من قِبل والده، الذي أراد له العمل في وظيفة داخل البلاط البيزنطي، وعلى الرغم من أن والد قسطنطين كان رجلًا فقيرًا، فإنَّه أراد لابنه تحقيق طموحه في أروقة البلاط البيزنطي(٥)، وخلال القرن العاشر الميلادي كان أشهر الخصيان من العامة البطريرك بوليكتوس Polyeuktos (٩٥٦-٩٧٠م)، الذي خصاه أبواه لكي يرتقي إلى أعلى الوظائف في السلك الكهنوتي(٦). وخلال القرن الحادي عشر الميلادي قام الإمبراطور قسطنطين الثامن Constantine VIII (١٠٢٥-١٠٢٨م) بطرد أعضاء بلاطه من النبلاء، وأحل محلهم أتباعه من العبيد والخصيان، واتخذهم أصدقاءً له، واستخدمهم كحجاب وأتباع خاصين به(٧)، وكان

---

(1) Bury, *Imperial Administrative System*, pp. 122, 126-127.

(2) Guilland, “eunuques”, p. 202; Ringrose, *Perfect Servant*, pp. 39-40.

(٣) ذكرت سيرة القديس أندرو الأحمق أن الخدم الخصيان من العرب قد انتشروا في قصور النبلاء في القسطنطينية خلال القرن العاشر الميلادي. انظر، Nikephoros the Priest, *Life of St. Andrew*, p. 87.

(4) *Vita S. Euthymii*, pp. 55-57; Georgius Monachus, pp. 858-859; Theophanes Continuatus, p. 363; See also, Rydén, “Arab Samonas”, pp. 103-104.

(5) Rydén, “Arab Samonas”, p. 101.

(6) Skylitzès, *Empereurs*, p. 205.

وللمزيد عن البطريرك بوليكتوس انظر، نيكول، معجم *التراجم البيزنطية*، ص ٢٨-٢٩.

(7) Psellus, M., *Chronographia*, trans. E. R. A. Sewter (New Haven 1953), p. 32.

يوحنا الأورفانوتروفوس Orphanotrophos (المشرف على ملاجيء الأيتام) قد تم خصيه هو واثنين من إخوته قسطنطين وجورج، حتى يكونوا أكثر نفعًا لعائلتهم الفقيرة التي كانت تقطن منطقة بافلاجونية، فخدم يوحنا في بلاط الإمبراطور رومانوس الثالث أرجيروس Romanus III Argyrus (١٠٢٨-١٠٣٤م)(١)، أما الإمبراطور ميخائيل الخامس Michael V (١٠٤١-١٠٤٢م) فقد اتخذ حرسه الشخصي من الجنود الفارانجيين الذين تم شراؤهم وخصاؤهم في وقتٍ سابقٍ، فاستخدم البعض منهم في عمليات الحراسة، بينما عَمِلَ الآخرون في مهامٍ أخرى(٢)، وهكذا كان الخصاء هو الطريقة المُثلى أمام أفراد الطبقة الدنيا للوصول إلى أعلى المناصب في البلاط البيزنطي.

وفى النهاية نجد أن مسار الأحداث تؤكد على حقيقة كَوّن المجتمع البيزنطي مجتمعًا مفتوحًا، فعلي الرغم من وجود الكثير من الفئات الأرستقراطية المتميزة التي شكلت الطبقة العليا التي تفتخر بنسبها وعراقة أصلها؛ إلا أن تلك الطبقات لم تكن منغلقة على نفسها، فمن السهل أن يطمح الفرد من الطبقة الدنيا للدخول ضمن فئات الطبقات العليا، وهذا ما يفسر مدى التداخل بين تلك الطبقات في بعض الأحيان، وكذلك التداخل بين فئات كل طبقة على حدة(٣)، بالإضافة إلى أن المجتمع البيزنطي ضم بين جنباته عددًا كبيرًا من السلالات والأعراق المختلفة والديانات المتعددة، ولكن امتزج كل ذلك في مجتمعٍ واحدٍ، مكونًا الفوارق الطبقية بين أفراده؛ مما سيخلق نوعًا من الصراع بين الطبقات.

وذكر يوحنا سكيليتزيس أسماء الخصيان مِمَنْ اعتلوا المناصب العليا في الدولة قائلًا: "وكان أول مَنْ تلقى تلك الوظائف كبير الحجاب نيقولاس ليكون دمستقًا للمدارس، ونقفور الذي تلقى وظيفة حارس الحجرة الإمبراطورية، وسيمون الذي عُين درنجاريوس الحرس الإمبراطوري، كما عُين الخصي سبوديليس حاكمًا لإنطاكية، ونيقتاس البيسيدي حاكمًا لإيبيريا (أرمينية)". Skylitzès, *Empereurs*, p. 307; Cedrenus, pp. 480-481.

(1) Skylitzès, *Empereurs*, p. 323.

(2) Psellus, *Chronographia*, p. 93.

(٣) وسام فرج، "الأتباع والسادة"، ص ١٤٠.

المهمشون في المجتمع البيزنطي
المسنون والعميان أنموذجاً

محمد عبد الشافي محمد محمود المغربي

(أ) المسنون:

تمهيد :

تعد مرحلة كبر السن إحدى مراحل النمو الجسمي والنفسى التى يمر بها الإنسان في رحلة حياته من المهد إلى اللحد، واهم ما يميز هذه المرحلة هى التغيرات التى يمر بها المسن والتى تؤثر بشكل كبير عن رضاه عن الحياة والإقبال عليها ، والرغبة الحقيقية التى يعيشها ٠

وحظى المسنون في الدولة البيزنطية باهتمام نفر من الباحثين فظهرت بعض الدراسات تحمل عنوان المسنين ورغم أن عنوان هذه الدراسات يوحى بتناول المسنين في الدولة البيزنطية على إطلاقه إلا أن محتواها لم يتضمن سوى عرض مختصر لبيوت المسنين وتاريخ إنشائها وبالتالى فإنه لم تزل هناك جوانب في حاجة إلى إلقاء المزيد من الضوء عليها مثل حياة المسنين في المجتمع البيزنطى وحياتهم في المجتمع الديرى ، والرعاية الصحية والنفسية التى وفرتها لهم الدولة البيزنطية ، بالإضافة إلى قضايا خاصة بالمسنين يعرضها البحث في موضعها٠

والمسن هو من كبر سنه وضعفت قوته الجسمية والذهنية ويطلق عليه شيخ ويظهر عليه الشيب في الغالب فإذا زاد في الكبر أطلق عليه هرم أو كهل(١)٠

ويستخدم الباحثون في مجال دراسة المسنين أحيانا مفهوم الشيخوخة وأحيانا أخرى مفهوم التقدم في العمر Aging على أنهما مترادفان ويشيران إلى نفس المعنى وكلاهما قد اسْتُخْدم بأشكال مختلفة فمفهوم التقدم في العمر هو أحد المفاهيم المراوغة إلى درجة جعلت من غير المستطاع لعدد كبير من الباحثين تناوله تجريبيا، كما تعددت المقاييس المستخدمة في تحديد مرحلة الشيخوخة وشملت هذه المقاييس العمر الزمنى(ويهتم بتحديد السنوات التى يعيشها

---

(١) المسن فى اللغة : الرجل الكبير قال ابن منظور : أسن الرجل : كبر وكبرت – يسن إسنانا فهو مسن، وهرم: وكهل هو أقصى الكبر، لسان العرب (بيروت ، دار صادر ، بدون تاريخ) ج١٢،ص٦٠٧،ج١٣ ،ص٢٢٢. ويرى البعض أن المسن هو : كل فرد أصبح عاجزا عن رعاية نفسه وخدمتها إثر تقدمه فى العمر، وليس بسبب إعاقة شبهها : انظر عبدالله بن ناصر السدحان : رعاية المسنين فى الإسلام (الرياض ١٩٩٨م) ص ١٦ ٠

الإنسان) والعمر البيولوجى (وهو مقياس وصفى يهتم بالجانب العضوى) والعمر السيكولوجى (ويهتم بالخصائص النفسية والسلوكية) والعمر الاجتماعى (ويهتم بتوافقه الاجتماعى)(١) .

وبالتالى فإنه عند استعراضنا لتاريخ المسنين في الدولة البيزنطية يجب عدم الخلط بين مفهوم كبر السن (التقدم في العمر)، ومفهوم الشيخوخة ، فالأول يعنى الزيادة في العمر، أما الثانى فقد يعنى الأعراض أو التغيرات البيولوجية والفسيولوجية التى تصاحب التقدم في العمر ، وقد يعنى أيضا أحد مراحل التقدم في العمر (وهى تتضمن اضمحلال القدرة الوظيفية للجسم) وتبقى الحقيقة واضحة وهى أن معظم كبار السن ليسوا في حالة شيخوخة ، وبذلك استخدامنا مصطلح الشيخوخة لنعنى به الكبر أو التقدم في العمر يكون استخداماً غير دقيق ويشكل نوعا من الخلط بين المفاهيم (٢).

وعلى الجانب التاريخى في نشأة الاهتمام بالمسنين لم يكن البيزنطيون أول من اهتموا بظاهرة كبر السن ، فقد كان الإنسان البدائى يعتقد أن حياته لانهاية لها ما لم تتدخل عوامل خارجية مثل الحوادث أو السحر أو تضع حدا لها وكان لدى العديد من الشعوب البدائية وعيا بالعلاقة مابين التخلص من الجلد القديم وما يبدو من تجدد الحياة لدى بعض الكائنات الحية مثل الثعابين والزواحف(٣).

كما كان هناك اهتمام بالمسنين في بابل وآشور ومصر وفى البردية المصرية المشهورة باسم بردية إدوين سميث Edwin Smith التى ترجع إلى أربعة ألاف سنة تقريبا نجد إشارة في بدايتها إلى ذلك الكتاب الذى يهدف إلى استرداد الشيوخ شبابهم – ولكن مما يؤسف له حسب قول أليكس كفورت Alex Comfort: إن ما جاء في البردية لا يرقى إلى تحقيق ذلك المطلب – إذ إنها لا تضم في حقيقة الأمر سوى بعض الوصفات لعلاج الصلع وما إلى ذلك من التغيرات الظاهرية التى تبدو على الإنسان نتيجة لتقدمه في العمر (٤).

كما اهتم الإغريق بالمسنين وإن كانت اتجاهاتهم مشتقة في جزء منها إلى قدماء المصريين، كما يعد سيشرون Cicero (١٠٦-٤٣ ق.م) الخطيب الرومانى أول من اهتم

---

(1)Bromley (D.B): The Psychology of Human Aging, (Great Britain, 1966), pp 21-22 ; Hurloch(B) : Developmental Psychology (New Delhi , 1981) p. 390 ; Birren (J.E) & Rinner (V.T) : Research on The Psychology of Aging in Handbook . of The Psychology of Aging (New York) 1977, pp. 3-38 , in W.H.o , No- 779 (Geneve 1989).

(٢) عصام فكرى : علم الشيخوخة ، عالم الفكر / مج ٦ ، عدد ٣ ، (الكويت ١٩٧٥).

(٣) عبدالحميد محمد شاذلى : التوافق النفسى للمسنين (الإسكندرية ، ٢٠٠١) ص ٣ .

(٤) عزت سيد إسماعيل : الشيخوخة (بيروت، ١٩٨٣) ص ٢١ .

بالمسنين وبعد اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وفى القرون الوسطى سادت المعتقدات الخرافية في السحر والشياطين(١) وانعكست بدورها على المسنين وحياتهم.

ويعتبر البيزنطيون هم الورثة المسيحيون للثقافة الإغريقية القديمة ومن هنا فقد قدموا أفضل رعاية للمسنين، كما أن الكنيسة كانت تتضرع وتبتهل لكى تكون الأيام الأخيرة للمسن أيام سعيدة خالية من الألم يشملها الإجلال والوقار(٢).

ويقر البعض أن الاهتمام الكبير الذى أبدته بيزنطة للمسنين لم يكن مرجعه التبعية البيزنطية للمجتمعات القديمة عبر العصور الكلاسيكية التى أظهرت اهتماما بالمسنين بدرجات متفاوتة – لكن مرجعه المفاهيم الدينية المسيحية وقوة الإيمان المسيحى والتى انعكست بدورها على السلوك الأخلاقى والاجتماعى للفرد البيزنطى(٣)

والكتاب المقدس الذى يؤمن به البيزنطيون أعطى الشيخوخة منزلة مهمة وكرامة وأصبحت الشيخوخة تمثل رموزا يشار إليها بخصوصية في الكنيسة فهى رمز للغنى وامتلاك الخبرات والحكمة والفطنة ورمز للوقار والاحترام والإكرام ورمز أيضا للعلم والتعليم(٤).

كما أن الشيخوخة رمز لنقل وديعة الإيمان عبر الأجيال كما جاء في المزامير " يا الله لاتتركنى حتى أخبر بذراعك الجيل المقبل ويقوتك كل آت" (٥) .

إلا أن هناك أيضا قيد آخر أعمق مما ذكرناه ذلك هو تأثير خفى لتقليد يفترض في الحكام " حب الإنسانية " أو " الخيرية " Philanthropia وهو تعبير عسير الترجمة ولكنه يعبر عن فكرة الناس طيلة قرن من الزمن ، كما كان يتحتم على الإمبراطور من إسداء خدمات إنسانية جلية لشعبه ، وهى فكرة لم تزل تحمل رأى الرومانى في معنى الوظيفة فهو يفترض على صاحبها حقوقا أدبية للشعب ولا ينظر إليها كما لو كانت مركزا يمنح صاحبه امتيازا شخصيا، وأخيرا كان المنتخبون قبل أن يوافقوا على منح أحد السلطة الإمبراطورية يستخلصون منه وعدا صريحا في مراعاة ذلك(٦) .

---

(١) عبدالحميد محمد شاذلى : المرجع السابق ، ص ٥ .

(2) Richardson (B.E) : old Age among The Ancient Greeks (Baltimore 1933), pp 48-55 .

(3) Lascarrtos (J) & Kalantzis (G) & Rebelkou(p) : Nursing Homes For the old (Gerocomeia) in Byzantium (324 – 1453) Gerontology 2004,50 pp 113-117 (Athens, Greece); Lascaratos (J) : The Roots of Geriatric Medicine Care of aged in Byzatine Times (324- 1453) Gerontology 2000, 46, 2-6 .

(٤) جوليانا بطرس الخورى : فى الرحاب الإنجيلية " رموز مسيحية " (٢٠٠٧) ص ٤٨.

(٥) الكتاب المقدس : مزامير ، ٧١ : ٨١ .

(٦) بينز (نورمان) : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٨٨ – ٨٩ .

هذه الفلسفة قد آمن بها الأباطرة البيزنطيون والعديد من أعضاء الأسرة الإمبراطورية ودفعتهم لممارسة الخيرية لخلاص أرواحهم ، فإذا كان الإمبراطور هو صورة الرب على الأرض والرب يتصف بالخيرية فقد رأى البعض أن الإمبراطور يجب أن يكتسب نفس الصفة فهى السمة الوحيدة التى تجعل الإمبراطور محاكيا الرب، كذلك نظر الأباطرة إلى ممارسة العمل الاجتماعى والخيرى على أنها أشياء تسعد الرب وتجعله يفضل هذا الإمبراطور ويكافئه في الدنيا والآخرة[١].

والخيرية كلمة تعنى الحب بكل معانيه، حب الإنسان لأخيه الإنسان بوجه عام وللإنسانية جمعاء وفى المعنى المسيحى البيزنطى أصبحت الكلمة ذات مدلول دينى يهدف للحب والعطف الإنسانى إذ قصد بها أى نوع من العمل يكون إنسانيا ومتحضرا كاهتمام المجتمع بالأيتام والمسنين والمرضى والغرباء، وأيضا عطف الإنسان على غيره من البشر ومساعدة هؤلاء الذين يعانون من الصعوبات والمحن[٢]، وربما الباعث الذى دفع البيزنطيين إلى الاعتقاد والإيمان بالخيرية وممارستها هو البحث عن الإخلاص وهى تدخل في نطاق الفلسفة المسيحية للخيرية لأن البيزنطيين اعتقدوا أنهم في إطعام الفقراء ومساعدة الضعفاء وتقديم العون هو خدمة للمسيح نفسه ومحاكاة وتشبها به، ومن هذا المنطلق كانوا يأملون بأدائهم لأعمالهم الخيرية الرحمة والمغفرة لذنوبهم يوم يقفون أمام الرب يوم الحساب[٣]، آمن البيزنطيون بكلمة المسيح وعملوا بها حين قال " إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعطى الفقراء فيكون لك كنزا في السماء" [٤]، كما انتشرت تعاليم القديس باسيل العظيم التى تحض على الخيرية والعمل الخيرى حين قال " لو أنت لم تكن رحيما لن تجد الرحمة ولو أنت لم تفتح منزلك للفقراء سوف تحرم من مملكة السماء ولو أنت حرمت الخبز على الجائعين سوف تحرم من الحياة الأبدية "[٥]، كما آمن رجال الكنيسة وأساقفتها الذين كانوا يقومون بدور الوعظ في الكنائس بفكرة الخيرية الخيرية حيث نجد رئيس أساقفة سالونيك سيمون السالونيكى في فترة متأخرة من العصر البيزنطى (ت ١٤٢٩م) يشدد على هذه الفكرة بقوله " إن الخيرية وسائل جيدة لغفران الآثام

(1)Constantelos (D.J) : Byzantine Philanthropy and Social Welfar (New Jersey 1968) ., p. 25

(2)Constantelos (D.J) : op. cit., pp 3-5; Trapp. (E) : " Philanthropy " art.in O.D.B (Oxford 1991)., p.214 .

(3)Bebaia Elpis: Typikon of Theodora Synadene Trans. Talbat (A.M) . in BMFD (washington 2000) p 1549 .

(٤) الكتاب المقدس : انجيل لوقا ، ١٨ : ١٨-٢٢ ، انجيل متى، ١٩ : ١٦-٢١ .

(5)Basil The Greet , Haѕilia in Divites' in P.G xxxi ., col . 2928

وتحسين وضع الروح بعد الموت "[١] .

وتنامى الدور الاجتماعى وازدهر العمل الخيرى وتنافست الأسر البيزنطية والأباطرة ورعاياهم الأثرياء في بذل هبات للمؤسسات الخيرية وإقامة المستشفيات ودور الأيتام والمسنين والتكيات وبيوت الفقراء التى كانت مثالا لفخر البيزنطيين ، كما أنشئوا نُزلا للحجاج والغرباء وبيوت الأمومة وملاجئ للأطفال، واستمر البيزنطيون في هذا التوجه طيلة العصر البيزنطى في بذل الموارد المالية والإنفاق على سائر أعمال البر والإحسان طلباً الخلاص[٢] .

ويسجل التاريخ لإمبراطورات وأميرات البيت الإمبراطورى ممارستهم لأعمال الخير من خلال إنفاقهن ثرواتهن الشخصية على سائر أعمال الخير والبر والإحسان ورعايتهم للمؤسسات الخيرية وبيوت المسنين ومساعدة المحتاجين[٣] .

ب – بيوت المسنين في الدولة البيزنطية وعمارتها :

قام البيزنطيون ببناء العديد من البيوت عرفت ببيوت المسنين وهؤلاء الذين لم يتمكن ذووهم من رعايتهم وفى الإطار الإنسانى عرفت بدار المسنين أو المعوزين، ووجدت في القسطنطينية في وقت مبكر من القرن الرابع الميلادى ، فعلى الأقل سبع وعشرون من هذه الدور وجدت في وقت واحد وكانت ملحقة بالأديرة وأسست الإمبراطورية البيزنطية العديد من هذه البيوت والأديرة، كان أشهرها " دير بانتوكراتور" الذى كان قادرا على استقبال المسنين والمرضى، كما كانت هذه البيوت تتلقى الأغراض المعيشية المختلفة كالنفط والحطب والأغراض الغذائية والمخصصات النقدية وأشهر هذه البيوت التى أنشأتها الدولة البيزنطية الملحقة الدير السابق الذكر بانتوكراتور، ودير كوزموسوتيرا Kosmosoteira ودير القديس جورج George of Mangana[٤].

وكانت هذه البيوت تسمى" Gerocomeia " أو " Gerontocom-eia " وقد اشتقت في علم دراسة أصل الكلمة من الكلمة اليونانية Geros والتى تعنى السن الكبير و" Gerotropheia"التى تعنى يطعم أو يغذى، وانتشرت هذه البيوت في جميع أنحاء الإمبراطورية ومعظمها كان ملحقا بالأديرة أو بالقرب منها، كما أن معظم هذه البيوت والمؤسسات تم تشييدها

---

(1) Symean of Thessalomica , De Fine Et Exitu mastra ' in P.G clv , col . 693

(2) Baynes (H) & Moss (L.B) : Byzantine (oxford 1948) ., p29 ، p. 154; Talbot (A.H) : Monasticism . art . O.D.B., p 1392; Trapp (E) : Philanthropy . art . O.D.B., p1649; Kazhdan (A) : Ptochotropheion ., art. O.D.B., p1756

(3) Gitting (E.A) : Elit Women : Dignity Power and Piety in B.W.W (Cambridge 2003) p.72; Talbot (A.M): Byzantine Women Saints Lives and Social Welfar in W.R.L.B (Ashgate 2001) pp. 106-7 .

(4) Talbot (A.M) : Gerokomeion art in O.D.B ., p 848 .

عن طريق العائلات الإمبراطورية والعائلات المالكة وبعض المحسنين الذين بنوا هذه البيوت في مجموعة متناغمة من الأبنية والمؤسسات الخيرية(١).

وهناك مالا يقل عن ثلاثين مؤسسة من هذه المؤسسات معروفة بالاسم وقد أخذت اسم مؤسسيها على الرغم من وجود عدد كبير أخر من هذه البيوت غير معروف أصولها على وجه التحديد، والعدد الدقيق لهذه البيوت أو المؤسسات لا يمكن تحديده ولم يتم إنشاؤها في القسطنطينية وحدها، بل تشير المصادر التاريخية أنها قد وجدت في المدن الرئيسية أو الإقليمية مثل أنطاكية والقدس وأفيسوس ونيقيا وهرقليا وسالونيك وكورنثا والإسكندرية وغيرها(٢) .

ومدير المؤسسة الخاصة بالمسنين كان يعرف باسم "Gerocomos" أو "Gerotrphos"، "Gerodocomos" أو "Gerocomicos" وفى وقت مبكر من القرن الرابع الميلادى حظى مدير مؤسسة المسنين باحترام كبير وليس مستبعدا أن يكون شريفا أو نبيلا، بل أنه ربما يرقى إلى عرش الكنيسة الأسقفية مثل ما حدث لمطران قبرص الذى كان أرستقراطيا وطبيبا ومديرا لأحد بيوت المسنين ثم انتخب أسقفا(٣).

بل إن أحد المؤرخين أشار إلى أن مدير مؤسسة المسنين كان دائما من المقربين للإمبراطور البيزنطى، حيث حرص هؤلاء على التواصل مع الإمبراطور وقدم أحدهم إهداءً للإمبراطور أثناء إحدى الاحتفالات التى كانت عبارة عن صلبانا ذهبية(٤) . ونظرا لأهمية وظيفة مدير البيت فقد حصل هؤلاء على رتب رفيعة في الدولة مثل رتبة "Spotharios" (٥).

تشير المصادر التاريخية أيضا إلى أقدم بيت للمسنين أنشأ في القسطنطينية كان ملحقا بأقدم مستشفى في القسطنطينية حيث قامت الإمبراطورة هيلين والدة الإمبراطور قنسطنطين العظيم بتشييده إلى جانب قصر وكنيسة في الموقع الجغرافى المعروف باسم Psamathia

---

(1) Lascaratos (J) & Kalantzis (G) & Rebelakakou (P) : Nursing Homes for the old (Gerocomeia) in Byzantiom (324-1453) art. In (Gerontology p. 114 .

(2) Constantelos (D.J) : OP. cit., P.222; lascaratos (J) & Kalzntzis (G) & Rebelakou (P): OP. cit., PP 114-115.

(3) Porphyrogenitos (Constantine) : De Cerimonis ' in C.S.H.B ' Vol.1 P. 109, Brehier (L) : La vie Chretienne en Orient Histoire de L' Eglise, ed, Augustin Fliche and Victor Martin (1948), Vol .IV, P. 554 .

(4) Porphyrogenitos (C) : OP. Cit., P.117

(5) Bury (B) : The Administrative System in the Ninth Century with a a Revised Text of the Kletordogion of Philotheos (London 1911) P. 512 .

واسمها الحديث Samatha وذلك في القرن الرابع الميلادى ، وقد بقت هذه المؤسسة تؤدى دورها حتى القرن الرابع عشر الميلادى[١].

كما أن هناك بيتا آخر أنشئ في القرن الرابع الميلادى ينسب إلى الأرستقراطى الرومانى أيوفراتوس Euphrata الذى قدم إلى القسطنطينية من روما مع بعض الأرستقراطيين على عهد الإمبراطور قنسطنطين العظيم، وقد استمرت هذه المؤسسة حتى القرن الثالث عشر الميلادى وكانت تقع في منطقة هيوم كابى[٢] ، وفى عهد الإمبراطور أركاديوس (٣٩٥-٤٠٨م) قام الأرستقراطى فلورنتيوس Florentins بتحويل منزله ومقر إقامته إلى بيت للمسنين[٣] .

أما بيوت المسنين التى أنشأت في القرن الخامس الميلادى على عهد الإمبراطور ثيودسيوس الثانى من (٤٠٨-٤٥٠م) قام أيضا أحد الأرستقراطيين ويدعى دكسيوكراتس Dexiocrates بتحويل منزله إلى دار رعاية للمسنين وبنى بجانبه كنيسة وهذا البيت كان يقع على القرن الذهبى ، وكانت هذه الدار ذات أهمية كبيرة حتى أن أحد رؤسائها وصل إلى منصب بطريرك القسطنطينية هو المدعو حنا الخامس (٦٦٩-٦٧٥م)[٤]، وفى عهد الإمبراطور مارقيان (٤٥٠-٤٥٧م) قام هو وزوجته " بولكريا " بإقامة مؤسسة للمسنين في حى (Prasina) في القسطنطينية وكان هذا المكان معروفا فيما قبل " باسطبلات الخضر "، وهذه المؤسسة وهذا البيت اعتمد بشكل كبير على الهبات والتبرعات والمنح، واستمر حتى القرن الثامن الميلادى حتى تعرض للمصادرة على يد أرتابا سادوس Artabasados الإستراتيجوس الأرمينى الذى ساعد الإمبراطور ليو الأيسورى (٧١٧-٧٤١م) للوصول إلى العرش[٥] .

كما أن هناك واحداً من أقدم بيوت المسنين كان قائما في القسطنطينية ، وقد أقيم في القرن الخامس الميلادى على يد الماجستر أنثيميوس Anthemius الذى تزوج ابنة الإمبراطور

---

(1) Janin (R.) : Monasters Byzantins in Echos d' Orient , (July – Septmber 1933) Vol. 32, PP `4-17; Lascaratos (J) & Kalantzis (G) & Rebelakou (P.) : Op. Cit., P. 114 .

(2) Janin (R.) Constantinople Byzantine (Paris, 1950)., P352 ، 321; Lascaratos(J.)& Kalantzis(G.)& Rebelakou (P.) : Op.Cit., P. 115; Constantelos (D.J.) : Op Cit., P. 224 .

(3) Janin (R) : Constantinople byzontine., OP. Cit. PP. 378-9; Lascaratos(J.)& Kalantzis(G.)& Rebelakou (P.) : OP. Cit., 115; Constantelos(D.J.) : Op Cit., P. 224 .

(4) Lascaratos(J.)& Kalantzis(G.)& Rebelakou (P.) : Op. Cit., P. 116; Constantelos(D.J.) : Op. Cit., P224 .

(5) Codinos (G) : { Pseudo }: De Officialialibus Platii Constantinopolitanarum . (Bekker. Bonn 1849) PP 73-125; Constantelos (D.J) : Op. Cit. P. 224.

مارقيان وأرسل في وقت لاحق إلى روما في سنة ٤٦٧م كإمبراطور للغرب ويقع هذا البيت في القسم الغربى من مدينة القسطنطينية بالقرب من صهريج موكيوس Mocios[١].

والملاحظ أيضا أن هناك عدداً كبيراً من دور المسنين أنشأت في القرن الخامس الميلادى في فلسطين البيزنطية وتحديدا في القدس باعتبارها مدينة الحج التى كانت في حاجة دائمة إلى مبانٍ لاستيعاب حشود الزوار والمغامرين ، هذا بالإضافة إلى المستشفيات ودور العجزة والنزل المختلفة[٢] .

وفى مدينة القدس البيزنطية أيضا الإمبراطورة الأثينية أيدوكيا(٤٠٨-٤٥٠م) بنت دارا للمسنين إلى جانب كنيسة تكريما للقديس جورج[٣] .

وتؤيد بعض الاكتشافات الأثرية صدق ماورد في هذا الشأن من أن هناك بيوتا للمسنين في القدس حيث تم اكتشاف نقش بيزنطى سنة ١٨٧٣ م في القدس على الجانب الشمالى من برج مربع كبير ، وقد أشار لذلك أحد علماء الآثار[٤].

أما القرن السادس الميلادى فكان غنيا بالمؤسسات الخاصة بالمسنين وهناك ما لايقل عن ستة مؤسسات لكبار السن معروفة بالإسم مثل مؤسسة Narses نارسيس الشريف الرومانى Protospatharius الذى كان يعيش في عهد الإمبراطور جستين الثانى (٥٦٥-٥٧٨م) وطبقا لما أورده المؤرخ ثيوفانس فقد بناه سنة ٥٧٠م[٥] .

وقد ناقش العديد من العلماء والمدارس الأثرية الموقع الخاص بهذا البيت ، ويرجح المؤرخ المحدث جنين أن هذا المكان فى الوقت الحاضر هو المعروف الأن باسم Zindankapi or odunkapi [٦].

وفى عهد الإمبراطور جستين الأول (٥١٨-٥٢٧م) كانت هناك مؤسسة باسم Isidorou وقد كانت منزلا تحول إلى مؤسسة لكبار السن ، كما تم إضافة كنيسة بجوار هذا المنزل وضمت هذه المؤسسات غرفة للغرباء تحمل اسم Xenones[٧] .

(1) Lascaratos (J.) & Kalantzis (6.) & Repelakou (P.) : Op. Cit., P. 114 .
(2) Constantelos (D.J.) : Op. Cit., P. 225 .
(3) Festugiere (A.J) : Les Moines D ' Orient 111/2 Les Moines De Palestine (Paris 1962) P.112
(4) Durand(G.R.P.) : Epigraphie Chretienne De Jerusalem in R.P Vol. 1 (1892). P.583
(5) Theophanes (C.) : Chronographia in C.S.H.B., Vol.1., p.254; Constantelos (D.J) : Op. Cit., P. 226; Lascanatos (J) & Kalantzis (G) & Rebelakou (P) : Op. Cit., P. 114 .
(6) Janin (R.) : Etudes De Topographie Pyzntines in E.O., Vol. 27 (1937). P. 298 .
(7) Constantelos (D.J) : Op. Cit., P. 226 .

وفى عهد الإمبراطور جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م) قام أحد الحكماء الأرستقراطيين ويدعى بطرس بتحويل مقر إقامته وسكنه إلى بيتا للمسنين وأصبح هذا البيت يعرف ببيت بطرس للمسنين[١] .

وشهد عهد الإمبراطور تيبريوس الأول قنسطنطين (٥٧٨-٥٨٢م) بناء العديد من دور المسنين والكنائس والمستشفيات كما أشار إلى ذلك المؤرخ مانسيس Manasses[٢]، وهناك واحد من أفضل المنشآت الخاصة بالمسنين أنشأها ستيفانوس Setphanos الحارس الليلى Parakoemomenos للإمبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢م) وتميز بصهريج ضخم للماء وحمامات كثيرة للاستحمام وعيادة طبية للغرباء ومواطنى الريف الذين يزورون العاصمة ، وقد استمر هذا البيت يستقبل زواره حتى سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣م[٣] ، وستيفانوس هذا بنى بنى دار ثانية للمسنين عرف باسم ساجما Sagma وليس هناك معلومات كثيرة عن هذا الدار[٤].

كما أن هناك اثنين من أكبر بيوت رعاية المسنين قد تأسست في نهاية القرن السادس ومن المفترض أن يكون الأول قد أنشأ بواسطة الإمبراطور موريس Mauricius (٥٨٢-٦٠٨م) وهذا البيت أخذ اسم Karianos والآخر قد تأسس بواسطة البطريرك Apollinarus بالقرب من الكنيسة المعروفة باسم كنيسة الثلاثة أطفال بالقرب من Doryzin ومؤسسات شبيهة ومماثلة لهذه المؤسسات قد أنشأت من قبل أساقفة[٥] .

وفى خلال القرن السابع الميلادى ووفقا للمصادر التاريخية كانت هناك العديد من البيوت والمستشفيات الخاصة بالمسنين تم إنشاؤها كان أهمها مؤسسة وبيت كبير أنشأ للمسنين في إقليم سكالا Scala في القسطنطينية وعرف بنفس الاسم ولا يوجد مايفيد عمن هو مؤسسها والمعلومات الوحيدة التى نعرفها ندين بالمعرفة لها للمؤرخ الكنسى نيقفورس كاليستوس فى القرن الرابع عشر وقد كتب عنه أنه عندما انتخب البطريرك توماس الثانى Thomas إلى العرش المسكونى سنة ٦٧٦م فإنه أوصى بعمل بيت للمسنين الذى كان في إسكالا[٦] .

---

(1) Janin (R.) : La Geographi Ecclesiastique De L' Empire Byzantin (Paris 1953) , P.587.

(2) Manasses (C.) : Synopsis Chronike in C.S.H.B., (Bonn1837). PP.347-348.

(3) Constantelos (D.J) : Op. Cit., P. 227; Lascaratos (J.) & Kalantzis (G.) & Rebelakou (P.) : Op- Cit., Pi 115 .

(4) Constantelos (D.J) : Op/ Cot., P.229 .

(5) Lascanatos (J) & Kalantzis (G) & Rebelakou (P) :OP. Cit., P.115; Constantelos (D.J) : Op. Cit., P.229 .

(6) Nicephoros Callistos (X) : Eccles ' astical History ' in P.G. Vol. CXlvii, P.457. Lascaratos (J.) & Kolantzis (G.) & Rebelakou (P.) : Op. Cit., P. 116 .

والبطريرك سيديروس Sederos الأخ بالتبنى للإمبراطور قسطنطين الثانى (٦٤١-٦٦٨م) شيد بيتا للمسنين وعرفت هذه المؤسسة باسمه، كما أن زوجته أضافت بعد ذلك كنيسة بالقرب من هذا المكان من أجل خاطر زوجها ، وقد بنيت هذه الدار بالقرب من منطقة Taures[١]، وفى الربع الأخير من القرن السابع قام " أندرو " أسقف كريت بأعمال خيرية وإنسانية في أسقفيته شملت بيتا للمسنين[٢].

أما بيوت المسنين في القرن الثامن الميلادى فقد كان هناك دار للمسنين يسمى Geragathis في منطقة Petrion وقد بنيت طبقا لما أورده المؤرخ Pseudo-Codinos بواسطة أجاثى Agathi أخت البطريرك في عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس كوبر وتيموس (٧٤١-٧٧٥م) وكانت هذه المرأة من رواد هذه المؤسسة لأنها ظلت عجوزاً بكراً متقدمة في السن محافظة على جمالها وعذريتها[٣].

وفى القرن التاسع الميلادى نجد أن الإمبراطورة إيرين الأثينية (٧٩٧-٨٠٢م) قد شيدت العديد من المؤسسات الخيرية والمستشفيات التى شملت بيتا للمسنين[٤] ،وليس من المعروف وجود مؤسسات أخرى في القرنين الثامن والتاسع الميلادى.

أما بيوت المسنين في القرن العاشر الميلادى فيشير المؤرخ ثيوفانس إلى أن الإمبراطور البيزنطى قسطنطين بورفيروجينتوس (٩٢٣-٩٥٩م) حول العديد من الإسطبلات- كان قد أقامها البطريرك ثيوفيلاكتوس (٩٣٣- ٩٥٦م) بالقرب من الكنيسة الشهيرة " اياصوفيا " حولها إلى بيوت لرعاية المرضى والمسنين[٥]. كما قامت زوجته الإمبراطورة هيلين بإنشاء مجموعة من الأبنية الخيرية كان من بينها دارا للمسنين وعرفت هذه المنشآت باسمها ، وكانت تقع في مقاطعة Oldpetre والتى من المحتمل أن تكون اليوم هى الساحة المعروفة باسم Petrikapi وهذه الإمبراطورة كانت شديدة الإخلاص لما تقوم به من أعمال خيرية حتى في مرضها ، وزوجها الإمبراطور بدوره أصدر كتابا Chrysopull يمنح هبات وامتيازات لهذه المؤسسات[٦] .

---

(1) Theophannes (C.) : Chrongraphia ' in C.S.H.B ., Vol . 1., PP. 351-2; Constantelos (D.J.) : Op. Cit., P.230 .

(2) Constantelos (D.J.) : Op. Cit., P. 231 .

(3) Constantelos (D.J.) : Op. Cit., P.231; Janin (R.) : Le Petrion de Constantinople in Eo , Vol. 26 , PP. 33; Lascaratos (j) & Kalantzis(G) & Rebelakou (P): OP.Cit., 116..

(4) Theophannes (C.) : Chrongraphia in C.S.H.B ., Vol . 1., PP. 488; Lascaratos (j) & Kalantzis(G) & Rebelakou (P): OP.Cit., 116.

(5) Theophannes (C.) : Chrongraphia in C.S.H.B ., Vol . 1., P. 449; Lascaratos (J) & Kalantzis (G) & Rebelakou (P): Op. Cit., P. 116 .

(6) Theophannes (C.) : Chrongraphia in C.S.H.B ., Vol . 1., PP. 458-9 .

وفى نفس هذا القرن قام الإمبراطور ليو السادس الحكيم (٨٨٦-٩١٢م) بإجراءات أفادت كبار السن حيث طرد نزلاء أحد بيوت الدعارة في القسطنطينية في مقاطعة Kyphes وحول هذا المبنى إلى بيت للمسنين ، ولاحظ ابنه قنسطنطين السابع أن والده كان يزور هذا البيت كل يوم جمعة من الأسبوع بصفة شبه دائمة بعد عودته من القداس في الكنيسة المشهورة Blachennes حيث يقوم بتوزيع الهبات والصدقات على المسنين ويقوم أيضا برعاية مرضى الجذام في الجناح المتخصص من هذه المؤسسة التى كانت تضم أكثر من بناية[١] .ونحن لانعلم أين تقع هذه المؤسسة تحديدا ولكن المؤرخ الأثرى جينن يرجح أنها كانت قائمة فى القرن الذهبى[٢] .

وتشريعات وقوانين هذه الفترة تذكر أيضا أن هناك بيتا للمسنين كان بالقرب من دير Myrelaion وهذا الدير يدين بأصله ومصدره إلى الإمبراطور رومانوس ليكابينوس (٩٢٠-٩٤٤) ومن المرجح بشكل كبير أنه هو الذى بنى بيت المسنين الذى بجواره في هذه المنطقة وفى هذا المكان الأن يوجد مسجد Bodreemcami والمسجد أنشأ وبنى في المكان الذى كانت فيه الكنيسة البيزنطية[٣] .

وأثناء عهد الإمبراطور نقفورس فوقاس (٩٦٣-٩٦٩م) كان عدد بيوت رعاية المسنين قد وصل إلى القمة حيث كانت كثيرة جدا حتى أن الإمبراطور أصدر قانوناً يمنع بناء الأماكن الخيرية الملحقة بالأديرة من أجل الحد من زيادة أعداد هذه المؤسسات واكتفى فى هذا القانون بالسماح بترميمها[٤]، وإن كان هذا التشريع قد ألغى فى وقت لاحق بواسطة الإمبراطور باسيل الثانى (٩٧٦-١٠٢٥م) بمرسوم معتمد بالختم الذهبى[٥].

وآخر مؤسسة للمسنين فى القرن العاشر الميلادى عرفت باسم Eugeniou والإشارة الوحيدة الخاصة بهذا البيت وجدناها فى كتاب الاحتفالات للإمبراطور قنسطنطين السابع بورفيروجنيتيوس (١٠٢٥-١٠٢٨م)[٦] .

أما القرن الحادى عشر الميلادى فقد شهد بناء وإقامة العديد من بيوت المسنين والمستشفيات والأماكن الخيرية حيث قام الإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤-١٠٤١م) بإنشاء

---

(1) Porphyrognitos (C.) : DE Cerimoniis in C.S.H.B ., Vo;. 1 P. 168; Theophannes (C.) : Chrongraphia in C.S.H.B ., Vol . 1., PP. 370 .
(2) Janin (R.) : La Geographie Ecclesiastque d ' L' Empire bezantine ., P. 568
(3) Theophannes (C.) : Chrongraphia ., P,404; Constantelos (D.J.) : Op. Cit., P 232; Lascaratos (J) & Kalantzis (G) & Rebelakou (P): Op. Cit., P. 117 .
(4) Lascaratos (J) & Kalantzis (G) & Rebelakou (P): Op. Cit., P. 117 .
(5) Talbot (A.M.) : Gerokomion ' art. In O.D.B ., P. 848 .
(6) Porphyrognites © : De Cerimoniis in C.S.H.B ., P. 558 .

العديد من هذه البيوت والأماكن الخيرية وأوقف بعض العقارات بحيث يكون دخلها ذاتيا وتكون مستقلة ذاتيا[١] .

ثم جاء بعد ذلك الإمبراطور قنسطنطين التاسع منوماخوس (١٠٤٣-١٠٥٤م) صار على نفس النهج وأنشأ عدداً من الأبنية والمؤسسات الخيرية احتوت على دار للمسنين فى الربع المعروف باسم Maggana بالقرب من دير القديس جورج[٢].

وهناك بيت للمسنين عرف باسم Pacourianos أخذ اسمه من اسم مؤسسة وقد أنشأ فى عهد الإمبراطور الكسيوس الأول كومنينوس (١٠٨١-١١١٨م)[٣] .

كما سجلت أنا كومنينا ابنته أن والدها شيد المدينة الجديدة وأقام حولها العديد من المبانى الخيرية التى شملت بيتا للمسنين[٤] .

وواحد من ثلاثة أباطرة من الذين أطلق عليهم اسم (رومانوس) وهم رومانوس ليكبينوس (٩٢٠-٩٤٤م) رومانوس الثانى (٩٥٩-٩٦٣م) رومانوس الثالث أريجيروس (١٠٢٨-١٠٣٤م) أعطى اسمه لإحدى دور المسنين حيث ذكر فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى ومعلوماتنا عن هذا الموضوع جاءت إلينا فى ستة كلمات من تيبكون (سجلات الأديرة) بانتوكراتور Typikon Pentocrator حيث حكت سجلات هذا الدير أن الإمبراطور حنا الثانى كومنين (١١١٨-١١٤٣م) قرر أن يبنى بيتا للمسنين لهؤلاء الذين يعانون من مرض الجذام واختار أن يبنى هذا بالقرب من بيت المسنين الخاص بالإمبراطور رومانوس دون تحديد أى من الأباطرة الثلاث[٥].

وأشهر بيوت المسنين فى الدولة البيزنطية والأكثر أهمية كان فى القرن الثانى عشر حيث كان يقع هذا البيت فى مجموعة مبانى الدير الشهير ومستشفى بانتوكراتور Pantocrator وأمر بتشييد هذه المؤسسة الإمبراطور حنا الثانى كومسنين (١١١٨-١١٤٣م) وكانت مأوى ليس فقط للمسنين بل للمعاقين والمقعدين والمشلولين وأولئك الذين كانوا غير قادرين على العمل[٦] .

---

(1) Lascaratos (J) & Kalantzis (G) & Rebelakou (P): Op. Cit., P. 117

(2) Gedrenos (G) : Histخriarum Compendium in C.S.H.B ., Vol . 1 P. 608; Lascaratos (J) & Kalantzis (G) & Rebelakou (P): Op. Cit., P. 117

(3) Lascaratos (J) & Kalantzis (G) & Rebelakou (P): Op. Cit., P. 115.

(4) Anna Comnena : The Alexiad, (London 1979) . p.229

وللترجمة للعربية آنا كومنينا : الكسياد ٠ ترجمة : حسن حبشى ٠ ص ص ٦١٦،٦١٧ ٠

(5) Pantokrator : Typikon of Emperor John II Komnenos For the Monastery of Christ ., B.M.F.D , Vol.2 no. 88 P.767.

(6) Ibid .

وفى منتصف القرن الثانى عشر اسحق كومنينوس شقيق الإمبراطور حنا كومنين (١١٨٥-١١٩٥م) شيد دارا لرعاية المسنين فى دير الأم المقدسة كوزموزتيرا Cosmosteira مخلص العالم وكان قد وهبه كل الاحتياجات الضرورية[١].

ج- حياة المسنين فى المجتمع الديرى

من الثابت أن الفترة المبكرة من تاريخ الرهبنة لم تهتم بالمشكلات الاجتماعية وبالعالم الخارجى ، حيث إن الفكر الرهبانى لدى النساك والزهاد والرهبان الأوائل كان قائما على فكرة تحقيق الحياة المثالية فى ظل حب المسيح والرب بعيدا عن الانغماس فى الحياة الدنيوية.[٢]

إلا أن ذلك المفهوم قد تغير تحت قيادة القديس باسيل العظيم حيث قرر ألا تنفصل الحياة الرهبانية عن العالم الخارجى وأن يكون للراهب دور فعال فى المجتمع وألا يكون حب الخير موجها فقط من قبل الرهبان لبعضهم البعض بل يمتد أيضا إلى المجتمع ككل[٣].

ومن هنا فقد أصبح الدير البيزنطى قوة بناء داخل المجتمع فإلى جانب كونه دارا للعبادة فقد أصبح مركزا هاما لرعاية المرضى واستقبال المسافرين والمحتاجين والفقراء وكل من هم فى حاجة للاهتمام والرعاية والمطلع على سجلات الأديرة (التبيكا) يتضح له الدور الكبير الذى قام به الدير البيزنطى فى تقديم الأعمال الخيرية.

من ناحية أخرى فقد أكدت التيبيكون على مفهوم الدير المستقل وضرورة أن يكون الدير حرا ومستقلا وغير خاضع لأى سلطة خارجية سواء كانت كنسية أو علمانية[٤] .

وكان وفاة أحد الزوجين أو فقدان الأبناء أو التقدم فى السن من أكثر الأسباب والمحن الأسرية التى تدفع الفرد إلى الالتحاق بالدير[٥].

ومن جهة أخرى شددت القواعد الديرية وأكدت على ضرورة الاهتمام بالرهبان بشكل عام والمرضى وكبار السن بشكل خاص وكذلك الراهبات المريضات والطاعنات فى السن وتوفير سبل العناية والرعاية الصحية المختلفة بهم من خلال ماتسمح به موارد الدير[٦] .

ومن الملاحظ أن اختيار منصب رئيس الدير كان يشترط فيه أن يكون من المسنين

---

(1) Kosmosoteira ., Typikon of the Sebastokralor Iaac Komenonos. In B.M.F.D. Vol.2 no 29 pp. 782-858; Talbot (A.M) & Sevcenko (N.P) : Bera . art ., in O.D.B., P.282

(2) Constantelos (D.J.) : Op. Cet., P.88 .

(3) Baldwin(B) & Kazhdan (A) : Basil the great. Art, in Q.D.B ., PP.629-70; Constantelos (D.J) : Op. Cit., P. 89 .

(4) Typika and Testament (B.M.F.D)

(5) Kazhdan (A) : Theodora of Thessalonike. , art. In O.D.B ., P.2038

عبدالعزيز رمضان : المرأة والمجتمع (القاهرة ٢٠٠٥) ص ١٤٩ .

(6) Typika in B.M.F.D , Mamas Ch34 P. 1071 , Kecharitomena, Ch 57 P. 696 Ath . Rule, Ch 31, P. 228 .

ويأتى منصب رئيس الدير على رأس الوظائف الإدارية داخل الدير، ونظرا لما يحتله من مكانه هامة ومنزلة رفيعة بين أعضاء المجتمع الديرى فقد اكتسب أهمية خاصة فى أعمال وكتابات القديسين، حيث صور كل من القديس ثيودور الستودايتى والقديس سيمون اللاهوتى المجتمع الديرى بالجسد البشرى الواحد الذى يأتى فيه رئيس الدير فى مقدمة الجسد " الرأس " منبع العقل والحكمة وباقى أعضاء المجتمع الرهبانى يمثلون العين والأيدى والأقدام وبالرغم من أن كل عضو له وظيفته إلا أنه الأهم بين أفراد المجتمع الديرى(١).

اشترطت معظم الأديرة ألا يكون اختيار الشخص المرشح لمنصب الرئيس قائما على أساس السن فقط بل على الفضيلة والمكانة التى يتميز بها عن غيره بين أفراد المجتمع الديرى(٢).

وحتى الأديرة النسائية اشترطت أن تكون الراهبة المرشحة لذلك المنصب من كبار السن المتسمات بالعقل والحكمة والقدرة على القيادة(٣) .

وبالرغم من اختلاف المهام المعهودة إلى رئيس الدير من دير لآخر طبقا لما نص عليه تيبكون كل دير على حدة إلا أنها اتفقت على أن يكون رئيس الدير بمثابة الأب الروحى لكل الرهبان وأن يعمل على رعايتهم والاهتمام بشئونهم الروحية والمادية والإنصات بكل عناية إلى اعترافاتهم اليومية وعلاج المرضى منهم وتوفير كل سبل الراحة لهم وأن يتعامل بحب وعاطفة أبوية مع الجميع سواء كان كبيرا أو صغيرا وأن يكون قدوة يحتذى بها بين الرهبان(٤).

وفى التنظيم الهيراركى للوظائف الإدارية داخل الدير البيزنطى نص التنيبكون على وجوب وجود منصب المشرف المالى " الأويكوتوموس " وكان يتم تعيينه من قبل رئيس الدير ويتم اختياره من بين الرهبان أصحاب الفضيلة والطريق القويم، وكان يتم أيضا تعيين مسئولا ماليا لدار المسنين وكان يدير الدير وفقا لقوانين وقواعد وصلاحيات يمنحها له رئيس الدير(٥) .

.

ومن المهام المسندة للمشرف المالى هو الإشراف على نظار الأراضى التابعة للدير فى الأقاليم المختلفة وهؤلاء الأشخاص كانت مهمتهم الإشراف على أملاك الدير من أراضى وأبنية

---

(1) Stoudios (T) : Typika. B.M.F.D , P. 86; Hussey (J) : Church and Learning in Byzntine Empire (New York , 1963) , P. 198.
(2) Areia : Typikon of Leo . in B.M.F.D , P. 965.
(3) Kecharitomcne,Typikon ch, 11, P. 674 .
(4) Tipika : Evergetis Ch.7., PP. 476-7 Studites., Ch 13, p.77 ' Ath. Rule ., Ch 31 . PP 227- 8.Pokourianos ., Ch 5., P. 529-31 in B.M.F.D .
(5) Tipika : Kosmosoteira, Ch.34 , P. 816 , Mamas, Ch.7 , P. 1001 ,Pantokrator, Ch. 64. P. 768. in B.M.F.D .

على حد سواء وكان يتم تعيينهم من قبل رئيس الدير ويتم اختيارهم من بين الرهبان الطاعنين فى السن إن أمكن والمشهود لهم بالسمعة الطيبة والتفانى فى العمل(١).

وبالاطلاع على بعض نصوص التيبكون نجد أيضا أنها خصت المسنين بوظيفة عرفت بحارس البوابة (البيليوناريوس) وهو الشخص المسئول عن حراسة بوابة الدير مثل دير لافارا الذى نص التيبكون الخاص به على أن يكون الشخص الذى يتم اختياره من بين الرهبان الطاعنين فى السن أصحاب الحكمة والفضيلة وكانت حجرته تقع ملاصقة لبوابة الدير كما كان مسئولا عن مفاتيح بوابة الدير ومهمته هى عدم السماح لأى شخص بالدخول أو الخروج من بوابة الدير حتى وإن كان أحد أقاربه أو معارفه دون إذن من رئيس الدير(٢).

وحتى فى الأديرة النسائية أسندت وظيفة حارسة البوابة " البولورس " إلى واحدة من الراهبات الطاعنات فى السن والمتسمات عن غيرها بالحكمة وكانت مسئولة عن عمليات الدخول والخروج(٣).

كما كانت هناك وظيفة المراقب وهو الموظف المسئول عن حفظ النظام داخل الدير، اشترطت بعض الأديرة على أن يكون من كبار السن المشهود لهم بالحكمة والخلق القويم(٤).

وفى الأديرة البيزنطية كان يعتبر العمل اليدوى، كالطقوس الدينية مثل القديس ثيودور الستودايتى الذى كتب عن أهمية العمل اليدوى حيث كان يرى أن العمل هو معيار الحماسة وذكر أن الشخص المتوهج بالعمل الجسدى هو أيضا متوهج بالعمل الروحانى ولذلك اشترك المسنين مع الشباب فى العمل بكافة أشكاله فالقديس إثناسيوس الأتونيتى دفع حياته ثمنا لتفانيه فى أداء عمله حيث لقى حتفه حينما سقط من أعلى السقالة التى كان يقف عليها مصطدما بكتلة من الصخور بينما كان يقوم بأعمال البناء فى الدير(٥).

وفى " دير كيشارتمونى " ونظرا لأن القانون الكنسى لم يتح للمرأة تولى الوظائف الدينية فقد كان يتم تعيين رجل دين من المسنين كأب روحى للراهبات يستمع إلى اعترافاتهن ويوجههن إلى علاج أرواحهن(٦) .

---

(1) Tipika : Komosoteira, Ch.40, P.818 . Areia. Ch.8 , P.966 , Evregetis, Ch.34, P. 493 . in B.M.F.D.

(2) Tipika : Ath. Rule, Ch.36, P. 228 ' Helioubomon, Ch.12., P. 1060 . in B.M.F.D.

(3) Kecharitomene , Tipika, Ch.19, PP. 684- 685 . in B.M.F.D.

عبدالعزيز رمضان : المرأة والمجتمع ، ص ٢٣٨ .

(4) Kosmosteira, Ch.37, P. 817. , Evergetis, Ch.31, P. 492 , Ath. Rule. Ch.17, PP. 224-5 in B.M.F.D.

(5) Studites (T), Ch, 18 P. 123 .;Leroy (J.) : La Reforme Studite, in O.C.A (1958) 153, P. 195.

(6) Kecharitomene ., Typika, Ch.15 , P. 678, Ch.16, P. 679 .

أما عن أراضى الأديرة الرهبانية والمؤسسات الدينية فالملاحظ فيما يخص المسنين أن هناك عدداً كبيراً من الأراضى توزع على الرهبان، وهؤلاء الرهبان حينما يتقدمون فى العمر يقومون بإعادة هذه الأراضى إلى الأديرة مرة أخرى مثل ماحدث فى " دير إيفرون "سنة ١٠٠٧م حيث أعاد أحد الرهبان أرضاً زراعية لم يستطع رعايتها لتقدمه فى السن[١].

أما عن النفقات التى كانت تنفق على بيوت المسنين والملحقة بالأديرة فتشير سجلات الأديرة بوضوح كامل إلى النفقات الشهرية واليومية لهذه البيوت[٢].

وفيما يخص الرعاية الطبية فالواضح أن الدولة البيزنطية أنشأت العديد من المؤسسات الخيرية كان من بينها منازل لرعاية المرضى ويعتبر مستشفى " بانتوكراتور " من أهم المستشفيات ومن أبرز المؤسسات العلاجية وتعتبر نموذجا مثاليا من حيث الإدارة والتنظيم، فكان به جناحا لرعاية المسنين[٣].

وفى نفس شأن الرعاية الطبية تشير سجلات الأديرة الاهتمام الواضح بالرهبان والمرضى وكبار السن وكذلك الراهبات المريضات والطاعنات فى السن وتوفير سبل الرعاية والعناية الصحية لهم حيث تشير التبيكا إلى الغرف المخصصة والمجهزة لاستقبال المرضى والممرضين الذين يعملون على تلبية احتياجات المرضى والأسر والأطباء المختلفين والذى كان يشترط أن يكون الطبيب أخصائيا ومن كبار السن وذلك كما أشارت سجلات أديرة باكوريانوس وكيبشارتيمونى سانمماس وهليويمن وغيرها من الأديرة[٤] .

وفى حالة وفاة أحد الأفراد المسنين سواء كان مريضا أو معافا ذكرا أو أنثى فكانت تقام له الطقوس والخدمات الجنائزية على روحه وفى ذكرى الأربعين لوفاته أو وفاتها كان يتم تقديم المنح والعطايا للفقراء من ممتلكات المتوفى من أجل خلاص روحه أو روحها[٥].

الملاحظ أنه كانت هناك عقوبة صارمة، لم يستثن منها المسنون وكانت تجرى على كل الرهبان أيضا وهى عقوبة الطرد من الدير حيث شددت القواعد الديرية أنه فى حالة محاولة أحد انتهاك القوانين والقواعد متجاهلا الأوامر فإنه يتعرض للطرد لقناعة الدير ان الذى يقوم

---

(١)سعاد محمود عبدالحميد : التنظيمات الديرية فى بيزنطة من القن التاسع إلى القرن الثانى عشر الميلاديين ، رسالة غير منشورة ، جامعة طنطا ، ٢٠١٠م ، ص ٢٤٠ .

(٢) سعاد محمود عبدالحميد : المرجع السابق ، ص ٢٦٥ – ٢٧٣ .

(3) Pantokrator, Typika Ch.38, P.757 .

(4) Kecharitomene , Typika, Ch.57, P. 926 , Ariea,, Ch.8 , P. 226., Evergetis, Ch.28, P.491., Mamas, Ch.34. P. 1017.

(5) Kosmosotera, Typika, Ch.70, P.831.

بذلك قد أصبح فى هذه الحالة مثل العضو المريض الذى لايرجى شفاؤه[١] .

الملاحظ أيضا أن هناك كثيراً من القديسين والديريين المسنين الذين كانوا يقومون بنشاط فعال فى نشر المسيحية ولم يقف السن حائلا فى قيامهم بالتجوال عبر الريف اليونانى يعظون الناس ويعملون على تجديد إيمانهم المسيحى بعد حالات الردة إلى الوثنية وهناك إشارات إلى أسماء الكثير منهم الذين عملوا على تقديم العون والإرشاد فى المجال الروحانى والدنيوى[٢].

والمكتبات الديرية كانت تمثل مركزا أدبيا وثقافيا كبيرا منذ فترة مبكرة من الدولة البيزنطية واضطلع عدد كبير من المسنين بعمليات نسخ لمجلدات وجمع مؤلفات مما كان له أثر كبير فى نهضة الآداب والفنون[٣] .

د- حياة المسنين فى المجتمع البيزنطى

انقسم المجتمع البيزنطى إلى ثلاث طبقات رئيسية هى الطبقة العليا (الأرستقراطية) ، والطبقة الوسطى ، وطبقة العامة وضمت كل هذه الطبقات فئة المسنين ، وكانت لكل طبقة من طبقات المجتمع مظاهرها الاجتماعية. وكان الصعود والهبوط من وإلى طبقة أخرى مظهرا من مظاهر الحراك الاجتماعى فى المجتمع البيزنطى بشكل عام .

وعلى مايبدو أن مجتمعات العصور الوسطى بشكل عام كانت تعتمد فى بنائها على القوة العضلية والجهد الجسمى، لذا فقد اعتبرت كبار السن الذين فقدوا جزءا كبيرا من لياقتهم البدينة عمالة زائدة وأناس ليس لديهم مكان بينهم وبالتالى وجب عزلهم والاستغناء عنهم ليفسحوا الطريق أمام الأكثر شبابا والأكثر قوة ، وعلى النقيض كان هناك من المجتمعات من يرى فى الإنسان المسن قوة عقلية ومجموعة من الخبرات والتجارب وكلما زاد عدد السنين زادت خبرة الفرد وأصبح أرجح عقلا وأصوب حكماً وقد وجدت النظرتان المجتمعيتان فى الدولة البيزنطية ولتوضيح أى النظرتين تبنت بيزنطة كان لابد من التعرف على صورة المسن وكيف تعامل المجتمع البيزنطى معه .

أول صورة تواجهنا هى صورة الإمبراطور المسن فى مجال الحكم حيث استمر عدد من أباطرة بيزنطة فى الحكم فى تناغم مطلق على الرغم من كونهم مسنين مثل الإمبراطور

---

(1) Evergetis, Typika ,Ch.12, PP.482-83; Pakourianos, Ch.18, P. 542, Kecharitomene, Ch.2 . PP. 668-9 .

(٢) سعاد محمود عبدالحميد : المرجع السابق ، ص ٣١٤ .

(3) Charanis (P.) : The Monk as an Element of Byzantine Society in D-O.P (1971) 25., P. 81 .

جستين العظيم (٥١٨–٥٢٧م)، وجستنيان الأول (٥٢٧–٥٦٥م) وأنستاسيوس (٤٩١–٥١٨م) ، وباسيل العظيم (٨٦٧–٨٨٦) وغيرهم[١] لكن الصورة المناقضة لما سبق هى صورة الإمبراطور المسن حنا الخامس (١٣٧٩–١٣٩١م) الذى قام بالثورة عليه حفيده حنا السابع باليولوجس سنة ١٣٩٠م فى حركة انقلاب أخرج فيها جده وحل محله إمبراطوراً على القسطنطينية[٢] .

وإذا انتقلنا إلى صورة المسن فى الجيش نلاحظ أن الجيش البيزنطى كان يبقى على كثير من القواد رغم تقدمهم فى العمر ولم يكن يقصيهم ويحيلهم إلى التقاعد إلا فى حالات نادرة مثل حالة ميخائيل استراتيجوس المسن والأحمق حينما اختير اسحق كومنين سنة ١٠٥٧م خلفا له ومنح لقب قائد الجيوش الغربية[٣].نرصد صورة أخرى لوضع المسنين فى الجيش تؤكد عدم الاستغناء عنهم حيث أشار المؤرخون إلى أن الإمبراطور حنا السادس كتاكوزين (١٣٤٧–١٣٥٤م) كتب فى أحد التقارير أنه فى أحد المعسكرات أمر جميع الجنود بالسير على الأقدام مشيا واستثنى مائة جندى مسن لسنهم المتقدم[٤] .وإن كانت هناك دراسة تشير إلى انتشار الإصابة بأمراض المثانة البولية بين الجنود المسنين الذين لايحالون إلى التقاعد وهناك حالات حدثت تحديدا فى عهد الإمبراطور ميخائيل الثانى (٨٢٠ – ٨٢٩م) مؤسس الأسرة العمورية[٥].

وثمة إشارات فى المصادر البيزنطية تشير إلى صورة المسن فى حالات الزواج فعندما توفى الإمبراطور ثيودسيوس الثانى سنة ٤٥٠م قامت أخته بولكريا والتى أخذت على نفسها ونذرت نفسها للعذرية، بالزواج الإسمى من المسن مارقيان لدعم توليه الحكم[٦] .

ونرصد هنا أيضا حالة زواج شابة بمسن ، مثل حالة ماريا الآلانية التى اختارت أن تتزوج الإمبراطور المسن نقفوربوتنياتس (١٠٧٨–١٠٨١م) نظير اتفاق يضمن أحقية ابنها

---

(1) Lascaratos(J.) & Reblakou (E.P.) : Did Justinian The Great (527-565) Suffer From Syphilis? In I.J.D , P. 790 ; Oman (M.A) : The Byzantine Empire (OxFord 1892) P. 67; Talbot (A.M) : Andronikos III Paliologos ., art. O.D.B. P.95; Vasiliev (A.A) : History of Byzantine Empire ., vol. 1 , P.65.

(2) Runciman (s) : The Last Byzantine Renaissance (Camb.- 1976) P.19; Gregory (E.T) : A History of Byzantiom (Korinth 2004) . P. 319 .

(3) Brand (C.M.) : Michael Vi Stratiotikos art, in O.D.B. P. 1366 .

(4) Lascaratos (J) : The Roots of Geriatric., P.25.

(5) Rebelakou (P.) and others : Urological Diseases of Byzantine Emperors (330-1453).

(6) Rosser (J.H.) : Historical Dictionary of Byzantine., P.338 , Gregoruy (E.T) : Op. Cit., P. 104.

الصغير قسطنطين دوقاس من زوجها السابق الإمبراطور المخلوع ميخائيل السابع من أجل أن تضمن حقه فى وراثة عرش الإمبراطورية[١] ٠

ولعل الصلة الأكثر وضوحا بين المسنين وسياسة بيزنطة نجدها فى المرأة البيزنطية المسنة فالملاحظ أن الأسر البيزنطية بشكل عام حرصت على رعاية الفقراء والمسنين والمعوزين وقامت المرأة المسنة تحديدا بدور بارز فى مجال العمل الخيرى والإنسانى وكانت للمرآة إسهامات خيرية قدمتها بكل حب وتواضع، وحيث إن هناك العديد من دور المسنين التى أنشأتها المرأة فى الدولة البيزنطية من أجل المسنين فهاهى زوجة القديس فلاريت الرحيم تقوم بتأثيث العديد من المستشفيات ودور المسنين فى بونتوس[٢]٠

ومن بين النساء اللاتى اشتهرن فى مجال العمل الخيرى كانت الإمبراطورة ثيوفانو زوجة الإمبراطور ليو السادس (٨٨٦-٩١٢م) التى قامت بتوزيع جميع أموالها وأملاكها على الفقراء ، كما شيدت العديد من دور المسنين والأيتام والمستشفيات[٣]٠

وكل من القديسة ماريا الصغرى فى القرن التاسع والقديسة ثومايس الليسبوسية فى الفرن العاشر والقديسة إيرين رئيس دير كريسوبالانثون اشتهرن بالأعمال الخيرية وعلى رأسها رعاية المسنين والعديد من الأسماء الأخرى[٤] ٠

وهناك علاقة مابين المسنين ومفهوم التقاعد حيث يرى البعض أن مفهوم التقاعد – وإن لم يتفق العلماء على تعريف محدد – أن المتقاعد هو كل من ترك وظيفته سواء إجباريا بسبب بلوغه سن التقاعد أو إجباريا لأسباب أخرى[٥]٠ ومن هذا المنطلق فإن تاريخ الدولة البيزنطية يعج بأسماء كثيرة – يطول ذكرها – لجأوا إلى تأثيث أديرة تقاعدوا فيها نهائيا حتى وفاتهم بعد أن تضاءل تأثيرهم فى المجتمع البيزنطى ٠

وفى هذا السياق تبدو الأهمية الكبيرة لسياسة بيزنطة فى رعايتها للمسنين إذ تعكس صورة نابضة بالحياة عن مجتمع يهتم بالأرامل خاصة المسنين منهم، فقد كانت الأرامل اللاتى يتقدمن فى العمر يعشن مع أولادهن وربما يذهبن إلى الأديرة ويذهبن إلى دور العجزة المسنين كبديل ومنهن من كان يتلقى الرعاية فى مقابل التبرع النقدى أو بالممتلكات[٦]٠

([1]) Band (C.M) & Culter (A) : Nikephoras III Botaneiates art. O.D.B. , P. 1479.

([2]) La Vie de s, Philarete Le Misericodieur , Trans. Leayn (N) & Fourmy (M.H) ., (1934) , P.165-6

([3]) Kazhdan (A) : Theophano., art in O.D.B. ., P.2064

([4]) Constantelos (D.J) : Op. Cit., P. 100 , 106 .

([٥])مها محمد البربرى : الوحدة النفسية وعلاقتها ببعض المتغيرات الشخصية لدى المسنين، ص٢٨-١٩ ٠

([6]) Herrin (J) & Kazhdan (A) : Age. Art., O.D.B., P.36

وهناك إشارة واضحة وردت فى سيرة القديس " لازاروس " عن دخول عدد كبير من الأرامل من مستويات اجتماعية مختلفة إلى دير القديس ميخائيل مالينوس حتى أنه يشار إليه بدير الأرامل والعجائز ، كما أن القواعد التى وضعتها إيرين ديوكاينا لدير كيشارتيمونى تشير إلى تدابير تتعلق برغبة أقاربها الإناث فى دخول الدير حال وفاة أزواجهن أو بلوغهن سن الشيخوخة(١)، ومن خلال هذه الإشارات يمكن القول بوجه عام أن بيزنطة فى رعايتها للمسنين كان لها أدواتها وألياتها الخاصة .

وثمة مقارنة ذات وجاهة بين المرأة المسنة والفتاة العذراء عند الحديث عن عزلة المرأة البيزنطية فلم تختلف عزلة المرأة من حيث الطبقة الاجتماعية ومحل الإقامة فحسب بل اختلف وفقا للمرحلة السنية فبالنسبة للطبقة الأرستقراطية يمكن القول أنه فى الوقت الذى مارست فيه المرأة المسنة قدرا من حرية الحركة لم تستطع الفتاة العذراء أن تتمتع بهذه الحرية ولم تكن تغادر منزل الأسرة إلا بصحبة حشد من الخدم والحراس لحماية عذريتها وسمعتها(٢)، من هذا المنطلق يمكن القول أن ماهو كان متاحا للمرأة المتزوجة والمسنة لم يكن كذلك للفتاة العذراء.

وليس كل المسنات فى الدولة البيزنطية كن يلتحقن بدور المسنين بل أن كثيرا منهن عشن فى بيوتهن حتى وفاتهن ويؤكد الرحالة الإيطالى فرانسيسكو فلغو Filelfo Francesco الذى زار القسطنطينية فى الفترة من (١٤٢٠ – ١٤٢٧م) وتزوج من بيزنطية على أن العجائز الأرستقراطيات لم يكن يتحدثن مع الغرباء ولم يكن يغادرن بيوتهن إلا فى ظلام الليل وقد غطين وجوههن ويرافقهن عدد من الأقارب مع الخدم(٣).

ونظرية التعميم نظرية يملؤها الخطأ فمن غير الجائز تعميم موقف أو ظاهرة ما على المجتمع بأسره خاصة إذا ماتعلق الأمر بالنواحى الأخلاقية والسلوكية لمجتمع ما، ففى كل مجتمع توجد الفضيلة إلى جانب الرذيلة والمجتمع البيزنطى شأنه شأن كل المجتمعات به الصالح والطالح غير أن بعض مؤرخى الدولة البيزنطية تحدثوا كثيرا عن السلوك الجنسى فى المجتمع خاصة بين الطبقة الأرستقراطية ولم يستثنوا المسنين حتى أن المؤرخ نيفتاس خونياتس عند حديثه عن سلوكيات الطبقة الحاكمة الجنسية شبه الإمبراطورية بالمرأة المغتصبة ووصف الأباطرة الزناة بأنهم " وطأوا الإمبراطورية " (٤)

---

(1) Kecharitomene., Typikon Ch, PP. 670-1.

عبدالعزيز رمضان : المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

(٢) عبدالعزيز رمضان : المرأة والمجتمع ، ص ٥٩ .

(٣) حاتم الطحاوى : اقتحام العثمانيين للقسطنطينية ، شهادة المؤرخ دوفاس ، مجلة الاجتهاد ، العدد ٤١-٤٢ (١٩٩٩) ص ٢١٣ .

(4) Choniates (N) : Annals ., P. 114

ويتجسد هذا الأمر فى حالة الإمبراطورة العجوز " زوى " التى رفضت الاعتراف بسنها الكبير ، واتخذت من " ميخائيل البفلاجونى " عشيقا لها فى وجود زوجها رومانوس أرجيروس التى كرهته على حد قول المؤرخ ميخائيل بسيليوس لانقطاعه عن ممارسة الجنس معها لكهولته[١] وهناك الكثير من المضاجعات غير الشرعية التى لم تقف عند سن محدد ذكرها المؤرخ نيفناس خونياتس ٠

ويبدو أن التقدم فى العمر لم يكن يؤثر على جمال كثير من نساء بيزنطة المسنات وهذا الرأى يحمل فى طياته الكثير من الصحة خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار وجود كثير من الروايات التى تعضد هذا الرأى، ففى أوائل القرن التاسع أشار نقتاس الأمنى كاتب سيرة القديس فيلارتوس إلى أول مسابقة لعروض زواج العرائس فى البلاط البيزنطى حيث ذكر أنه حينما جلس الجميع حول مأدبة الطعام التى أقامها الرجل العجوز المسن فيلاريتوس تكريما لرسل الإمبراطور قسطنطين السادس (٧٨٠–٧٩٧م) انبهر ثيوفانيس رئيس الوفد بأن يرى حسن طلعة جميع أفراد الأسرة الذكور من أبناء القديس وأزواج بناته طلب رؤية ثيوسيبو Theosebo ربة الدار وزوجة القديس فلما أمرها زوجها بالحضور أصيب ثيوفانيس بالدهشة برؤية سيدة عجوز تحتفظ وتتمتع بجمال باهر على الرغم من أنها مسنة الأمر الذى شجعه على طلب رؤية بقية فتيات الدار[٢] ٠

والمصادر البيزنطية بها الكثير عن جمال البيزنطيات واحتفاظهن بهذا الجمال مع تقدمهن فى العمر حيث قدمت أناكومنين فى كتابها الألكسياد العديد من الشخصيات المسنات الجميلات مثل وصفها لوالدتها إيرينى ديوكاينا ، وجدتها لأمها "ماريا البلغارية" [٣] وأنا كومنين نفسها احتفظت بجمالها على الرغم من تجاوزها السبعين كما أشار جورج ثورنيكس فى خطابه الجنائزى إلى وصف دقيق أقل مايقال أنه وصف لفتاة فى ريعان شبابها[٤] ٠

وأيضا " زوية " التى كانت تتمتع بحسن طلعتها على الرغم من أنها فى الستين من عمرها إلا أنها كانت تبدو كطفلة غريرة بشعرها الذهبى وبشرتها الناعمة البضة[٥].

---

(1) Psellos (M) : The Chronogrophia of Michels Psellus. PP. 75-77.

(2) Barbe (D) : Irena de Byzance, La Femme Empereur, (Porus 1990) P, 252.

عبدالعزيز رمضان : المرجع السابق ، ص ٥٣ ٠

(3) Anna Comnena : Op. Cit ., P. 76-75 .

(4) Browning (R.) : " An Unpublished Funeral Oration " ., P. 5.

(٥) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٢٦٦ ٠

على أية حال هذا هو حال المرأة المسنة فى الدولة البيزنطية وثمة رأى يؤكد قوة المرأة البيزنطية حيث يشير إلى أنها لم تكن تذرف الدمع على مصيرها وذلك بشجاعتها وحيويتها واقتدائها بالنساء المسنات المهيبات الجانب فى الكتاب المقدس[١].

هـ الرعاية الصحية والنفسية للمسنين :

عرفت المجتمعات المختلفة منذ العصور القديمة رعاية المسنين بدرجات متفاوتة لكنها لم تصل إلى ماعرف مؤخرا (بطب الشيخوخة) كتخصص منفرد والاهتمام الذى أبدته الإمبراطورية البيزنطية يجعلها رائدة فى هذا الشأن[٢] .

وهنا ينبغى الإشارة إلى أن موقف الدولة البيزنطية من رعاية المسنين والخدمات التى قدمتها للمسنين لم يكن مبعثه فعل الخير فقط ، بل يمثل الالتزام من سكانها بتلك الرعاية، كما تلزم المسنين أنفسهم بالخضوع لها وذلك بما وضعته من نظم ولوائح منظمة لرعاية المسنين.

كانت الدولة البيزنطية تقوم بالسعى إلى تخفيف العبء عن الناس من خلال تأسيس المستشفيات وبناء النُزل للحجاج الغرباء وملاجئ الأطفال وبيوت للأمومة وبيوت للمسنين، ومنازل للأمهات المسنين أيضا [٣] .

انتشرت المستشفيات بشكل كبير ولسنا هنا بصدد عرض لتاريخ المستشفيات خلال التاريخ البيزنطى، ولكن يمكن فهم صورة المستشفيات البيزنطية من خلال مستشفى دير بانتوكراتور التى أسسها الإمبراطور البيزنطى حنا الثانى كومنين والتى تعد من أهم المؤسسات العلاجية التى تم إنشاؤها فى الإمبراطورية البيزنطية حيث كانت تضم خمسون سريرا موزعين على النحو التالى : عشرة أسرة لمرضى الكسور والجروح، وثمانية آسرة لمرضى العيون والأمراض الحادة، واثنى عشر سريرا للنساء، وباقى الأسرة للأمراض الأخرى العامة وكانت هذه الأسرة مقسمة إلى أجنحة مختلفة وملحق بكل جناح سرير إضافى من أجل الحالات الحرجة، بالإضافة إلى وجود ستة أسرة للمرضى الذين لا يستطيعون الحركة للحالات الطارئة[٤].

وهناك نصوص تعكس تسهيلات وميزات كرستها السلطات البيزنطية فى عنايتهم بالمرضى داخل المستشفى، فعن شكل الأسرة كان يتم تغطية الأسرة بحصيرة يعلوها وسادة فى فصل الصيف، كما يدعم كل سرير بعدد اثنين من البطاطين المصنوعة من شعر الماعز عند

---

(١) علية عبدالسميع الجنزورى : المرأة فى الحضارة البيزنطية ، ص ١٨٦ .

(2) Lascaratos (J) & Assimakopoulas (D) : From the Roots of Otology . Diseases of the ear and Their Treatment in Byzantine Times (324-1453) in A-J.O (1999) P.398 .

(3) Baynes (H) & Moss (L.B) : Byzantium (Oxford 1948) P. 23; Trapp (E) : Philanthropy art. In O.O.B ,p. 1649; Kazhdan (A) : Ptochotropheion art .in O.D.B ., P. 1756; Cappel (A,J) : Euageis Oikoi , art in O.D.B., P.736.

(4) Pantokrator , Typika, ch36. P. 757 .

الانتقال إلى فصل الشتاء، كما كان كل جناح يضم عشرين قميصا تقريبا من أجل المرضى الفقراء أو المسنين ، وكان يتم كل فترة تغيير الملابس وأغطية السرائر التى لم تعد صالحة للاستخدام(١) .

أما الفرق الطبية فكان المستشفى يقوم على عدد كبير من الأطباء والطبيبات والمساعدين والمساعدات الذين كانوا يتمتعون بالخبرة العالية(٢) .

وكانت المستشفى تُدَعَمْ بكل ماتحتاجه من المؤن الطبية اللازمة لمداواة المرضى سواء من المقيمين طريحى الفراش أو من المرضى الذين يأتون إلى قسم العلاج الخارجى حيث يتم منحه العلاج المناسب إذا تبين من خلال الكشف الطبى إنه ليس فى حالة تستدعى بقاءه فى المستشفى(٣).

والملاحظ هنا أن الإمبراطور حنا الثانى كومنين أنشأ دارا منفصلة لرعاية المسنين بدير بانتوكراتور مجهزة لاستقبال أربعة وعشرين من المسنين الرجال ، وكانت تشترط هذه الدار أن يكون هؤلاء ممن يعانون من أمراض الشيخوخة المختلفة، وكانت هناك أولوية للمسنين المرضى والمقعدين والمصابين بالعرج والمبتور من أجسادهم أعضاء(٤) .

كذلك كان هناك تشديد بعدم السماح لآى شخص غير مريض وغير مسن إدراج اسمه فى قوائم المسنين بالدير مهما علت رتبته أو مكانته وينسحب ذلك على أفراد الأسرة الحاكمة ورجال الدين وغيرهم من القادرين على دفع نفقات معيشتهم ، ومن يخالف ذلك يدخل فى دائرة الاتهام والإدانة (٥).

وهناك دار أخرى للمسنين أنشأها السباستوكراتور " اسحق كومنين " عرفت باسم " كوسمورزويترا " قامت على رعاية المسنين وكان المستشفى مجهزا بكل احتياجاتهم بل إن المؤسسة من حرصها على راحة المسنين كان رئيس الدير فى حالة تعرض أحد المرضى المسنين بانتكاسة أو حادثة فكان يوجب عليها تغيير لوازم الفراش على الفور وبصورة يومية حتى لا يتأذى المرضى نفسيا(٦) .

---

(1) Pantokrator , Tipika , ch36 , P. 757 .
(2) Pantokrator , Tipika , ch36 , P. 758 .
(3) Pantokrator , Tipika , ch41 , P. 757 .
(4) Pantokrator , Tipika , ch58 , P. 766 .
(5) Kosmosoteira , Typika , ch70 , PP. 830-831 .
(6) Kosmosoteira , Typika , ch70 , P. 831 .

كما كان يلزم رئيس الدير بتوفير كل ما يحتاجه المرضى المسنين من الاحتياجات الطبية المختلفة وكذلك توفير الأدوية المناسبة للمرضى ومستلزمات الدار من الأخشاب للتدفئة والزيت لإضاءة المصابيح والطعام المطهو[١].

ولقد أولت الدولة البيزنطية عناية خاصة للعمليات الجراحية منذ البداية المبكرة والتى استفاد منها كبار السن[٢].

والمطلع على التيبكا يجد التشديد على أن يكون فى الدار طبيب متخصص فى الكسور والعظام ويشترط عليه البقاء على الدوام هو والمجموعة المعاونة له[٣].

وحرصاً من مؤسسة الدير على تحقيق المنفعة لكل المسنين فقد نص التيبكون على أنه فى حالة شفاء أحد المرضى وقرر مغادرة الدير فعلى رئيس الدير أن يأتى بمن يحل محله على الفور حتى لايترك سريرا واحدا خاليا دون استفادة أحد منه[٤].

وقد أشار المؤرخ زانوراس إلى كثير ممن تقدموا فى العمر وفقدوا القدرة على العمل ، بل منهم من وجد صعوبة فى المشى ويحتاجون إلى مساعدة ذويهم[٥]، كما أشار المؤرخون إلى انتشار أمراض الشيخوخة المختلفة كالتهاب المفاصل وأمراض الروماتيزم والنقرس وأمراض العيون[٦]، ولذلك سعى الأطباء البيزنطيون إلى تقديم نظام غذائى محدد للمسنين فى شكل حمية حمية غذائية، كما أوصوا المجتمع البيزنطى بشكل عام إلى توفير الغذاء المناسب للمسنين والحمامات الدافئة والتدليك بالزيت والمشى وإعطاء الأغذية بكميات قليلة[٧].

فالمصادر الطبية تشير إلى أن سبب وفاة الإمبراطور أندرونيقوس الثانى باليولوجوس وهو فى سن متقدم (٧٤ سنة) بسبب مخالفة غذائية حيث تناول فى العشاء مأكولات بحرية مع ماء مثلج لم تتحمله مَعِدْة العجوز طبقا للمفاهيم الطبية فى ذلك الوقت[٨].

أما عن كيفية تعامل الدار مع الحالات المرضية من المسنين فقد أفاد التيبكون بأن هناك قساً مسئولا عن هذا الأمر فإذا لاحظ شكوى من أحد المسنين من مرض معين يقوم على الفور بإبلاغ المسئول المناط له العناية بالمرضى مع الفريق المصاحب له لتجميع المعلومات

---

(1) Kosmosoteira , Typika , ch70 , P. 831
(2) Lascaratos (J) & Kouvarrki (M) : Surgery on varices in Byzontine Times (324-1453) in J.V.S (2001) Vol.3 N.1 .
(3) Kosmosoteira , Typika , ch70 , P. 831
(4) Kosmosoteira , Typika , ch70 , P. 831
(5) Zonars : Epitomae Historiararum C.S.H.B., P223.
(6) Lascaratos (J) & Assimakopoulos(D) : Op. Cit., P. 398 .
(7) Lascaratos (J) & Rebelacou (E.b) The Root of Geriatric Medicine Care of Aged in Byzantine. Art . Gerontology (2000) 46, P.3
(8) Lascaratos (J) & Rebelacou (E.b) : Op. Cit., P. 5 .

الطبية عن الحالة المرضية وتقديمها للفريق الطبى المتخصص فى هذه الحالة، ويلقى الرعاية الكاملة حتى يتم الشفاء له ، ولكن إذا ماكان مريضا مرضا خطيرا فيحتجز بالمستشفى لتلقى العلاج، يعود بعدها إلى دار المسنين بعد المعافاة، كما أن جميع نزلاء الدار من المسنين لهم الحق فى الاستحمام فى حمام المستشفى الملحق بالدير مرتين شهريا(١) .

أما عن مخصصات المسن فكانت متنوعة حيث يتلقى الخبز والنبيذ والبازلاء والجبن وزيت الزيتون و (هيبربيرتين)(٢) لشراء الملابس، هذا بالإضافة إلى توزيع الصدقات والأعطيات على نزلاء الدار والتى تأتى عليهم فى وقت المناسبات والأعياد(٣).

كما أن دراسة النصوص التاريخية التى كتبت باليونانية فى وقت مبكر تؤكد أن الأطباء البيزنطيين لهم دور كبير فى تقديم الأساليب العلاجية والتقنيات الجراحية فى أمراض الأذن التى كان يعانى منها كبار السن مثل (التهاب الأذن والتمزق فى طبلة الأذن ونقص السمع والدوار وطنين الأذن)، وكانوا يمارسون العديد من العلاجات الجراحية المتصلة بطب الأنف والحنجرة وتجاربهم الشخصية كان لها دور كبير فى إثراء المعرفة الطبية الأوربية فى القرون الوسطى(٤).

كما ساهم الأطباء البيزنطيون فى طب الأمراض الجلدية المختلفة كتساقط الشعر والجذام وأولو اهتماما " خاصا " لموضوع مستحضرات التجميل وإزالة التجاعيد وترطيب البشرة وصباغة الشعر وأقبل المسنون عليها بشكل كبير(٥).

ورغم أن الروايات السابقة تشير إلى تبنى بيزنطة الرعاية الصحية للمسنين، فثمة روايات أخرى يوحى ظاهرها بأنها تبنت أيضا الرعاية النفسية، فقد أكدت الدراسات الحديثة على وجود علاقة موجبة بين الرضا عن الحياة وتقدير الفرد لذاته، كما أكدت تلك الدراسات فى تعريفها للوحدة النفسية بأنها عجز فى المهارات الاجتماعية وفى علاقة الفرد الاجتماعية مما يؤدى إلى الاكتئاب أو التفكير فى الانتحار أو القلق أو أعراض سيكوماتية مثل الصداع والتعب وضعف الشهية مما له أكبر الأثر على الأداء السيكولوجى الذى يتطلب تدخلا للمساندة

---

(1) Pantokrator : Typikan , ch60 , P. 767-8

(٢) الهيبربيرون ، Hyperperon : نقد ذهبى قديم ، و الهيبربيرون الواحد تساوى ٢٤ قيراط ، منها ١١ قيراط من الذهب الخالص، و ٦ قيراط من الفضة، و ٧ قيراط من النحاس ، انظر :

Kazhdan (A): Hyperpyron., art., O.D.B PP. 964 – 5

(3) Pantokrator : Typikan , ch59 , P. 766.

(4) Lascaratos (J) & Assimakopoulos(D) : From the Roots of Otology Diseases of the ear and Their Treatment in Byzantine Times (394-1453) in A.J.O., P. 398 .

(5) Lascaratos (J) & Tsiamis (C) : The Roots of Cometic Medicine , hair Cosmetics in Byzantine Time. In I.J.D. , (2004) 43, P. 399 .

الاجتماعية[١].

يؤكد ذلك إشارة بعض الدراسات إلى أنه كان هناك ممرضات بيزنطيات تخصصن فى تمريض المسنين، وهؤلاء الممرضات تمرسن على طب الشيخوخة، بل كان الذين يشتغلن بالرعاية الصحية والنفسية وتمريض الشيوخ فى تحديث دائم لمهاراتهن لاعتمادهن على قاعدة معرفية تتيح لهن التزود بالمعلومات والأدوات بشكل دائم[٢] .

وتحت مظلة الرعاية النفسية والروحية لجأت بيزنطة عند تقديمها لهذه الرعاية إلى إقامة الدار بالقرب الشديد من الكنيسة ليتمكن المرضى من سماع التراتيل المقدسة، كما تم تعيين كاهن لهؤلاء لأداء الصلوات الصباحية والمسائية وسماع اعترافات المرضى[٣]، وإن كان قد ثبت تاريخيا أن البيزنطيين بشكل عام بما فيهم المسنين من أجل تخفيف العبء النفسى كانوا يلجأون إلى القديس أو الساحر أو المنجم[٤].

وفى حالة وفاة أحد الأفراد فقد اجتمعت القواعد الديرية على ضرورة إقامة الطقوس الجنائزية على روحه ثم يدفن فى المكان الذى يختاره هو أو هى[٥] .

وإن كان الإمبراطور قنسطنطين مع ميلاد المستشفيات فى بيزنطة فى وقت مبكر من القرن الرابع الميلادى قد أقام نظاما بعمليات دفن الموتى من سكان القسطنطينية[٦].

خاتمة :

ربما الجهد والريادة الكبيرة التى أبدتها بيزنطة فى رعاية المسنين دفعت رجلا مثل روجربيكون فى القرن الثالث عشر الميلادى إلى أن يناشد الدولة أن تنشئ رصيدا للإنفاق منه على الفقراء والمرضى والطاعنين فى السن، وإن كان القسط الأكبر من هذا العمل تُرك للكنيسة[٧] .

والمنشآت المختلفة من مستشفيات ودور مسنين استمر وجودها فى الدولة البيزنطية حتى فترة متأخرة من العصر البيزنطى، فالرحالة الفرنسى " برتاندودى لابروكيه " الذى زار

---

(1) Hong (S.M) & Giannakopulos (E) : The Relationship of Satisfartion With Life to Personality Chracteristics. art. In J.P Vol. (1994) P.128.

(2) Lascaratos (J) & Rebelacou (E.b) The Root of Geriatric Medicine. art . Gerontology (2000) 46, P.4

(3) Kosmosoteira , Typika , ch70 , P. 831

(4) Baynes (H) & Moss (L.B) : Byzantion P. 29, Talbot (A.M) : Pilgrimage to Healing Shrine . art D.O. P, Col.56 (2002) PP. 155,162 .

(5) Typikon : Pantokrator , ch. 8, PP. 742-3 , Kecharitomene, ch.70,P.699 .

(6) Horden(p) : the earliest Hospitals in Byzantiun . art. In J.I.H (2005) 25, P.365.

(٧) ديورانت (ول) : قصة الحضارة ، مج ٨، ص ١٩٨ .

القسطنطينية فى القرن الرابع عشر الميلادى وجد أن المدينة مازال بها العديد من بيوت المسنين والمسافرين والغرباء(١) .

كما ذكر أندرونيقوس كاليستوس الذى كان شاهد عيان على سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ على أن كثيرا من المؤسسات الاجتماعية كالمستشفيات ودور المسنين والأيتام ومنازل الفقراء وغيرها من المبانى التى تفخر بها العاصمة قد تحطمت، ذلك أن القسطنطينية قد تمتعت بشهرة واسعة بأنها أم للفقراء والأيتام ومكان راحة المسافرين وملاذ للأرامل ورعاية للمسنين(٢) .

وأخيرا يمكن القول أن من وفاء الواجب الذى تفرضه شرائع الإنسانية المختلفة العناية بكبار السن وتقديرهم واحترامهم ومما قدمته الدولة البيزنطية فى هذا الشأن تكون قد رسمت منهجا علميا فى رعاية المسنين يمكن استدعاؤه ليكون عينة للحاضر ، وكانت سباقة فى هذا الميدان ومرجعا هاما لايمكن تجاهله فى العصور الوسطى.

(ب) العميان:

يمثل تاريخ العميان أباس سجل يظهر فيه عجز الإنسان عن معرفته نفسه وهو تاريخ مظلم للغاية ، فإن التاريخ يحدثنا عن المعاملة التى كان يلقاها العميان من ذويهم فى المجتمعات الأولى وهى أنواع متباينة تختلف باختلاف الأبعاد والمثل الأخلاقية التى كانت تلتزم باتباعها تلك المجتمعات ، كان يعتبر الأعمى تجسيداً للعنة الآلهة ، حيث كان فقد البصر يعتبر افتقاراً من الآلهة للإنسان ومحاولة علاجه كان ينظر إليه على أنه تدخل فى إرادة الآلهة ويستدعى غضبها وثورتها ، ولذلك كان العميان يلقون من تلك المجتمعات ألواناً من الاضطهاد والإذلال قد تصل إلى حد القتل وبعض المجتمعات كانت تعتبر العميان أعضاء يضعفون من قوتها فيتخلصون منهم بطرق مختلفة ، حيث كان مبدأ تلك المجتمعات هو ضرورة الاستغناء عن كل عضو ضعيف فى المجتمع . (٣)

وفى التراث اليهودى يجد القارئ هذه العبارة مراراً (أن الكفيف كالميت) ويأمر التلمود أن من يمر بكفيف فعليه أن يشفق عليه كما يترحم على ميت قريب له . (٤)

وورد فى الكتابات القديمة الخاصة بأفلاطون فى الجمهورية وأرسطو فى المدينة الفاضلة بضرورة التخلص من العميان بالإعدام ، كما جاء أيضاً فى قوانين ليكورجوس

([1]) Constantelos (D.J) : Poverty Society and Philonthropy in the Late Mediaval Greek World (New Rochele 1992) P. 121 .

([2]) Constantelos (D.J) : Byzantine Philanthropy .,P. 288; Talbot (M.T) & Cutler (A) : Kallistos. I, art in O.D.B, P.1095 .

(1) Baker (H. J): Introduction to Exceptions Psychology, (New York, 1953), P. 69

(2) Hector (C) & Sydell (B): The Adjustment of Blind (Yale University, 1960), P. 97.

Lucurgvs الأسبراطى وسولون Solon الأثينى ، وفى روما ظل الناس فترة طويلة يغرقون العميان فى نهر التيبر حتى جاء رومولوس Romulus فحد من هذا التصرف إذ طلب تشكيل جمعيات أهلية للبت فى صلاحية الطفل للمواطنة من عدمه . [١]

ومشاكل العميان لم تكن مثار اهتمام الناس فى المجتمعات القديمة والوسطى ، أو أنها كانت أزمة من نوع خاص لجأت لحلها بطرق تتلاءم مع المثل الأخلاقية التى كانت تلتزم بها تلك المجتمعات ، وليس فى وسع التاريخ أن يحدد متى بدأت هذه المشكلات ، إذ أنها أقدم من بداية التاريخ نفسه الذى نعرفه ونستمد منه أخبار المجتمعات والأمم والشعوب .

ففى بعض المجتمعات كانت معاملة العميان تتسم بطابع إنسانى وإن كانت تكتفى بتقديم العون المحدود ليستمر الأعمى فى حياته دون أن يبذل أى مجهود فى سبيل تدريبه أو تعليمه بعض الأعمال ، كان العميان فى الصين قديماً يُدربون على حفظ الحوادث التاريخية وسردها حتى يُصبحوا حفظة للتاريخ وروايته وتلاميذهم كانوا من العميان أيضاً الذين يحفظون عنهم ويقومون بأداء مهمة روايته للأجيال القادمة ثم بتعليمه بدورهم للعميان الصغار . [٢]

ويحسن بنا قبل الخوض فى تاريخ العميان فى الدولة البيزنطية أن نحدد مفهوم الأعمى فى اللغة العربية ، حيث إن هناك ألفاظاً كثيرة وجدناها فى بطون المعاجم العربية تستخدم للتعريف بالشخص الذى فقد بصره هذه الألفاظ أولها الأعمى والأعمه والضرير الأكمة – العاجز المكفوف والكفيف والمعاق) فالأعمى من ذهب بصره من أصل مادتها وهى العماء . والعماء هو الضلالة أو كلمة الأعمه من العمه والعمه كما فى لسان العرب التحيز والتردد ويقال أرض عمهاء أى بلا إمارات أو علامات . وغالباً ما ترد كلمة عمه ومشتقاتها فى معرض الذم ، أما كلمة " ضرير " فهى مأخوذة من " الضر " هو سوء الحال لنقص فى بدنه ، وكلمة عاجز فهى العجز أى التأخر عن شئ ، وصارت صفة لمن يقصر عن فعل الشئ ، أما كلمة الأكمة فمأخوذة من الكمة ، والشخص الأكمه هو الذى يولد أعمى مطموس العين أما كلمة كفيف أو مكفوف فأصلها من الكف ومعناها المنع والكفيف أيضاً هو فاقد البصر وجمعها المكافيف. [٣]
غير أن أدق لفظ أطلق على فاقد البصر فى العصور الوسطى هو لفظ الأعمى وذلك لأنه كان أكثر شيوعاً .

---

(3) Hector (C) & Sydell (B):Op. Cit., P. 58.
(4) Baker (H.J):Op. Cit., P. 68.

(٣) ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عمى ، عمه ، ضرَّ ، كمة ، عجز ، كف ، عوق) ، المعجم الوسيط : جـ ١ ، ص ، جـ ٢ ، ص

أما عن سمل الأعين فقد عرف فقأ أو قلع العيون بالسمل وأصل الكلمة العبرية يعنى الثوب ، وفى اللغة العربية يعنى أيضاً الثوب الخرق أو البالى أو الماء القليل الباقى فى أسفل الإناء ، أى الثمالة ، وربما المعنى الثانى يفسر استخدام السمل بمعنى فقأ العين أى إخراج سملتها . (١)والعجيب أن هناك بعض الروايات اليهودية تؤصل للفعل (سمل) بالرجوع إلى أحد الملائكة الذى يطلق عليه سمائيل (٢)

أما الإعاقة بمفهومها العام هى فقد إحدى القدرات الجسمية أو الحسية أو الذهنية نتيجة مرض أو حادث أو عامل وراثى أو عيب خلقى أو خطأ طبى أو عقاباً لصاحبها ، كما سنرى ذلك فى تاريخ الدولة البيزنطية . وتعد الإعاقة البصرية إحدى الإعاقات المؤلمة فمن الناحية الفسيولوجية بلغة الطب هى الحالة التى يفقد فيها الكائن الحى القدرة على الرؤية بالجهاز المخصص لهذا الغرض وهو العين وهذا الجهاز يعجز عن أداء وظيفته إذا أصابه خلل سواء كان طبياً أو حادثاً أو ولادياً . (٣)

العميان فى الدولة البيزنطية :

انتشرت ظاهرة العمى فى الدولة البيزنطية مثلها مثل أى ظاهرة فى عالم العصور الوسطى فالكرات والعصى والأحجار والسكاكين والأسياخ وما إلى ذلك من الأدوات المختلفة التى كان يلعب بها الأطفال والكبار كثيراً ما كانت تؤدى إلى حدوث إصابات بالعيون ، وليس

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ، المعجم الوسيط : جـ ١ ، ص ٣٤١ .

المعجم الوسيط : جـ ، ص

(٢) تعود الراوية إلى التراث الدينى اليهودى حيث تشير إلى جرأة أحد الملائكة (سمائيل) باعتباره ملاك الموت المكلف بقبض روح موسى عليه السلام بعدما خاف غيره من الملائكة ، فجبرائيل خشى أن يشهد موت رجل (مثل موسى) يعادل ستين ألف شخص أما ميخائيل فلم يقدر أن يشهد موت تلميذه موسى ولكن سمائيل قبل (وافق) أن يقبض روح موسى إلا أنه لم يستطيع فقد سمل موسى عينى سيمائيل وتأصل الرواية دلالة الفعل العربى سمل باعتباره فى الأصل اسم لملاك فقد إحدى عينيه ليصبح بذلك الملاك الذى تصفه المصادر اليهودية بالملاك الأعمى . انظر :

- *Dovnevman: (Noy)*

- *Motif – Index of Talmudic and Midrashic Literature, Sobmitted to the Gredute Faculty Partial for of the Requuirements for Folklor (Indiane Vniversity), Blooming, IND) Tune, 1954, P. 792. (Motit – V 230. 4.)*

(٣) هدى أحمد خلف : الضغوط النفسية لدى المكفوفين ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية التربية بقنا ، ٢٠٠٧م ، ص ٢٥ .

هناك من سبيل لتلافى هذه المآسى باتخاذ الحيطة والحذر . وإن تقدم طب العيون فى الدولة البيزنطية إنما يعكس مدى انتشار هذه الإعاقة . (١)

وتشير كثير من الدراسات إلى اهتمام الدولة البيزنطية بعلاج العين وأمراضها المختلفة، وهناك ما يفيد بأسماء كثير من أطباء العيون فى الدولة البيزنطية . (٢)

كما تشير المعلومات التاريخية أن الدولة البيزنطية اهتمت بالعين اهتماماً واسعاً ، بجمالها وصحتها وعلاجها بل وصل الأمر أن جعلتها إحدى وسائل عقوباتها ، ففى الوقت الذى كانت فيه المرأة البيزنطية تهتم بتزيين يديها وعنقها وشعرها بالحلى المصنوع من الذهب وترش ملابسها بأروع العطور الفاخرة ، لم تكن تنس أن تهتم برسم عينها باللون الأسود . (٣)

بل أن العيون ألقت بظلالها على نعت وصفة بعض الأباطرة ، فالإمبراطور ألكسويس الخامس دوكاس (Ruled, 1204) (The Bushy–Eyebrowed) عرف باسم مورتزو فيلوس Mourtzouphilos ، ويرجع ذلك لكثافة حاجبيه كثافة شديدة وتميز عينيه . (٤)

والزوجة الرابعة للإمبراطور ليو السادس (٨٨٦–٩١٢م) الإمبراطورة " زوى " التى كانت تتمتع بقدر كبير من الجمال الأخاذ ، بسبب عينيها السوداوين الجميلتين ، أطلق عليها اسم (عيون الفحم الأسود) Karbounopsina كنعت وصفة لها . (٥)

والمدهش أن كل ذلك الاهتمام بالعين وجمالها وعلاجها نجد أن الدولة البيزنطية لجأت إلى أبشع عقوبة ، وهى عقوبة سمل الأعين ، ولا ندرى هل كانت طبيعة التربية فى الدولة البيزنطية هى التى فرضت تلك العقوبة بكل ما فيها من شدة وقسوة ، وهل كانت هذه مكتسبة من السلوك العدوانى الإنسانى أم أن سمل الأعين كان أكبر ضرر يمكن إلحاقه بالخصم ، لقد كانت وسائل العقوبة والتعذيب منتشرة فى معظم دول العصور الوسطى بما فيهم الدولة البيزنطية

---

(1) Ioanna (A) & Maria (K): *Management of childhood diseases during the Byzantine period art*. In P. I, Vol. 44 (Oct. 2002) PP. 549-550; Lascaratos J): *Ophthalmology in Byzantine, Ar*t. In M.N (1999), Vol. 11, PP. 391-403.

(2) Fronimopoulos (J) & Lascaratos: *Some Byzantine chroniclers and historians on ophthalmological topice*. Art. In D. O. (Netherland 1992) PP. 121-132; Diamandopoulou (A,H) & Marketos (S.G): Four Different ways of Philantropic aid to the blind in medieval eastern Christendom, Art. O. P. O (Nov. 1995). PP. 609-613.- Lascaratos (J) & Marketos (S): Opthalmol Ogical therapy in hospitals (Xenones) in byzebtium. Art. In D. O. A (1991), Vol. 77, PP. 377-383.

(3) Guillou (A): *La civilization Byzantine* (Arthaud, 1974), P. 236.

(4) Brand (C. M): *Alexios V Doukas*. Art. In O. D. B., Vol. 1, P. 66.;Lascaratos (J) & Manduvalos (V): *Cases of stroke on the throne of byzantion art*. In J. H. N. (1998), Vol. 7, PP. 5-10.

(1) Kazhdan (A): *Zoe karbonopsina*. Art. in O. D. B. , Vol. 3, P. 2228; Lascarates (J) & Manduvales (V) : Op. Cit. PP. 5-10.

كالقتل والاغتيال والإعدام والشنق والشوى والحرق والأسر والنفى والعزل ... الخ ، غير أن أغربها لخروجها عن المألوف هى عمليات السمل .. كان لابد من تتبع وسائل العقوبة فى بيزنطة وهى سمة لابد من إبرازها وتسليط الضوء عليها بغية إيجاد تفسير تاريخى لها .

لم تكن عقوبة سمل الأعين معروفة تقريباً قبل القرن الثامن الميلادى ، فقبل ذلك كان هناك عقوبات جسدية مختلفة ، فعلى عصر الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١) مثلاً وفى أواخر أيامه عندما تقدم به السن وأصابه المرض بلغه أن أبنه أتالاريخوس Atalaichus وثيودور Theodorus ابن أخيه يدبران مؤامرة ضده تم كشفها ، لذلك أمر بقطع (بتر) أنفيهما وأيديهما ، كما أمر بنفى ثيودور إلى جزيرة Gaudomeleter وقطع رجليه عند وصوله ، ونفذ ذلك حاكم الجزيرة ، كما طبقت بعض العقوبات الجسدية على باقى المتآمرين . (١)

جرت عمليات سمل الأعين على الإمبراطور فيليبكوس بارداناس (٧١١-٧١٣) وذلك عندما قام ملك البلغار تريفل بالزحف على القسطنطينية ونجاحه فى تخريب ضواحى المدينة الأمر الذى كشف عن ضعف القوات البيزنطية فى الأجزاء الأوربية ولإنقاذ الموقف تم نقل جند الأبسيق (بآسيا الصغرى) الذين قاموا بإعلان الثورة على الإمبراطور وفى ٣ يونيه سنة ٧١٣م تقرر عزله عن العرش وسمل عينيه . (٢)

كما جرت عمليات سمل الأعين فى عهد الإمبراطور قسطنطين السادس (٧٨٠-٧٩٧م) الذى مات أبوه ولم يكن قد جاوز العاشرة من عمره ومن ثم بقى تحت وصاية أمه (إيرين) ثم أضحت قسيمه له فى الحكم سنة ٧٨٠م ، وبسبب ضعفه وما حل به من هزيمة على يد البلغار سنة ٧٩٢م تطلع الجيش إلى تنصيب عمه نقفور الحكم فما كان من قسطنطين للمحافظة على سلطانه أن أمر بسمل عينيى عمه نقفور وقطع ألسنة أعمامه الآخرين خشية أن ينازعوه السلطة . (٣)

ودارت الدائرة نفسها على الإمبراطور قسطنطين وذلك لازدرائه الكنيسة وطلاقه لزوجته التى اختارتها له أمه ليتزوج من عشيقته ثيودوت Theodotإحدى وصيفات القصر وكانت الإمبراطورة إيرين قد ساءها مشاركته لها فى السلطة ولرغبتها فى الانفراد بالحكم وتطبيق سياستها الدينية قامت بإجراء بالغ القسوة ، وبمساعدة اثنين من كبار مستشاريها هما

---

(2) Nicepharius: *Braviarium Historicum De rebus gestis post imperium mauricii* (Paris 1860), Tomus C. in P. G., Pp. 903-904.

(3) Ostorogorski (G): *History of the byzantine state*., Eng. T., J. Hussey (Oxford, 1957), PP. 152-154; Hollingsworth (P.A) & Culter (A): Philippikos atr. In O. D. B., Vol. 3, P. 1654.

(1) Theophanes*: Chronographia*, in C.S.H.B (1839), Vol. 1, P. 75; Garland (L): *Byzantine empresses women and power in byzntium*, (London, 2002), P. 82.

ستاوريكبوس Stauricios ،ايتيوس Aetios واستولت ورجالها على حجرة العرش ، وألقت القبض على ابنها الإمبراطور وأمرت باقتياده إلى الحجرة التى ولد فيها وبلا رحمة أمرت بسمل عينيه معلنة أنه غير مؤهل لحكم الإمبراطورية وأعلنت عودتها إلى الحكم منفردة مرة أخرى . (١) كانت هذه الغرفة التى شهدت مولده قبل ذلك بسبع وعشرين عاماً ، وبذلك تكون إيرين قد ضربت أسوأ مثل للمرأة البيزنطية فى معانى الأمومة والعطف .

نقرأ أيضاً مؤامرة بسمل الأعين لم تتم دبرت للإمبراطور ميخائيل الأول رانجبيه (٨١١-٨١٣م) قبل أن يتولى عرش الإمبراطورية وذلك من قبل أوستراكيوس وزوجته الأثينية ثيوفانو وذلك Theadore the stoudite بتدبير مؤامرة لإقصائه عن الحكم بسمل عينيه لكنها لم تتم حيث تم المناداة بميخائيل إمبراطوراً من الجند وأعضاء السناتو . (٢)

جرت أوسع وأكبر عمليات سمل الأعين فى عهد الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى (٩٧٦-١٠٢٥م) Basil Bulgarktonus وذلك فى صراعه مع البلغار الذين أسسوا تحت قيادة ملكهم " مانويل صموئيل " مملكة امتدت من الأدرياتيك حتى أطلت على البحر الأسود مارة ببلاد البلقان ، وكانت تمثل إزعاج للإمبراطورية البيزنطية الأمر الذى دفع الإمبراطور باسيل إلى التعامل حربياً حيث قاد حملات حربية على مدى خمسة عشر عاماً للقضاء على مطامعهم ومقاومتهم حتى استطاع فى النهاية القضاء تماماً على الجيش البلغارى فى معركة وقعت فى يوليو سنة ١٠١٠م ، وكانت مذبحة مريعة كاد صموئيل نفسه يقع فى أيدى البيزنطيين وحينما استولى باسيل على دروب سيمبالونجو Cimbalongou وقع فى الأسر خمسة عشرة ألف من جنود البلغار فأمر باسيل بسمل أعين هؤلاء الأسرى جميعاً إلا مائة وخمسين ، أبقى على عين واحدة لكل منهم ليقودوا زملائهم إلى بلادهم . (٣)

وعندما شاهد صموئيل هذا المشهد لم يستطع تحمل ذلك بشجاعة ، ووقع مغشياً على الأرض وبعد يومين لم يتحمل قلبه هذا المشهد وتوفى فى أكتوبر ١٠١٤م . (٤) واستحق باسيل الثانى أن يطلق عليه سفاح البلغار Bulgarocatonos أو قاتل البلغار أو ذابح البلغار (١)

---

(2) Theophanes: *Chronographia*, PP. 648-649.; Cholij (R): (Oxfoed Without Date), P. 39.;Lascaratos (J) & Poulakou (E): *Urolithiasis on Byzantine throne*, art. In E.S (2001), PP. 631-634.;Garland (L): Op. Cit., P. 87.

(3) Bury (J. B): *A history of eastern Roman empire* (London, 1912) P. 24.; Hollingsworth (P. A): Michael I Rangab art, In O.D.B., P. 1362.

(1) Cedrenus (G): Historiarium Compenduim. In C.S.H.B (1838), Vol. 1, P. 457; Attaliates (M): Historia in C.S.H.B (1899). P. 229;Gregory (T.E): A History of Byzantium (U.S.A 2005) P. 246.

(2) Stephenson (P): Byzantium's Balkan Frontier (Cambridge, 2004), P. 72. Schlumberger (G): L'epopee byzantine a la fin du dixieme siècle, (Paris, 1205), Vol. II, P. 339.

يرى بعض المؤرخين أن الإمبراطور باسيل لجأ إلى هذا الإجراء العنيف بأن أرسل إلى كل قرية فى بلغاريا أحد هؤلاء العميان التعساء ، ليكون شاهداً على قوة الإمبراطورية والإمبراطور البيزنطى . (٢)

تم تطبيق عقوبة سمل الأعين على الإمبراطور ميخائيل الخامس كالافاتس (١٠٤١-١٠٤٢م) وكان قد أعتلى العرش فى ديسمبر سنة ١٠٤١م ولم يبق غير سنة واحد (٣) . وكانت خطيئته الكبرى التى أدت إلى سمل عينيه هو تنكره للإمبراطورة زوى بورفيروجنتا (١٠٢٨-١٠٥٠م) التى جعلته عشيقاً وإمبراطوراً ، فبع أن حصل على ما كان يطمع فيه ، تخلص من صاحبه الفضل حيث حلق شعرها ونفاها إلى دير برتكيبو . (٤)

اشتدت ثائرة الناس وشبت فتنة فى القسطنطينية لأن ذوى كانت تعتبر وريثة الأسرة المقدونية والإمبراطورة الشرعية ، وانتهى الأمر بخلعه وعلى الرغم من أن الإمبراطور حلق شعر رأسه وليس رداء الرهبان وترهب غير أن ذلك لم يكن إلا بداية لأعنف مأساة ، حيث أصدرت ثيودورا شقيقة زوى وشريكتها فى الحكم الأمر بسمل عيون الإمبراطور المخلوع وإيداعه فى دير السيمون Elsimon (٥) هكذا تمت عملية السمل على الرغم من اختلاف الزمن والطباع والسلوك والمشاعر ، ولم يكن هذا الأمر خافياً عن المصادر العربية . (٦)

جرت عمليات سمل الأعين فى عهد الإمبراطور قنسطنطين مونوماخوس (١٠٤٢-١٠٥٤م) ، وذلك بأمر من بطريرك القسطنطينية فى ذلك الوقت البطريرك ميخائيل كريولاريوس (١٠٤٣-١٠٥٨م) الذى أمر بسمل عينى (الخصى) حنا أورفانوتروفس سنة ١٠٤٣م كتصفية حسابات قديمة . (٧)

وتردد أيضاً فى المصادر العربية موضوع التهديد بالعقوبة الشهيرة فى بيزنطة عقوبة السمل ضد المسلمين والنصارى الغرباء الموجودين بالعاصمة البيزنطية حيث سرت شائعة فى القسطنطينية بأن الإمبراطور قنسطنطين التاسع مونوماخوس قتل ذوى وثيودورا ابنتى قنسطنطين

---

(3) Nrand (C.M) & Culter (A): Basil II art. In O.D.B., P. 261.
(4) Schlumberger (G): Op. Cit., Vol. II, P. 341.

– السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، (بيروت : ١٩٨٢) ، ص ٦٤٧ .

(5) Brand (C.M): Michael V Kalaphate, Art. In O. D. B., Vol. 2, P. 1366.
(6) Ostrogorsky (G): Op. Cit., P. 288.;Brand (C.M): Op. Cit., P. 1366.

(١) السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، (بيروت : ١٩٨٢) ، ص ص ٧٣٦ – ٧٤٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، (بيروت : ١٩٨٢) ، جـ ٩ ، ص ص ٤٩٩ – ٥٠٠ .

(27) cam. Med. Hist. (Cambridge: 1980). Vol. IV, P. 265.;Kazhdan (A): Micael I Keroularios, Art. In O. D. ., P. 1361;Ostrogorski: Op. Cit., P. 297.

الثامن عندئذ ثار الأهالى وأعملوا النهب والسلب فخرج لهم قنسطنين وسألهم عن سبب ثورتهم فأجابوه أنه قتل الملكتين وأفسد الملك فرد عليهم بنفى تهمة القتل عنه وأخرج الملكتين ، فلما رآهما الناس سكنوا وعندما حقق فى الأمر علم أن الغرباء هم السبب الحقيقى فى ذلك الشغب وأشاروا عليه بإبعادهم ، فنودى " أن لا يقيم أحد ورد البلد منذ ثلاثين سنة ، فمن أقام بعد ثلاثة أيام كحل لذلك رحل عن القسطنطينية أكثر من مائة ألف مسلم ونصرانى ولم يبق بها أكثر من اثنتى عشر نفساً ، ضمنهم الروم فتركهم . (١)

واجه أيضاً عقوبة سمل الأعين الإمبراطور البيزنطى رومانوس ديوجينيس (١٠٦٧-١٠٧١م) بعد كارثة ملاذكر والتى كانت من أفدح الكوارث الحربية التى نزلت بالإمبراطورية البيزنطية حين هلك جيشه كله على يد السلاجقة بل لقد وقع هو ذاته أسيراً فى يد السلطان السلجوقى ألب إرسلان ، ولقد كان لأنباء الهزيمة فى القسطنطينية وقع كبير ، لكن الإمبراطور البيزنطى اشترى إطلاق سراحه بالمال وعاد إلى القسطنطينية ليجد نفسه وقد خلعه أهلها أثناء غيبته كما أغتصب عرشه ميخائيل السابع دوقاس (١٠٦٧ – ١٠٧٨م) الذى ألقى القبض عليه وسملت عيناه ثم أرسل إلى دير بعيد ليقضى فيه ما تبقى من عمره (٢) ، ولم يعش المسكين طويلاً إذ مات فى السنة التالية سنة ١٠٧٢م .

يشير المؤرخ أتالياتوس إلى أن الجلادين الذين كانوا يقومون بهذه العملية كانوا يهوداً ويحكى مشهد عملية السمل التى جرت على الإمبراطور رومانوس حيث يذكر أنهم ذهبوا لاعتقاله ثم جثموا على صدره وبطنه ثم ربطوه من جوانبه الأربعة وقاموا بسمل عينيه بأداة حديدية ، خار روماتوس كالثور ولم يشفق عليه أحد وسالت عيناه وامتلأ وجهه دماً وفى مشهد بائس جروه كالميت وأرسلوه على أحد الحيوانات حتى وصل إلى بحر مرمرة فى حالة يرثى لها ، فى النهاية مات ودفن فى جزيرة بروتى Proti . (٣)

وعقوبة سمل الأعين لم تشمل الأباطرة وحدهم بل شملت أيضاً المتمردين والقواد العسكريين ، مثل فى حالة تمرد نقفور بيرينيوس الذى تمرد فى وجه الإمبراطور ميخائيل السابع دوقاس (١٠٦٧-١٠٧٨م) ، واستمرت ثورته حتى عهد الإمبراطور نقفور بوتنياتس (١٠٧٨-١٠٨١) ولم تفلح الطرق الدبلوماسية فى احتواء ثورته حيث كان يطمع فى التاج الإمبراطورى

---

(٢٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص؛ ابن العبرى : تاريخ الزمان ، (بيروت / ١٩٨٦) ص ٩٤؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، (بيروت ، ١٩٦٦) ، جـ ١٢ ، ص ٥١ .

(1) Bryennios (N): Les quatre livres des histories fren-trans, H. Gregioire byzantion tome, XII, P. 495-499.;Michael (Psellus): The chronographia, P. 276-279;Zanoras (J): Epitomae historiarum, Vol. III, PP. 703-707.
(2) Attaliates (M): Historia, in C.S.H.B (1829), P. 166.

الذى وضعه فوق كل اعتبار حتى كلفه ذلك سمل عينيه فبعد دخوله فى معركة عند كالفريتا Calavryta وبمساعدة السلاجقة نجح القائد الكسيوس كومنين فى أسره سنة ١٠٧٨م حيث اصطحبه معه إلى القسطنطينية ليلقى العقوبة الشهيرة فى بيزنطية . [١]

شملت أيضاً عمليات سمل الأعين من اتهموا بالهرطقة حيث طبقت عقوبة السمل على ميخائيل جليكاس Glykas المعروف باسم سيكيديتس Skidites والذى كان يعمل بديوان المراسلات بقصر الإمبراطور مانويل الأول كومنين (١١٤٣-١١٨٠م) وكان قد آثار عاصفة من المعارضات اللاهوتية حول موضوع (تحول الخبز والنبيذ إلى جسد المسيح ودمه فى التناول) مما كان سبباً فى انقسام الكنيسة أيام لبطريرك يوحنا العاشر كاماتيروس . [٢]

ولم تشفع صلة الرحم فى ترك هذه العقوبة وتمثل ذلك فى حالة الإمبراطور إسحق انجليوس (١١٨٥-١١٩٥م) فقد كان أشد الناس عداوة له هم أقاربه الذين كانوا يعملون على إسقاطه ويسعى كل فرد منهم لوضع التاج على رأسه ، حيث قام شقيقه الأصغر الكسيوس انجليوس بعزله عن العرش فى أبريل سنة ١١٩٥م ، واعتلى عرش الدولة باسم الكسيوس الثالث (١١٩٥-١٢٠٣م) بل إنه لم يكتف بالزج بأخيه فى السجن وخلافته على العرش ، بل أمر بسمل عينيه حتى لا يتطلع بعد ذلك للعودة للحكم [٣] وكانت جريمة مجردة من كل المشاعر الإنسانية والأخوية .

ولم يسلم حتى الأطفال من عمليات سمل الأعين وقد تمثل ذلك فى حالة الطفل يوحنا الرابع لاسكاريس (١٢٥٨-١٢٦١م) فبعد سقوط القسطنطينية سنة ١٢٠٤ على يد الصليبين وبقائها فى أيديهم أكثر من نصف قرن حتى ١٢٦١م ، وفى يوليو سنة ١٢٦١م تحررت القسطنطينية من اللاتين ودخل ميخائيل الثامن باليولوجوس (١٢٥٩-١٢٨٢م) وتوج إمبراطوراً وبعدها أعلن عودة العاصمة من نيقية إلى القسطنطينية ، وأعلن عزل الإمبراطور الصبى يوحنا لاسكاريس الذى كان شريكاً له فى العرش ، ولم يكتف بذلك بل أمر بعمل همجى لا مبرر له وهو سمل عينى هذا الصبى ونفيه ، معلناً تعيين ابنه اندرونيقوس باليولوجورس ولياً للعهد وشريكاً له فى العرش . [٤]

---

(3) Anna comnena: The Alexid Eng. Tran (London: 1979), Pp. 41-46.;Bryennios: Op. Cil., IV Ch X VII, P. 282.;Zonaras: Op. Cit., Vol. III, PP. 721-722.;Attaliates: Op. Cit., P. 292.Bussell (F.W): The Roman empire essays, (New York: 1910), Vol. 2, P. 291.

(4) Kazhdan (A): Art. Glykas Michael, In O. D. B., Vol. 2, PP. 855-856.

(1) Brand (C.M): Alexios III Angelos Art. In O. D. B., PP. 64-65.;Gregory (T.E): Op. Cit., P. 273.;Ostrogorski (G): Op. Cit., P. 363.

- *حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢٤٧ .*

(2) Angold (M.J): John IV laskaris Art. In O. D. B., Vol. 2, PP. 1048-1049.;Oman (C. W): The byzantine empire (London: 1911), P. 333.

وعمليات سمل الأعين جرت أيضاً على الأيقونيين (وهم الذين جسدوا المسيح والعذراء والقديسين بالتماثيل والصور واستعملوها فى دور العبادة وخارجها) من قبل اللا أيقونيين (وهم الذين يعتقدون بعدم جواز تشبيه المسيح والعذراء والقديسين بالتماثيل) خاصة فى عهد الإمبراطور قنسطنين الخامس كويرو نيموس (٧٤١-٧٧٥م) اللا أيقونى الذى قام بإجراءات عنيفة ضد عباد الصورة كالعذاب والتنكيل والتشريد والسجن وسمل الأعين . (١)

وكذا لم يسلم حتى الرهبان الذين تعرضوا للنفى والتنكيل والضرب وجدع الأنف وقطع اللسان بالإضافة إلى سمل الأعين (٢) . بل أن ميخائيل لاخانودراكون Lachanodracon قائد ثغر تراقيسيون إرضاءً للإمبراطور قنسطنطين ، خَيَّرَ الرهبان بين التخلى عن الرهبنة بالزواج وبين سمل عيونهم ونفيهم إلى قبرص . (٣)

وفى عهد الإمبراطور قنسطنين مونوماخوس (١٠٤٢-١٠٥٥م) طبقت عقوبة سمل الأعين على القائد ليوثورنيكيوس Thornikios الذى تولى قيادة المتذمرين من القادة العسكريين الذين طردهم قنسطنين من الخدمة أو أغفل ترقيتهم وحاول إسقاط الإمبراطور والسيطرة على القسطنطينية لكن حركته فشلت فى النهاية ووقع فى الأسر وتم تطبيق عقوبة سمل الأعين عليه وعلى مساعده فاتاتزس Vatatzes فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٠٤٧م . (٤)

وحتى السفراء الذين دخلوا أرض بيزنطة لم ينجوا من عمليات الإعماء فتذكر الحوليات التاريخية أن الإمبراطور مانويل كومنين (١١٤٣-١١٨٠م) سمل عين السفير البندقى هنرى داندولو أثناء إقامته فى القسطنطنية باستخدام مرآة مقعرة عكست ضوء الشمس بقوة مرتكباً بذلك جريمة الخيانة والإعتداء على حرمة السفير وكانت هذه الجريمة قد جرى حديثها على ألسنة الناس وسببت كره لبيزنطة والبيزنطيين . (٥)

طبقت عقوبة سمل الأعين على القائد الكسيوس فيلانثروبينوس Philanthropenos الذى اشتهر بحملاته الشهيرة على الأتراك فى آسيا الصغرى ونودى به إمبراطوراً بعد ثورة غير

- والترجمة العربية أومان : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

- Millingen (A.V): Byzantine churches in constantinoples (London: 1912), P. 110.

(3) Theophanis: Op. Cit., P. 450.; Vasilive (A.A): Hist. of the byzantine empire. (Madison: 1958), P. 261.

(4) Rosser (J.H): Historical dictionary of Byzantium, (Without Date), P. 92.;Camb. Med. Hist. , IV, P. 15.

(1)Hollingsworth (P.A): *Constantine Art*. In O.D.B., P. 501.;Hollingsworth (P.A): Iconoclasm Art. In O.D.B., P. 975. ;Ostrogorski: Op. Cit., P. 155.

(2) Brand (M.B) & Culter (A): Constantine IX mono- machos, Art. In O.D.B., P. 504. Camb. Med. Hist., Vol. IV, P. 111.;Sotrogorski: Op. Cit., PP. 294-296.

(3) Queller (D): Medieval diplomacy and the fourth crusade (London: 1980), P. 70.

ناجحة على حكومة اندرونيقوس الثانى فى القسطنطينية حيث ألقى القبض عليه وسملت عيناه سنة ١٢٩٥م ، مما يؤكد أن الزمن لم يقضى على هذه العقوبة . (١)

كما طبقت عقوبة سمل الأعين على روسل باليل الذى قام بحركة انفصالية ضد الدولة البيزنطية على عهد الإمبراطور ميخائيل السابع دوقاس (١٠٦٧–١٠٧٨م) (٢)

كما شهد البيت الأيسورى إعماء عدد كبير من الأمراء (٣) ، كما أن عملية الإعماء وسمل الأعين شملت الخدم ، حيث لجأ الإمبراطور قنسطنطين سنة ٧٩٢م لإعماء خادمه المخلص فى قصر بمنطقة أرمينيا ، كما انتشرت هذه العقوبة بين القوات الأرمينية . (٤)

ويأتى فيلارتيوس براخاميوس أحد زعماء الأرمن الجسورين والذى خدم طويلاً فى الجيش البيزنطى كأحد الجلادين المتأثرين بعقوبة بيزنطة الشهيرة حيث تمرد على الدولة البيزنطية وسيطر على إقليم مرعش الجبلى بإعماء وسمل عدد كبير من الأمراء الوطنيين . (٥)

كما جرت عمليات الإعماء على بطارقة القسطنطينية مثل فى حالة البطريرك كالينقوس Callinicvs الذى أعمى ونفى فى عهد الإمبراطور جستنيان الثانى (٦) (٧٠٥–٧١١م) .

كما جرت عمليات السمل والإعماء والنفى ومصادرة الأموال على كثير من المقاومين فى عهد الإمبراطور ميخائيل (٧) (١٢٥٩–١٢٨٢م) .

ولم تكن هذه العقوبة خاصة بالبيزنطيين وحدهم بل جرت على اللاتين المسجونين حيث قام بهذه الفعلة الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجس (٨) (١٢٥٩–١٢٨٢م) ، فبعد اعتلاء أخيه مانويل الثانى العرش ، قضى عليه وطبق عليه العقوبة الشهيرة وإن كانت حالته أقل وطأة حيث خسر عيناً واحدة . (٩)

---

(4) Laiou (A); Some observations on alexios philanthropenos and maxinios planoudes in B.M.G.S. 91978, Vol. 4, PP. 89-99.

(5) Attaliates: Historia, PP. 199-200.;Bryennios: Op. Cit., Chxxi, P. 523.;Anna Comnena: The alexiad, P. 34.;Zonaras: Op. Cit., Vol. III, P. 712.;Geanakoplos (D.J): Emperor Michael palaeolgus and the west (Cambridge: 1959), 275, Brand (C.M): Russel, De Balleulleul, Art. In O.D.B., P. 1814.

(1) Bussell (F.W): *Op. Cit*., Vol. 2, P. 393.

(2) Bussell (F.W): *Op. Cit*., Vol. 2, PP. 396-397.

(3) Mathieu d'Edesse: *Extraits de la chronique de Mathieu d'edesse* in R.H.C, (Paris: 1869), P. 174.;Bussel (F.W): Op. Cit., Vol. 2, P. 467.;Kazhdan (K): Brachamios Art. In O.D.B, P. 319.

(4) Camb. Med. Hist., Vol. 2, P. 411.

(5) Geanakoplos (D.J): Op. Cit., P. 275.

(6) Geanakoplos (D.J): Op. Cit., P. 284, N. 31.

(7) Talbot (A.M): *Andronikos IV palaiologos Art*. In O.D.B., P. 95.

غير أن العمى لم يكن كله فى بيزنطة عن طريق العقوبة بل هناك أسماء عدد كبير من فئات مختلفة فقدت البصر فى الدولة البيزنطية لأسباب مختلفة بعيدة عن العقوبة . (١)

عكست المصادر العربية جانباً من عمليات الإعماء وسمل الأعين التى كانت تقوم بها بيزنطة وذلك فى حالات إكراه الأسرى العرب المسلمين على اعتناق المسيحية فعلى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (٧١٧-٧٢٠م / ٩٩-١٠١هـ) أرسل سفيره إلى البلاط البيزنطى ، التقى بأسير عربى سملت عيناه بسبب رفضه اعتناق المسيحية . (٢)

على أية حال هناك أسماء عدد كبير من البيزنطيين الذين فقدوا بصرهم بسبب العقوبة الشهيرة يطول ذكرهم . (٣)

أصبح السمل أسلوباً رسمياً من أساليب التعذيب يمارسه المتغلبون ضد خصومهم السياسيين وأصبح صناعة معروفة فى بيزنطة ، والشواهد تشير إلى أن هدف السلطات البيزنطية لم يكن لمجرد الترهيب أو إرضاء غرور بل يمكن التحدث هنا عن نية فيها سبق وإصرار وترصد بل يمكن اعتبار عقوبة السمل أمراً حيوياً سعت بيزنطة إلى تضمينه كآلية جديدة فى سياستها مع مختلف فئات البشر فهى من ناحية تكفل الأمان من هذا الشخص الذى يسمل حيث لا حول له ولا قوة أو فى ذات الوقت توفر دافعاً أو مبرراً توقف من تحدثه نفسه فى سلوك طريق تحدى بيزنطة بفئاتها الغالبة .

غير أن هذا العرض التاريخى يفرض عدة أسئلة فى هذا الشأن :

التساؤل الأول : ما الذى يدفع بيزنطة إلى اللجوء إلى هذه العقوبة ، ويقودنا هذا التساؤل إلى طرح تساؤلات أخرى أكثر أهمية : ما هى الظروف المسوغات التى أتاحت لها القيام والإبقاء على هذه العقوبة ؟ وما هو موقف الدول والممالك من هذه العقوبة خارج بيزنطة ؟ كل هذا بحثاً عن أصلها ومنبعها هل هو الشرق الإسلامى أم الغرب الأوربى أم بيزنطة ذاتها ؟ وهل كانت لهذه العقوبة ظلال على آداب الشعوب (الفلكلور) .

العميان خارج بيزنطة :

وإذا حاولنا أن نبحث عن هذه العقوبة أو على الأقل كيف انتقلت خارج بيزنطة نجد أن مملكة الفرنجة تحت سلطة الميروفنجيين اتخذت العمى والإعماء إحدى عقوبات التمرد

---

(8) O.D.B., P. 644, 932, 940, 1048.

(١) القضاعى : التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق عبد السلام الهراسى ، (بيروت : ١٩٩٥) ، ص ١٨٥ .

(2) O.D.B., P. 70, 192, 309, 578, 601, 862, 932, 940, 953, 1048. 1052, 1073, 1416, 1650, 1847.

والعصيان خاصة فى مراسم بعض الملوك ، كما ذكر المؤرخ جريجورى التورى Gregory of Toutis .[١]

كما وجدت عقوبة الإعماء عند البلغار وربما تكون انتقلت من بيزنطة حيث انتهى الصراع على السلطة فى إحدى المرات بين اثنين من زعماء البلغار (Alusken, Deljen) بإعماء أحدهما كأسلوب لتنحيته عن الحكم .[٢]

ألقت بيزنطة وعقوبتها الشهيرة بظلالها على الحملة الصليبية الأولى فقد شهد القسم الخاص بريموند كونت تولوز فى رحلته عبر دالماشيا جرائم سرقة وقتل من جانب قطاع الطرق واللصوص أو من بين العقوبات التى ذكرها مؤرخ الحملة ريموند اجيل أن الكونت قام بسمل أعين البعض وبتر أقدام آخرين وجدع أنوفهم .[٣]

ويبدو أن بيزنطة قد صدرت هذه العقوبة إلى أوربا حتى أن " ديورنت " يرى أن القسوة والوحشية كانتا فى العصور الوسطى أكثر منها فى أى حضارة أخرى ، ذلك أن المتبربرين لم يتخلوا فى القرن الثالث عشر عن بربريتهم بمجرد أن صاروا مسيحيين فقد كان المسجونين يعاملون على سبيل المثال بوحشية وكانوا يربطون رءوس بعض الرجال بحبل ومخلة ، ويشدون الحبل بقوة تخرج عيونهم من أوقابها وتسقطها على خدودهم ، وأشكال أخرى من التعذيب تكفى رؤيتها وحدها لأن تبعث الأسى والألم فى النفوس .[٤]

وقد جرى حكم وعقوبة الإعماء خارج بيزنطة فى سنة ٩٢٨ على أسقف مدينة ميتز الأسقف نينو Nenno of Metz ، وحلت هذه العقوبة أيضاً على بافاريا حيث قام هنرى الأول دوق بافاريا (٩٤٨ –٩٥٥م) بإعماء رئيس أساقفة سالزباخ Salzbvrg [٥] وفى إنجلترا تم إلغاء عقوبة الإعدام فى القوانين المعروفة " بقوانين وليم " سنة ١٠٦٦ ميلادية واستبدالها بعقوبتى الإعماء والإخصاء .[٦]

---

(٣) Orton (C.W): The Shorer Cam. Med. Hist. (Camb: 1952), Vol. 1, P. 340.

(1) Stephenson (P): *Byzantium's Balkan frontier* (Cam.: 2004), P. 132.

(2) Raymond D'aguilers: *Historia francorum qui ceperunt iherusalem* trans by hill (J.H) (Philadephia: 1968), PP. 17-18.

(٣) ديورانت (و ل) : قصة الحضرة ، جـ ١٦٨ ، ص ١٩٦ .

(4) Eickels (K.V): *Gendered violence castration and blinding as punishment for treason in normandy and anglo- Norman england*, Art. In G. H, Vol. 16, No. 3, (2004), P. 592.

(5) Eickels (K.V): Op. Cit., P. 588.

واستمر إعدام كل المنتهكين فى إنجلترا حتى بعد عام (١٠٦٦) لكن البند الثانى من قوانين وليم قد دخل حيز التنفيذ فقد أصبحت عقوبة الإعماء وإزالة الخصيتين العقوبة الشائعة لكل الذى يعرض حياة الملك للخطر [١]

كما عرفت النرويج العماء كعقاب لكن المؤرخين يؤكدون أنها لم تكن ظاهرة نرويجية ولكنها كانت قد انتقلت من البيزنطيين إلى عدة شعوب من بينها النرويج وظاهرة الإعماء دخلت فى الأدب النرويجى . وأصبحت العينان سواء حادتين أو كفيفتين فى الأدب النرويجى تشير إلى الرمزية من حيث القوة والضعف . [٢]حتى فى صقلية النورمانية عرفت عقوبة الإعماء حيث أمر الإمبراطور هنرى السادس سنة ١١٩٧م أن تفقع عينى منافسه الملك وليم الثالث . [٣]

المدهش أن أوربا بشكل عام التى عرفت عقوبة الإعماء اهتمت بالعينين وعلاجها حتى أن المصادر التاريخية تشير إلى أنه توجد مؤسسة طبية مختصة بعلاج العيون قام بإنشائها القديس لويس سنة ١٢٥٦م وهو يعتبر مؤسس أول دار استشفاء للعمى وهى مستشفى Quinze–Vingts فى باريس . [٤]

على أية حال فإن مؤرخى القرون الوسطى بشكل عام اعتبروا العقوبات الجسدية عقوبات شرعية ولم يصفوها بالأفعال العنيفة طالما كانت هذه العقوبات نتيجة لخيانة أو تآمر أو انتهاك لأوامر الملك أو ما شابه ذلك . [٥]

أما فى الجانب الشرقى فعمليات سمل الأعين وإتلاف العين لم تكن تجرى فى الدولة الإسلامية بشكل كبير حتى تصل إلى حد الظاهرة كما هى فى الغرب ، ونقرأها بصورة مقتضبة فى المصادر العربية الإسلامية فى حالات قليلة ونادرة . مثل قصة وردت فى صحيح البخارى ومسلم وبعض المؤلفات التراثية الأخرى تفيد بأن النبى محمد صلى الله وعليه وسلم سمل أعين نفر من أهل عرنة باليمن كانوا قد قدموا على النبى (صلى الله عليه وسلم) وأسلموا فاجتوا المدينة وكان بهم سقم فنصحهم أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من ألبانها ، ففعلوا فصحوا ثم مالوا

(6) Eickels (K.V): Op. Cit., P. 590.
(1) Lassen (A): *Hoor's blindness and pledging of Ooinn's eye*. (Copenhegen), P. 221, 220.
(2) Eickels (K.V): Op. Cit., P. 597.
(3) Wheatly (E):*Blindness discipline and reward louis IX and the foundation of the hospice des quinze vingts* , Art. In D.S.Q, Vol. 22, N. 4 (2002), P. 194; Marmion (V.J): The origin of eye hospitals Art, In B.J.O (Nov.: 2005), Vol. 89, PP. 1396-1397.
(4) Eickels (K.V): Op. Cit., P. 589.

وارتدوا عن الإسلام وسملوا أعين الرعاة وقتلوهم واستاقوا الإبل فبلغ ذلك النبى (صلى الله عليه وسلم) فبعث فى أثرهم فأتى بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم . (١)

هؤلاء المذكورون فى هذه القصة ارتدوا وسرقوا وسملوا وقتلوا الرعاة واستاقوا الإبل وأخافوا السبيل فكان ما فعل بهم قصاصاً ، وهو عنف مبرر كان يقام لمنع تكرارها هذا الفعل وهى بداعى التأديب والتطهير والمعالجة لا لغرض التشفى والانتقام ، وعلى الرغم من ذلك فإن هناك كثيراً من الأحاديث يحتاج من المحققين والعلماء تنقيتها وغربلتها فكثير من الأحاديث وضعت لتبرير أعمال الحكام الأمويين والعباسيين .

عرف المماليك أيضاً عقوبة الإعماء بيد أنهم كانوا يفرقوا بين التكحيل والتسميل وقلع العين وأشياء أخرى ، فالتكحيل هو أن تسود مواضع الكحل فوق منابت الأشفار ويكون التكحيل بالمرود ونحوه بعد تصليته بالنار ، والورود هو الميل من الزجاج أو المعدن . (٢) كما عرف المماليك التسميل أى فقعها بمسمار أو حديدة محماة ، والتسميل بهذا التعريف يختلف عن التكحيل . (٣) كما عرفوا أيضاً لى الحبل على الأصداغ حتى تسيل العين ، وتنفر العين عن الوجه وتسيل على الخد . (٤)

كان ذلك وضع العقوبة خارج الدولة البيزنطية فى الشرق الإسلامى والغرب الأوربى ، ونتناول الآن لماذا اتخذت بيزنطة هذه العقوبة كآلية معتمدة .

تحليل ظاهرة الإعماء بالدولة البيزنطية :

بداية نود القول أن العقوبة التى جرى اتخاذها فى القرن السابع فى الدولة البيزنطية وهى عقوبة جدع الأنف Rhinotmetus ، لم تعد لها أهمية ولم يجر تنفيذها مستقبلاً على الملوك المغتصبين أو المخلوعين . (٥)

وفى بيزنطة كانت العقوبة تطبق فى عين واحدة أو كلتا العينين من قبل الجلاد ومساعده وهذا ما عبر عنه المؤرخون – كما كانت هناك ثلاثة أنواع من هذه العقوبة يمارسها الجلادون ويستخدمونها لإزالة العيون بالوسائل الآلية ، إما عن طريق خنجر من حديد أو آلة

---

(٥) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لاين حجر العسقلانى (كتاب الحدود) باب المحاربين من أهل الكفر والردة ، جـ١٢ / ١٠٩ .

(١) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ص ص ٣١–٣٨؛ المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، ص ٥٠٨ ؛ الفيروز أبادى : القاموس المحيط ، جـ ١ ، ص ١٠٧؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ص ٣١٠١؛ الفيروز أبادى : القاموس المحيط ، جـ ٣ ، ص ٨ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ٤ ، ص ٤٧ .

(٣) انظر : ابن إياس : بدائع الدهور ، ١ ، ٢ ، ص ٤٥١ .

(3) Ostrogorski: Op. Cit., P. 126.

حادة متاحة ، وإما يستخدمون أوتاد الخيام أو سكاكين المطبخ أو أوتاد من السياخ أو الشمعدان الزيتى ، كما كان الجلادون يقومون بوضع أداة حديدية ساخنة فى العين بطريقة تجعل العين مدمرة تماماً ، وكان يصاحب ذلك أزيز وهسهسة ، وكانت هناك طرق أخرى هى استخدام النيران بالقرب من العيون أو الغليان بسكب السائل فى العين . (١)

يرى البعض أن العمى وعقوبة الإعماء فى بيزنطة هى عقوبة قديمة فرضت على المسيحيين أيام الإمبراطور الرومانى دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) واستمرت حتى وقت الإمبراطور قنسطنطين ثم توقفت وظهرت مرة أخرى سنة ٧٠٥م فى عهد الإمبراطور جستنيان الثانى . (٢)

وإن كان البعض الآخر يرى أنها لم يكن لها وجود ولم يكن لها ذكر فى قانون جستنيان الأول وإعماء الشهداء المسيحيين والاضطهادات التى قاسوها ربما تكون من باب الأسطورة لكن المؤكد أن عقوبات الإعماء ظهرت بقوة فى عهد الإمبراطور جستنيان الثانى سنة ٧٠٥ . (٣)

أما عن القوانين والتشريعات البيزنطية ، فقد ذكرت الأكلوجا أن عقوبة الإعماء طبقت فى حالات السرقة من مذبح الكنيسة كما ذكر قانون الفلاح أن الإعماء كان أحد عقوبات سارقى الحبوب أو النبيذ ، كما أعتبر الإعماء عقوبة الهرطقة والشعوذة والسحر وخيانة الوطن . (٤)

وفى العصور الوسطى لم تكن السجون مكاناً للإيداع فى معظم الأحيان حتى القرن التاسع عشر ، فقد كان العقاب يتخذ شكلاً فيزيقياً جسدياً ولم تكن السجون نفسها سوى أماكن أو محطات يحتجز بها المتهمون فى انتظار المحاكمة ، وكانت السجون عبارة عن مواضع ذات طبيعة خاصة تقام فى القلاع والأبراج وغيرها من الأماكن المماثلة يودع فيها المتهمون فى انتظار المحاكمة أو العقاب ولم يكن الإيداع فى هذه الأماكن يعتبر عقاباً فى ذاته . (٥)

ربما لجأت بيزنطة إلى عقوبة الإعماء لأن الإيداع بالسجون على أنها نوع من العقاب يعتبر فكرة حديثة نسبياً أقصد أن العقوبات السالبة للحرية لم تظهر كعقوبة رئيسية فى القرون الوسطى بشكل عام .

لكن السؤال هنا ما الذى يدفع البيزنطى إلى اختيار هذه العقوبة بالذات وهى عقوبة الإعماء . بعض المؤرخين يفسرون أخلاق البيزنطى التى تخرج عن العادة بأن البيزنطى كانت أعصابه فى بعض القرون تحيا فى توتر مستمر لأن مدينته كانت تقاسى حصاراً بعد حصار ،

---

(1) Lascaratos (J) & Marketos (S): The penalty of blinding during Byzantine times medical remarls, In D.O.81 (1992), PP. 133-144.
(2) Lascaratos (S) & Marketo (S): Op. Cit., PP. 133-144.
(3) Kazhdan (A): Blinding Art. In O.D.B., Vol. 1, PP. 297-298.
(4) Kazhdan (A): Op. Cit., P. 298.
(5) Gibbons (D): Society crime and criminal careers, (New Jersey: 1977), P. 445.

وفى هذا التوتر المستمر نستطيع أن نجد تعليلاً لبعض السمات التى قد لا تنال إعجابنا فى الشخصية البيزنطية . (١)

ويمكننا أن نفهم القصد البعيد لعمليات السمل والإعماء التى كانت تقوم بها بيزنطة مما لخصه أحد الباحثين المحدثين عن اتجاهات المبصرين نحو المكفوفين حيث ذكر " مونبك Monbeck " إنهم يستحقون الرثاء والعطف ، إنهم يعيشون فى عالم كله كلام ، إنهم تعساء ، إنهم عاجزون ، إنهم مغفلون ، إنهم متسولون ، إنهم فئة لا فائدة منها ، إنهم غير قادرون على العمل ، إنهم معاقبون على خطايا تم اقترافها فى الماضى ، إنهم فئة يجب الخوف منها وتجنبها ونبذها ، إنهم يفتقدون إلى التوافق ، إنهم فئة غامضة . (٢)

وهذا ما أكدته بعض الأبحاث الحديثة الخاصة بالضغوط النفسية لدى المكفوفين تفيد بأن الإعاقة البصرية تتسبب فى شعور الكفيف بالعجز والدونية والإحباط ، كما تجعلهم أكثر شعوراً بالضغوط النفسية والألم النفسى ، وربما تفضى هذه الحالة إلى الموت ، وبالتدقيق فى الجانب الزمنى لحالات سمل أعين الأباطرة البيزنطيين والقواد وتاريخ وفاتهم نجد صدق هذه الأبحاث الحديثة فمعظمهم لم يعش طويلاً بعد فقدان بصره المتعمد . (٣)

الملاحظ هنا أن عمليات السمل وإتلاف العين التى قام بها البيزنطيون على بنى وطنهم كان يقصد منه تعطيل الأهلية للحكم لأن حاسة البصر شرط ضرورى من شروط الحكم وحجة قوية فى عدم أهلية صاحبها للحكم .

وقد لامت المصادر التاريخية على موضوع الإعماء خاصة أنها تشير إلى أن إعماء إيرين لابنها قد تسبب فى وفاته . (٤)

وذكر المؤرخ البيزنطى خونياتس أن الإمبراطور حنا كومنينى الإمبراطور (١١١٨-١١٤٣م) هو الوحيد الذى قرر أن لا يحرم أحداً من حياته أو يلحق به أية إصابات بدنية من أى نوع . (٥)

---

(١) بينز (نورمان) : الإمبراطورية البيزنطية ، (القاهرة : ١٩٥٠) ، ترجمة : حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، ص ص ٢٤ – ٢٥ .

(2) Monbeck (M.D): *The meaning of blindness attitudes towards blindness and blind people*, (Indian Univ.: 1913), P. 88.

(٣) هدى أحمد خلف : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(4) Herrin (J): Women in purple Art, (A.H.R), Vol. 108, (Princeton: 2001).

(1) Dennis (G.T): *Death in byzantium extract from D.O.P.*, (2001), N. 55.

دخل موضوع العمى فى الفلكلور حيث ورد فى الأدب الشعبى ما يفيد بأن العمى هو إرادة الله ، كما ورد أن العمى عقوبة على سوء السلوك وأن النساء أكثر زبائن هذه العقوبة لأنهن يمارسن الجنس والخيانة . (١)

لكن موضوع الإعماء التصق بالبيزنطيين ، وألقى بظلاله على التراث الشعبى العربى حيث يتناقل الناس كلمة (بظ عينى) (٢) أى أتلف عينى أو بمعنى أصاب عينى بالسوء ، ولعل القارئ يوافق الباحث بأن هذه الكلمة المتداولة بين الناس لها علاقة كبيرة بعمليات إتلاف العين التى جرت فى الدولة البيزنطية (بظ – بيزنطة) .

والمستعرض لتاريخ الأباطرة البيزنطيين الذين لقوا الموت يجد أنهم ثمان وثمانون إمبراطور منهم سبع وثلاثون وفاة طبيعية ، وثلاثٌ لقوا حتفهم فى حوادث مختلفة ، وخمسة فى معارك مختلفة ، وثلاث عشر فى أشكال عنف ، والباقى اضطر إلى التنازل على العرش ودخول الدير والتى كانت بمثابة نوع آخر من الموت ، وكانت الوفاة مفاجأة شملت جميع الأعمار وجميع الفئات (٣) ومعظم الذين زج بهم فى الدير كانوا العميان .

ومن الجدير بالإشارة أيضاً أن العملات البيزنطية لم تظهر أى تلميح أو إيماء عن تشويه أو عقاب نزل بالأباطرة لأن ذلك لم يكن يتفق مع مثاليات ومبادئ الفن البيزنطى . (٤)

لكن انتشار ظاهرة العمى انعكس وألقى بظلاله على الأيقونات حيث انتشرت الأيقونات بكثرة فى العالم البيزنطى والتى تفيد بشفاء الأعمى على يد المسيح وهى كثيرة ومتنوعة (٥) لأن المسيح (عليه السلام) قام بشفاء العميان وكانت تلك معجزة وردت فى الكتاب المقدس والقرآن الكريم . (٦)

---

(2) Lampt (W)*: Folklor blindness art*. In J.V.I, Vol. 88. (May.: 94); Vukanovis (T.P): *Neolithic blind statues and Balkan folklor of the blind Art.* In Folklor (1985), Vol. 96, PP. 184-189.

(٣) بظ : بظظ ، أى بظ المغنى حرك أوتاره ليهيئها للضرب ، ومثل هذا لا يعول عليه ، انظر : أحمد بن فارس الرازى : معجم مقاييس اللغة دار الكتب العلمية ، (بدوت تاريخ)؛ الفيروز أبادى : القاموس المحيط .

(4) Lampt (W): Op. Cit., Vol. 88.

(5) Head (C): Imperial Byzantine portraits, (New Your: 1982), P. 49.

(6) Shanks (H): Where Jesus cured the blind man, (Without Date).;Mansour (A.M) and Others: Jesus and the eye, New testament miracles of vision in A.O.S, (2005), PP. 739-745.;Singelenberg (P): The iconography of the etschmiadzin diptych and the healing of the blind man Art. In A.B. (1958), PP. 105-112.

(١) انظر :

– القرآن الكريمة (آية ٤٩ – ٥٠) ، المائدة (آية ١١١) .

– الكتاب المقدس : مرقص (١٠ : ٤٦ ، ٥٢) ؛ متى (٢٠ : ٢٩ – ٣٤) .

ويبدو أن المعاقين كان لهم طريقاً متاحاً دوماً إلى الكنيسة فتشير المصادر التاريخية إلى أن الأديرة فى أوربا العصور الوسطى كانت تقبل المعاقين جسدياً أو عقلياً فقد كان الآباء يقدمون أطفالهم للدير كقرابين والأديرة بدورها كانت تقبلهم لأنها كانت تعمل كمراكز روحانية للإحسان والبر . [١]

تشير بعض الدراسات التاريخية إلى أن الأطفال ذوى الإعاقة البصرية كانوا يستخدمون فى أعمال الشعوذة وذلك فى الحكايات والقصص التى وردت فى معجزات القديس مارتن St. Martin of Tour حيث أشار إلى أن طفلاً كفيفاً أعطى للمتسولين لكى يتجول معهم . [٢]

الملاحظ أيضاً أن معجزة المسيح بشفاء الأعمى قد استمرت من قبل على كهنة الكنيسة حيث كان يمارس هؤلاء عمليات العلاج بطرق روحانية [٣] لأن الكنيسة فى أوربا العصور الوسطى وبيزنطة كانت ترى أن الصحة الروحية مقدمة على الصحة العلاجية . [٤]

والبيزنطى كان يعيش فى عالم تسيطر عليه القوى الخفية ، كان يتخذ من التمائم المقدسة تعاويذ له ويرى فى الغبار المحتوى على قطرة عرق انحدرت من جسم قديس من الذين ماتوا على الأعمدة أنجع دواء عنده ، والبيزنطى تحول بالسليقة إلى القديس بعد أن عاين عجز الطبيب . [٥]

على أية حال فإن العمى والعميان أخذ مساحة ليست صغيرة من كتابات مؤرخى الدولة البيزنطية ، وليس كل ما كتبه وسطره المؤرخون عن عقوبة الإعماء فقط ولكن هناك قصة طريفة وقعت على عهد الإمبراطور الوثنى جوليان المرتد (٣٦١-٣٦٣) ، حيث اقترب منه رجل مسنٌ يقوده صبى ، حيث صاح الأعمى فى وجه الإمبراطور أمام الجمهور واصفاً إياه بالزندقة والكفر والإلحاد ، فأجابه جوليان (إن ربك أيها الأعمى سوف لا يشفيك) ، فرد عليه قائلاً : أحمد الله الذى جعلنى أعمى لكى لا أرى فجورك . [٦]

---

(2)Peters (G): *Offering sons to god in monastery child oblation, Monastic benevolence and the Cistercian order in the middle ages in C.S.Q* (2003), 38.3, PP 285-286.
(3) Harden (P): *The earlist hospitals in Byzantium, Art.* In J.I.H (Winter: 2005) 35, PP. 361-389.
(4) Wheatley (E): Op. Cit., P. 195.

كان هناك رهبان عميان كثر فى الكنائس والكاتدرائيات ، أنظر :

- Finlay (G*): Hist. Of the Byzantine empire,* (London: 1966), P. 390.

(5) Wheatley (E): Op. Cit., P. 196.

(٦) بينز (نورمان) : المرجع السابق ، ص ١٦-٢٢ .

(١) Vasiliev (A): *A hist. Of Byzantine empire,* (Madison: 1968), P. 71.

هكذا كانت بيزنطة قد رفعت راية هذه العقوبة البشعة ومئات من الناس سواء كانوا من الأمراء أو الحقراء دفنوا بلا عينين بمحجرين فارغين فعلوا كل شئ فقعوا العيون بآلاتهم الحادة وبأسياخهم المجمرة وسكبوا فيها الدواء الحارق وسالت شحمة العين على الخدين وانطفأت إلى الأبد ، يا لها من فظاعة كانت عليها بيزنطة .

الرفات والأيقونات في المعتقد الشعبي البيزنطي

مصطفي محمود الشعيني

مع بداية الثمانينات من القرن الماضي، بدأ اتجاه جديد بين الباحثين الغربيين يدعو إلى ضرورة تبني أطر وسياقات جديدة في دراسة التاريخ، تُميز بين ما أُطلق عليه "التاريخ الرسمي"، الذي يعنى بالسياسات الداخلية والخارجية للآباطرة والخلفاء والحكام، وبين "التاريخ الشعبي"، الذي يهتم بما خلفته الكتل البشرية من موروثات مجتمعية وثقافية. ففي كتاب "التاريخ الجديد" لمحرره جوستاف لوغوف، ناقشت إيفيليني بلانتاجين في بحثها المعنون بـ "التاريخ المتخيل"، أهمية سبر أغوار عقول أهل العصور الوسطى، سعيا إلى الكشف عن أنماط التفكير التي سادت بينهم، لتفسير الظواهر الطبيعية والبشرية المحيطة بهم، ولتحقيق ذلك، أكدت بلانتاجين على ضرورة تجنب إسقاط مفاهيمنا المعاصرة الناتجة عن ثورة علمية ومعرفية –تُغلب العقل على المُتخيِل– ودراسة العقلية الأوروبية الوسيطة بمفردات ومصطلحات عصرها .

وقد تمخضت دعوة الباحثين الغربيين عن ظهور اتجاه جديد في البحث التاريخي، أطلقوا عليه "تاريخ العقليات" أو "تاريخ الذهنيات" ويسعى إلى الإفادة مما أنتجته هذه العقليات والذهنيات من مادة ميثولوجية نفيسة –كالأساطير والكرامات والمأثورات الشعبية– باعتبارها كنوز معرفية بالغة القيمة. وهو اتجاه جديد بدأ يتحسس طريقه –وإن كان على استحياء– إلى الدراسات التاريخية العربية الحديثة، خاصة في دراسات التاريخ الإسلامي والوسيط. فحديثًا، تبنى هذا الاتجاه كل من أ.د. قاسم عبده قاسم في كتابه "بين التاريخ والفلكلور"، و أ.د. محمود إسماعيل في كتابه "الأسطغرافيا والتاريخ"، حيث دعا كل منهم إلى ضرورة التخلي عن النظرة التقليدية للتاريخ، والإفادة من الركام المهمل من الموروثات الشعبية لأهل العصور الوسطى. وأود هنا أن اقتبس بضعة أسطر من كتاب أ.د. محمود اسماعيل "الأسطغرافيا والتاريخ"، جاء فيها: "ومن أسف، أن المؤرخين تخلفوا عن نظرائهم في المجالات المعرفية الأخرى، كعلماء النفس والاجتماع والفلكلور والانثروبولوجيا واللغات، في الإفادة من الميثولوجيا في دراسة التاريخ. فقد اعتبرها البعض "بضاعة فجة" أسهمت في تشويه التاريخ بعد اختلاط الوقائع بالأساطير. واعتبرها البعض الآخر "حكايات وقصص" لا تُجدي إلا في مجالس الأنس والإمتاع. والأنكى اعتماد البعض الآخر تلك الروايات الأسطورية كحقائق تاريخية في حد ذاتها".

وانطلاقًا مما سبق يهدف هذا البحث إلى تقديم إسهام فى ذلك الإتجاه الجديد فى مجال الدراسات التاريخية، إذ يناقش دور الرفات والأيقونات في المجتمع وفقًا للمعتقد الشعبي البيزنطي.

(أ) رفُات السيد المسيح

إن سحر وغموض الرفات[١] المقدس وفعاليته المتأصلة فى التقليد المسيحى شكّل معتقدًا ونداءًا خاصًا بين البيزنطيين؛ إذ احتل مكانًا مركزيًا ورئيسًا فى الحياة اليومية عندهم منذ اليوم الأول لتدشين القسطنطينية في عام ٣٣٠م، وكان تبجيلهم للرفات منتشرًا على نطاق واسع لإيمانهم وثقتهم في كونه قادرًا على جلب الخير ودرء الشرور. ولهذا فقد سعى الأباطرة البيزنطيون إلى الإفادة من مفاهيم القوي الخارقة الكامنة في هذا الرفات، إلى المدى الذي دفعهم إلى إدخال الرموز والرفات المقدس في الجسد الرئيس للشارة الإمبراطورية، كرمز لسلطتهم المقدسة وكإعلان عن نوع من التأييد الإلهي لها، وقد تطورت المكانة الروحية للقسطنطينية تدريجيًا إلى أن صارت أهم المستودعات الرئيسة الثمينة لهذا الرفات المقدس، وبخاصة تلك المتعلقة بالسيد المسيح؛ حيث اهتم الأباطرة البيزنطيون بنقل رفاته المقدسة إلى القسطنطينية، كبقايا الصليب المقدس "صليب الصلبوت". وكان لهذا الرفات أهمية كبرى عندما كانت عاصمتهم الإمبراطورية تتعرض لهجوم خارجي، أو في المواكب التى تجوب شوارع المدينة تضرعا لتجنب الكوارث الطبيعية والأوبئة، وكذلك تعزيز الروح المعنوية لشعب القسطنطينية [٢].

وبرغم ضآلة المعلومات الموجودة عن رفات القديسين في القسطنطينية، إلا أنها كافية لإبراز فكرة واضحة عن عدد هذا الرفات المقدس، والذى تراكم فيها على مر القرون فى الكنائس والأضرحة، حيث جُلب هذا العدد الهائل من الرفات للقسطنطينية منذ زمن تأسيسها، ورغم ذلك

---

(١)يُقصد بالرفات المقدس فى العصور الوسطى: الأشياء المادية المرتبطة بأجساد الأنبياء والقديسين ولا يقتصر مفهوم الرفات على العظام ورفات الأجساد فحسب، وإنما اتسع ليشمل أجزاء من أجسادهم كالأذرع والأقدام والأكتاف والأصابع، ناهيك عن الأماكن الذي وضع فيها بالإضافة إلى متعلقاتهم الخاصة والمقتنيات المادية والأواني وكل شىء اقترب أو لامس القديس.

الأمين عبد الحميد أبو سعده،"التوظيف السياسى لرفات القديسين ومتعلقاتهم المقدسة فى أوروبا العصور الوسطي"،*مجلة كلية الآداب–جامعة المنصورة* ،العدد الخامس والثلاثون ،(أغسطس٢٠٠٤) ص٤٠٥–٤٧٥،ص٤١٠–١١.; حجازى عبد المنعم سليمان ،"رفات القديسين ومتعلقاتهم المقدسة وتوظيفها في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية "،*حولية سيمنار التاريخ الإسلامى والوسيط* ،عدد٢(مصر ٢٠١٢)،ص٢١–٦٠،ص٢٢.

(2)Kazhdan, A.,'"Constantine imaginaire": Byzantine Legends of the Ninth Century about Constantine the Great' *Byz* 57 (1987),pp.196-250.; Sophia ,M. Mergiali," Byzantine Emperors and Holy Relics. Use, and Misuse, of Sanctity and. Authority" *JÖB* 51 (2001),pp. 41-60,esp.41-4.

فإن تاريخ وأحداث وظروف وصولهم إلى القسطنطينية غامضة إلى حد ما، وإن كانت الصورة الذهنية وعمليات النقل والتبجيل لهذا الرفات هى الأكثر فاعلية ووضوحًا، خاصة وأنها كانت شاهد عيان على عبادتهم وتبجيلهم له. ومعظم هذا الرفات لا يزال باق وينتمي للعصر البيزنطي الأوسط، ويرجع الفضل لوجود العديد من الرفات في العاصمة إلى الاهتمام والمبادرة الإمبراطورية لجمعها في مركز السلطة السياسية للقسطنطينية من أجل تفرد العاصمة بمكانة خاصة ومميزة عن بقية بلدان العالم المسيحي، خاصة وأنها رأت في نفسها وصية على العالم المسيحي وتحديدًا في الشرق، والدليل على ذلك أن الرفات التي حُشد في القسطنطينية تجاوز من حيث الكم والأهمية مثيله فى جميع المدن المسيحية الأخرى، حيث تم جلب العديد من الرفات المهم إليها من شتى البقاع. علاوة على ذلك قد تم إيداع عددٌ كبيرٌ من الرفات في القصر الإمبراطوري، وفى كنائس صغيرة بُنيت خصيصًا لهذا الغرض (١).

وبشكل عام يمكن القول بوجود عدد من أفراد الطبقة المثقفة ممن رأوا، في أحيان كثيرة، أن هذا التبجيل ما هو إلا مجرد خرافة، ورغم ذلك فقد انتشرت عبادة الرفات بين جميع المستويات الفكرية والثقافية فى المجتمع البيزنطي، وانتقلت للإمبراطور والعائلة الإمبراطورية نفسها، والتي كان ينطبق عليها نفس المشاعر الشعبية والروحية تجاه هذا الرفات، خاصة وأن الأباطرة البيزنطيين كانوا على علم ودراية بالمزايا السياسية التي كان الرفات يقدمها لهم، وكانوا على استعداد تام لاستغلاله جيدًا، لذا كان اقتناء الرفات الثمين للإمبراطور ذو أهداف حيوية ومهمة تهدف إلى ترسيخ حكمه وسلطته داخليًا مع إعطاء شارة من الهيبة المعنوية باعتباره دليل علي الدعم الإلهي، ولهذا فقد كان لدى الأباطرة رغبة جامحة بجمع الرفات المقدس للمسيح والعذراء إلى القسطنطينية من العالم الخارجى (٢).

واستُخدم هذا الرفات المقدس في البلاط البيزنطى ليس فقط لتحديد مفهوم الأرثوذكسية المسيحية، بل أيضا للتأكيد على فكرة القومية البيزنطية والهيمنة على العالم المسيحي بأسره. وفي إطار هذه الفكرة أُثيرت عدة تساؤلات: لماذا ظل هذا الرفات في البلاط، والأضرحة، والكنائس داخل القصر الكبير؟ وما هي أهميته بالنسبة للإمبراطور؟ هذا الرفات بكل تأكيد أعطى الحاكم البيزنطي مكانة متميزة في البلاط الإمبراطوري وذلك فى الفترات التى شهدت فيها الإمبراطورية مراحل الوهن والضعف السياسي عبر تاريخها، حيث سعى الأباطرة لتأمين موقفهم

([1])Kalavrezou, L., 'Helping Hands for the Empire: Imperial Ceremonies and the Cult of Relics at the Byzantine Court', *Byzantine Court Culture from 829 to I2o4*, ed .H .Maguire, Dumbarton Oaks (Washington 2004), pp. 53–79,esp.53.

([2]) Kinnamos, J., *Deeds of John and Manuel Comnenus* , Trans .Ch. M. Brand (New York 1976),pp.207-8.

ووضعهم السياسي بمواءمة المسيحية وإنشاء الكنائس وتشجيع عبادة الأيقونات وشراء الرفات المقدس الثمين، فقد شكل لهم ذلك وسيلة تمكنهم من تحقيق أهدافهم. وفي هذا الصدد يمكننا القول إن مثل هذا الرفات كان يُستغل كأداة للقوة والتنصيب والقيادة وضمان السلطة السياسية، ودليل على الرضا الإلهى لأولئك الذين كانوا يحملونه. هذا وقد حُفظ هذا الرفات فى أماكن مختلفة، سواء داخل أسوار القصر الكبير وكنيسة القديس ستيفن والتى بنيت فى القرن الخامس وشهدت زواج الأباطرة والإمبراطورات والتتويج الإمبراطوري، والعديد من الكنائس الأخرى والتى كانت مستودعًا لأهم معالم العالم المسيحي خاصة تلك التي تعود إلى عصر آلام السيد المسيح[١].

وأول ما يقابلنا من هذا الرفات المقدس: منديل الرها Mandylion of Edessa [٢] والذى جُلب إلى القسطنطينية فى عام ٩٤٤م [١]، ويعد واحدًا من أهم الرفات الذى أضيف إلى

([1])Kalavrezou, L.,'Helping Hands for the Empire: Imperial Ceremonies and the Cult of Relics at the Byzantine Court', *Byzantine Court Culture from 829 to I2o4*, p.55.

([٢])واحد من أهم رفات السيد المسيح وهو عبارة عن قطعة قماش مرسوم عليها وجه السيد المسيح مصنوعة ليست عن طريق اليد بل تم إنشاؤها عن طريق الاتصال الجسدى من خلال غسلها بوجه السيد المسيح، وتركها بصمة من ملامحه عليها.

James,L.," Seeing's believing but feeling's the truth': Touch and the Meaning of Byzantine Art", *Images of the Byzantine World: Visions, Messages and Meanings: Studies presented to Leslie Brubaker*,eds.A. Lymberopoulou Ashgate(Farnham and Burlington 2011), pp. 1-14 ,esp.5.

وتشير أسطورة منديل الرها إلي أن ملك الرها " أبجار" كان قد أصيب بمرض عضال، وكان على علم بقدرة المسيح علي علاج الأمراض، فأرسل إليه مندوبين كى يطلب منه المجيء لعلاجه، وهو الأمر الذي لم يتحقق، لكنهم عادوا بقطعة قماش عليها صورة السيد المسيح، حيث قام أحد المبعوثين من قبل أبجار بمحاولة رسم وجه السيد المسيح أثناء إلقاء الأخير أحد عظاته ولكنه لم يستطع إتمام عمله، وبينما هو كذلك كان المسيح ينظر إليه وهو يحاول الرسم فطلب منه الاقتراب وأخذ منه قطعة القماش ومسح بها وجه وأعطاه إياه، فانطبع وجه المسيح عليها وعندما حصل عليها أبجار سجد لها وشفي من مرضه.

Cameron,A. "The History of the Image of Edessa: The Telling of a Story", *HUS* 7 (1983), pp. 80-94,esp.81-5 ;Nicolotti,A., *From the Mandylion of Edessa to the Shroud of Turin: The Metamorphosis and Manipulation of a Legend* ,(Boston 2014),pp.7-12 ; Guscin, M., *The Image of Edessa*, Brill (Boston 2009),pp.141-44.

الخزانة الإمبراطورية؛ فقد حصل عليه الإمبراطور البيزنطي رومانوس الأول ليكابينوس Romanos I Lekapenos (٩٢٠-٩٤٤م) في عام ٩٤٤م أثناء حصار الجيش البيزنطي لمدينة الرها، حيث يشير يوحنا سكيلتزيس John Skylitzes " أن أهل الرها فى تلك الأثناء أرسلوا إلى الإمبراطور رومانوس يسألوه رفع الحصار، مقابل تسليمه منديل الرها" وهو ما وافق عليه الإمبراطور وتعهد لهم بالحفاظ على أمن وسلامة أمير الرها وشعبها، ودفع اثنتي عشرة ألف عملة فضة أيضًا فى سبيل الحصول على المنديل(٢)، ويضيف الأنطاكى فى هذا الصدد :"وفى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة (٩٤٤ م) وافت جيوش الروم إلى ديار بكر، وسبوا من أهلها جماعة كثيرة، وفتحوا أرزن(٣)، وخربوا عامّة بلدها، وبلغوا قرب نصيبين(٤)، والتمسوا من



Weitzmann,K.,"The Mandylion and Constantine Porphyrogennetos", *Cah Arch* 11 (1960),pp.163-84,esp.164.

([1])Hetherington, P.," The image of Edessa: some notes on its later fortunes", *Byzantine Style Religion and Civilization in Honour of Sir Steven Runciman*, (2006),pp. 192-205,esp.192.

([2])John Skylitzes, *A Synopsis of Byzantine History 811–1057*: Translation and Notes by John Wortley(Cambridge University Press 2010),pp.223-4; Antonacci, M., *Resurrection of the Shroud: New Scientific, Medical, and Archeological Evidence*, M. Evans(New York 2001),p.130.

(٣)أرزن: بالفتح ثم السكون، وفتح الزاي ونون، هي مدينة مشهورة قرب خلاط ولها قلعة حصينة وكانت من أعمر نواحي أرمينيا وقد نُسب إليها عدد من أهل العلم منهم يحيى بن محمد الأرزنى، صاحب الخط المليح والشعر الفصيح وله مقدمة فى النحو .

ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلد الأول، دار صادر، بيروت،١٩٩، ص١٥٠.

(٤)نصيبين : بالفتح ثم الكسر ثم ياء علامة الجمع الصحيح، وهي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل بين الموصل إلى الشام ، ويذكر أهلها وجود أربعين ألف بستان بها.

ياقوت الحموى،معجم البلدان ،المجلد الثامن ،الطبعة الأولى ،مطبعة السعادة ،مصر ١٩٠٦،ص٢٩٢.

أهل الرّها أن يدفعوا لهم أيقونة المنديل الذى كان سيّدنا يسوع المسيح مسح به وجهه، وصارت صورةِ وجهه فيه. وبذل لهم الروم أنّهم إذا سلّموهم هذا المنديل، أطلقوا من أسرى المسلمين الذين بيدهم عدادًا ذكروه لهم. فكاتبوا المتّقي–الخليفة العباسى المتقى لله ٩٤٠–٩٤٤م –ببغداد بذلك، وعرض الوزير أبو الحسن بن مقلة على المتّقي، الوارد فى هذا المعنى، واستأذنه فيما يعمله. فأمره بإحضار القضاة والفقهاء واستفتائهم في ذلك، والعمل بما يقولون. فاستحضرهم الوزير أبو الحسن بن مقلة، واستحضر على بن عيسى، والوجوه من أهل المملكة، وعرّفهم ما ورد فى هذا المعنى، وسألهم عمّا عندهم ، وجرى فى ذلك خطاب طويل، ذكر فيه بعض مَن حضر حال هذا المنديل، وأنّه منذ دهر طويل في كنيسة الرّها، لم يلمسه ملك من ملوك الروم، وإنّ فى دفعه غضاضة على الإسلام، والمسلمون أحقّ بمنديل عيسى عليه السلام، وفيه صورته. فقال علي بن عيسى، مدبّر المملكة: إنّ خلاص المسلمين من الأسر، وإخراجهم من دار الكفر، مما يقاسونه من الضّنك والضرّ أَوجب وأحقّ. ووافقته جماعة مَن حضر على قوله، وأشار هو وغيره من قضاة المسلمين بتسلّم الأسرى منهم، وتسليم المنديل إليهم، إذ لا طاقة للسلطان بهم، ولا له حيلة في استنقاذ الأسارى من أيديهم، وعمل في ذلك محضرًا، وأخذ خطوط الجماعة الذين حضروا، وعرض على المتّقي، فأمر بكتب الجواب للعمل بذلك. واستقرّ الأمر بين أهل الرّها وبين الروم على أن دفعوا لهم مائتي نفس من المسلمين ممن كان أسرهم الروم، وشرط أهل الرّها عليهم ألا يغيروا فيما بعد على بلدهم، وعقدوا بينهم هدنة مؤبّدة، وتسلّم الروم المنديل، وحملوه إلى القسطنطينيّة، ودُخل به إليها في اليوم الخامس عشر من شهر آب" أغسطس". وخرج اصطفان، والبطريرك وقسطنطين، أولاد رومانُس –ليكابينوس– إلى باب الذهب، مستقبلين له، ومشى أهل الدولة أجمعهم بين يديه بالشمع الكثير، وحُمل إلى الكنيسة العظمى ، ومنها إلى البلاط، وذلك في السنة الرابعة والعشرين منذ ملك رومانس الشيخ مع قسطنطين ابن لاون "[١]
ووصل هذا الأثر المهم والعظيم فى موكب فخم وعظيم – **انظر شكل (١)**– إلى كنيسة العذراء فى فاروسPharos[٢]

(١)هو يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكى، الذى توفّاه الله في العام ١٠٦٧م، طبيب ومؤرّخ وبطريرك الإسكندريّة، خلفًا للبطريرك سعيد بن البطريق (٨٧٦–٩٣٩) الذي ألّف كتابًا في التاريخ عنوانه "نظم الجواهر"، فأتى الخلف ليكمل تاريخ السلف. نقتبس قصّة منديل الرّها من كتابه تاريخ الأنطاكى، المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، حقّقه وصنع فهارسه دكتور عمر عبد السلام تدمرى، جرّوس برس، طرابلس – لبنان، ١٩٩٠، ص ٤١–٤٣ .

(٢)وجدت كنيسة مهمة فى القصر الإمبراطورى خلال القرن الثامن الميلادى وذكرت لأول مرة من قبل ثيوفانيس عام ٧٦٩م وأعُيد بناؤها على يد ميخائيل الثالث(٨٤٢–٨٦٧م) وألقيت خطبة أخلاقية على يد البطريرك فوتيوس على الأرجح عام ٨٦٤م وشملت هذه الموعظة وصفًا للبناء والفسيفساء والزخارف التصويرية بعد فترة تحطيم



شكل (١) مراسم استقبال الإمبراطور رومانوس ليكابينوس لمنديل الرها [١]

وداخل هذه الكنيسة تم العثور أيضًا على العديد من الرفات الثمين وأبرزها ذلك الرفات المرتبط بآلام السيد المسيح حيث يشير كتاب المراسم لقسطنطين السابع أنها كانت تضم قطعتين كبيرتين من صليب الصلبوت [٢]، وكذلك الرمح الحديدى المقدس الذى اخترق جنب السيد

المعتقدات التقليدية، كانت تقع بالقرب من المساكن الإمبراطورية وقاعة الاحتفال في القصر الكبير وقاعة العرش بالقرب من مجمع قصر دافنى Daphne وكان المبنى صغير به قبة مركزية وصحن الكنيسة وثلاث حنيات= =وردهة جميلة، ووفقًا لفوتيوس كانت الكنيسة مثالًا للجمال وواجهتها الخارجية مبطنة بالرخام الأبيض والمناطق الداخلية غطيت برخام ملون وفسيفساء مذهبة، وزينت الكنسية بالمفروشات وكانت مغطاة بالأحجار الكريمة وعند دخول المرء إليها يشعر وكأنه دخل إلى السماء بوصفها القصر الثاني للرب ووالدة الإله على الأرض، ورغم أنها كانت صغيرة إلا أنها على مر القرون أصبحت مستودعًا للرفات المقدس الأكثر أهمية بالنسبة للعالم المسيحي.

Mango,C., *The Homilies of Photius Patriarch of Constantinople* (Cambridge MA 1958), pp.184-90.

([1])Tsamakda, V., *The illustrated chronicle of Ioannes Skylitzes in Madrid.* Alexandros Press (Leiden 2002),p.168 ;Sysse G. Engberg, "Romanos Lekapenos and the Mandilion of Edessa",*Byzance et les reliques du Christ*, ed.J.Durand et B.Flusin (Centre de recherche d'Histoire et Civilisation de Byzance, Monographies 17)(Paris 2004), pp.123-142.esp.124.

([2])Constantine Porphyrogennetos,*The Book of Ceremonies*,Vol.1, Trans.Ann Moffatt &Maxeme Tall,With the Greek edition of The Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (Bonn,1829) Australian Association for Byzantine Studies Byzantina Australiensia 18(1) Canberra.(2012),p.161 .

المسيح، واثنين من المسامير التى كانت مخترقة يديه وقدميه، ووجدت أيضًا قارورة من الكريستال تحتوى على القليل من دمه المقدس، وكذلك السترة التى كان يرتديها، وإكليل الشوك [١]. وبحلول نهاية القرن الثاني عشر الميلادى، توفرت تفاصيل عدة لكنوز كنيسة فاروس بواسطة الحاج الروسي أنتوني نوفجورد Antony of Novgorod [٢] وأبرزها هذا الرفات المرتبط بآلام السيد المسيح كالصليب وإكليل الشوك والمسامير والرمح الذى اخترق جانبه [٣].

تجدر الإشارة هنا إلى أسطورة الصليب الحقيقى: حيث تشير الروايات التاريخية أنه بعد العثور على الصليب الحقيقي بواسطة هيلينا والدة قسطنطين العظيم أرسلت قطعة منه مع اثنين من المسامير الأصلية إلى ابنها فى القسطنطينية، ومن ثم فإن قسطنطين قام بإدراج هذه المسامير إما في حوزته أو في إكليله الملكي الأمر الذي ترتب عليه أن أصبح شارة للإمبراطورية. وكان الإمبراطور يرتدى الخوذة فى الحرب أو الإكليل فى شئون الدولة= =كي يصبحوا مدافعين وحماة للإمبراطور في اتخاذ القرار الصائب وحماية للإمبراطورية فى الحروب. وكل ذلك يدفعنا للتأكيد على أن فكرة العلاقة بين الإمبراطورية والمسيحية كانت علاقة تعايشية وتكميلية .

Kalavrezou, L.,'Helping Hands for the Empire: Imperial Ceremonies and the Cult of Relics at the Byzantine Court' p.54.

كما تشير الروايات الأسطورية الخاصة باكتشاف الصليب الحقيقي أن هيلينا وجدت ثلاثة صلبان واختبرتهم على شخص ميت لكى ترى أي صليب لديه القوة على استرجاع الحياة وأن الصليب الذي أعاده إلى الحياة عُرف على أنه الصليب الحقيقى للمسيح ، ولذلك فإن صورة كلًا من هيلينا وقسطنطين مع الصليب اعتقاد يماثل ويحاكي قوة البعث.

Philip,S., *Nicene and Post-nicene Fathers: Second Series: Eusebius: Church History, Life of Constantine the Great, Oration in Praise of Constantine*, Cosimo, (New York 2007),p.444.

وعن أكثر الدراسات المستفيضة والتي تتضمن أسطورية اكتشاف هيلينا للصليب المقدس أنظر :

Jan W. Drijvers, Helena Augusta: *'Ile Mother of Constantine the Great and the Legend of Her Finding of the True Cross* ,(Leiden1992) ; J.W. Drijvers, "Promoting Jerusalem", *Holy City, Holy Places? Christian Attitudes to Jerusalem and the Holy Land in the Fourth Century*, ed. Paul W.L. Walker (Oxford 1990),pp.126-30.

([1])Jenkins and C. A. Mango, '*The Date and Significance of the Tenth Homily of Photius*', *DOP* 9/10 (1956), pp. 123-140 ; Krijnie N. Ciggaar," Une Description de Constantinople dans le Tarragonensis 55", *REB* 53(1995),pp. 117-140,esp.120.

([٢]) أحد الحجاج الروس الذين زاروا العاصمة البيزنطية في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي وتحديدًا عام١٢٠٠م، وهو ينتمي إلى عائلة نوفجور المشهورة بالأعمال التجارية، وفي أثناء زيارته ترك لنا سجلًا مفصلًا عن المدينة التى وصفها بأنها " مدينة يحرسها الله، مكون من تسعة وثلاثين صفحة، شمل الأضرحة الموجودة بها، وضواحي المدينة والرفات المحفوظة فيها ، وفي نهاية حياتة عُين رئيسًا لأساقفة نوفجورد.

George P. Majeska," Russian Pilgrims in Constantinople", *DOP* 56 (2002) , pp.93-108,esp.93

([3])Ehrhaed ,M., "Le livre du Pèlerin d'Antoine de Novgorod", *Romania 58* (1932),pp. 44-65,esp.57.

وعلى مر العصور سعى الأباطرة إلى محاولة جلب العديد من هذا الرفات المقدس وضمها إلى خزانة الرفات الثمينة فى كنيسة فاروس فعلى سبيل المثال استطاع الإمبراطور يوحنا تزيميسكس John I Tzimiskes (٩٦٩-٩٧٦م) العثور علي صندل المسيح Sandal of Christ أثناء حملته عام ٩٧٥م في بلاد الشرق، والذى اعتبره بمثابة هدية من السماء وتم إيداعه هناك (١). وفي عهد الإمبراطور رومانوس الثالث أرجيروس Romanos III Argyros(١٠٢٨-١٠٣٤م)، وتحديدا في عام ١٠٣٢م، أضاف رسالة السيد المسيح الشهيرة إلى الملك **أبجار**، حيث يشير يوحنا سكيليتزس في هذا الصدد: أنه " بعد أن استولى جورج مانياكيس –قائد القوات البيزنطية –على الرها عثر على رسالة موقعة من الرب يسوع المسيح إلي الملك **أبجار**، ومن ثم قام جورج بإرسالها إلى الإمبراطور فى القسطنطينية (٢) –**انظر شكل (٣)**– ومن ثم تم إيداعه فى الكنيسة، الأمر الذى جعل البيزنطيين ينظرون إلى هذه الكنيسة باعتبارها الجنة نفسها. وبالإضافة إلى ذلك هناك رمز يعود إلى القرن الثاني عشر الميلادى يكاد يوضح المحتويات الثمينة للكنيسة المقدسة فاروس– **انظر شكل (٢)**.





---

(1)Leo The Deacon,*The History of Leo The Deacon Byzantine Military Expansion in The Tenth Century*,Introduction,Translation and annotations by Alice-Mary Talbot and Denis F.Sullivan, Dumbarton Oaks Research Library and Collection (Washington, D.C. 2005),pp.207-8 ; Jonathan,H., *Byzantium and the Crusades*, Bloomsbury Publishing, (London 2014),p.29.

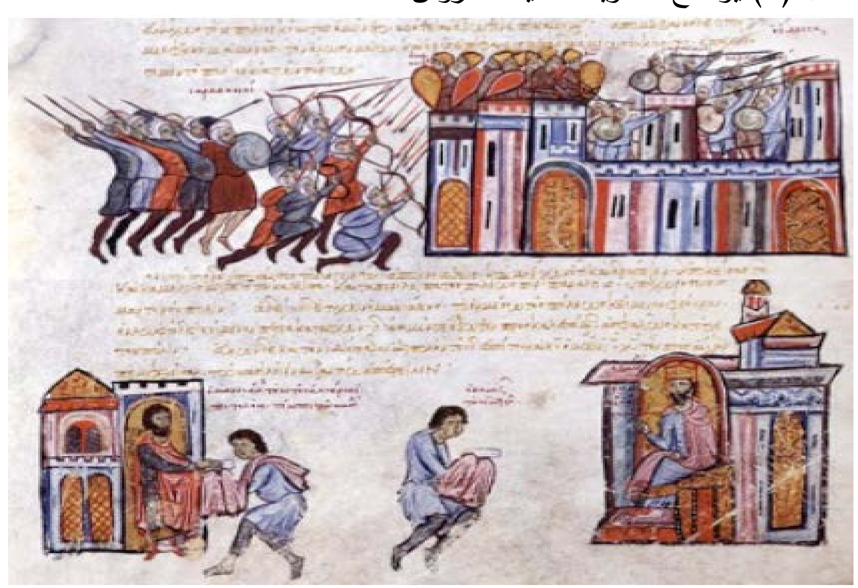
(٢)يعتقد فى هذه الرسالة المذكورة أن تكون رد من يسوع المسيح علي رسالة الملك أبجار حاكم الرها والتى أرسلها يسأله عن طريقة لعلاج مرضه نظرًا لما سمع به عن المسيح من قدرات خارقة لعلاج المرضي وإحياء الموتى. انظر :

John Skylitzes: *A Synopsis of Byzantine History*, p.365.; Schlumberger,G., *L'épopée byzantine à la fin du Xe siècle* III (paris 1905),p.119.

وكان نص الرسالة كالتالى : مبارك أنت الذى آمنت بى، رغم أنك لم ترنى. لأنه مكتوب أن الذين رأونى لم يؤمنوا بي والذين لم يرونى آمنوا ونالوا الحياة. وبخصوص ما كتبته أن آتى إليك فإنه من الأفضل أن أتمّم كل ما قد أرسلت من أجله وبعد ذلك أعود إلى أبى الذي أرسلنى. وعندما أعود إلى أبى سأرسل لك واحداً من تلاميذى يشفيك. انظر:

Leters Of Christ and Abgarus, From "The Apocryphal New Testament" M.R. James- Translation and Notes Clarendon Press, (Oxford 1924).; Keith,Ch., *The Pericope Adulterae, the Gospel of John, and the Literacy of Jesus* ,Brill (Boston 2009),pp.242-3.

شكل (٢) يوضح محتويات كنيسة فاروس[١]



شكل (٣) يوضح مراحل وصول منديل الرها إلى القسطنطينية[٢]

وبحلول نهاية القرن الثاني عشر، حازت الكنيسة شهرة واسعة لاحتوائها على أهم الرفات فى العالم المسيحي، بالإضافة للرفات الذى جلبه الأباطرة للكنيسة فى السابق، وواصلوا رغبتهم في جلب جميع الرفات المتعلقة بآلام السيد المسيح مثل القيود الحديدية النارية التى يُعتقد بأن السيد المسيح كُبل بها والغطاء الكتاني الذي يُظن بأن جسده لُف به في القبر، والمنشفة الكتان وعباءة المسيح الأرجوانية والصنادل الجلدية خاصته، وقطعة من حجر قبره [٣]. وعليه

---

(١)هذا الرمز مكون من مقطعين اثنين، ويتضمن الرفات المهم المتعلق بالمسيح وآلامه حيث يُظهر الجانب الأيسر وجه السيد المسيح كما يظهر عادة على منديل الرها ولكن هنا يتم التصوير والتمثيل على خلفية ذهبية وعيون المسيح متجهه بقوة تجاه الجانب عكس الصورة، وفي المقطع الأيمن يظهر الصليب الحقيقي مصور ومنقوش على الخشب الداكن مع التاج الشوكي معلق في معبرها على الصليب، وتحت ذراعي الصليب اثنين من رؤساء الملائكة ميخائيل وجبرائيل ممسكين برفات مهمة مثل :الرمح المقدس بطريقة تذكرنا بقوة الاستخدام الفعلى للصليب ، أعلاه الملائكة سيرافيم Seraphim وشيرابيم Cherabim متسلحين بالصليب. انظر

Kalavrezou, L.,'Helping Hands for the Empire: Imperial Ceremonies and the Cult of Relics at the Byzantine Court', p.57,59.

(٢)تُظهر الصورة العليا من هذا الشكل محاولات الحصار البيزنطى على الرها عام ١٠٣١م، وتوضح الصورة السفلية إرسال رسالة المسيح الى الإمبراطور رومانوس الثالث .

Tsamakda, V., *The illustrated chronicle of Ioannes Skylitzes in Madrid*, p.231.

(3)Holger A. Klein," Sacred Relics and Imperial Ceremonies at the Great Palace of Constantinople", *BYZAS* 5 (2006),pp. 79-99,esp.92.

نجد أن الحجاج قد جاءوا من أماكن بعيدة رجالًا ونساءً وسافروا وقطعوا مسافات طويلة وصعبة وتعرضوا لمخاطر كثيرة وعانوا من البرد والطين والغبار والحرارة الخانقة من أجل أن يسجدوا للتابوت المقدس أو رفات المسيح والعذراء والقديسين الموجودة فى كنيسة فاروس (١).

ونود أن نشير هنا إلى **دور رفات السيد المسيح فى المجتمع البيزنطي** وأثر ذلك علي فكر البيزنطيين ومعتقداتهم، ويأتى الصليب المقدس هنا فى الصدارة باعتباره الأثر البارز، خاصة وأن علامة الصليب هيمنت على جميع جوانب الحياة اليومية فى بيزنطة، حيث كانوا يسيروا بالصليب المقدس فى موكب عام ويجوبوا به أرجاء العاصمة لمباركة الجدران والقصور والمنازل وكل زوايا المدينة (٢)، وكان يتم ارتداء الصلبان كذلك حول العنق وطُرِّز أيضًا على

([1])Dennis, G. T., "Popular religious attitudes and practices in Byzantium", *PrOC* 43, no3-4 (1993), pp. 273-294,esp.277; Sandin,K., "Liturgy, pilgrimage, and devotion in Byzantine objects ", *Bulletin of the Detroit Institute of Arts*. v. 67 no4 (1993) pp.45-56,esp.47.

([2])Hallit,J., "La Croix dans le rite byzantin. Histoire et thØologie" , *Parole de l Orient* 3 (1972), pp.261-311,esp.295-7.

إن شعبية الصليب الحقيقى المُجنح بواسطة قسطنطين وهيلينا فى الأدب البيزنطي الوسيط ترجع إلى مغزاه وأهميته الإمبريالية، فالصورة المعروفة فى الأدب المدروس على أنها لقسطنطين وهيلينا كانت مقياسًا فى الفن البيزنطى الوسيط ودائمًا ما كانت ترسم الصليب الحقيقى كما هو موجود على الوعاء الثلاثي والذى يحفظ فيه الرفات الديني ويرجع إلى القرن العاشر والمعروف باسمStavelot Triptych . انظر:

Barbara,B., *A Heritage Of Holy Wood: The Legend Of The True Cross In Text And Image* ,Brill(Boston 2004),p.94.

وخلال الفترة البيزنطية الوسيطة فإن هذه الصورة على الرغم من التعديلات الصغيرة عليها لم يحدث لها ولم تؤثر فيها أية تغيرات ذات مغزى، ودائمًا ما كانت تعبر عن مفهوم وصورة الهيام بالصليب الحقيقي وهو رمز المسيحية =وربما يمكن لنا أن نسمي ونلقب هذه الصور باللقب الأتي " صورة الصليب الحقيقى المجنح بواسطة القديس قسطنطين وهيلينا" ومع ذلك فإن تاريخ هذه الصورة غير واضح، ومن خلال المصادر الأدبية نعرف أن صورة هيلينا وابنها قسطنطين معًا مع الصليب قد صورت ورسمت فى عهد قسطنطين نفسه، وقد ذكر يوسيبيوس ومؤلفون لاحقون له صور منحوتة ومرسومة لقسطنطين وأمه والتي صنعت للعرض العام، ولكن لم تحفظ أية صورة لهم مع الصليب من العصور المسيحية الأولي، وقد تغير الموقف جذريًا فى القرن التاسع عندما بدأت هذه الصورة في الظهور بشكل متكرر في الأشياء الكنسية وخصوصًا في أوعية دينية يحفظ فيها الصليب الحقيقي. وفي تزينات الكنائس. بدا التناقض ايضًا بين ندرة هذه الصورة فى الفترة الأولى وتكرارها وترددها في الفترة الوسيطة خاصة القرن التاسع خصوصًا في الفترة التي تلت العصر المحارب للتماثيل الدينية وهو تناقض مدهش جدًا يطرح سؤالًا مهمًا وهو ما وظيفة هذه الصورة بعد فترة مناهضة الصور، ونظرا لأن الصليب هو المركز المحوري ، فإن الوظيفة الجديدة لصورة الصليب الحقيقى المجنح بواسطة قسطنطين وهيلينا من المحتمل أن تكون معتمدة على إعادة تحديد وضع الصليب ودوره خلال وبعد العصر المناهض للتصورات والتماثيل الدينية .انظر

الملابس، وكانت هذه الطريقة هي الوحيدة والفعالة لدرء الشرور المادية منها فضلًا عن الروحية أيضًا، ولنفس السبب نُحتت الصلبان ورُسمت على جوانب شوارع وأسوار القسطنطينية والمنازل والجسور والممرات الجبلية. وساروا فى مواسم الأوبئة والجفاف والفيضانات **انظر شكل (٤)**، فضلا عن أوقات هجوم الأعداء، بمواكب عليها الصلبان. يُضاف إلى ذلك ما كان لعلامة الصليب من تأثير قوى فى معجزات الشفاء من الأمراض. كما وُضعت في الحقول ووسط مزارع الكروم لحماية المحاصيل ضد تقلبات الطقس وتخريب الحيوانات والشياطين. ووُضعت أيضا فوق رايات الجيش والأسطول، وأحيانا كان الصليب وحده كاف كشعار للدولة، حيث تم توقيع المعاهدات والوثائق مع علامة الصليب، وكان واحدًا من أهم الأعياد عند البيزنطيين هو ارتفاع الصليب في ١٤ سبتمبر من كل عام، كذلك سُكت النقود مع رمز الصليب. **انظر شكل (٥)**



شكل (٤) الاحتفال بذكرى النجاة من الزلزال([1])

Natalia Teteriatnikov, "The True Cross Flanked by Constantine and Helena": A Study in the Light of the Post-Iconoclastic Re-evaluation of the Cross", *Deltion tes christianikes archaiologikes etaireias* 19(1995)pp.169-88,esp.169-70.

([1]) Miniature, *Menologion of Basil II*, Rome,Biblotheca Apostolica Vaticana Vat. gr. 1613,fig 192



شكل (٥) الإمبراطور ميخائيل السابع دوقاس وزوجته ماريا الآلاتية يتوسطهم صليب وقد سُكت هذه العملة فى القسطنطينية خلال الفترة من ١٠٧١-١٠٧٨م ([1]).

كل هذه الأفعال وغيرها كانت بطبيعة الحال لها قوة شفاء عن طريق ذلك الرفات، ولنا أن نتصور كيف أن علامة الصليب خففت آلام الولادة لإيريني ديوكاينا- زوجة الإمبراطور اليكسيوس كومنينوس(١٠٨١-١١١٨م)- حيث راحت الإمبراطورة إيرينى ديوكاينا، تتأمل مضجعها فى غرفتها فى القصر المقدس، والتي عُرفت بالحجرة الأرجوانية، فقد حانت اللحظة التى سيوُلد فيها طفل جديد، في وقت كان قيصر بيزنطة متغيباً عن العاصمة، و ظهرت على وجه المرأة الشابة بشائر جميلة مصحوبة بألم الولادة ، فراحت تُشير على رحِمها بعلامة الصليب قائلة " أيا رضيعي الصغير ألا تنتظر حتى يأتى أبوك؟!"([2])

ولم يقتصر دور الصليب المقدس فقط على معجزات الشفاء والحماية من الأخطار، ولكن تعددت وظائفه وصارت اعتقادًا شائعًا بين أطياف المجتمع البيزنطي وهذه الوظائف كالتالى:

([1])Garland ,L., *Byzantine Empresses :Women and Power in Byzantium , 527-1204* A.D(New York 1999),p.182.

([2])Anna Comnene , *The Alexiad*, translated by Elizabeth A. S. Dawes,(Cambridge Ontario 2000),pp.150-1;Silverio Saulle& Patrizia Morelli., *Anna Comnena: la poetessa epica(c.1083-c. 1148-1153), Donne d'Oriente e d'Occidente* ,V 6(Milano 1998), p. 26.

(أ)القسم الإمبراطوري :

وظف الأباطرة البيزنطيين الرفات، وخاصة بقايا صليب الصلبوت، في قسم رعاياهم وقادتهم والحكام الأجانب، لضمان ولائهم واحترام الاتفاقيات المبرمة؛ ففى عام ٩١٧م أثناء الحملة ضد البلغار طالب قسطنطين السابع القادة العسكريين بقسم يمين الولاء والطاعة على جزء من الصليب المقدس(١). وفي عام ١٠٩٧م، أثناء المفاوضات مع القادة الصليبيين، طلب اليكسيوس كومنينوس منهم تأمين التزامهم باحترام وحدة أراضي الإمبراطورية بأداء اليمين على الصليب والتاج المقدس(٢)، وفي وقت لاحق من عام ١١٠٨م طالب إليكسيوس من الأمير النورماني بوهمند قسم اليمين أمام الرمح المقدس، وبالإضافة إلى الصليب كان القسم على الأناجيل والأيقونات أيضًا وسيلة لضمان الولاء واحترام المعاهدات(٣).

(ب)الحماية والضمان :

كان الصليب المقدس إحدى وسائل الضمان والأمان من قِبل الأباطرة البيزنطيين بمعنى مرافقته كان يعد ضمانًا لسلوك الفرد والمجتمع، ففي القرن العاشر الميلادى كان قسطنطين دوقاس مقتنعًا بأن يدخل القسطنطينية كمشارك للإمبراطور فقط بعد أن حصل على ضمان أمنه وسلامته والتي تضمنت نسخ خطية من اليمين والأمان على الصليب المقدس وكذلك قطعة من بقايا الصليب نفسه، وهناك مثال آخر متمثل فى قسطنطين دالاسينوس Constantine Dalassenos بطريرك وحاكم أنطاكية، الذي أدان صلاة الزواج بين الأمبرطورة زوي وميخائيل السابع، ولم يدخل القصر إلا عندما جاء إليه مبعوث إمبراطورى يحمل أمانة ويرافقه أيقونة والدة الإله ورفات الصليب المقدس (٤).

وفى عام ١٠٧١م نتج عن هزيمة "مانزيكرت" وآسر الإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابعRomanus IV (١٠٦٨-١٠١٧م)، واشتعال الثورة ضده في الإمبراطورية، أن تجمع

([1])Frolow,A *La Relique de la Vraie Croix. Recherches sur le développement d'un culte*. Archives de l'Orient Chrétien 7 (1961).p.232.

([2])Holger A.Klein,"The Crown of his Kingdom:Imperial Ideology,Palace Rithual,and The Relics of Christ's Passion", *The Emperor's house. Palaces from Augustus to the Age of Absolutism*,eds. Jean-Michel Spieser and others, Walter de Gruyter GmbH & Co KG (Boston 2015), pp.201-212,esp.208.

([3])Anna Comnene , *The Alexiad*, pp.188-90.

([4])Sophia,M. Mergiali," Byzantine Emperors and Holy Relics. Use, and Misuse, of Sanctity and. Authority" p.53.

المناوؤن لحكمه حول آل دوقاسDoukas[١]، بينما ظلت آنا دالاسينا(١٠٢٥-١١٠٢م) AnnaDalassene [٢]- والدة الإمبراطور اليكسيوس كومنينوس- بشجاعتها وجرأتها مخلصة له تماماً[٣] ؛ الأمر الذي دفع بعض من الفريق الأول إلى محاولة الإيقاع بآل كومنين فزيفوا رسالة وادعوا أن آنا أرسلتها لرومانوس الرابع، واتهموها بالتآمر والتواصل السري معه[٤]، لذلك تمت إدانتها واستُدعيت للمثول أمام المحكمة، وكان من المتوقع أن تُصدر المحكمة حكمًا عليها بالإعدام، وهنا يُخبرنا نيقفور برينيوس أنها تعاملت مع الموقف بذكاء ،"فسحبت من تحت معطفها صليباً يُجسد "المسيح المصلوب" وراحت تلوح به أمام هيئة المحكمة وهى تصرخ قائلة: "ها هو حاكمي وحاكمكم وحاكم كل شيء، فحاذروا جيدًا حتي يكون حكمكم جديرًا بالقاضي الأعلى، الذي يعلم خفايا القلوب وأسرارها"[٥]، في هذه اللحظة ارتبكت هيئة المحكمة، ومال بعض أفرادها إلى تبرئتها، لكن العدد الأعظم كان خائفاً من غضب الإمبراطور الجديد، فلجأوا

---

(١)دوقاس:ظهر لفظ دوقاس فى منتصف القرن التاسع وبالتحديد عام ٨٥٥م، وكان شائعاً خلال تلك الفترة أن تنبثق أسماء العائلات من الرتب العسكرية، وليس هناك مجال للشك أن لفظ دوقاس مشتق من الرتبة العسكرية" "dux ، والتى تولاها المسئولون عن المناطق العسكرية النائية، وأول قائد أطلق عليه لقب دوقاس هو مؤسس الأسرة ، وكان يسمي أوتو دوقاس Otou Doukas ، ولم يكد يحل القرن الحادي عشر الميلادى حتى كان اسم دوقاس ظهر وأطلق على عائلة منفردة بذاتها ترتقى إلى شهرة قومية وأسرة ملكية .

Polemis,D.,*The Doukai A Contribution to Byzantine Prosopography* (London 1968), p. 4.

(٢) كانت آنا دالاسينا ابنة رجل شغل منصبًا مهمًا ورفيعًا في جنوب إيطاليا، ويرجع أصل والدتها إلى عائلة دالاسينا تلك العائلة الشهيرة التي ذاع صيتها، وأقلقت شهرتها العديد من الأباطرة . وقد عاشت آنا دالاسينا فى البلاط البيزنطي، وتعلمت فن الدسائس والمؤامرات والتى زاولتها بمهارة منقطعة النظير، حيث كانت تمتلك عقلَ رجل دولة، بالإضافة لإلمامها بالأمور السياسية، وقد قالت عنها حفيدتها آنا كومنينا :"من المدهش أن تجد في جسد هذه المرأة الشابة عقل وفكر رجل كبير، يكفى رؤيتها مرة واحدة لكى تكتشف كل ما بداخلها من جدية وجدارة. لم تركن لضياع التاج الإمبراطورى من زوجها يوحنا كومنينوس الذى رفض الجلوس على عرش الإمبراطورية بعد تنازل أخيه إسحاق كومنينوس (١٠٥٧-١٠٥٩م) عن العرش وانتقاله إلى أسرة دوقاس ، ، فبعد وفاة زوجها عملت جاهدة لاستعادة العرش ونجحت فى قيادة انقلاب عام ١٠٨١م ، والذى جاء على أثره الإمبراطور إلكسيوس، ووضعت أسرة كومنينوس على العرش لأكثر من قرن (١٠٨١-١١٨٥م) ؛ لذلك لُقبت بأم كومنينوس

Anne Comnene,*The Alexiade*,p.85.; Adontz, N., 'Notes arméno-byzantines: Les Dalassènes' *Bys* 10 (1935),pp. 171-85.; Carolyne, L., *Women and Writing in Medieval Europe*(London 1995), p.176.

(3)Bryennios, N., Nicephore Bryennios Histoire, Trans ,Gautier ,P, *CFHB* 9, 1975.pp.129-31؛ Translated into French by Henri Gregoire. *Bys* 23 (1953): 469-530; & *Bys* 25-27 (1955-57):pp. 881-925.

(4)Garland , L., *Byzantine Empresses :Women and Power In Byzantium* , p.187.

(5) Bryennios, *Histoire*, pp.129-131.

إلى حل وسط، وهو نفى آنا دالاسينا مع أبناءها إلى واحدة من جزر الأمراء وهى جزيرة برينكيبو Prinkipo"[١] .

ويضيف نيقفور برينيوس أنه أثناء الثورة التي أعلنها إلكسيوس كومنينوس في عام١٠٨١م للاستيلاء على العرش الإمبراطوري، وظفت آنا دالاسينا ذكاءها وسارعت في الساعات الأولى من الصباح لالتماس مكان مقدس ومنيع فلجأت هي وبناتها وأحفادها إلى كنيسة القديسة صوفيا[٢]،ورفضت المثول بين يدي الإمبراطور نيقفور بوتنياتس Nicephore Botaneiates (١٠٧٨-١٠٨١م)عند محاولته استدعاءها إلى القصر، وتشبثت بأيقونات الكنيسة، وأخذت تبكي وتصرخ بأعلى الصوت قائلة :" إنني لن أترك هذا المكان المقدس، وإن قُطعت يداي، ولن أترك هذا المحراب إلا إذا أرسل الإمبراطور صليباً كضمان للأمن والأمان لي"[٣]. وأمام هذه الجرأة والصلابة التي وجدها الإمبراطور فيها لم يستطع استخدام القوة معها، وسلم لها الصليب، وبررت هروبها وبناتها بأنه ليس من قبيل الثورة أو التمرد، وإنما خشية من الإذلال الذي كان من الممكن أن يتعرضن له، فلجأ الإمبراطور إلى استخدام الدبلوماسية معها ووعدها بحياة سالمة هادئة أيًا كان ما حدث من أقربائها المتمردين الثائرين، واكتفى بتعيين حراسة مشددة عليهم في دير بيتريون Petrion [٤].

(ج) الاحتفالات العامة:

أُستخدمت الرفات أيضًا فى الاحتفالات الإمبراطورية؛ مثل مراسم الاستقبال والتتويج والزواج والانتصارات العسكرية والتنصيب وكذلك مع المسافرين والحجاج، ويشير كتاب المراسم

---

(١) هي واحدة من تسع جزر تقع على بحر مرمره تُسمى "جزر الأمراء".

George ,T., "Princes Islands", *ODB*, p. 1720.

(2)Bryennios, *Histoire*, pp. 219-21.; Anna Comnene ,*The Alexiad*,p.54.; Smythe, Dion ,C., 'Middle Byzantine Family Values and Anna Komnene's Alexiad,' *Byzantine Women: Varieties of Experience, AD 800-1200*, ed. L. Garland, Aldershot (Ashgate 2006), pp.125-40, esp. 132.

(3)McCabe ,J., *The empresses of Constantinople*, R.G. Badger(Boston 1913), p.201 ;Garland, L." 'The Life and Ideology of Byzantine Women: A Further Note on Conventions of Behaviour and Social Reality as Reflected in Eleventh and Twelfth Century Historical Sources', *Byz* 58 (1988): pp.361–393,esp.381.

(٤)تسمي بيتريا وهي منطقة في القسطنطينية في القرن الذهبي، وكانت مقر لدير الراهبات بالقرب من البوابة الحديدية في منطقة بيتريون.

Alice-Mary Talbot& A. Khazdan," Petrion", *ODB*, pp.1643-4.

إلى أن بقايا الصليب الحقيقى استُخدم فى تتويج الإمبراطورات [١] –وعلى الرغم من صمت المصادر، إلا أنه من المتعارف أن ثمة صليباً كبيراً تم تدشينه في كنيسة والدة الإله في فاروس التى شهدت مراسم الزواج الإمبراطوري بداية من القرن العاشر، الأمر الذي يشير إلى أن الصليب كان جزءًا لا يتجزأ من مراسم الزواج[٢]. كذلك سجلت المصادر الغربية استخدام بقايا صليب الصلبوت في الاحتفالات البيزنطية، حيث يُذكر أنه فى عام ١٠٢٨م كان ثمة صليب مرصع بالذهب والأحجار الكريمة يحتوي على اثنتي عشرة قطعة من صليب الصلبوت، والتي كان يمتلكها الإمبراطور قسطنطين الثامن(١٠٢٥–١٠٢٨م)، أُستخدم في مراسم تنصيب خليفته ووريثه رومانوس الثالث، ويخبرنا قسطنطين السابع في كتابه "المراسم" أن الصليب تم وضعه على رأس موكب للإمبراطور باسيل داخل العاصمة، وأنه كان حاضراً أثناء احتفال ثيوفيلوس الإمبراطور ثيوفيلوس Theophilos (٨٢٩–٨٤٢م) بعودته بحملة منتصرة في آسيا الصغرى [٣]. كذلك كان يتم الطواف بالصلبان في المدينة لمباركتها، وفى الاحتفالات العامة بانتهاء الأوبئة والمجاعات والزلازل. **(انظر شكل٦)** [٤]



شكل(٦) يوضح مراسم الاحتفال بالصلبان بانتهاء المجاعة القرن الثانى عشر [٥]

([1])Lerou,S., "L'usage des reliques du Christ par les empereurs aux XIe et XIIe siècles", *Byzance et les reliques du Christ*,ed. Jannic Durand et Bernard Flusin, Centre de recherche d'Histoire et Civilisation de Byzance,(Paris 2004) pp. 159-182,esp.173.

([2]) Kalavrezou, L., 'Helping Hands for the Empire: Imperial Ceremonies and the Cult of Relics at the Byzantine Court',p.55.

([3])Sophia,M. Mergiali," Byzantine Emperors and Holy Relics. Use, and Misuse, of Sanctity and. Authority" p.54-5.

([4])John A. Cotsonis, *Byzantine Figural Processional Crosses*, Dumbarton Oaks, (Washington 1994),p.23.

([5]) Tsamakda, V., *The illustrated chronicle of Ioannes Skylitzes in Madrid* Fig 497. P. 325-6

(د)الدور الدبلوماسي:

كان للرفات دورًا أساسيًا في إبراز الأهمية السياسية والأيديولوجية للإمبراطورية؛ فقد كان لها تأثير كبير في العلاقات الدبلوماسية بين بيزنطة وغرب أوربا في العصور الوسطي، ودوما ما كانت تُختتم الأعمال الدبلوماسية بين الطرفين باحتفال دينى يتم خلاله القسم على الصليب والإنجيل، بالإضافة إلي ذلك فإن تقديم الرفات كهدية إمبراطورية فى السياق الدبلوماسي يُسهم من وجهة النظر البيزنطية في التأكيد على الكرم الإمبرطوري ويجلب ولاء المتلقي لها(١). ففى عام ٨١٩م أهدى الإمبراطور ليو الخامس(٨١٣-٨٢٠م) قطعة من صليب الصلبوت وكذلك وقفًا لبناء الدير لإيواءه للبنادقة، الأمر الذى أدى إلى احتفال البنادقة بهذا الحدث بوصفه فضل وعطف من الإمبراطور، وإن كان ذلك في مغزاه لفته دبلوماسية من الإمبراطور تهدف إلى تأمين الصداقة مع دوق البندقية(٢). وفي ذات السياق هناك رواية أخري متمثلة في والد ساموناس ذو الأصل العربي الذي أوفد من طرسوس في مهمة رسمية في عهد الإمبراطور ليو السادس في مهمة ترتيب تبادل الأسرى، حيث استقبله الأمبراطور في القصر الكبير وسُمح له برؤية الرفات والذخائر الثمينة التى كانت تحويها كنيسة آيا صوفيا، وهو ما يعد تنازلًا واضحًا من قبل الإمبراطورية بالسماح لشخص غير مسيحي بزيارة الأماكن المقدسة(٣)

وفي عام ٨٧٢م أرُسلت سفارة إلى لويس ملك ألمانيا حاملة معها هدايا ثمينة، كان من بينها قطعة صغيرة من صليب الصلبوت(٤). وبالمثل كان إليكسيوس الأول كومنينوس في عام ١٠٨٢م حريصًا على ضمان التحالف مع الملك الألماني هنري الرابع ضد النورمان، فأرسل إليه رفات قديسين مصحوبة بشهادة تثبت أصالتها(٥). وفي عام ١١٠٣م أهدى اليكسيوس جزءًا من من صليب الصلبوت إلى إريك Eric ملك الدانمارك عند مروره بالقسطنطينية في طريقه إلى

(1)Jones,L.,"Perceptions of Byzantium:Radegund of Potitiers and Relics of The True" , *Byzantine Images and Their Afterlife: Essays in Honor of Annemarie Weyl Carr*. ed.. L. A. Jones (Ashgate 2014),pp. pp.105-124,esp.106.

(2)Nicol, D., *Byzantium and Venice.A Study in Diplomatic and Cultural Relations,* (Cambridge 1988), pp.23.24.

(3)John Skylitzes, *A Synopsis of Byzantine History 811–1057*,p.183.; Ramadan,A.," The Treatment of Arab Prisoners of War in Byzantium", *Annales Islamologiquesl* 43(2009),pp.155-194,esp.176.

(4)Holger A. Klein," Eastern Objects and Western Desires: Relics and Reliquaries between Byzantium and theWest", *DOP* 58 (2004), pp. 283-314,esp.290.

(5)Cutler,A.," Gifts and Gift Exchange as Aspects of the Byzantine, Arab, and Related Economies",*DOP* 55 (2001), pp. 247-278,esp.251.

القدس، فضلًا عن رفات للقديس نيكولاس الأكثر تبجيلًا من قبل الدول الإسكندنافية(١). وعندما زار لويس ملك فرنسا العاصمة البيزنطية في عام ١١٤٧م، منُح إذنًا لرؤية وتبجيل رفات الصليب الحقيقي وغيره من رفات السيد المسيح فى القصر الإمبراطورى كجزء من مراسم العلاقات الدبلوماسية(٢).

(ب)الأيقونات:

تعد الأيقونات واحدة من أهم المقدسات المسيحية التي خلفها التراث، وهي جزء أَصيل من التراث الفني والديني البيزنطي. ولفظة " أيقونة Icon " مشتقة من الكلمة اليونانية "eiko" والتي تعني "أشبه أو أماثل" وكذلك من الكلمة "eikon" التي تعني رمز أو صورة مقدسة(٣). وفي التقليد البيزنطي الأرثوذكسي كانت الأيقونات تعني أكثر من مجرد التمثيل التصويري للموضوع الديني، حيث إن التقديس لهذه الصور لم يكن منصبًا علي مادة الصورة أو رسمها وإنما على روح الصورة وما تضمنته من القوة الإلهية الساكنة فيها، فأيقونة المسيح تُجسد ابن الله وكلمته، وأيقونة العذراء تشير إلي والدة الإله، وأيقونات الرسل والقديسين تجسد ممثلي وورثة المسيح على الأرض. وتبعًا لذلك انتشرت الأساطير التى تشير إلي أن صورًا تكلمت وأخرى تحركت، الأمر الذي جذب إليها أنظار وجموع الشعب البيزنطى(٤). وبعامة كان البيزنطيون

---

(1)Anne Comnene ,*The Alexiade* ,p. ;Sophia,M. Mergiali," Byzantine Emperors and Holy Relics",p.48.

(2)Kinnamos, J., *Deeds of John and Manuel Comnenus* ,p.69.;Holger A. Klein," Constantine, Helena and the Cult of the True Cross in Constantinople", *Byzance et les reliques du Christ*,eds.J.Durand et B.Flusin (Centre de recherche d'Histoire et Civilisation de Byzance, Monographies 17)(Paris 2004),pp.31-59,esp.58.

(3)Vikan ,G.,"Byzantine Art", *Byzantium, a World Civilization* ,eds. Angeliki E. Laiou&H. Maguire, Dumbarton Oaks (Washington, D.C 1992),pp.81-118,esp.85.

(4)Fortounatto,M. & Mary B. Cunningham," Theology of the icon",*The Cambridge Companion to Orthodox Christian Theology*,eds. Mary B. Cunningham& Elizabeth Theokritoff,(Cambridge University Press 2008),pp.136-149,esp.136.; Bissera V. Pentcheva,"Icons,Byzantine", *Gender in Medieval Europe: An Encyclopedia*, ed. Margaret Schaus, Routledge(London,2006),pp.293-5

ويذهب علماء الآثار بأن الأيقونات قديمة العهد وترجع إلي القرون الثلاثة الأولى من الميلاد ، حيث وجدت فى المدافن الرومانية القديمة، أما بالنسبة لتحديد وقت دخولها أماكن العبادة العامة، فيرجع ذلك إلى أنها انتقلت من البيوت إلي هذه المعابد أواخر القرن الثالث الميلادي ثم انتشرت أواخر القرنين الرابع والخامس الميلاديين، ورغم أن المسيحيين الأوائل كانوا حريصين على إزالة معالم الوثنية القديمة المتمثلة في التماثيل والصور استنادًا إلى تعاليم الكتاب المقدس، إلا أن البسطاء والعامة عجزوا عن فهم العقيدة المسيحية الجديدة، خاصة وأنهم حديثوا العهد بالمسيحية، لذا لجأ رجال الدين والمُبشرون الجُدد إلي استخدام وسائل مختلفة لتقريب الدين الجديد لعقولهم . فأباحوا

ينظرون إلى الأيقونات بوصفها آداة حية تستطيع أن تتحرك وتتحدث وتذرف الدموع وتبتسم(١)، وتقاتل الوثنيين أو الخطاة غير المؤمنين،؛ إذ كان الدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية أحد المهام الرئيسية لها(٢).

وفى هذا السياق نجد أن صور المسيح والعذراء احتلت مكانة مرموقة بالعاصمة وغيرها من المدن البيزنطية، فأمامها تضرع البيزنطيون واستلهموا النصرة ودفع المكروه، كما التمسوا منها البركة للشفاء وقضاء الحاجات لقدرتها على تزويد أصحابها بقوة روحية ومادية لا حدود لها، فنجد أن الإمبراطور ثيوفيلوس وقتما كان طريح فراش الموت، ظن أن رؤيته لأيقونة المسيح ووضعها على شفتيه كانت سر شفاءه الفوري(٣)، كذلك أُعتقد أن الإمبراطور اليكسيوس كومنينوس شُفي من مرض خطير أصابه عندما تمت تغطيته بسترة كانت معلقة أمام أيقونة السيد المسيح، المسماه خالكيتس chalkites (٤). وكان للإمبراطورة زوي صورة للمسيح كانت تمسكها بيدها وتبتهل وتضرع إليها معتقدة أنها ستنبئها بالمستقبل(١).

تصوير المسيح والعذراء والحواريين ، وعليه أجاز الأباطرة للفنانين إنتاج هذه الصور ، ودعا رجال الدين أن ذلك ما هو إلا وسيلة للتعليم تتناسب وعقول العامة والأميين الذين لا يستطيعون فهم الكتاب المقدس ،حيث قال الداعون أن هذه الصور تخاطب العاطفة وحاسة البصر.

انظر :إبراهيم علي طرخان،*الحركة اللاأيقونية في الدولة البيزنطية*، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٦ ، ص٦ –٧ .

(1)Vasilaki ,M., "Bleeding Icons, in Icon and Word. The Power of Images" , *Byzantium: Studies presented to Robin Cormack*, ed. A. Eastmond and E. James, (Aldershot 2003),pp. 121-133.

(2)Annemarie ,W. Carr," Icons and the Object of Pilgrimage in Middle Byzantine Constantinople", *DOP* 56 (2002),pp.75-92,pp.82,3.

(3)Vinson,M.," The Terms ἐγκόλπιον and τενάντιον and the Conversion of Theophilus in the Life of Theodora (BHG 1731)", *GRBS* 36, No 1 (1995),pp.89-99,esp.90.

(4)Nunn,V.," The Encheirion as adjunct to the Icon in the Middle Byzantine Period," *BMGS* 1 (1986),pp.73-102,esp.85.

بوابة خالكي كانت المدخل الرئيسي إلى القصر الكبير فى القسطنطينية خلال العصر البيزنطى، وهذا الاسم يعنى بوابة البرونز، وقد تم تزيين البوابة بالرخام والفسيفساء ووضع عدد من الرموز أبرزها رمز للسيد المسيح ومصلي مخصص للسيد المسيح في خالكيتس، وفوق مدخلها الرئيسى وضع رمز المسيح أو ما يسمى المسيح خالكى بوصفه حافظًا للمدينة. صورة المسيح عند بوابة خالكي مظهرها غير دقيق وواضح رغم الترميمات العديدة التي لحقت بها، حاول ليو الثالث تدمير الصورة خلال الفترة من ٧٢٦–٧٣٠م، ولكن أعادتها الإمبراطورة إيرينى مرة أخرى حتى تمت إزالته مرة أخرى عن طريق ليو الخامس، وحلت محلها مجموعة من الصلبان البسيطة وبعد انتصار عقيدة تبجيل الأيقونات رسُمت من قبل الفنان لازاروس لتمثل المسيح، عبارة عن تمثال نصفى مع هالة وراء رأسه ومكانة رمز المسيح خالكى تظهر فى فسيفساء صحن كنيسة تشورا Chora فى القسطنطينية . انظر:

ونظرًا لأن الاعتقاد المسيحي للأيقونات كان منصبًا ومركزًا بشكل طبيعي على الموضوعات القائمة على القيم الدينية والأخلاقيات المسيحية والتكريسات، فإن الملائكة لعبت دوراً أساسياً في القداسة الدينية عند البيزنطيين، خاصة مع كونهم ممثلون ومقترنون بأيقونات المسيح والعذراء(٢). وفى هذا الصدد تشير ثمة قصة اشتهرت لدى البيزنطيين عن معجزة لأيقونة رئيس الملائكة ميخائيل فى خوناى(٣)–غرب آسيا الصغرى–، أُعتقد في حدوثها في عهد

Frolow, A.," Le Christ de la Chalce", *Byz* 33 (1963) pp.107-120.; Nancy P. Sevicenko," Christ Chalkites ", *ODB* ,p.440.; Bissera V., Pentcheva, *The sensual icon* (Penn State Press 2010),p.88.

([1])Dennis, G. T. "Popular religious attitudes and practices in Byzantium," *PrOC* vol. 43, no3-4 (1993)pp. 273-294,esp.278.

([2])Lucy J. Wrapson, *Byzantine Art and Italian Panel Painting*(Cambridge University Press 2015),p.46.

(٣)يرجع سبب تبجيل البيزنطيين لضريح خوناي وارتباطه بالملاك ميخائيل إلى القوى الخارقة الخاصة بالملاك ميخائيل حيث تعددت الروايات الأسطورية في خوناي –عن الملاك ميخائيل–وبعضها ما زال باقي كما هو الحال في معظم الأساطير الشعبية في العالم البيزنطي ، وجميع هذه الروايات سردوا نفس السلسلة من الأحداث :وهي أن مجموعة من الوثنيين حاولوا تدمير الضريح الديني في خوناي من خلال اقتراب المياه الفيضية التي تهدد الضريح وفي اللحظة الأخيرة ظهر ميخائيل في شكل عمود من النار من السماء والأرض وأجبر المياه على الدخول في هذا الشق الكبير الذي صنعه لحماية الضريح، لذا نجد أن الضريح الديني وينبوعها الجديد تم تبجيلهم نتيجة لذلك والتف الناس حول الينبوع طلبًا للشفاء وقد قالوا إنه يجب على الشخص أن ينادي على الأب والابن الروح المقدس وعلى ميخائيل.



Archangel Michael
at Chonae.

Peers,G., "Holy man, supplicant, and donor: On representations of the miracle of the Archangel Michael at Chonae", *M S* 59 (1997),pp.173-82,esp.174.

كان الشكل الملائكى غير معروف علي وجه التحديد وهو ما دفع المؤرخين للاستناد إلى ما ذكره اللاهوتيون عنهم، باعتبارهم مخلوقات غير مرئية بالعين المجردة ولا يمكن الوصول إليها إلا من خلال أشخاص مقدسين، ويقول

الإمبراطور ميخائيل الثالث Michael III (٨٤٢-٨٦٧م)، ومفادها أن ماكرينوس-صانع شمع وخادم لضريح الملاك ميخائيل -كان إذا شعر بألم خفيف يذهب إلي الكنيسة ويُشفى علي الفور. وذات مرة سقط ماكرينوس مريضًا، فذهب إلى الضريح بناء على نصيحة أحد الأطباء المقيمين حول الكنيسة بضرورة ارتداء لبخة من بعض الدواء والمكوث في الضريح. وفي ذات الليلة نام ماكرينوس ورأي رؤية فُتحت فيها فجأة وفي آن واحد كل أبواب الكنيسة، حيث أتى نحوه "رجل مهيب على حصان أبيض ضخم كما لو أنه هبط من السماء، ونزل من على جواده ودخل مع حراسه الكنيسة، التي عمتها روائح ذكية، وبعد فحصه لماكرينوس، أخذه نحو شمعة كانت معلقة أمام أيقونة رئيس الملائكة ميخائيل وغمس أصابعه فى زيتها وأشار بعلامة الصليب على جبهة ماكرينوس". وفي الصباح حكى ماكرينوس رؤيته للشماس الذي رأي الصليب على جبهة الرجل وصدق كل ما قاله له. الأمر الذي ساعد على زيادة الاعتقاد الشعبي فى الأيقونات الملائكية وقدرتها على الشفاء المقدس(١).

ونظرًا لذلك امتلأت الكنائس والأديرة بهذه الصور المقدسة ، وعلقت بالدور والحوانيت وطُرزت على الملابس ونُقشت على الكتب والأثاث وشتي الأدوات، وفضلًا عن الصور، نُحتت هذه الصور في هيئة مجسمة ووُضعت فى الميادين العامة وعلى أسوار القصور الملكية. وتزايد الاعتقاد الشعبى فى أيقونات السيدة العذراء وقدرتها على الحماية والنصرة، حتى أننا نجد أن الإمبراطورة ثيوفانو Theophano (القرن العاشر) راحت تتعبد طويلاً أمام أيقونة والدة الإله حتى تظهر لها فى المنام(٢). كما راحت زوجة الإمبراطور ليو السادس التواقة إلى حمل طفل تطوق بطنها بخيوط من صورة العذراء. وثمة أيقونة صورتها مخطوطة يوحنا سكيليتزيس تشرح

البطريرك فوتيوس أن الملائكة ليسوا في السماء ولكن تحت السماء وهى كائنات مجنحة نحو السماء صاعدة طبيعتها نقية غير فاسدة عفيفة، وكانت مهمتها الرئيسية نقل إرادة الله للإنسان.انظر

Enrico V. Maltese, *Dimensioni byzantine Donne, angeli e demoni nel Medioevo Greco*, Scriptorium (Torino1995),pp.47,65-8.

([1])Peers, G., *Subtle Bodies: Representing Angels in Byzantium* ,Berkeley,(University of California 2001), pp .154-55.;Gabeliç,. “The Iconography of the Miracle at Chonae. An Unusual Example from Cyprus,” *Zograf* 20(1989),pp.95–103

([2])Krausmüller,D., "Denying Mary's real presence in apparitions and icons: Divine impersonation in the tenth-century life of Constantine the ex-jew," *Byza* 78:288(2008),pp.288-303,esp.298-9.

تعليم جدة بنات ثيودورا وثيوفيلوس الخمسة كيفية تبجيل أيقونة السيدة العذراء.**(انظر شكل ٧)**، فى حين صُور نيقفور الثانى فوقاس نائمًا على جلد النمر فى حجرته أمام أيقونة العذراء.[١]



شكل(٧) يوضح كيفية تعليم جدة بنات ثيودورا وثيوفيلوس الخمسة تبجيل أيقونة السيدة العذراء

وإذا كان تبجيل الأيقونات أكثر وضوحًا وجزءً أساسيًا من العقيدة والممارسة الأرثوذكسية البيزنطية، بحيث باتت الزخرفة التصويرية والأيقونات في الكنائس وازعًا مهمًا ودافعًا قويًا لمزيد من الإيمان والتبجيل، فقد كان لكل بيزنطي مكانًا خاصًا فى منزله لأيقونات صغيرة سواء في شكل منحوت أو مصورة على أقمشة أو ألواح الخشبية؛ إذ كان يُعتقد بأن الأيقونة في المنزل تجعل قداسة الشخص المجسدة حاضرة تنشر البركة في كافة أركانه. كذلك أُستخدمت الأيقونة في الشئون الإدارية للإمبرطورية؛ ففى عهد الإمبراطور باسيل الأول Basil I (٨٦٧–٨٨٦م) نُقشت صورة المسيح على القطع النقدية، وبذلك أصبحت رمزًا للدولة فى عهد ليو السادس وخلفاءه الكسندر وقسطنطين السابع. **(انظر شكل ٨)**، حيث نجد أن الإمبراطور ميخائيل الرابع على العملة تعلوه يد المسيح المباركة[٢].

(1)Annemarie ,W. Carr, "Court Culture and Cult Icons in Middle Byzantine Constantinople" , *Byzantine Court Culture from 829 to 1204* , ed. Henry Maguire , Dumbarton Oaks (Washington 1997), pp.81-99,esp.83.

(2) Grierson,Ph., *Catalogue of the Byzantine Coins in the Dumbarton Oaks Collection and in the Whittemore Collection, vol. III: Leo III to Nicephorus III, 717-1081* (Washington 1973), pp. 154-158.; Annemarie W. Carr.," Court Culture and Cult Icons in Middle Byzantine Constantinople",p.84.



شكل (٨) الإمبراطور ميخائيل الرابع يظهر على العملة تعلوه يد المسيح المباركة

ولم تغب الأيقونات أيضًا عن مراسم التتويج الإمبراطوري، وكثيًرا ما كانت رسوم التتويج تظهر الإمبراطور المتوج محاطاً بشخصيات مقدسة؛ فثمة لوحة من العاج لقسطنطين السابع توضح تتويجه من قبل السيد المسيح، وصورة أخرى تظهر ميخائيل السابع وزوجته ماريا الآلانية متوجين من قِبل المسيح (أنظر الشكلين ٩ –١٠)[١].



شكل (٩) يوضح تتويج ميخائيل السابع وزوجته من قبل المسيح

(1)Garbar,A., *L'Empereur Dans L'art Byzantin* (Strasbourg 1936),p.117.; Gerland, L., Byzantine Empresses, p.181.



شكل (١٠) تتويج ميخائيل السابع وزوحته من قبل السيد المسيح

واللافت للنظر أن تبجيل مريم العذراء تطور بشكل ملحوظ، ومن ثم تبجيل الصور المقدسة الخاصة بها، وهو الأمر الذى أثار مخيلة البيزنطيين فراحوا ينسجون قصصًا وروايات عن معجزاتها، قصص حظت بشعبية طاغية بين جموع المجتمع البيزنطى، فامتدحوا عذريتها، وتزايد التكريس الشعبى لها، وصار لمصطلح ثيوتوكوس Theotokos(١) –الذى يعنى والدة الإله– متداولاً بكثرة في كافة مظاهر الحياة اليومية، وراحت الكنيسة تستثمر ذلك، مشجعة على التكريس لها والتفاني فى عبادتها فى الأعياد الخاصة لها، وصاغ رجال الدين ترانيماً في تبجيلها تمتدح مواقفها البطولية الشعبية في حماية العاصمة وأهلها وكنيستها ومحاربتها للشياطين، وراحت تروج بين الناس قدرة العذراء على فتح أبواب الجنة لأولئك الذين يثقون فيها وفى معجزاتها(٢).

---

(١) ثيوتوكوس : أم الإله وهو لقب مريم العذراء، وقد ظهر هذا اللقب قديمًا عند الإلهة المصرية القديمة وكان لقب الإله إيزيس، وظهر فى النصوص الرومانية بعد ذلك في القرن الثالث، كما استخدمه أثناسيوس السكندرى Athanasius of Alexandria (٢٩٣–٣٧٣م) في كتابة الخطابات ضد الأريوسين Arians غريغوريوس النزينزى Gregory of Nazianzus ، وكان استخدام هذا اللقب من الأسس التى يقوم عليها الإيمان المسيحى، حيث إنه لا يوجد أحد لا يعترف بأن العذراء مريم هى والدة الإله.

Babic ,G., "Theotokos", *ODB*,p.2070 ; Michael O'Carroll, *Theotokos: A Theological Encyclopedia of the Blessed Virgin Mary,* Wipf and Stock , Eugene(Oregon 2000),p.342.; Schweitzer ,V., Alter des Titels Theotokos," *Dr Katholik* 28 (1903) ,pp.97-113.

(٢)وهنا نود أن نشير إلى أن الكنيسة منذ وقت مبكر أثارت وحذرت من تهمة عبادة الأصنام وكان هناك معارضة واضحة لعرض الصور الدينية والتى اصبحت بصورة تدريجية –خلصة العذراء والسيد المسيح–أكثر تبجيًلا وتعبدًا،

لقد اعتقد البيزنطيون أن العذراء تقيم معهم فى القسطنطينية من خلال أيقوناتها وتحميهم من شرور الشياطين، وانتشرت قصص معجزاتها في هذا الصدد، منها قصة تشير بعطف العذراء وحرصها على شعب مدينتها، ومؤداها أن فتاة مسها الشيطان لسبع سنوات، ومن خلال أيقونة العذراء تجسدت لها العذراء في رؤيا وقالت لها: "إنني موجودة في القسطنطينية وأستطيع أن اصطحبك إلى كنيستى المقدسة كى أطهرك وأشفيك، لكنني أخشى أن تصاب أمك بحزن شديد إذا استيقظت ووجدت سريرك فارغًا، لذا سأعالجك وأنتِ فى فراشك"(١).

ونظرًا لأهمية دور العذراء فى العبادة الشعبية البيزنطية، صار ذكرها ومعجزاتها أمرين شائعين فى سير القديسين خلال القرن العاشر الميلادي. وتشير سيرة القديس قسطنطين المهتدي عن اليهودية Constantine the Ex- Jew (٢) "أنه عندما قرر بعض الرجال ارتكاب جريمة قتل لرجل معين،-تجمعوا في مكان ناءٍ وخفي بالقرب من مصلي والدة الإله، وبينما كانوا

إلا أنه ظلت هناك معارضة خطيرة للصور بين الأساقفة والناس البسطاء، ورغم ذلك نجد أنه في القرن التاسع أصبح التيار العام يفضل الصور وبدأ تبجيل الصور بين الناس العاديين وفى النهاية اتفق علماء الدين والأساقفة على صحته، وقام مجمع نيقية ٨٧٨م بتأكيد ذلك، وعليه انتشرت صور حياة المسيح والتي اعٌيد تقديمها في الرموز والطقوس الدينية، هذا وقد عمل وزراء رسميين على إعادة عرض العمل أو الحديث فى حياة وآلام المسيح وأصبحت أكثر شيوعًا بين جموع الشعب البيزنطي . انظر:

Dennis, G. T. "Popular religious attitudes and practices in Byzantium", pp.275-6.

(١)وخير مثال للتأكيد على اختيار القسطنطينية كمدينة لها، الرواية الاسطورية التى تشير إلى أنه عندما بدأ الأباطرة تحقيق سياسة تحطيم التماثيل الدينية، وأخذ البطريرك الصورة المقدسة للعذراء إلي البحر لكي يحميها من التدمير أرسلها فى رحلة إلى العاصمة الغربية "روما"، ووصلت الصورة إلى روما خلال ٢٤ ساعة، وقد رحب البابا بها وعلقت في الكنيسة ومرت الأعوام وتغيرت السياسة الإمبريالية على ما كانت عليه من قبل، والأيقونة عرفت بأنه حان الوقت لعودتها، وسارعت لتحرر نفسها من مربطها وأحدثت ضوضاء عنيفة وغنت ترنيمة هي بصوتها وحررت نفسها وذهبت الى نهر التيبر وبعد ذلك إلى البحر المفتوح وبعد مكوثها فى الماء فى خلال يوم وليلة وصلت إلى القسطنطينية وهناك وجدت موطنًا فى كنيسة العذراء فى ضاحية chalkoprateai بالقرب من آيا صوفيا، وربما هذه الحادثة عنت الكثير لأهل القسطنطينية .انظر:

Baynes ,N., "The Supernatural Defrnders of Constantinople", *AB* 67 (1949). pp.165-177,esp.173.

(٢)الناسك قسطنطين ، ولد في صينادا في فيريجيا وكان ذا خلفية غير تقليديه بعكس أقرانه، وذلك لأنه لم يولد من عائلة مسيحية حيث ولد لعائلة يهودية ولم يلبث أن دخل المسيحية، وأصبح من أشد المخلصين للمسيح، اتخذ المذهب الرهباني وقد حاول أقاربه إثناءه عن ذلك وعملوا على إجباره على الزواج ولكن في ليلة عرسه هرب إلي دير بالقرب من نقية وبقي هناك حوالي اثني عشر عامًا، وحاول تنصير اليهود الذين يعيشون في نقية، واخذ يتنقل إلى أن استقر في جبل أوليمبيوس في بيثينيا وصار راهبًا، أضف إلي ذلك أنه كان مفكرًا غير تقليدي، وبعد وفاته في أوائل القرن العاشر تم تسجيل قصته في حياة طويلة .

Kazhdan,A." Constantine The Jew", *ODB*.pp.506-7

يهرولون لتنفيذ جريمتهم، ظهر "شبح لامرأة راحت تصيح بكونها شاهدة على هذه الفعلة الشنيعة وشيكة الحدوث"(١). ولا شك في أن هدف هذه القصة، بالإضافة إلى التلميح إلى كون خلاص هذا الرجل من القتل يعود إلى هذه المرأة، هو التأكيد على حماية العذراء لحرم مصلاها من الاعتداء أو أن يكون مسرحا لجريمة. وإذا كانت هذه القصة لم توضح هوية المرأة التي ظهر شبحها وساهم في إنقاذ الرجل، فثمة قصة أخرى وردت في ذات السيرة تعكس تدخلها الصريح، ذلك عندما حاول لص سرقة أحد كتب القديس قسطنطين بينما كان القديس منهمكاً في صلاته، فإذا بصورة العذراء التي أمامه تشير إليه وتنبهه للأمر(٢).

وبعامة فقد انتشرت الأيقونات المقدسة وصُنعت من الفسيفساء الجدارية أو نُقشت على ألواح العاج والخشب والحجر الصابوني أو الأقمشة والمواد الأخرى، وغطت جدران الكنائس، وحلت في منازل عامة الناس بوصفها أبوابًا للحياة الروحية. ووُضعت صور العذراء على الصواري وأسوار المدن المحاصرة ورُسمت على الجدران الخارجية للقلاع والأبراج، بوصفها حامية القسطنطينية وجيشها في ميادين المعارك في الداخل والخارج(٣). على أن أيقونات العذراء لم تُوظف في النواحي العسكرية فقط، بل كانت تزين الحدائق والينابيع لقدرتها على طرد الأرواح الشريرة التي تجد –وفقا للمعتقد البيزنطي– من مثل هذه الأماكن مسكناً ملائماً(٤). ويبدو أن وظيفة العذراء في الحماية ودرء الشرور عن القسطنطينية جعلت أيقوناتها هي الأكثر ظهورا فى الحياة اليومية للعاصمة على المستويين الشعبي والرسمي، سواء في كنيستها(٥) أم قصور آباطرتها؛ ولذلك أمرت الإمبراطورة ثيودورا البطريرك أن يقيم موكبًا في المدينة مع أيقونة السيدة

---

(1)The *Life* of Constantine the Ex-Jew was edited by H. DELEHAYE, *Acta Sanctorum Novembris IV*(Brussels 1925),pp.628-656,esp.642-3 ; Krausmüller,D., Denying Mary's real presence in apparitions and icons: Divine impersonation in the tenth-century life of Constantine the ex-jew, *Byza* 78(2008)pp.288-303 ,p.290.

(2)The *Life* of Constantine the Ex-Jew, p.638 ;Krausmüller,D., Denying Mary's real presence in apparitions and icons: Divine impersonation in the tenth-century life of Constantine the ex-jew",p.298.

(3)Mark Wh., *The Making of Byzantium 600-1025*(Los Angelos 1996),p.139.

(4)Annemarie Weyl Carr, "The Mother of God in Public,", *Mother of God: Representations of the Virgin in Byzantine Art*, ed. Maria Vassilaki (Milan 2000), pp.325–337,esp.329.

(5)Milliner,M.John., *the Virgin of the Passion: Development, Dissemination and Afterlife of a Byzantine Icon Type*, ProQuest(2011) ,pp.56-8 ; Maria Vassilaki and Niki Tsironis, "Representations of the Virgin and Their Association with the Passion of Christ,", *Mother of God Representations of the Virgin in Byzantine Art*,ed.M. Vassilaki(Milan 2000),pp.453-63.esp.453.

العذراء لمباركة المدينة، بينما الإمبراطور ليو السادس دائمًا ما كان يقوم بتبجيل أيقونة السيدة العذراء والسيد المسيح (**انظر شكل١١**). أما الإمبراطور يوحنا الثاني كومنينوس John II Comnenus (١١١٨-١١٤٣م) فأقام موكبًا تكريميًا لأيقونة والدة الإله[١]. ويمكن القول بأن العصر البيزنطي الأوسط كان عصر هيمنة أيقونة مريم العذراء، سواء تلك التي تجسده منفردة أم تمثلها وهى تحمل طفلها، على الأديرة و الأختام ونقوش العملات الإمبراطورية.



شكل(١١) يوضح تبجيل الإمبراطور ليو السادس لأيقونة السيدة العذراء [٢]

وكان تقديس السيدة العذراء مرتبطًا بمنظومة الأضرحة والكنائس في القسطنطينية، والتى غالبًا ما كان يوجد بها رفات خاصة بها أو أيقونات تحمل أحد أسماءها، وهو الاسم الذي كان عادة يُطلق على ذات الضريح أو الكنيسة التي تحوي هذه الأيقونة. وهنا قد يكون من المهم توضيح كون كل أيقونة –التي تحمل أحد أسماء العذراء– تمثل لوحة أو صورة تعبدية ذات أبعاد وظيفية وليس مجرد الأبعاد الفنية الجمالية، وظائف وضحت في طقوس الدولة. وفيما يلي عرض لأهم هذه الأيقونات:

(أ)أيقونة كنيسة بلاشرناي Blachernae [٣]:

---

[1] Janin,R., "Les processions religieuses à Byzance"*REB* 24 (1966). pp. 69-88, esp. 72.

[2] Annemarie W. Carr.," Court Culture and Cult Icons in Middle Byzantine Constantinople",p.83.

[٣] تقع في المنطقة الشمالية الغربية من العاصمة البيزنطية، وهي مسمي لمكان وكاتدرائية السيدة العذراء، والذي أصبح أشهر مزار ديني لمريم العذراء في بيزنطة، قيل إنه تم بناؤها من قبل الإمبراطورة بلخريا(٤١١-٤٥٣م) عام ٤٥٠م وقد أضاف إليه الإمبراطور ليو الأول(٤٥٧-٤٧٤م) وعاء الرفات المقدس ورداء السيدة العذراء والذي جلبه من فلسطين. انظر:

كانت كنيسة بلاشرناى تحوي العديد من الرفات والرموز المقدسة، حيث ضمت بين ثناياها وشاح السيدة العذراء ونطاقها، وقطعة القماش التى كان يُلف بها المسيح طفلاً وعليها قطرات من لبن ثديها[١]. وثمة قصة يرويها لنا سكليتزيس عن العثور على أيقونة خشبية للعذراء كانت مخبأة داخل الكنيسة أثناء أعمال التجديد التي كانت تجري فيها بأمر من الإمبراطور رومانوس الثالث في عام ١٠٣١م[٢].**(انظر شكل١٢)** وكما جاء في رواية سكيلتزيس: "قيل إن الإمبراطور رومانوس في هذا العام زين العاصمة والكنيسة العظمي بالذهب والفضة وكذلك كنيسة والدة الإله المقدسة في بلاشرناي، وبينما كان على وشك تجديد مذبح الكنيسة قيل أنه وجد أيقونة قديمة معلقة فأمر بتجديدها بإزالة الدهان الجديد ووضع آخر جديد، وعندما تمت إزالة دهان الجدار الذي يحمل هذه الأيقونة عُثر على أيقونة خشبية لوالدة الإله على لوحة خشبية صغيرة معلقة خلفه"[٣]. وقد أُطلق على هذه الأيقونة بلاشيرنتيسا Blachernitissa، أي أيقونة السيدة العذراء التي تحمل طفلها.

وقد حظيت هذه الأيقونة بتبجيل كبير من القصر الإمبراطوري، حيث يشير سكيليتزيس إلى أن الإمبراطورة ثيودورا اعتادت الذهاب إلي كنيسة العذراء في بلاشرناي للتعبد لها هي وبناتها [٤]. كذلك حرص عدد من الآباطرة على وضع صورة البلاشيرنيستا على العملات المعدنية. –**انظر شكل١٣:** الذي يصور الأيقونة على عملة سُكت في عهد قسطنطين العاشر[٥]–. كما كانت هناك توافد على المستويين الشعبي والرسمي إلى كنيسة بلاشرناي طلبًا للشفاء وجلبًا للبركة لما عرف عن هذه الأيقونة من معجزات[٦].

Mango ,C.," Blachernae",*ODB*,p.293.

(١) في القرن الخامس الميلادي اكُتشف رداء السيدة العذراء في قرية صغيرة بالقرب من مدينة الخليل ببيت المقدس بواسطة اثنين من الرهبان، وقاموا بسرقته في محاولة منهم لنقله إلي العاصمة البيزنطية بعد أن صلوا إلي السيدة العذراء وتوسلوا إليها من أجل موافقة ومباركة هذا الفعل حيث كانوا يتضرعون قائلين هذا الرداء لمدينتك المقدسة التى تملكيها، وعليه أجابتهم العذراء لصلواتهم وتوسلاتهم وأعطت قبولها، وعند وصوله إلى القسطنطينية وضع في كنيسة بلاشرناي. انظر:

Baynes ,N., "The Supernatural Defrnders of Constantinople", p.175.

(2)Annemarie ,W. Carr, "Court Culture and Cult Icons in Middle Byzantine Constantinople" ,p.91-5

(3)John Skylitzes, *A Synopsis of Byzantine History*, p.363.

(4) John Skylitzes, *A Synopsis of Byzantine History*,p.98.

(5)Annemarie ,W. Carr," Icons and the Object of Pilgrimage in Middle Byzantine Constantinople", *DOP* 56 (2002),pp.75-92.,esp.Fig.2.

(6)Cecily J. Hilsdale, *Byzantine Art and Diplomacy in an Age of Decline*(Cambridge University Press 2014),p.257.



شكل(١٢) أيقونة بلاشيرنتيسا



شكل(١٣) أيقونة بلاشيرنتيسا على العملة

وخلال القرنين الحادي عشر والثانى عشر نُسجت كثير من المعجزات حول هذه الأيقونة، ووفقًا للمصادر المعاصرة كانت هناك طقوس خاصة تُجرى مساء كل يوم الجمعة بعد غروب الشمس، حيث كان رجال الدين والمصلون يخرجون من الكنيسة ويجتمعون في ساحتها بعد أداء الخدمات الطقسية، حيث يُعتقد أن الأيقونة بلاشيرنتيسا، التى تمثل والدة الإله حاملة طفلها، تظهر بعد أن يرتفع الوشاح الحريري الذي يغطي الأيقونة، ويظل كذلك حتى ذات الساعة من يوم السبت. وهناك خطبة لميخائيل بسللوس كتبها في عام ١٠٧٥م يقدم فيها وصفاً بلاغياً صرفاً لوقائع لهذه المعجزة ، مفتتحا لها بقوله أن والدة الإله موجودة في جميع الكنائس خاصة في الكنيسة الشهيرة في بلاشرناي حيث الجموع التي تتوافد عليها يومياً(١). وجاء في هذه الخطبة ما يلي:

---

(1)Eustratios N. Papaioannou, “The 'Usual Miracle' and an Unusual Image"Psellos and the icons of Blachernai," *JÖB* 51(2001),pp177-88,esp.181 ; Grumel V., "Le miracle

"فى يوم الجمعة بعد غروب الشمس كانت هناك مراسم خاصة يؤديها الجميع خارج الكنيسة، ثم يتبع ذلك حدث جلل، إذ يرتفع الحجاب فجأة وبطريقة إعجازية. وهذا الحدث لا يمكن أن يصدقه من لم يره من قبل، وتحل الروح الإلهية خلال ذلك" (١).

كذلك ثمة رحالة غربي، أمضى بعض الوقت فى القسطنطينية خلال الربع الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي، وركز جل اهتمامه على وصف الثروة المادية والروحية في المدينة، فألقى الضوء على الرفات والرموز في القسطنطينية ولاحظ بعض معجزات معينة ترتبط بمختلف الرفات وأيقونات العذراء، خاصة معجزة أيقونة بلاشرناي (٢).

ويصف بسللوس معجزة لأيقونة بلاشرناى تتعلق بنزاع قانوني نشأ بين أحد النبلاء، هو القائد ليو ماندالوس Leo Mandalos، ورهبان دير كاليو Kalliou في القسطنطينية حول ملكية بئر للمياة، ويروي كيف أن الطرفين لجئا مراراً إلى القضاء وحصلا على أحكام متناقضة بسبب اختلاف القضاة حول تقييم حجج كل طرف أو بسبب محاولات لرشوة أولئك القضاة. وتعقد الأمر بإصدار القاضي جابريال تزيريثون Gabriel Tzirithon حكماً بتقسيم ملكية البئر بين الطرفين، وهو الحكم الذي رفضه ماندالوس. وبعد جدل طال أمده اتفق الطرفان على اللجوء إلى العذراء والاحتكام إلى حكمها المقدس، بحيث إذا تحرك الوشاح الحريري يكون البئر حقاً لماندالوس وإلا يكون من نصيب الرهبان، وهنا يعلق بسللوس بأن الرهبان تلاعبوا بتثبيت الوشاح على الأيقونة واختاروا يوماً غير الجمعة –يوم حدوث معجزتها المعتادة–. وهكذا التقى الطرفان في الموعد المحدد أمام الأيقونة، ومكثا طويلاً دون أن يتحرك الوشاح، فظن الرهبان النصر وتلقوا من القائد ما بحوزته من وثائق تدعم ملكيته للبئر، وفي تلك اللحظة ارتفع الوشاح عن الأيقونة ليعلن أحقية الأخير في البئر. ويرى بسللوس أن هذه المعجزة وفرت آلية مقدسة لحسم المنازعات القانونية عسيرة الحل ووسيلة للحد منها لخشية المعتدين والمخالفين من الاحتكام

---

habituel de Notre-Dame des Blechernes à Constantinople", *Échos d'Orient* tome 30, n°162(1931), pp. 129-146.; Frolov *A*. La «Podea»: un tissu décoratif de l'Eglise byzantine " *Byza* 13 (1938), pp.461-504,esp.477

([1])Psellos,M.,*Michaelis Pselli Orationes Hagiographicae*,ed. Fisher, E., (Stuttgart and Leipzig 1994),pp. 387-393, esp. 390 ; Jephcott,E., *Likeness and Presence: A History of the Image Before the Era of Art*(University of Chicago Press 1996),p.185 ; Rydén ,L., "The Vision of the Virgin at Blachernae and the Feast of the Pokrov," *AB* 94 (1976),pp. 63–82.

([2])Ciggaar,K.N.," Une Description de Constantinople dans le Tarragonensis 55", *REB* tome 53(1995), pp. 117-140.esp.128.

للأيقونة المقدسة. ويختتم الخطبة بإشارته إلى حصول ماندالوس على مذكرة رسمية من الإمبراطور ميخائيل دوقاس في يوليو ١٠٧٥م تقر بحقه في ملكية البئر [١].

(ب) أيقونة السيدة العذراء هودجيترياHodegetria Icon :

هي أيقونة أخرى للعذراء سُميت بذلك لوجودها بدير هودجين Hodegon[٢] بالقسطنطينية، وحظيت بأهمية وانتشار بين مختلف الأوساط المجتمعية خلال العصر الأوسط، نظرًا للاعتقاد في كونها رُسمت زمن المسيح[٣]. وقد نُظر إليها بوصفها حامية القسطنطينية ضد

---

(1)Psellos,M.,*Michaelis Pselli Orationes Hagiographicae* ,p.390.;Elizabeth A. Fisher., "Michael Psellos on the 'Usual' Miracle at Blachernae , the Law, and Neoplatonism ", *Byzantine Religious Culture*,ed. Denis Sullivan, Elizabeth A. Fisher, Stratis Papaioannou (Brill 2012),pp.187–204,esp.191-4.; George, T.Dennis,"A Rhetorician Practices Law:Michael Psellos", *Law and Society in Byzantium, 9th-12th Centuries,ed. Angeliki E. Laiou&D. Simon(* Washington DC 1994) ,pp. 187-197,esp.195-6.; Papadopoulos,J., *Les palais et les églises des Blachernes* Thessaloniki(1928).pp.31-7.;

(٢) يقع دير هودجين في القسطنطينية إلي الشرق من كنيسة آيا صوفيا بالقرب من أسوار البحر تأسس فى القرن الخامس علي يد الإمبراطورة القديسة بلشاريا Pulcheria (٣٩٩-٤٥٣م)، من أجل إيواء الرفات المقدس.

Alice-Mary Talbot," Hodegon monastery", *ODB* ,p.939.

(٣)تشير الروايات التاريخية أن الأيقونة قد قام القديس لوقا الإنجيلي برسمها فى حياة السيدة العذراء، وتم إرسالها من فلسطين من قِبل الإمبراطورة يودوكيا شقيقة زوجة الإمبراطورة بلشاريا كهدية لها باعتبارها من رفات السيد المسيح وتم وضعها في دير هودجين ولذلك ارتبط أسمها بالدير .

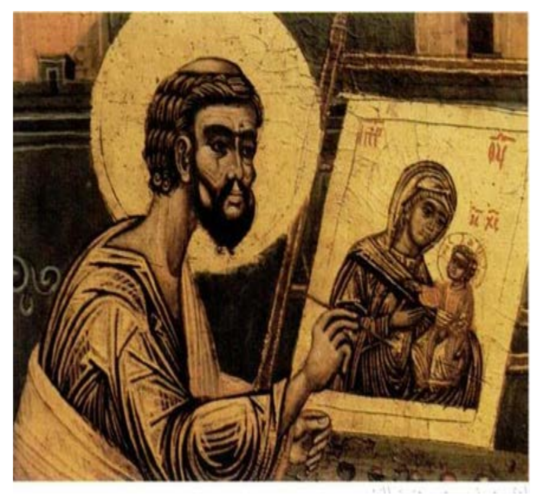
Angilidi,Ch.& T.Paoamastorakis ,"The Veneration of The Virgin Hodegetria and The Hodegon Monastery" , *Mother of God. Representations of the Virgin in Byzantine Art* ,ed. M. Vassilaki (Milan 2000),pp.373-387,esp.373.; Angelidi, Ch.," Un texte patriographique et édifiant : Le «Discours narratif» sur les Hodègoi", *REB* 52(1994),pp. 113-149.,esp.114.

أعدائها، وتمتلك قوة إعجازية في الشفاء(١)، خاصة في علاج أمراض العين، وهو الأمر الذي دفع العميان وآخرين ممن يعانون اضطرابات ومشاكل فى العين إلى التوافد على الدير التماسا للشفاء(٢).



شكل (١٤) يوضح أيقونة هودجيتريا المتمثلة في شكل السيدة العذراء تحمل طفلها بيدها اليسري وتشير إليه بيدها اليمنى ناظرة إلى من يشاهدها(٣)

وقد اشتهرت أيقونة هودجيتريا –وفقاً لاعتقاد البيزنطيين وروايتهم– بمعجزة تحدث كل يوم ثلاثاء فى مراسم احتفالية خاصة تُجرى داخل ساحة دير هودجيون، وفيها كان يسير موكب



Hodegetria Icon By Saint Luk ,see: Alfredo,T., *Icons and Saints of the Eastern Orthodox Church*, Getty Publications(2006),p.260

(1)Jaroslav Folda&Lucy J. Wrapson, *Byzantine Art and Italian Panel Painting*(Cambridge University Press 2015),p.9.

(2)Robert L. Wolff ,"Footnote to an Incident of the Latin Occupation of Constantinople: The Church and the Icon of the Hodegetria," *T* 6 (1948),pp. 319-28 ,esp.322 .

(3) Milliner,M.John., *The Virgin of the Passion*,p.59.

يسير فيه عشرون راهبا من رعاة الأيقونة، الواحد تلو الآخر، في اتجاه الأيقونة وهم مرتدون لآردية كتانية حمراء طويلة، فيرفعونها على حامل كبير ويخرجون بها من الكنيسة وهم يهتفون، ليضعوها في ساحة الدير، وهنا–وفقا للرواية البيزنطية– تطير الأيقونة في الهواء، وتصيح الحشود: "رحمة المسيح.. رحمة الرب"، ثم يقوم الجميع بالطواف بالأيقونة في شوارع وميادين العاصمة.

وهذا الحدث أكدته العديد من الروايات المصدرية؛ فسيرة حياة القديس توماس ليسبوس Thomaîs of Lesbos تصف كيف أن الأيقونة المقدسة للعذراء تخرج في موكب ضخم صباح يوم الثلاثاء كي تنال التبجيل والتكريم من الشعب البيزنطي(١). كما يشير مؤرخ غربي مجهول إلى خروج صورة العذراء في كل يوم ثلاثاء إلى المدينة فى شرف وبهاء، مصحوبة بالغناء والمزامير والتراتيل الدينية، بينما يسير الجميع خلفها رجالًا ونساءً(٢). ويضيف حاج لاتيني زار القسطنطينية في أواخر القرن الحادي عشر: "يحدث هذا التبجيل المهيب في القسطنطينية كل يوم ثلاثاء على مدار العام، ويتم بكل احترام من قبل الكهنة، ويسبق ذلك ويتلوه إنشاد وابتهال عددًا كبيرًا جدًا من الرجال والنساء شكراً لوالدة الإله، فالناس تسير بملابس حريرية مختلف ألوانها، ويطوفون المدينة وهم يحملون الشموع ويرفعون عدداً هائلاً من صور العذراء، ونسمع أصوات دق الطبول مختلطة بالتراتيل المقدسة التي ينشدها الجميع، علمانيون وكهنة سائر الكنائس، ويسير الجميع خلف الأيقونة كما لو كانوا عبيدًا يتبعون سيدتهم، يمجدون اسم الله المتجسد فيها(٣). وكان الطواف يشمل المدينة بأكملها وينتهي ثانية إلى كنيسة بلاشرناي عبر الجهة الشمالية الغربية للمدينة(٤).

---

(1)Halsall, P.,"Life of Thomaîs of Lesbos," , *Holy Women in Byzantium. Ten Saints'* Lives in English Translation, ed. A.-M. Talbot (Washington, D.C. 1996),pp.291-322,esp. 311

(2) Lidov,A.," The Flying Hodegetria. The Miraculous Icon as Bearer of Sacred Space", *The Miraculous Image in the Late Middle Ages and Renaissance*, ed. E. Thunoe and G. Wolf(Rome 2004), pp. 291-321,esp.296.

(3)Ciggaar,K., “Une description de Constantinople dans le Tarragonensis 55”, pp.127-30 ; Lidov,A.," The Flying Hodegetria. The Miraculous Icon as Bearer of Sacred Space",p.303.

(4)Angilidi,Ch.& T.Paoamastorakis ,"The Veneration of The Virgin Hodegetria and The Hodegon Monastery,p.385.; Janin,R.," Les processions religiueses à Byzance, *REB* 1 (1966),pp.69-88,esp 71.



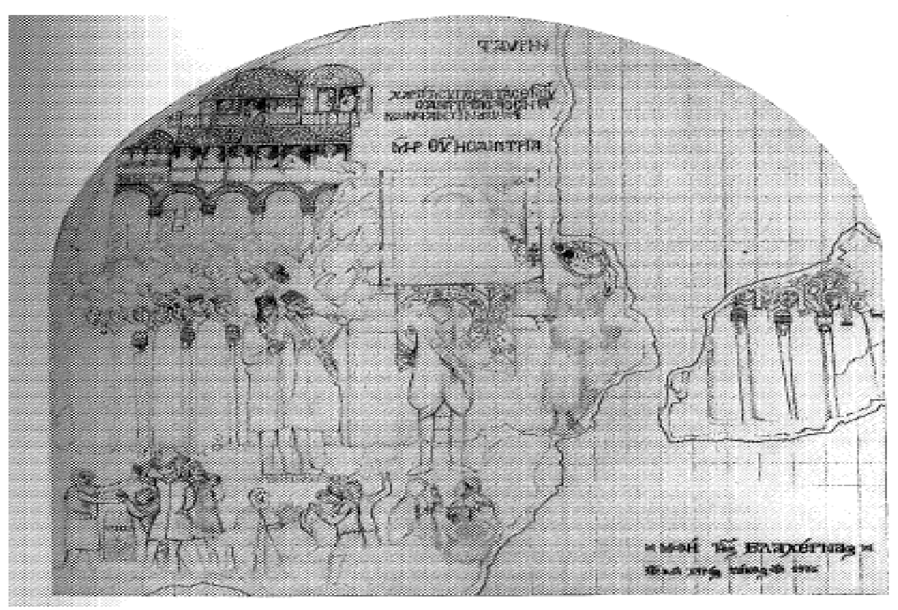
شكل (١٥) معجزة ايقونة العذراء هودجيتريا يوم الثلاثاء

ونظراً للأهمية المتزايدة لهذه الأيقونة في حياة أ العاصمة، دائمًا ما كان البيزنطيون فى أوقات المحن العسكرية والأوبئة يطوفون بها طلباً للنصر والحماية والتماساً للبركة، فلا شك في أن أحد أهم غايات هذا الطقس نقل الشعور للبيزنطيين بأن المدينة تستظل بحماية العذراء[١] (انظر شكل ١٦).

---

(١)كان سبب اختيار يوم الثلاثاء للمعجزة والطواف بالأيقونة يرجع إلي أنه أثناء حصار الأفار للقسطنطينية عام٦٢٦م، قام البطريرك بحمل الأيقونة والتى كانت تُمثل في ذلك الوقت الذراع والحامى للإمبراطورية الذى لا يقُهر وقام بالطواف بها على جميع جدران المدينة وكان ذلك فى اليوم الأول من الحصار والموافق يوم الثلاثاء. انظر:

Lidov ,A.," Spatial icons :The miraculous performance with the Hodegetria of Constantinople ", *Hierotopy. Creation of Sacred Spaces in Byzantium and Medieval Russia*. Edited by A. Lidov. Published by “Progress-tradition” (Moscow 2006),pp. 349-372,esp.352-3,5 ; Cormack, R., *Painting the Soul; Icons, Death Masks and Shrouds.* Reaktion Books (London 1997),pp.59-61.



شكل(١٦) مراسم موكب أيقونة هودجيتريا يوم الثلاثاء[١]

كذلك انعكست هذه الأهمية على المستوى الرسمي في التماس كثير من الأباطرة بركة أيقونة دير هودجين المقدسة؛ فالإمبراطور ليو الخامس Leo V (٨١٣-٨٢٠م)عاش بالقرب من الدير. وكان القيصر بارداس Bardas(٨٤٢-٨٦٧م) دائم التردد على الدير تقربًا لأيقونته المقدسة[٢]. وفي عهد الإمبراطور يوحنا الثانى كومنينوس أدت الأيقونة دور الشفيع، وأُستخدمت أيقونة هودجيتريا فى الطقوس الجنائزية الإمبراطورية، حيث أُحضرت إلى مدفن هيرون Heroon[٣] الإمبراطوري بدير بانتوكراتور وتُركت لنشر بركتها وشفاعتها فيه[٤].

(ج)الدور العسكري للأيقونات والرفات:

كان الجيش وساحات الحروب أحد أهم المجالات حيوية الذي وُظفت فيه القوى الخارقة المتخيلة في الأيقونات والرفات، خاصة وأنه ارتبط بممارسات دينية وروحية عنى بها

([1])Bissera V. Pentcheva "The 'activated' icon: the Hodegetria procession and Mary's Eisodos." , *Images of the Mother of God: Perceptions of the Theotokos in Byzantium,* ed. M. Vassiliki ,Aldershot (Ashgate 2005), pp. 195- 207,esp.203

([2])Skylitzes, *A Synopsis of Byzantine History* ,p.112.;Annemarie W. Carr.," Court Culture and Cult Icons in Middle Byzantine Constantinople" pp.91-5.

([٣])ضريح هيرون :هو ضريح إمبراطوري سُمي هيرون لتشبيه أفراد العائلة الإمبراطورية المدفونين فيه بالأبطال

Choniates ,N., *O City of Byzantium : Annals Of Niketas Choniates,* Trans . H.Magoulias, Detroit(Michigan 1984),p.410.

([4])Gautier,P., "Le typikon du Christ Sauveur Pantocrator" *REB* tome 32 (1974), pp. 1-145 ,esp.80,82.

الآباطرة البيزنطيين عند خروج حملاتهم العسكرية. إذ كانت مفاهيم الطهارة و "صفاء الروح" والخلاص من إثم الخطايا ومن ثم إحراز رضا الرب ودعمه أمراً أساسياً في العقلية العسكرية البيزنطية. وحتى يتحقق ذلك وُظفت بركة وشفاعة الرفات وأيقونات العذراء والمسيح والملائكة في تأجيج الحماسة والمشاعر الدينية ورفع الروح المعنوية للجنود في ساحات المعارك[١].

وكما ذُكر قبلاً كان ثمة شعور عام شاع بين البيزنطيين بأن عاصمتهم تستظل بحماية ورعاية القوة الخارقة للعذراء وابنها"المسيح". وهو شعور بلا شك يحمل أبعاد نفسية ومعنوية واضحة؛ فغالباً ما كان لجوء الآباطرة والبطاركة إلى التماس نجدة القوة الخارقة لحماتهم وقت الأزمات وسيلة لرفع الروح المعنوية لرعاياهم وتوظيفًا لاعتقاد الأخيرين في كون هؤلاء الحماة يتمتعون بنفوذ خاص في السماء ويستأثرون بقدرة على التوسط بين الأخيرة والأرض[٢]. وكانت لهذه الوساطة دور واضح خاصة في فترات ضعف السلطة السياسية وتآكل هيبة الأباطرة لتوحيد الصف تحت راية هذه السلطة وأولئك الآباطرة وإعادة الثقة في قدرتهم –بمساعدة سماوية– على تجاوز الأزمات[٣]. لقد اعتقد البيزنطيون في كون الأيقونات رمزاً لتمجيد وتعظيم الإيمان ولسلامة الأباطرة والمسيحيين ولحفظ المدينة كلها؛ فبها تكتسب المدينة أمنها وقدرتها على البقاء، خاصة بأيقونة العذراء التي جعلها الرب –في مفهوم البيزنطيين– الحصن وجدار الدفاع عن العاصمة [٤].

([1])George,T.Dennis ,"Religious services in the Byzantine army," *Eulogema. Studies in Honor of Robert Taft*, ed. Ephrem Carr et al. (Rome, 1993) = *Studia Anselmiana* 110 (1993), pp. 107-17., esp. 107 ; George,T.Dennis.,*Three Byzantine Military Treatises* (Washington 1985) ,p.216 ; Stoyanov,Y.,"Eastern Orthodox Christianity", *Religion, War, and Ethics: A Sourcebook of Textual Tradition,s* ed. Gregory M. Reichberg, H. Syse, N. M. Hartwell(Cambridge 2014),pp.164-234,esp.166.

([2])Baynes ,N., "The Supernatural Defrnders of Constantinople", p.166.

([3])Meyendorff , J., *The Byzantine Legacy in the Orthodox Church* (Crestwood, NY: St. Vladimir's Seminary Press 1982),p. 74.

[٤]شهدت الآونة الأخيرة ظهور عدد من الدراسات التاريخية والتي تناول مؤلفوها الدور الخارق للعذراء والمسيح وتأثير ذلك على معتقدات المجتمع الدينية والاجتماعية وإن كان معظم هذه الدراسات ركز على الجانب العسكري للقوة الخارقة خاصة للعذراء باعتبارها المدافع والحامى الأول للإمبراطورية ضد الهجمات البربرية . ومن هذه الدراسات:

Kaldellis, A., " 'A Union of Opposites': The Moral Logic and Corporeal Presence of the Theotokos on the Field of Battle", *pour l'amour de Byzance: Hommage à Paolo Odorico*, ed. C. Gastgeber et al. (Frankfurt am Main, 2013), pp.131-144.;Speck, P., "The Virgin's Help for Constantinople", *BMGS* 27(2003), pp.266-271.; Pentcheva, B.V., "The Supernatural Protector of Constantinople: the Virgin and her Icons in the Tradition of the Avar Siege", *BMGS* 26(2002), pp.2-41, esp. 17-20.

وهناك نقشان من القرن العاشر يعبران بوضوح عن المعتقد البيزنطي الراسخ في العذراء بوصفها حامية القسطنطينية ونصيرة الإمبراطورية ضد أعداءها، ويتضمنان أبياتاً من الشعر نسبت إلى جورج بيسيديا George of Pisidia-شاعر بيزنطي خلال القرن السابع-، أحدهما نُقش على محراب كنيسة بلاشرناي، وجاء فيه: "وهنا صولجاناتهم "الأباطرة" قد تم منحها الإنتصار، وهنا البطريرك يقظ فى أى وقت لمواجهة العديد من الكوارث، إن البرابرة المهاجمين للمدينة يحنون رؤوسهم وأعناقهم الذليلة عند رؤيتهم للعذراء في مقدمة الجيش المتصدي لهم. أما النقش الثاني فوُجد على الينبوع المقدس للكنيسة المقدسة وجاء فيه: "هنا ينابيع التطهير من الجسد، وهنا التجرد من الذنوب، وتخليص الروح من الخطايا من خلال قوة العذراء وقدرتها على العلاج، وبماءها المقدس لا بالرمح يتم أيضاً قهر الأعداء وتدميرهم، فهي لا تمتلك طريقة واحدة في هزيمتهم، لأنها العذراء التي حملت المسيح وجعلت البرابرة يفرون مهزومين". ونظرًا لأن النقش مكتوب على الينبوع فهذا دليل قوي على وجود رابط ما بين قوة العذراء في الحرب والماء المقدس(١).

ويبدو أن الدور العسكري الخاص الذي نُسب إلى أيقونة العذراء يعود في المقام الأول بأحد المفاهيم الجوهرية في المعتقد البيزنطي، وهو مفهوم تضحية الأم عبر تقديم ابنها بتفان وإخلاص لخلاص العالم، فضربت بذلك نموذجًا فريداً راح الآباطرة يوظفونه لبث مُثل الإخلاص والعطاء وإنكار الذات في نفوس جنودهم. وكان حضور العذراء بأيقوناتها ورفاتها أو بتجسيدها على الصلبان في ساحات الحرب يهدف -بالإضافة إلى استجلاب بركتها وشفاعتها- إلى ضمان التذكير الدائم بهذه المثل(٢). وتزخر الكتابات التاريخية البيزنطية خلال الفترة من القرن

---

(١)ونود أن نشير هنا إلي أن مفهوم العذرية والنصر كان معروفًا في العالم القديم، حيث نجد أن المحاربة العذراء أثينا تقدم نموذجًا كلاسيكيًا على ذلك، فقد كانت تُعبد باعتبارها إلهة للحرب ضمن وظائف أخرى متعددة لها، وكانت معابدها في الحقبة الرومانية تبُني بجوار المواقع العسكرية، وقد عرفت باعتبارها جالبة للانتصار والحامية للمدينة والأولي في المعركة والمحاربة على البوابات. انظر:

Bissera V. Pentcheva., Bissera V. Pentcheva., *Icons and Power: The Mother of. God in. Byzantium* , University Park, PA(The Pennsylvania State University Press 2006),pp.62-3.; Papalexandrou,A.," Text in context: eloquent monuments and the Byzantine beholder," *Word & Image: A Journal of Verbal/Visual Enquiry* Volume 17, Issue 3(2001),pp. 259-283.

(2)Bissera V. Pentcheva., *Icons and Power: The Mother of. God in. Byzantium* , University Park, PA(The Pennsylvania State University Press 2006),p.61.

التاسع إلي القرن الثاني عشر الميلاديين بالعديد من القصص والروايات عن الدور العسكري لرموز العذراء، وهي في مجملها تركز على هذه المثل الأخلاقية والبطولية(١).

وثمة خطبة دينية مهمة ألقاها البطريرك فوتيوس(٢) Photius يمتدح فيها العذراء لتدخلها بإنقاذ الجيش البيزنطى من الهجوم الروسي يعكس فيها ببلاغة مفاهيم البيزنطيين لدور العذراء في ساحة المعركة، إذ يقول: "يرسل الله عدوًا لمعاقبة الرومان على خطاياهم، وعندما يتوب الأخيرين ويهرعون إلى والدة الإله، تتشفع هي بدورها لدي ابنها للعفو عن الرومان وتجنيبهم ويلات الحرب، ومن ثم تلحق بهم رحمته ويظللهم بالنصر"(٣) كذلك عبر أسقف تسالونيك (١١١٠-١١٩٨م) عن نفس المفهوم بقوله "إن أيقونة العذراء هودجيتريا المدافعة عن مدينتنا كفيلة برد أي اجتياح بربري دون الحاجة إلي أي شخص آخر لتأمين رفاهيتنا"(٤).

ونظراً لأهمية العذراء المتصورة في حماية العاصمة تم وضع أيقوناتها على أبوابها لجلب غضب الرب على كل من تسول له نفسه مهاجمتها، وأقيمت لها المواكب التي راحت تطوف أسوار المدينة أوقات الحصار وهي تحمل رداء لها سُمى فيما بعد مافوريون Maphorion (٥)؛ فقد سُجل التواجد الرمزي للعذراء في عهد الإمبراطور باسيل الثاني (٩٧٦-١٠٢٥م) حينما وضُعت أيقوناتها على جدران المدينة (٦). كذلك حمل البطريرك فوتيوس رداء العذراء فى موكب عام أثناء الهجوم الروسي على القسطنطينية في عام ٨٦٠م، مما دفع

---

(1)Kaldellis ,A., The Military Use of the Icon of the Theotokos and its Moral Logic in the Historians of the Ninth-Twelfth Centuries" , *EB* 1 (2013),pp. 56-75,esp.57.

(٢)رجل الدين والسياسة ولد حوالى ٨٢٠م فى القسطنطينية، درس النحو والرياضيات والفلسفة والقانون والطب واللاهوت، وهو ينحدر من إحدى الأسر الأرستقراطية فى المجتمع البيزنطى، وكان والده من موظفي القصر الإمبراطوري، وقد لقى والده حتفه خلال إحدى موجات الاضطهاد في عهد الإمبراطور ليو الخامس ضد أنصار مؤيدي الأيقونات، تولى الكرسى البطريركى مرتين الأولى من ٨٥٨م إلي ٨٦٧م ، والفترة الثانية من ٨٧٧م إلى ٨٨٦م . دونالد نيكول معجم التراجم البيزنطية، الهيئة العامة المصرية للكتاب،القاهرة(٢٠٠٣)، ص٣٩-٤٠.

(3)C. Mango., *The Homilies of Photius Patriarch of Constantinople* , pp.102-3.; Mary ,B. Cunningham,"Mary The Theotokos"Birth-Giver of God," *The Orthodox Christian World* ,ed. A. Casiday(Rutledge 2012),pp.189-200,esp.191.

(4)Eustaathios of Thessalonica, *The Capture of Thessaloniki*, , ed. and trans. John R. Melville Jones Canberra, 1988,pp.42-3.

(٥)غطاء"حجاب" السيدة العذراء وهو الثوب الذى يغطي الرأس والكتفين، واستخدم هذا المصطلح أحيانًا للإشارة إلى الزى الرسمي للحياة الرهبانية سواء للرجال أو النساء اقتداء بالعذراء مريم، وفى الفن البيزنطي نجد أن رداء العذراء يحمل الألوان " الأزرق والبني والبنفسجي " مزينًا بالصليب المقدس.

Nancy P. Sevicenko & A. Kazhdan , "Maphorion ", *OBB*,p.1294.

(6)Annemarie W. Carr, “The Mother of God in Public,” p.328.

المواطنين إلي الاحتشاد والصلاة خلفه ابتهالاً ومناجاةُ للعذراء، ذلك التضرع الذي عجل شفاعتها –كما تصور البيزنطيون– وتدخل الرب لنجدتهم، ومن ثم رسخ الاعتقاد في كون العذراء هي المدافعة الرئيسية عن القسطنطينية ضد الهجمات البربرية[١].

ومن الملاحظ هنا أن الروايات المصدرية نادرًا ما جسدت تدخل العذراء للدفاع عن العاصمة بظهورها بشخصها، بل كان هذا التدخل عادة يحدث عبر رموزها من أيقونات ورفات، بحيث غدت –كما تشير الروايات المصدرية– أشبه بقائد أو سلاح في ترسانة الجيش البيزنطي يتم توظيفه من حين لآخر؛ فعندما تمرد توماس السلافي Thomas the Slav([٢]) وقام أتباعه بالاستيلاء على المدينة، ذهب الإمبراطور ميخائيل الثاني Michael II(٨٢٠–٨٢٩م) إلي كنيسة العذراء بلاشرناي واعتلى سطحها معلناً الحرب، بينما راح ابنه ثيوفيلوس برفقة البطريرك يقودان الجموع في طواف حول الأسوار ممسكين بالصليب وبوشاح العذراء[٣]. وأثناء هجوم الأسطول الروسي على المدينة بحراً في عام ٨٦٤م، ذهب الإمبراطور ميخائيل الثالث(٨٤٢–٨٦٧م) مع البطريرك فوتيوس إلي بلاشرناي ليلتمسا مساعدة العذراء، فأخذا الوشاح وغمساه في البحر وقاما بالطواف به حول أسوار المدينة[٤]. وفي عهد الإمبراطور باسيل الأول (٨٦٧–٨٨٦م) Basil، قيل إن قائده أندرياس السكيثي(توفي ٨٨٧م) Andreas The Skythian[٥] Skythian[٥] تلقى أثناء قتاله ضد طرسوس Tarsos في عام ٨٧٨م رسالة من أميرها تحمل

([1])C. Mango., *The Homilies of Photius Patriarch of Constantinople* ,pp.102-3.

([٢])قائد الجيش البيزنطي خلال القرن التاسع الميلادي ولد في عام ٧٦٠م واختلف المؤرخون حول مسقط رأسه وإن كانت الآراء تتفق أنه ينتمي إلي أحد المناطق السلافية، وقد نشأ في أسرة فقيرة، ونزح إلي القسطنطينية طلبًا للرزق والتحق بخدمة القيصر بارداس، لكنه لوث شرف سيده مع زوجته وفر لبلاد العرب واعتنق الإسلام تاركًا المسيحية
Paul A. Hollingsworth &A. Cutler," Thomas the Slav" *ODB*,p.2079.; Browning, R, *The Byzantine Empire*, CUA Press(Washington 1992),p.62.
وللمزيد عن تمرد توماس انظر: جنسيوس جوزيف مؤرخًا لحكم الإمبراطور ميخائيل الثاني العموري(٨٢٠–٨٢٩م) دراسة في التحليل التاريخي، جامعة بنها، ص١–٧٣..

([3])John Skylitzes, *A Synopsis of Byzantine History*, p.38.; Janin, R., *La géographie ecclésiastique de l'Empire byzantin. Première partie. Le Siège de Constantinople et le Patriarcat oecuménique*, Institut Francais d'Etudes Byzantines (paris 1969),p.165.

([4])Kaldellis ,A., The Military Use of the Icon of the Theotokos and its Moral Logic in the Historians of the Ninth-Twelfth Centuries"p.62

([٥])أحد كبار قادة الجيش البيزنطي ، برزت شخصيته في الحروب البيزنطية العربية في عهد الإمبراطور باسيل الأول المقدوني، ولعب دورًا رئيسًا في الشئون الداخلية خلال الفترة المبكرة من حكم الإمبراطور ليو(٨٨٦–٩١٢م) خاصة في فصل ومحاكمة البطريرك فوتيوس .
Kazhdan,A.," Andreas The Skythian" *ODB*,pp.93-4.

تجديفا ضد المسيح وأمه، فذرف دموعاً كثيرة ووضع هذه الرسالة أمام أيقونة العذراء ملتمساً مساعدتها في الانتقام من هذه الغطرسة البربرية[١]. وهناك حادثة أخرى من عهد الإمبراطور رومانوس الأول لاكابينوس (٩٢٠-٩٤٤م)، ففي عام ٩٢٤م سار سيميون خان البلغار Symeon of Bulgaria (٨٩٣-٩٢٧م)[٢] بجيشه نحو أسوار المدينة طالباً لقاء الإمبراطور. وبينما كانت الترتيبات الأمنية لذلك اللقاء تُجرى، قام سيميون بحرق كنيسة العذراء في بيجي، فذهب رومانوس ومعه البطريرك نيكولاس إلى كنيسة العذراء في بلاشرناي، حيث سقط رومانوس على الأرض وعيناه تفيضان بالدموع مبتهلاً إليها كي تلين قلب سيميون فيعدل عن الحرب[٣].

وإذا كانت الحالات السابقة ترتبط بدور العذراء الرئيسي كحامية للقسطنطينية ضد هجمات البرابرة، خاصة مع احتضان الأخيرة لأيقوناتها ورفاتها الأكثر شهرة في هذا المجال، إلا أن توظيف وساطة العذراء وبركتها في تحقيق النصر في الحملات الخارجية لم يكن أمراً مستعصياً على المستويين الكنسي والإمبراطوري. فمنذ بداية القرن التاسع كانت ثمة طقوس دينية معتادة يؤديها الأباطرة البيزنطيون في إحدى كنائس العذراء قبل مغادرتهم بحملاتهم الخارجية، وفي حال عودتهم منتصرين كانت تُجرى طقوس دينية احتفالية كنوع من الشكر

---

(1)Kaldellis ,A.,*Ibid*,pp.62-3 Kzahdan,A.,"Saint Andrew the Stratelates and Andrew The Scythian", *To Ellenikon: Study in Homour of Speros ,Hellenic Antiquity and Byzantium*,(New York 1993),pp.145-152.

(٢)ولد في الفترة من ٨٦٣ -٨٦٥م، وهو الابن الثالث لبوريس حاكم بلغاريا(٨٥٢-٨٨٩م) ، وقد أرسله والده إلى القسطنطينية لكي يتلقى التعليم الكنسي، وخلال الفترة التي قضاها في العاصمة البيزنطية حصل على تعليم ممتاز ودرس البلاغة، وتعلم أيضا اللغة اليونانية، وحوالي عام ٨٨٨م عاد إلى بلغاريا، واستقر في الدير الملكي وتفرغ لترجمة الأعمال الدينية من اليونانية إلى السلافية القديمة، وتولي كرسي بلغاريا عام ٨٩٣م، وصار على نهج والدة في العلاقات الودية السلمية مع بيزنطة، وبدأت بذور الصراع البيزنطي البلغاري عندما قام الإمبراطور البيزنطي ليو السادس بنقل سوق البضائع البلغارية من القسطنطينية إلى سالونيك وبالتالي زيادة الضرائب على التجارة البلغارية فاشتكي سيمون لليو من جراء هذا التصرف ولكن ليو تجاهل شكواه. انظر:

Kazhdan,A.," Symeon of Bulgaria", *ODB* ,p.1984.; Stavros ,B.,*Andros Odysseyn: Byzantine Kalivarion 705 Ad-1078 Ad*, IUniverse,Inc.(New York 2004),p.191.

(3)Annemarie W. Carr ,"Threads of Authority: The Virgin Mary's Veil in the Middle Ages," *Stewart Gordon, ed. Robes and Honor : The Medieval World of Investiture* (New York: Palgrave, 2001),pp. 59-93,esp.67; Runciman,S., *The Emperor Romanus Lecapenus and His Reign: A Study of Tenth-Century Byzantium*(Cambridge University Press,1988),p.91 ;Kaldellis,A., The Military Use of the Icon of the Theotokos and its Moral Logic in the Historians of the Ninth-Twelfth Centuries" Ostrogorsky, G., *History of The Byzantine State*, Basil Blackwell(Oxford, 1968),p. 265; p.62−3. Harris, J.& Venning,T . *Chronology of the Byzantine Empire*(Springer 2006),p.297.

والامتنان. إذ تشير آنا كومنينا إلى أن والدها الإمبراطور اليكسيوس ذهب إلى كنيسة بلاشرناى قبل مغادرته بحملة ضد النورمان، وانتظر حدوث معجزتها المعتادة كدليل على ضمان النصر، وعندما لم يحدث ما انتظره اعتبر ذلك رسالة مقدسة بالعدول عن مشروع حملته(١). كذلك يُقال أن يوحنا الأول تزيميسكس في عام ٩٧١م وضع أيقونة العذراء على مقدمة عربة النصر الاحتفالية بعد انتصاره على البلغار في عام ١٠١٨م، واتجه إلى كنيسة العذراء في أثينا ليعبر عن شكره وامتنانه لها (**انظر شكل** ١٧) (٢)، والأمر ذاته فعله يوحنا الثاني مرارًا عقب عودته منتصرًا للتأكيد على دورها كحامية للإمبراطورية(٣)، وايضًا الإمبراطور مانويل الأول كومنينوس(١١٤٣-١١٨٠م) استمر على هذا النهج خاصة عقب انتصاره على الهنغاريين في عام ١١٦٧م، حيث قيل أنه ذهب إلى كنيسة آيا صوفيا لكى يشكر المسيح ووالدته (٤).



(**شكل** ١٧) أيقونة العذراء تتقدم موكب النصر الإمبراطوري

ولا شك في أن الأهمية المتزايدة لدور العذراء العسكري أتاح ظهورها لأول مرة على القطع النقدية إلى جانب الآباطرة خلال عصر التوسع العسكري البيزنطي وحملات الاسترداد لشمال الشام منذ عهد ليو السادس، مرورا بعهدي نيقفور فوقاس Nikephoros II Phokas

---

(1)Anna Comnene, The Alexiad ,p.229.;Annemarie W. Carr ,"Threads of Authority: The Virgin Mary's Veil in the Middle Ages", p.67 ; Grumel V., "Le miracle habituel de Notre-Dame des Blechernes à Constantinople",p.129.

(2)Leo the Deacon, *History*, p.47.Angelidi,Ch& T. Papamastorakis," Picturing the Spiritual Protector: from Blachernitissa to Hodegetria", *Images of the Mother of God: perceptions of the Theotokos in Byzantium*,ed. M. Vasilakē(Ashgate 2004),pp.209-234,esp.219.

(3) Papageorgiou,A.,"The Political Ideology of John II Komnenos", *John II Komnenos, Emperor of Byzantium: In the Shadow of Father and Son*, ed.A.Bucossi &A.R.Suarez, Routledge(New York 2016),pp.37-52,esp.43.

(4)Choniates ,N., *O City of Byzantium*,p.90

(٩٦٣-٩٦٩م) ويوحنا تزيميسكس، وتزامن ذلك مع وجود الإمبراطور بشخصه في أرض المعركة، ومن ثم بداية تكريس رموزها في ساحات الحروب الخارجية. وكان الظهور الأول من نوعه لهذه الرموز في ميدان معركة أبيدوس Abydos في عام ٩٨٩م، التي جرت بين باسيل الثاني والمتمرد بارداس فوقاس Bardas phokas(١)، حيث صُور باسيل حاملاً السيف في يد وأيقونة العذراء في اليد الأخرى معتبرًا أنها الأكثر قدرة على الحماية من هجوم العدو(٢). وثمة روايات أخرى متزايدة بعد هذا التاريخ تشير إلى رفع الأيقونات في ساحات المعارك الخارجية، بعد أن خُصص لها حملة من الجنود؛ ففي أعقاب الحملة الكارثية لرومانوس الثالث (١٠٢٨-١٠٣٤م) ضد حلب في عام ١٠٣٣م ونهب المعسكر البيزنطي، وقد سجل بسللوس ملاحظته بأن القوة الخارقة لأيقونة العذراء تمثلت هذه المرة في اختفاءها عن أعين المهاجمين كي لا يستولون عليها(٣). كذلك لم يجد أطالياتيس صعوبة في تبرير هزيمة رومانوس الرابع ديوجنيس في ملاذكرد عام ١٠٧١م رغم حمله لأيقونة عذراء بلاشرناي أثناء الحملة، فيقول بأن الآباطرة السابقين اعتادوا حمل هذه الأيقونة في حملاتهم بوصفها سلاح لا يقهر، وأن الهزيمة ترجع إلى تجاهل الجندي المكلف بحمل الأيقونة قد تجاهل نداءها. وحتى بعد هذه الهزيمة كان أطالياتيس حريصا على التشديد بكونها لم تزعزع إيمان البيزنطيين فيها، فيصور مشهد مناشدة الإمبراطور المنهزم للأيقونة كي تكون وسيطاً يجنبه ويلات الهزيمة(٤).

كذلك تسجل آنا كومنينا اصطحاب أبيها لرموز العذراء في معاركه؛ كحمله قطعة من رداء العذراء إلى ميدان المعركة في عام ١٠٨٩م (٥)، ووشاح المافوريون في حملته عام ١٠٨٦م ضد السكوثيون-بدو اوربا الشرقية الرحل-. وفي الحملة الأخيرة تصف آنا كيف أن والدها ظل يحارب مع نفر قليل من جيشه، ممسكا بسيفه في يد والمافوريون في الأخرى، بعد فرار أغلب جنوده(٦). والملاحظ هنا لم تقدم لنا آنا كومنينا مبرراً لهزيمة اليكسيوس في هذه الحملة واضطراره إلى الفرار رغم حمله هذا الرفات المقدس. وبأية حال فإن تلك من الروايات النادرة في المصادر البيزنطية التي أوردت الهزيمة والقوة المقدسة معاً دون أن تبرر ذلك. وهناك

([1])Kaldellis,A., The Military Use of the Icon of the Theotokos and its Moral Logic in the Historians of the Ninth-Twelfth Centuries",p.64–5.

([2])Psellos , M., *Choronographia* ,trans . E.R .A. Sewter, Penguin Books (1966) ,p. 36.

([3])Psellos,M.,*Chronographa*,pp.69-70.

([4])Michael Attaleiates , *The History* of Michael Attaleiates,*trans.* Anthony Kaldellis, Dimitris Krallis(Harvard University Press2012),p.279.

([5])Anne Comnene,*the Alexiade*,p.36.

([6])Anne Comnene,*the Alexiade*,p.36.

رواية مهمة لخونياتس يظهر فيها كيف استغل يوحنا كومنينوس الاعتقاد في القوة الخارقة لأيقونة العذراء لتأجيج حماسة جنده في معركته ضد البشناقPechenegs[١] في عام ١١٢٢م. ووفقا لهذه الرواية كان يوحنا كلما اشتد ضغط البشناق على الكتائب الرومانية يبتهل إلى أيقونة العذراء باكياً بصوت عالٍ وذارفاً الدموع، الأمر الذي أسهم في دفع الروح المعنوية لجيشه وتحقيق النصر[٢].

ولم يقتصر دور رموز العذراء على تحقيق النصر على الأعداء داخل القسطنطينية وخارجها، بل لقد صارت آداة في المراسم والمواكب الإمبراطورية، بل ويتم توظيفها في القضاء على التمردات وحتى إحراز الفوز في المسابقات الرياضية؛ ففي القرن العاشر كان دور العذراء العسكري حاضراً بقوة في مراسم القصر؛ إذ كانت طقوس الصلاة فيه تتضمن ابتهالاً للعذراء "والدة الإله التى لا تقهر" كي تكون معينة للإمبراطور والقواد وحامية للإمبراطورية[٣]. كذلك كان يُهتف لها فى البلاط يوم الاحتفال بإعتلاء العرش بالقول: "أنت وحدك الجديرة بقيادة الجيوش جنبًا إلى جنب الرب والقادة ضد الأعداء"، ففي عام ١١٣٣م فُسر فوز إحدى العربات chariot في السباق بوجود أيقونة العذراء عليها [٤]. وفي عام ١١٦٧ صار مانويل كومنينوس وراء عربة عربة تحمل أيقونة العذراء بوصفها الحليف الذي لا يقهر[٥]. وفي عام ١١٨٦م وضع إسحاق الثاني أنجيليوس أيقونة السيدة العذراء "هودجيتريا" فوق جدران المدينة لدرء تمرد يوحنا براناس Branasوفي هذا الصدد يعلق يوستاثيوس السالونيكي بنبرة تحمل مسحة ساخرة على ركون أهل القسطنطينية إلى الاعتقاد في كون دور أيقونة "هودجيتريا" في الدفاع عن المدينة وحده كافيًا لدرء الأخطار وتحقيق الانتصار[٦].

---

(١)البشناق:هم قبائل من البدو الرُحل في أسيا الصغرى، انتقلوا إلى حوض نهر الفولجا، واشتبكوا مع الخزر والهنغاريين، واستقروا في منطقة السهل ما بين نهر الدون والدانوب، وعملوا كوسطاء تجاريين، ثم بعد ذلك= =تعددت طموحاتهم فقرروا الخروج للغزو، واستغلوا الضعف الذي انتاب الإمبراطورية البيزنطية وهاجموا حدودها. Pritsak ,O.," Pechenegs " ,*ODB*, pp.1613-14.

(2)Choniates,N., *O City of Byzantium* ,p.10

(3)Leon, *History* 9.12; John Skylitzes, Synopsis: Tzimiskes 18 (p. 310) ;McCormick, M., *Eternal Victory: Triumphal Rulership in Late Antiquity, Byzantium and the Early Medieval West*(Cambridge University Press 1986), pp.171-2; Kaldellis, A ., The original source for Tzimiskes' Balkan campaign (971 AD) and the emperor's classicizing propaganda," *BMGS* Vol. 37 No. 1 (2013) pp.35–52,esp.48.

(4)Kaldellis,A., The Military Use of the Icon of the Theotokos and its Moral Logic in the Historians of the Ninth-Twelfth Centuries",p.69−70.

(5)Choniates,N., *O City of Byzantium*, p.10

(6)Eustathios of Thessalonik *The Capture of Thessaloniki*,p.130.

وأخيراً يجدر التطرق إلى أحد المفاهيم الأساسية التي ارتبطت بدور العذراء العسكري؛ وهو–كما أُشير قبلاً– أن العذراء نادراً جداً ما أُقمحت في ميادين المعارك بشخصها، بل كان تدخلها يحدث غالباً عبر أحد رموزها أو من خلال إرسالها أحد القديسين المحاربين، ولعل ذلك يفسر وجود صورة للعذراء مع الإمبراطور يوحنا تزيمسكس مثلتهما في هيئة قائدين. كذلك يروي لنا خونياتس نمطاً مماثلاً لتدخلها في معركة ماريوكيفليون Myriokephalion عام ١١٧٦م(١) :حيث يروى أنه بينما كان الإمبراطور مانويل كومنينوس يستعد للخروج إلى المعركة، أخبره رجل يُدعى مافروبولوس mavropoulos بمشاهدته رؤيا للعذراء بينما كان في كنيسة القديس بطرس، وأنه سمع صوتًا صادرًا من أيقوناتها يحذر من خطر وشيك محدق بالإمبراطور، ويقول: "اخرج باسمي لمساعدته، فأجاب صوت لرجل غير مرئي: دع القديس جورج يذهب، ثم أضاف: لكنه بطيء الحركة، فلنرسل القديس ثيودور" (٢). ويبدو أن عدم ظهور العذراء بشخصها في ساحات المعارك يمكن تفسيره في ضوء سعي البيزنطيين إلى تبرير ما قد يبدو من تناقض بين مُثل العذرية والأمومة المتجسدة في العذراء ودورها في تحقيق الانتصار في المعركة(٣).

وبالإضافة إلي أيقونات السيدة العذراء كان الصليب أحد أهم القطع التي يمكن أن يحملها الجيش البيزنطي في المعركة، وكان علامة بارزة للنصر الإمبراطوري (٤)، حيث كان الصليب الحقيقي تجسيدًا واقعيًا لانتصار المسيح على الموت ومن ثم رمزًا لانتصار الإمبراطور علي الأعداء. وظهر الرفات المقدس للصليب بشكل بارز في الاحتفاليات الإمبراطورية (٥)، وقد وقد تطور دور الرفات المقدس واستخدامه أثناء الحروب خلال العصر البيزنطي الأوسط، إذا أصبح مرصعًا بالجواهر ويُحمل في مقدمة الجيش وخلفه الصلبان الكبيرة المحمولة، فضلاً عن أخرى صغيرة وُضعت على الصدرية الخاصة بالجنود لحمايتهم والرايات العسكرية التي صارت في أواخر القرن الحادي عشر تُرصع صلبانها بالأحجار الكريمة. فقد اعتاد يوحنا تزيميسكس

---

(١)تقع في فريجيا شرق تشوما ، وقد حملت اسم معركة بين البيزنطيين والسلاجقة في ١٧ سبتمبر ١١٧٦ م. عن المعركة انظر.

Clive F. W. Foos ," Myriokephalion", *ODB*.pp.1429-30.

(2)Choniates,N.,*O city of Byzantium*,pp.107-8.

(3)Bissera V. Pentcheva , *Icons and Power*,p.68.

(٤)وقد روج لمفهوم الصليب المنتصر من خلال أسطورة قسطنطين الكبير ووفقًا للأسطورة فإن قسطنطين في عشية معركة ميليفيان رأى في المنام صليباً من نار في السماء، ومع هذا الصليب رأى أحرفاً من نار تقول: "بهذا الصليب سوف تنتصر" . انظر:

Bissera V. Pentcheva., *Icons and Power: The Mother of. God in. Byzantium* ,pp.67-8.

(5)Sirarpie Der Nersessian, “La fête de l'exaltation de la croix,” *AIPHOS* 10 (1950),pp. 193–8.

قبل حملاته الخروج في مواكب رسمية للصلاة في الكنائس رافعاً الصليب(١). كما حُمل صليب كبير في حملة نيقفور فوقاس ضد مسلمي كريت في عام ٩١٠م، كما أن هناك العديد من الصلبان سلبها المسلمون في معاركهم ضد البيزنطيين، وأخرى أستردها الأخيرون ثانية خلال حملتهم على شمال الشام في عام ٩٦٥م (٢).

وفي أحيان كثيرة كان يتم الدمج بين أيقونات العذراء والمسيح والصلبان بنقش الأولى على الأخيرة (انظر **شكل ١٨ و ١٩**)(٣) وإذا أُضيف إلى ذلك طقوس صلاة ما قبل المعركة – التي ظهرت أيضاً مع القرن الحادي عشر– المتضمنة الابتهال بالقول: "رب اظهر الصليب المقدس في السماء"، والهتاف التقليدي أثناء المعارك "النصر للصليب"، لتبين مدى أهمية الاعتقاد في قوة الصليب كرمز للدعم الإلهي على تحقيق النصر، كذلك كان نيقفور فوقاس يأمر جيشه بترديد هتاف "رب ارحم" مائة مرة بعيون دامعة، والهتاف "الرب معنا"، فضلاً عن الهتاف بالصليب عند اقتراب الأعداء "يا جبار في القتال، بشفاعة أمك وسائر القديسين ارحمنا وانصرنا"(٤).



(شكل ١٨) صليب من جورجيا من القرن العاشر يحمل صورة العذراء وطفلها

([1])Leo The Deacon,*The History of Leo The Deacon Byzantine Military*,p.48.

([2])Dennis, G., “Religious services in the Byzantine army" p. 108-10.; Vasiliev A.A., *Byzance et les Arabes. Tome II, 1re partie. La dynastie macédonienne (867-959) extraits des sources Arabes* (Brussels, 1950),p.59.

([3])*Bissera V. Pentcheva., Icons and Power: The Mother of. God in. Byzantium* , p.70.

([4])Dennis, G., “Religious services in the Byzantine army,” pp. 110-6.



(شكل ١٩) صليب القرن الحادي عشر



(شكل ٢٠) أيقونة العذراء والمسيح على العملات الفضية [١]

كذلك أدت صنوف عديدة من الرفات المقدس، غير صليب الصلبوت ورفات العذراء، دورا في الحرب البيزنطية؛ فقد أرسل قسطنطين السابع الرفات المتعلق بآلام السيد المسيح إلى

---

(١)عملة فضية من عهد الإمبراطور باسيل الثانى وقسطنطين الثامن، حيث يُصور الوجه الأول منها العذراء حاملة ميدالية متضمنة المسيح على صدرها والدة الإله والمجد الكامل للحكام .

Bissera V. Pentcheva., *Icons and Power: The Mother of. God in. Byzantium* , University Park, PA: The Pennsylvania State University Press(2006), p.75.

الجيش في الشرق واعتمد الأباطرة على صورة المسيح في تحفيز الجنود(١)، ولا شك في أن وجود هذه الرفات في القسطنطينية من شأنه –من وجهة النظر البيزنطية– أن يعلي من شأنها ويكفل لها مزيداً من الحماية المقدسة(٢). وثمة خطاب أرسله قسطنطين السابع إلى قواته أثناء حملتهم حول طرسوس عام ٩٥٨م يحفزهم على القتال. ويعد هذا الخطاب أول شاهد صريح لاستخدام رفات صورة المسيح في معركة خارجية؛ إذ يشير إلى إرسال الإمبراطور إمدادات مع الماء المقدس مع رفات مقدس متصل بآلام المسيح كان لا يزال موجود آنذاك في العاصمة، كرفات للصليب والرمح ورداءه(٣).

وعلى هذا النحو كانت الرموز المقدسة بمختلف أنماطها ذات أهمية كبيرة –من وجهة النظر البيزنطية– في الحفاظ على المواقف والثبات الديني ورفع الروح المعنوية للجنود، فضلاً عن كونها إشارة إلى الدعم الإلهي وضمانة للنصر، وهو دون شك مفهوم تجذر في العقلية البيزنطية منذ أن صاغه مؤرخ الكنيسة يوسابيوس القيصري في روايته الشهيرة عن اهتداء قسطنطين، لكنه صار يضفي على حروب بيزنطة الآن، خاصة في القرن العاشر، مسحة مقدسة(٤). كما احتل الرفات المقدس مكانًا مركزيًا ورئيسًا فى الحياة اليومية عند البيزنطيين منذ اليوم الأول لتدشين القسطنطينية في عام ٣٣٠م، لإيمانهم وثقتهم في كونه قادرًا على جلب الخير ودرء الشرور مجالات استخدام المقدسات في المجالات السياسية والعسكرية والدبلوماسية.

---

(1)Vari ,R.,"Zum historischen Exzerptenwerke des Konstantinos Porphyrogennetos" *BZ*17(1908),pp.75-85,esp.83.

(2)Baynes ,N., "The Supernatural Defrnders of Constantinople", p.171. ;Runciman, S., "some remarks in the image of Edessa " *CHJ* 3 (1931) ,pp.238-252

(3)Doc. *Mandylion in 958 letter of Constantine VII.*

(4)LrauocX; vtxomnoq "la victoire imperiale dans l'Empire chretien." *RHPR*13 (1933),pp. 370-400,esp.393-4.

الأجانب في المجتمع البيزنطي

هبة رمضان العوايدي

ورثت بيزنطة عن الإمبراطورية الرومانية مبدأ التعددية العرقية ، وظلت حريصة على التآلف بين سكانها، ورغم ازدراء البيزنطيين للأجانب بشكل عام إلا أن هذه النظرة تتغير تماما بمجرد اندماج الأجنبي في المجتمع؛ بتحدث اليونانية واعتناق المسيحية على المذهب الأرثوذكسي، فعندئذ يتحول الأجنبي في نظر المجتمع من "بربري" barbarous إلى مواطن بيزنطي. ولما كان المجتمع البيزنطي على هذه الشاكلة من الانفتاح وتقبل دمج الآخر، فقد صار كثيرون من الأجانب مواطنين بيزنطيين ، والتحقوا بالجيش البيزنطي ودافعوا عن الإمبراطورية، وشاركوا بفاعلية في الحياة السياسية بالبلاد [(١)].

وأقام البيزنطيون دولتهم على التراث الذي تركته الحضارة الرومانية في مساحات جغرافية شاسعة، لغتهم اليونانية، ودينهم المسيحية الأرثوذكسية، وجمعتهم عادات وسلوكيات وهوية عرقية واحدة، وشكلت هذه السمات تاريخ الحضارة البيزنطية التى استمرت ألف عام، وإن كانت تلك السمات لم تستغرق جميع البيزنطيين؛ لأن الأجزاء الشرقية للإمبراطورية كانت مسيحية ولغتها إلى حد كبير كانت السريانية وليست اليونانية، وذلك قبل الفتح الإسلامى فى القرن السابع الميلادى / الأول الهجرى [(٢)] ورغم اتفاق الكثير من المؤرخين على شرطين للهوية

---

(١) عبد العزيز رمضان ، "البيزنطيون بين الهويتين اليونانية والرومانية " ، ص ٢؛ هانئ البشير ، " دور الأرمن في الجيش والحياة السياسية " ، ص٧١ .

(2)Page ,*Greek Identity* , p. 44 ; Smythe, " Insiders and Outsiders", pp. 67 - 68 .

هناك بعض المشكلات التي قابلت الباحثين فى موضوع فصل الأجانب والدخلاء عن المواطنين البيزنطيين، فالبعض يستخدم مصطلح المواطنة Citizenship إلا أن استخدام هذا المصطلح لم يحسم الأمر لأن البيزنطيين لم يحملوا بطاقات تحقيق الشخصية أو جوازات سفر لإثبات هويتهم، فاتجه الباحثون إلى فكرة المسؤولية الضريبية أو الخدمة العسكرية كمؤشر جيد للانتماء، ولم تفلح هذه الفكرة أيضا لأنها لا تتحقق إلا فى المجتمع الذى يمتلك جميع سجلات الضرائب، ويستطيع مراقبة أفراده، وهذا لا ينطبق على البيزنطيين . انظر :

Smythe , "Insiders and Outsiders", p.69.

وثمة ثلاثة مصطلحات ارتبطت بموضوع الأجانب: أولا الأجانب Foreigners ، وثانيًا الغرباء Strangers ، وثالثًا الدخلاء Outsiders ، ونلاحظ أن الفئتين الأولى والثانية ليستا متعارضتين، ومن الصعب التفريق بينهما، أما مصطلح الدخلاء Outsiders فيعد مختلفًا إلى حد ما عنهما فقد اعتبر البعض أن النساء في المجتمع البيزنطي كن مثل الدخلاء على اعتبار أن المجتمع البيزنطى كان ذكوريًا بشكل كبير والنساء كن مستثنيات من

البيزنطية وهما: اتخاذ الأرثوذكسية مذهبا دينيا، والتحدث باللغة اليونانية، فإن هناك من أضاف شرطا ثالثا وهو الولاء الإمبراطوري [١] وهناك من أشار أيضًا بأن المطلب الوحيد لكي يصبح الفرد مواطنا بيزنطيا مندمجا تماما في المجتمع البيزنطي هو أن يكون فقط مسيحيا أرثوذكسيا وذلك بعد القرن السادس الميلادي [٢].

ولم يكن حق المواطنة البيزنطية حكرًا على مجموعة عرقية أو جغرافية بعينها ، فكل الرجال الأحرار كانوا مواطنين ، ولم تقتصر الحقوق السياسية على حماية البيزنطيين فقط ، والانضمام للنخبة البيزنطية كان متاحا أمام المجموعات العرقية الأخرى في الإمبراطورية، وكانت الحكومة في حاجة إلى مساعدة الأجانب في الجيش فضلا عن رغبتها في زيادة عدد السكان من القادمين الجدد، ونظرا إلى أنه لم يكن هناك مشاركة في السياسة العليا من الطبقة الوسطى ، فإنه لم يكن هناك معارضة من زيادة عدد مواطني هذه الطبقة[٣].

وثمة إشارة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين إلى انحدار مستوى التعليم لدى الدخلاء والأجانب، كما لو أن التعليم أصبح ميزة للنخبة البيزنطية دون غيرها، فعلى الرغم من معرفة بعض الأجانب للقراءة والكتابة اليونانية فإنهم كانوا أميين مقارنة بالبيزنطيين، وذلك استنادًا على ما ذكرته أنا كومنينا عن حنا إيتالوس الذي لم يتقن المصطلحات اليونانية مع أنه درس دراسة يونانية عميقة، وكان يلحن أحيانًا فى بعض مقاطعها، ولم يسلم كلامه من اللكنة

الاشتراك الكامل فى المجتمع البيزنطى ، وكانت المرأة أحيانًا تتغلب على هذا الوضع بأن تصبح مثلا إمبراطورة . انظر :

Smythe , " Insiders and Outsiders ", p.71 , 74 .

وإن صح تهميش النساء البيزنطيات بهذا الشكل واعتبارهن دخيلات على المجتمع البيزنطي ، فما بالنا بوضع النساء الأجنبيات فى بيزنطة ومن بينهن اليهوديات مثلا ؟!

(١) وسام عبد العزيز فرج ، " الدولة البيزنطية بين أوهام النظرية وحقيقة الهوية"، بحث منشور في كتاب : بيزنطة قراءة فى التاريخ السياسي والإداري ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية ، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م ، ص١٧؛

Page ,*Greek Identity* , p. 44.

ولمزيد من التفصيل عن وضعية المرأة وتهميشها فى المجتمع البيزنطي ، وحرمانها من الوظائف المدنية والدينية. انظر: عبد العزيز رمضان ، المرأة والمجتمع ، ص ٣-٦، ٢٧ .

ترى الباحثة أن الولاء هنا ليس في محله، لأننا نجد كثيرًا من الرعايا البيزنطيين أنفسهم ليس لهم ولاء للإمبراطور – لأسباب مختلفة– في حين نجد أن معظم المرتزقة وعلى رأسهم الفارانجيون قد أخلصوا في ولائهم للإمبراطور دون أن يتحدثوا اليونانية.

(2)Osswald ,B., *Citizenship in Medieval Ioannina Citizenship in Historical Perspective* , Pisa University , 2006,p.98.

(3)Osswald , *Citizenship in Medieval Ioannia* ,p.98.

والأخطاء الإنشائية، وبالرغم من أنه تتلمذ على يد ميخائيل بسيللوس فإن طبيعته الهمجية منعته من الاستيعاب الكامل لفنون البلاغة والدراسات الأدبية، كما أنه كان يلجأ للعنف إذا ما أعوزته الحجة [١] .

دور الآباطرة في إدماج الأجانب:

كان للإمبراطور البيزنطي دور كبير في تشجيع الأسرى العرب وغيرهم ممن ليسوا على المعتقد المسيحي على التحول للمسيحية، فحينما يتحولون يتم تحريرهم ، ويتزوجون من بيزنطيات ، ويعيشون ويندمجون داخل المجتمع البيزنطي، فطبقا لكاتب سيرة القديسة آثاناسيا الإيجينية St. Athanasia of Aegina ثمة مرسوم إمبراطوري ربما أصدره الإمبراطور ثيوفيل (٨٢٩ – ٨٤٢م/ ٢١٤–٢٢٧هـ) يقضي بإلزام النساء البيزنطيات غير المتزوجات – سواء الأرامل أو العذارى – بالزواج من الأجانب المقيمين في بيزنطة ، وبناء عليه فإن والدَيْ هذه القديسة قاداها للزواج من أحدهم[٢] . ولأن الحكومة البيزنطية كانت تفرض على أصحاب

---

(١) أنا كومنينا ، الألكسياد ، ص٢٢١ – ٢٢٤ ؛

Smythe, " Insiders and Outsiders ", p. 76 .

برز التعليم كحد فاصل بين الدخلاء وأصحاب البلاد، وظهر فى المناظرات المسيحية؛ لأنه العقيدة الأرثوذكسية ترى أن المعرفة والحكمة الداخلية التى أرسلت بوحى من الرب أعلى منزلة من المعرفة المكتسبة من الدراسة والمصادر التقليدية الأخرى، وهذا الاعتقاد هو الذى أعطى آباء الصحراء سلطة على أتباعهم . انظر :

Smythe , " Insiders and Outsiders ", p. 79 .

كانت هناك اعتبارات في تعامل البيزنطيين مع غيرهم ظهرت جليا في أقوال وسلوكيات البيزنطيين – سواء أكانوا مؤرخين أم موظفين فى البلاط الإمبراطورى، أم موظفين إداريين، أم حتى رجال دين – من ذلك أنهم كانوا يعدون أنفسهم أسيادًا للشعوب الأخرى التي يعتبرونهم برابرة، فهم الرومان المتميزون بين الناس بحضارتهم، والذين لا يزالون ينعمون بحكم إمبراطوري، وأنهم أصحاب الحضارة، بخلاف البرابرة الذين لا يمتلكون أى مقومات للحضارة أو أية مؤسسات مثل القسطنطينية التى يعتبرها البيزنطيون أعظم مدينة على وجه الأرض، هذا فضلا عن كونهم مسيحيين أصحاب الدين القويم –كما يرون– وغيرهم وثنيون وكفار ، كما أنهم يعيشون داخل الإمبراطورية وغيرهم من البرابرة يعيشون خارجها. انظر:. Page ,*Greek Identity* , p. 46

(2)*Life Of St. Athanasia Of Aegina* , Trans . Sherry ,F., *Holy Women of Byzantium:Ten Saints' Lives in English Translation*, Washington, 1996, , p. 139, 143 ; Rotman , *Byzantine Slavery* , p . 41.

كان للكنيسة الأرثوذكسية موقف عنيف تجاه الإسلام ظهر عند تعميد المسلمين ، فلم تكن تقبلهم بشكل قانوني إلا من خلال طقس يحتوي على سلسلة من اللعنات عددها اثنتان وعشرون ضد الإسلام ، ففيها سب للنبي محمد ﷺ وجميع أقاربه كل باسمه، وجميع الخلفاء حتى يزيد (٦٨٠ – ٦٨٣م)، أما اللعنات الأخرى فوجهت ضد القرآن الكريم، وظلوا يستخدمون هذا الطقس حتى القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري، وفي عام ١١٧٨م /٥٧٤هـ أمر مانويل كومنين بتغيير صيغة هذا الطقس إلا أن هذه الصيغة الجديدة وجدت معارضة كبيرة من رجال الدين الأرثوذكسي، فسحب مانويل مرسومه. انظر:

الأملاك الزراعية عشر غلالهم من أجل الجيوش، وتفرض على اليهود والمجوس دينارا عن كل رجل فى السنة، ويأخذون ضريبة الموقد درهمًا في السنة الواحدة عن كل بيت يستخدم الوقود [١] فإن قبول الآباء لهذا الزواج لم يكن حبا في الأجانب ، وإنما رغبة في الامتيازات التي تقدمها لهم السلطات البيزنطية، وقد وضحها لنا قنسطنطين السابع بصورة تفصيلية في كتابه المراسم الإمبراطورية حيث أمر البروتونوتاريوس في كل ثيم Protonotary of the Theme أن يسلم كل واحد من الأسرى السراقنة (المسلمين) المعمدين في الثيم ثلاث نوميسمات ، وست نوميسمات من أجل زوج من الثيران، وأن يتسلم أيضًا كل واحد أربعة وخمسين Modioi من البذور ، وحينما يتزوج هؤلاء الأسرى المعمدون من أسرة بيزنطية – سواء أكانت عسكرية أم مدنية – فإن هذه الأسرة تُعفى من دفع ضريبة الأرض وضريبة الموقد لمدة ثلاث سنوات، فضلا عن أن هؤلاء الأسرى أنفسهم كانوا يعفون من ضريبة الأرض وضريبة الموقد لمدة ثلاث سنوات أيضًا، وكان الفارس منهم يُمنح ملكية ثابتة وأراض تساوي خمسة أرطال أو على الأقل أربعة أرطال ، كما كان جنود البحرية في الأسطول البيزنطي يحوزون ملكية ثابتة وأراض تساوي ثلاثة أرطال ، والقانون العسكري في ذلك الوقت كان يرى أنه لا يجوز للجنود في الجيش أن ينشغلوا عن الجندية بتملك الأراضي ورعايتها حتى إن زاد عددهم، وإذا التحق الفقراء بالجيش فإنهم

Choniates, *Annals*, pp.121-122 ; Meyendorff ,J.," Byzantine Views of Islam" ,*Dumbarton Oaks papers* ,Vol.18 ,1964 , pp. 123 – 125

(١) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان ، ص١٤٧ ؛

Skylitzes, *A Synopsis of Byzantine History* , p. 34.

كانت نوعيات الوقود رديئة في أغلب الأحيان ببيزنطة ، ومن ثم كانت درجة احتراقه ضعيفة مثله، ولذلك كانت تُستهلك كميات كبيرة منه ، وفي الوقت ذاته لم يكن رخيصا بل كان غاليًا وشحيحًا، وكان الفحم أغلى أنواع الوقود ثمنا ولا يستطيع الكثيرون شراءه، ولذلك اضطروا إلى استخدام روث الحيوانات بعد تجفيفه ، وبالرغم من وجود غابات في شمال بلاد الشام وآسيا الصغرى ودول البلقان الجنوبية فإن عائق النقل الجيد لتلك الأخشاب، وحفظها وحمايتها من الاشتعال والتسبب في الحرائق حال دون الحصول عليها ، وفي الشتاء كان الوضع يزداد سوءا حينما يقل الوقود أو ينعدم بالنسبة للفقراء ، وقد لعب الوقود دورا هاما في مصير الجيش البيزنطي في ساحات الحروب، بل إن ندرته كانت لها عظيم الأثر في القرارات الحاسمة التي يتخذها القادة في أمور الحرب . انظر:

Choniates , *Annals* , p . 17; Koder , " Stew and Salted Meat" , p. 62 , 64 .

السنة البيزنطية التي تعد سنة من دورة الضريبة تبدأ من الأول من سبتمبر . انظر:

Leo the Deacon ,*Byzantine Military Expansion* , p. 19

يمنحون ملكية من أجل أن يكون لديهم مصدر كاف من الرزق يستطيعون به أداء الخدمة العسكرية[١].

وكانت هناك محاولات كثيرة لإغراء المسلمين للدخول في الدين المسيحي ، فكانوا يغرونهم بطيب المطعم والملبس ، والمسكن، ولم يرضخ لذلك سوى بعض أصحاب النفوس الضعيفة الذين كانوا على استعداد لبيع دينهم مقابل هذه الامتيازات[٢] وعلى الرغم من ثبات الكثير من المسلمين أمام هذه الإغراءات وتمسكهم بدينهم الإسلامي فإن هناك شرذمة لم تتحمل الضغط المستمر عليها حتى وقعت في شباك التنصير[٣].وأحيانا كان الإمبراطور ينصب المتنصرين قادة على الجيوش البيزنطية ، ويقربهم إليه ، وينعم عليهم ، ويخلع عليهم الكثير من الخلع ويقدمهم على جميع من سواهم[٤].

ومحاولة منا في التعرف على كيفية اندماج الأجانب في البلاط الإمبراطوري والمجتمع البيزنطي سنتتبع أهم الشخصيات ذات الأصول الأجنبية التي اندمجت إلى حد كبير في هذا المجتمع ابتداءً من عهد ليو السادس، حيث ضم بلاطه شخصيات أجنبية الأصل استطاعت بنفوذها التأثير على مجريات الأمور في البلاط البيزنطي ، بل وكان لها اليد الطولي في إقحام بيزنطة في حروب مع غيرها ، وقد أشرنا آنفا إلى الحرب التي اندلعت بين البيزنطيين والبلغار، بسبب تلاعب أهم مستشارى الإمبراطور ليو فى السنين الأولى من حكمه وهو ستليانوس زاوتس الأرمنى الأصل، بعدما استغل نفوذه فى البلاط لتحقيق أرباح تجارية، من خلال محاولة نقل سوق التجارة مع البلغار من القسطنطينية إلى مدينة سالونيك، وزيادة الرسوم المفروضة على التجار البلغار ، وكان ستليانوس قد حمل ألقابًا مختلفة منها ماجستير ، والماجستير الأول Protomagistros ، ولغثيث تو درومو، وازداد نفوذه في البلاط بعدما تزوج الإمبراطور ليو

---

(1)Constantine VII,*The Book of Ceremonies* , Vol.2, pp.594-596 ;Abou-Seada, *Byzantium and Islam*, p. 205 ; Muhammed ,T.M " The Conversion from Islam to Christianity as viewed by the Author of Digenes Akrites, " *Collectanea Christiana Orientalia*, 2010, p. 131 .

- Medimnos كانت وحدة لقياس الحبوب. انظر:

Leo the Deacon ,*Byzantine Military Expansion* , p. 199, n. (90) ; Markle ,M.M., "Jury Pay and Assembly Pay at Athens" , in: *Athenian Democracy* ,ed. Rhodes , P.J., Oxford University , 2004, p.126.

(٢) علي بن موسى المقانبي وابن بكر المازني وصالح الجعفري ويزيد بن عمار المزني وعبد الله بن وهب اليماني وعوف بن فهد الفزاري وسعد بن مالك التميمي وأحمد الشمشاطي وصابر المرعش ، ونجد ابن هشام العامري ، سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب ، المكتبة الشعبية ، بيروت ١٩٨٠م ، المجلد ٧ ، ص٨٩٩ .

(٣) سيرة الأميرة ذات الهمة، المجلد ٧ ، ص ٣٠٨ ، ٥٧٩ .

(٤) سيرة الأميرة ذات الهمة، المجلد ٧ ، ص ٤٠٩ ، ٨٩٩ .

السادس من ابنته زوى زاوتزس Zoe Zautzes عام ٨٩٨م/٢٨٥هـ ، حيث أنعم عليه الإمبراطور بلقب Basileopator (أى والد الإمبراطور) [١] .

والواقع أن الأرمن توافدوا جماعات على مدينة القسطنطينية التي كان لها جاذبية لا يمكن أن تقاوم ، فهى منبع تكوين الثروات ، وبلاطها مصدر العزة والكرامة لكل لاجئ من الأمراء والقادة ، ولم يحدث قط أن هاجر أى جنس بهذا النطاق الواسع مثل الأرمن إذ لم يبق بأرمينيا إلا من لديه نزعة قومية قوية ، وأحيانًا كان الأباطرة ينقلون الأرمن بالقوة داخل حدود الإمبراطورية ، لذلك فلا غرابة من أن نجد هذا العنصر يتوغل في جميع الدوائر البيزنطية ، وتكونت منهم طبقة النبلاء في اليونان، ومقدونيا، ودول البلقان[٢]. ومهنتهم بالدرجة الأولى كانت الخدمة العسكرية، إذ أمدوا الإمبراطورية بأبرع الجند وأكفأ الإداريين والساسة طوال الفترة الممتدة من القرن السابع وحتى القرن الحادي عشر الميلادي، وتواجد النبلاء الأرمن أيضًا في القسطنطينية، ومما لا شك فيه أن بعض العائلات النبيلة والعظيمة ذات الأصول الأرمينية امتلكت قصورًا فى القسطنطينية مثل بيت ألكسيوس موسلى Alexios Mosele ، كذلك كانت هناك مفاوضات كثيرة بين أمراء آل طارون Taronite وبين ليو السادس ومن بعده رومانوس الأول ليكابينوس للحفاظ على بيت باربرا Barbaras الخاص بالأرمن فى العاصمة وغيره من العقارات المرتبطة به، ولم تتغير الأوضاع الاجتماعية للطبقة الأرستقراطية الأرمينية بعد انتقالها إلى بيزنطة لكونهم فى الأساس من الطبقة الاجتماعية العليا، وعندما دخلوا المجتمع

---

(1) Grammaticus , L., *Chronographia*, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, 1842 , p.226 ; Monachi,G., *Vitae Recentionrum Imperatorum* , Patrologiea Greca,V.II , p. 913; Ann , H., *The Medieval Warhorse from Byzantium to the Crusades,* Conshohocken ,1996 ,p.49 ; Treadgold ,*A History of the Byzantine State*, p.463 ; Rotman , Y., *Byzantine Slavery and the Mediterranean World* , Harvard University , 2009 , p.79;

وسام عبد العزيز فرج ، بيزنطة قراءة فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م ، ص٢٠٤ – ٢٠٥ ؛ هانئ البشير، " دور الأرمن في الجيش" ، ص ٨٠ .

(2) Niketas , *The Life of St – Philaretos*, p.46 ; Garsoian , " The Proplem of Armenian Integration" , pp. 55 – 56 , 58 ;

عاطف مرقص ، الأرمن ، ص ١٤٦ ؛ هانئ البشير، " دور الأرمن في الجيش" ، ص٧٣ .

- كانت الحكومة البيزنطية تتبع دائمًا سياسة تهجير العناصر الأجنبية من خارج حدودها إلى داخل آسيا الصغرى، وتوطينها في المناطق التي هجرها سكانها تحت وطأة الغزو الخارجي، ولتعويض النقص في الأيدي العاملة التي تقوم بفلاحة الأرض. انظر: وسام فرج ، " الدولة البيزنطية بين أوهام النظرية وحقيقة الهوية" ، ص١٦.

البيزنطى واندمجوا فيه فإن حياتهم كانت استمرارًا لما كانت عليه وليست عليهم بجديدة، فقد كانوا ملاكًا لمساحات شاسعة من الأراضي فى الشرق قبل ظهورهم فى بيزنطة(١) .

ومن بين العائلات التى شقت طريقها إلى المجتمع الإمبراطورى فى القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى عائلات أيبيرية أرمينية، وهؤلاء ربما يقصد بهم الرعايا الأيبيريون الذين وفدوا إلى بيزنطة إثر الغزوات الشرقية لباسيل الثانى أو أنهم كانوا من الأرمن الخلقدونيين الذين تحولوا للكنيسة الإمبراطورية (الأرثوذكسية) لتمييز أصلهم، وربما تكون هذه الفئة نتيجة التحالف والاندماج بين عائلات أرمينية وأيبيرية رغم أن بعض المؤرخين يعدونهم من الأرمن، ويصعب تحديد أصل هؤلاء الأرمن الأيبيريين وسط هذا المجتمع المعقد المتعدد الثقافات واللغات، خاصة أن هؤلاء الأرمن الأيبيريين كانوا على مذهب واحد وهو الخلقدونى(٢) .

ومن الصعب هنا أن نقدم حصرًا للشخصيات الأرمينية التي اندمجت اندماجًا تامًا في المجتمع البيزنطي ؛ إذ أننا أمام عنصر أرمني حاول البيزنطيون إدماجه واستيعابه بشتى الوسائل، لكنه تقلب في ولائه لهم لحفظ الذات والإبقاء على الهوية ، وهناك عائلات في بيزنطة ذات أصول أرمينية ذاعت شهرتها كثيرًا في الحياة السياسية والعسكرية في البلاد مثل آل سكليروس Skleroi التي ذاع صيتها في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، ومنها –على الأرجح– ليو الخامس الأرمني الذي اعتلى العرش الإمبراطوري (٨١٣–٨٢٠م/١٩٧–٢٠٤هـ) ، وترأس عائلة ذات طابع أرمني ، وأيضًا ميخائيل الثاني (٨٢٠–٨٢٩م/٢٠٤–٢١٤هـ) –الذي أطاح بليو الخامس– أسس الأسرة العمورية التي تختلط بالدماء الأرمينية ،فضلا عن أن ثيودورا زوجة ثيوفيل –ابن ميخائيل الثاني– ترجع إلى أصل أرمني على الأقل من جانب والدها، وبذلك يكون ابنها الإمبراطور ميخائيل السادس أرمني في جانب من أصله، وهناك أيضًا شبه إجماع من المؤرخين على تسمية الفترة من النصف الثاني للقرن التاسع وحتى النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي بعصر التوسع والفتح ، وهى الفترة التي ظهر الأرمن خلالها بروح جديدة في عهد الأسرة المقدونية التي يعزوها البعض إلى أصول أرمينية ، فمؤسسها باسل الأول الذي كانت لغته الأولى هى الأرمينية ، وكان أبوه أرمينيًا ، فضلا عن أن كلا الإمبراطورين رومانوس

---

(1)Skylitzes , *A Synopsis of Byzantine History* , p.66-67 ; Garsoian , " The Proplem of Armenian Integration" , p. 60 , 64 , 66;

وسام فرج ، " الدولة البيزنطية بين أوهام النظرية وحقيقة الهوية" ، ص١٧.

(2)Garsoian , " The Proplem of Armenian Integration" , pp. 88 – 89 ,91 – 92.

ليكابينوس، وحنا تزيمسكس كانا من أصل أرمني، وجلى للعيان كيف انصهرت العائلات الإمبراطورية ذات الأصول الأرمينية داخل المجتمع البيزنطي(١) .

وبالرغم من أن البيزنطيين كانوا يعدون الأرمن هراطقة وحرمت الكنيسة الزواج منهم وكررت أوامرها بأن " أية امرأة مسيحية تزوجت من أرمنى أو أى رجل من الهراطقة الآخرين – إما بسبب جهلها أو أنها كانت تعرف آنفًا– ورفض الزوج أن يتحد مع الكنيسة الأرثوذكسية فعلى الزوجة أن تنفصل عنه، وإذا استمرت معه مع علمها بأمره وجبت معاقبتها بشدة " – فإن أزواجا من أصول أرمينية تجاوزت هذا الانتقاد وخالفوا الأوامر الكنسية، وتم التغاضى عن هذا الأمر اعتبارًا لمراكزهم الاجتماعية البارزة ، وفي الوقت ذاته نجد عائلات أرمينية غيرت أسماءها إلى البيزنطية (٢) .

ومع هذا التعارض المذهبي بين البيزنطيين والأرمن فإن معاملة الأباطرة للقادة والأمراء الأرمن اللاجئين كانت طيبة، دون أخذ مذهبهم في الاعتبار ، فمثلا عندما جاء سيناخريم Senacherim –أحد الأمراء الأرمن من عائلة أردزروني Artsruni وكان آخر ملك لمقاطعة فاسبوراكان Vaspurakan (كانت تدعى أرض الأمراء وتقع غرب أرمينيا)– خاضعا للإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني ، وأراد أن يسلم أرضه له ويكون تابعا لجلالته رحب به باسيل وشرفه وقلده منصب إستراتيجوس لقبادوقيا في الفترة ١٠٢١ – ١٠٢٢م /٤١٢–٤١٣هـ(٣) فى حين وقفت الخلافات الدينية حاجزًا أمام تقبل الأباطرة والمجتمع البيزنطي لرجال الدين الأرمن، فعندما استدعى رومانوس الثالث (١٠٢٨–١٠٣٤م/٤١٩–٤٢٥هـ) بطريرك ملطية (الطوباى) إلى القسطنطينية ومعه ستة وعشرون رجل دين وذلك حوالى عام١٠١٨م/ ٤٠٩هـ أوعز مطران ملطية قيافا الثانى الذى كان موجودًا بالقسطنطينية إلى من ينادى فى الشوارع بأن هؤلاء الأرمن لا يعترفون بأن العذراء هى والدة الله، فانهال عليهم البصق وألقيت النفايات على رؤوسهم، وعندما قابلهم رجال الدين فى كنيسة أيا صوفيا لم يسمحوا لبطريرك ملطية بالجلوس مثلهم، بل كان عليه هو ومن معه أن يظلوا وقوفا عدة ساعات لمناقشتهم رغم وجود ضعفاء بينهم ، وعندما

---

(١) هانئ البشير، " دور الأرمن في الجيش" ، ص ٧٧ ، ٧٩، ٨٢–٨٤

Theophanes , *Chronicle* , p.659 ;

(2) Skylitzes , *A Synopsis of Byzantine History* , p.52,55n.(16) ; Garsoian , " The Proplem of Armenian Integration" , p. 95 , 99.

ولمزيد من التفصيل عن زواج الأرمن بالبيزنطيين . انظر:

Niketas , *The Life of St – Philaretos* , p.25; Garsoian , "The Proplem of Armenian Integration" , p. 95;

هانئ البشير، " دور الأرمن في الجيش" ، ص ٧٣–٨٦ .

(3) Kekaumenos , *Logos Nouthetetikos*,p.5.

أمرهم رجال الدين الخلقدونيون أن يقبلوا عقيدة الإمبراطور أجابهم بطريرك ملطية "نحن طوع أمر الإمبراطور القديس فى كل شيء، أما أن نغير عقيدتنا فهذا مستحيل " وعندما أخفقوا فى إخضاعهم بعد مناقشات كثيرة أودع البطريرك ومن معه فى أحد الأديرة(١) ثم نقلوا إلى سجن النوميرا، وعُمد بعضهم كرهًا بالماء ذاته الذى عمد به البيزنطيون بعض المسلمين، ورُجم أحدهم أمام البلاط وقُتل آخر، فى حين ظل بعضهم فى السجن، وبعد موت الإمبراطور صدر قرار العفو العام عن السجناء فخرج بعضهم، أما البطريرك الطوباوى فقد مات بعد سبع سنوات من نفيه فى بلاد اليونان فى أحد الأديرة على جبل غايوس فى فبراير عام ١٠٢٧م/ ٤١٨هـ (٢).

وإذا عدنا ثانية إلى بلاط الإمبراطور ليو السادس سنجد شخصية أخرى ذات أصل أجنبي استطاعت أن تؤثر بصورة لافتة في مجرى الأمور بالبلاط الإمبراطوري، وقد أشرنا من قبل إلى حديث المؤرخ والإمبراطور قنسطنطين السابع عن أهم شخصية في بلاط أبيه وهى شخصية ساموناس الخصى العربي الذي تدرج في المناصب حتى وصل إلى منصب (رئيس الحجاب) بل أصبح أقرب المقربين إلى الإمبراطور ليو السادس، لدرجة أن أصحاب الحاجات كانوا يقصدونه ليشفع لهم لدى الإمبراطور؛ لقضاء حاجاتهم(٣) . وعلى ما يبدو أن ساموناس أسر في طفولته، ثم نقل إلى البلاط الإمبراطوري ، ويذكر أحد المؤرخين خلال حديثه عن ساموناس أن البيزنطيين كانوا يعدون العرب أعداء، ويرون دينهم بغيضًا ، لكن إذا تنصر العربي وخدم الإمبراطورية المسيحية بإخلاص فلم يكن هناك حدود متوقعة لارتقائه في المكانة،

---

(١) السريانى ، التاريخ ، جـ٣ ، ص ١٠٧ – ١١٠ .

(٢) السريانى ، التاريخ ، جـ٣ ، ص١٠٠ – ١١٢ ، ١١٤ .

يبدو التعصب الدينى البيزنطى جليًا فى هذه المعاملة التى عومل بها رجال الدين المسيحيون الأجانب فى القسطنطينية، فلقد لاقى هؤلاء الرجال من ضروب الإهانة والتعذيب ما يجعلنا نشفق على غيرهم من غير المسيحيين إذا وقعوا أسرى في أيدي البيزنطيين .

(٣) قنسطنطين، إدارة الإمبراطورية ، ص ١٩٥ – ١٩٦.

ظهر منصب كبير الحجاب Praepositus Sacri Cubiculi في عهد الإمبراطور قنسطنطين الأول ، لكن اختصاصاته كانت موجودة قبل عهد دقلديانوس وكان يتولاه حاجب يحمل لقب كوبيكولو Cubiculo وابتداء من عهد قنسطنطين ارتفع شأن كبير الحجاب حتى أصبح من أرفع المناصب في القصر رغم أن صاحبه كان من الخصيان. وفي البداية كانت اختصاصات هذه الوظيفة إدارة أقسام الخدمة المختلفة والإشراف على العدد الكبير من الحجاب العاملين في القصر فضلا عن خدمة الإمبراطور شخصيا، وتمتع شاغل هذه الوظيفة بنفوذ كبير وصلاحيات واسعة ليس بسبب أهمية المسئوليات التي تولاها ولكن لملازمته الإمبراطور وتملقه ومداهنته ، لدرجة أن كبار موظفي الحكومة كانوا يخشونه لقربه من أذن الإمبراطور وتأثيره الشخصي عليه ، وإن كانوا يكنون الكراهية له ؛ لأنه نافسهم وتدخل في شئونهم. انظر : وسام فرج ، " الألقاب والمناصب " ، ص ٤٢، ٤٣ .

فنظريا يمكن أن يصبح إمبراطورا [١]. ورغم أن ساموناس خدم الإمبراطور ليو السادس بإخلاص وأصبح أحد أعلى الموظفين مكانة في البلاط فإن قلبه كان متعلقًا بالعرب المسلمين من خلال محاولتين قام بهما إحداهما حينما حاول الإمبراطور ليو السادس التصالح مع الثائر أندرونيقوس دوقاس Andronicus Ducas الذي كان متواجدًا عند المسلمين فأرسل له رسالة أخفاها في شمعة وأرسلها مع أحد الأسرى المسلمين ببيزنطة، فأسرع ساموناس بتحذير الأسير المسلم بأنه يحمل" خراب بلاده " ونصحه بأن يسلم الرسالة السرية الموجودة معه إلى وزير المسلمين بدلا من أن يسلمها إلى أندرونيقوس ، وإن كان هذا الموقف يُفسر في ضوء العداوة الشخصية التي كانت بين ساموناس وعائلة دوقاس مثلما يذكر المؤرخ البيزنطي سكيلتزيس[٢].

والمحاولة الثانية هي محاولة هروبه من بيزنطة إلى العالم الإسلامي في ربيع عام ٩٠٤م/٢٩١هـ، وتم القبض عليه ، لكن إخلاصه السابق للإمبراطور ليو جعله يخفف من عقابه، فأمر فقط بوضعه تحت الإقامة الجبرية لمدة أربعة أشهر في أحد أفخم قصور العاصمة ، ثم أعاده ثانية إلى خدمته وحظوته ، وجعله معلما لابنه الصغير، ولم يطبق عليه عقاب الخيانة

---

(1)Ramadan , " Treatment of Arab Prisoners" , p.186 .

قيل إن نظرة المجتمع البيزنطي للمسلمين الذين لعبوا دورا في الإمبراطورية البيزنطية كانت سيئة جدًا. انظر:
Meyendorff , " Byzantine Views of Islam ", p. 130 .

(2) Skylitzes , *A Synopsis of Byzantine History* , p. 179 , 182 ; Abou-Seada, *Byzantium and Islam* ,p. 214 ; Ringrose , *The Perfect Servant* , p.187.

ينتمي أندرونيقوس إلى عائلة دوقاس التي كانت إحدى العائلات البارزة لفترة طويلة في بيزنطة ، ولجأ إلى المسلمين بعدما تورط في الحرب ضد الإمبراطور ليو السادس، ففك أسر من بيده من المسلمين ، وكانوا نحو مائتي شخص ، وأمدهم بالسلاح لمحاربة البيزنطيين ثم فر ومن معه من المسلمين إلى طرسوس. انظر: Psellus ,Chronographia, p.294, n.(226)، ؛ الطبري (محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر، ت: ٣١٠هـ) ، تاريخ الرسل والملوك وصلة تاريخ الطبري، دار التراث، بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٨٧هـ، جـ١٠ ، ص١٣٤ – ١٣٥ .

كان للأسرى المسلمين المستعبدين في بيزنطة وضع خاص، ففي حين نجد أنه باستطاعة ساموناس وغيره من الأسرى المستعبدين الوصول لأعلى المناصب إثر تنصرهم نجد أن هذه المناصب كانت محرمة على غيرهم من العبيد حتى إن كانوا مسيحيين لأن القانون البيزنطي يأمر ألا ترقى منزلة العبد المتحرر أبدا إلى مكانة غيره من الأرستقراطيين مهما بلغت ثروته، وأمر أعضاء مجلس الشيوخ(السناتو) ألا يتزوجوا من نساء الطبقة الدنيا مثل الإماء أو بناتهن ، أو النساء المتحررات أو بناتهن، أو عاملات الحياكة ، أو صاحبات الحوانيت ، أو بناتهن ، أو بنات البغاء، أو بنات أصحاب السيرك. انظر:
Leo III & Constantine V ,*The Ecloga* ,ch.xv111,p.132.

الذي يستحقه [١] وهناك من يعترض على محاولة ساموناس الهروب مؤكدا أنه لم يهرب إذ لم يوجد مبرر لهروبه إلى بلاد المسلمين ، فإحسان الإمبراطور إليه كان كبيرا ، خاصة بعدما أصبح وزيره المفضل لمدة ثماني سنوات، فضلا عن أن ساموناس لم يتهم بالخيانة العظمى وعقوبتها إلقاء الخائن للوحوش في البرية تفترسه ، بل سجن فقط في أحد أفضل القصور، وبعيدا عن كون ساموناس أراد الهروب إلى بلاد المسلمين أم لا فإنه كان يمتلك ديرًا خاصًا به وهو دير سبيرا Spira بجانب القسطنطينية[٢].

وإن كان مصير ساموناس يشبه إلى حد كبير مصير بعض أقرانه من الصبية والشباب الذين تم أسرهم ونقلهم إلى البلاط الإمبراطوري- فإن هذا المصير اختلف إلى حد ما عن مصير غيرهم من الشخصيات التي قررت الاندماج طواعية في هذا المجتمع ،وأبرز شخصية واجهتنا من الوجهاء العرب المتنصرين هو أمير سوريا الذي انفرد بصفحات من ملحمة ديجينس أكريتيس الأدبية ، لكونه نبيل المولد، كثير المال، ضحى بأهله، ودينه، ومكانته، وبكل شيء من أجل امرأة بيزنطية كان قد أسرها فى أحد غزواته للقسطنطينية، ويبدو أن هذه الملحمة من القصص الشعبية المدسوسة في ثنايا التاريخ والتي كان جُل هدفها التفاخر بالهوية البيزنطية، وبتضحيات هذا الأمير العظيمة من أجل هذه الفتاة بيزنطية المولد [٣] . وإذا افترضنا أن هذه

---

(1)Skylitzes , *A Synopsis of Byzantine History* , p. 179; Russell , *The Roman Impire* , vol. 2 , p. 190 ; Jenkins, " The Flight of Samonas " , pp.217 – 218 , 221; Abou-Seada *Byzantium and Islam* ,p. 214. .

(2)Jenkins, " The Flight of Samonas " , pp.217 – 218 ; Ramsay , W.M., *The Historical Geography of Asia Minor*, London , 1890, p. 218 ; Tougher , Sh.,*The Eunuch in Byzantine History and Society*, London, 2008, p.81 .

(٣) تذكر الملحمة أن هذا الأمير كان وسيمًا جميلا شجاعًا، وكان متزوجًا ولديه أطفال صغار، وفى إحدى غزواته في بيزنطة وصل إلى بلدة Herakles بعدما خرب العديد من المدن وأسر بعض السكان من بينهم فتاة أُغرم بها حينما رآها فتحفظ عليها في خيمته، ثم جاء أخوان لها يبحثان عنها فأخبرهما على الفور بنفسه وأنه قد عُين حاكمًا على سوريا لشجاعته وبسالته العظيمة، مؤكدًا لهما أنه لم يضعف طيلة حياته أمام وحش، ولم يخش شيئا من قبل إلا أنه ضعف أمام هذه الفتاة، وأكد لهما أنه إن قبلاه صهرًا لهما سيتخلى عن كل شيء ويهاجر معهم إلى الأراضى البيزنطية. انظر:

Akritis , D., The Grottaferrata and Escorial Versions , trans . Jeffrey , E., Cambridge University , 1998,pp.5-23.

وبعدما أعطاه الأخوان القسم أن يقبلاه صهرًا لهما أطلق على الفور سراح الأسرى البيزنطيين، وأخذ أطفاله وذهب معهم إلى ديارهم، وعندما كتب هذان الأخوان إلى والدتهما يخبرونها برغبة هذا الأمير الوسيم أن يصبح صهرًا لهم مقابل أن يتخلى عن دينه، وأهله، وبلاده، قلقت الأم وتساءلت هل سيضاهي هذا الزوج ابنتها فى الجمال، ويضاهي البيزنطيين في نبل المولد ؟! هنا يعلق مترجم هذا الكتاب على أن هذا القلق الأرستقراطى حول

الملحمة من قبيل القصص الشعبي فإنها تعد انعكاسًا للضمير الشعبي البيزنطي تجاه الأجانب ، وإن كنا لا نعدم لهذه الرواية نظيرًا في الواقع نقلته لنا بعض المصادر التاريخية العربية لشخصيات عربية وقعت في عشق بيزنطيات ، ولأجلهن تخلوا عن دينهم وأهلهم وبلادهم وعن رسالتهم المقدسة في الجهاد في سبيل الله، مع الأخذ في الاعتبار أن هذه الشخصيات التي تحدثت عنها المصادر العربية لم ترق إلى مكانة الأمير السوري الذي تتغنى بموقفه هذه الملحمة ، فيشير ابن الجوزي في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي إلى جندي عربي تميز بخلقه وتقواه، خرج هذا الجندي مجاهدًا في سرية إلى الأراضي البيزنطية فنزل بقرب حصن فرأى امرأة من النصارى تنظر من وراء الحصن ، فعشقها، وقال لها كيف السبيل إليك فطلبت منه أن يتنصر لتكون من نصيبه ففعل ، ولما عاد المسلمون في سرية أخرى مروا به وهو ينظر من فوق الحصن مع النصارى فسألوه ما فعل علمك وما فعلت صلواتك وصيامك فأجابهم أنه نسى القرآن كله إلا قوله تعالى" ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين " (١).

نبل المولد وجمال الخلقة يعكس لنا التعصب البيزنطى الكبير تجاه الأجانب. على أية حال عندما اقترب الأخوة ومعهم الأمير من بيت أبيهم خرجت حاشية كبيرة لاستقبالهم، وابتهج الجميع وأقاموا حفل الزفاف وحفل التعميد لهذا الأمير الذى كان مبتهجًا لفوزه بهذه البيزنطية. انظر: Akritis , *The Grottaferrata and Escorial Versions*, pp . 25 – 27.

وتسترسل الملحمة في سرد أحداث حياة هذا الأمير داخل المجتمع البيزنطي حيث أشارت إلى خوفه وقلقه من أهل زوجته لكونه أجنبيا بينهم بعدما قرر الذهاب لرؤية أمه ، إذ بمجرد أن علم أخوتها بالأمر وبَّخوه وثاروا ضده، وأخبروه أنه بذلك خارج على القانون؛ لذا فهو عدو لهم، وطلبوا منه أن يترك أختهم ويرحل، لكن الزوجة أقنعتهم بأن يذهب وفى الطريق واجه هذا الأمير الكثير من الصعاب والأخطار مع أطفاله، وبعد وصوله إلى أمه حاولت إثناءه عن العودة ثانية إلى هذه الزوجة لكنه أبى، والأعجب من ذلك أنه أقنع أمه أن تذهب معه إلى بيزنطة وتتنصر لتعيش معه، ثم بدل ملابسه العربية وارتدى الملابس البيزنطية استعدادًا للرحيل وهى عبارة عن معطف رائع مطرز بالذهب مصنوع من الحرير الأرجوانى، به طرف ثلاثى أبيض ومزخرف، واصطحب معه أمه وثلاثة من أولاده، وإثر وصولهم إلى بيزنطة ابتهج البيزنطيون وعمدوا أمه . انظر: Akritis, The Grottaferrata and Escorial Versions , pp . 29 – 61.

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٥ ، ص١٢٠- ١٢١ .

- اضطر بعض العرب إلى البقاء فى القسطنطينية بعد تحولهم إلى النصرانية حيث ارتبطوا بهذه البلاد بروابط لا يمكن كسرها أو الهروب منها ، وتوجد حالات أخرى لبعض المتنصرين الذين ظهروا منذ بداية الحرب بين الجانبين الإسلامي والبيزنطي خلال الفتوحات الإسلامية ففي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز أُرسل أحد السفراء من أجل التفاوض على الفداء بين الدولتين ، وبينما كان هذا السفير يتجول فى القسطنطينية إذ سمع صوتًا يغنى بشعر عربى حزين، فسأله السفير: من أنت؟ فأجابه: أنا الوابصى الذى أسرت فعذبت ففزعت ودخلت فى دينهم، فأخبره السفير بأنه قد بُعث فى أمر الفداء كى يفرحه، إلا أن هذا الرجل كان قد تعمق فى الكفر، وأصبح من المستحيل عودته إلى الإسلام أو إلى ديار المسلمين؛ لأن البيزنطيين قد زوجوه من امرأة مسيحية وأنجب منها طفلين فلم

ويروي أحد الأسرى العرب الذين أسروا في القسطنطينية أنه اضطر خوفا – مع بعض المسلمين – لإظهار النصرانية بعد طول شقاء وفقدان الأمل في التحرر، وعقب تنصره أجزل له الإمبراطور العطاء، وأمر خدمه أن يحضروا له ولمن تنصر معه زوجات بيزنطيات موسرات ؛ لتتحسن بهن أحوالهم، فأحضروا له زوجة تمتلك ضيعة وماشية وأموالا كثيرة ، فتزوجها وعاش معها مسرورا ، وبعد فترة أرسله الإمبراطور مع غيره من الجنود لحراسة بعض الحقول، فأقام أربعين يوما ثم عاد ، وفي طريقه وصلت إليه الأخبار بأن زوجته قد نكحها غيره أثناء غيابه ، فقرر عدم العودة بعدما تثبت من حقيقة الأمر ، فذهبت إليه أم زوجته مع جماعة من النساء في موكب عظيم، وطلبت منه العودة إلى بيته وزوجته، وحينما اعترض على كون زوجته قد تزوجت غيره أثناء غيابه أكدت له أنها لم تتزوج ، وأن ذلك الرجل هو صديقها نزل عندها، وعندما علم بقدومك حمل فراشه وانصرف ، وأخبرته أن هذا الأمر ليس بعار في عرفهم ، وبشرته أن كل ما تركه لم ينقص منه شيء، وقد كفاه صديق زوجته مؤونتها في غيابه، فقام هذا المتنصر وذهب إلى منزله وأقام مع زوجته بعدما زالت عنه الغيرة ، مشيرًا في روايته أن من يدخل المدن البيزنطية ويتزوج من بيزنطية فلابد أن تزول عنه غيرته ويصبح بلا حَمِيّة[1].

وهذه الرواية تجلى لنا بعض الغموض عن حياة الأسرى المتنصرين في بيزنطة بداية من اضطرارهم لقبول النصرانية بعد معاناة في السجون وفقدان الأمل في التحرر من سجنهم ثم الزواج من بيزنطيات والاندماج في المجتمع البيزنطي وتجنيدهم في الجيش البيزنطي –مع مراعاة أن تجنيد هذا المتنصر كان في حراسة بعض الحقول– وصولا إلى أن أصبحوا أفرادا

يستطع العودة إلى ديار الإسلام وترك أولاده، رغم أنه كان قارئًا للقرآن في ديار المسلمين ، وقد نسيه كله إلا قوله تعالى" ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين " وهذا ما أخبر به السفير. انظر: الشافعى ، تاريخ مدينة دمشق ، جـ٨ ، ص٣٨٤ – ٣٨٦ .

–وهناك فقيه فى بغداد كان يعرف بابن السقا، تطرف فى علمه لدرجة أن أحد العلماء تنبأ له أنه قد يموت على غير دين الإسلام، وحينما قدم رسول بيزنطى إلى الخليفة العباسى(وذلك بعد عام ١١٢١م / ٥١٥هـ) مضى إليه ابن السقا وسأله أن يصحبه معه إلى بيزنطة على أن يترك الإسلام ويتنصر فقبله الرسول وخرج معه إلى القسطنطينية وتنصر، ورآه أحدهم بالقسطنطينية مُلقى على دكة مريضًا وبيده شيء يدفع به الذباب عن نفسه، فسأله هل مازلت تحفظ القرآن؟ فأجابه ما أذكر إلا آية واحدة " ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين " والباقى كله نسيته رغم أنه كان قارئًا للقرآن الكريم ومجودًا له في بلاده. انظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص٧٨ ؛ الصفدى ، الوافى بالوفيات ، جـ٢٩ ، ص٤٨ .

والذي يسترعي انتباه الباحثة هنا هو تكرار الآية القرآنية ذاتها في تلك المواقف الثلاث ، مما يقوي مظاهر التكلف والاصطناع في تلك الروايات ، بل ويشكك في صحتها أو صحة بعضها على الأقل .

(١) القاضي عبد الجبار ، تثبيت دلائل النبوة ، جـ١ ، ص١٧٢.

عديمي الغيرة والحمية. والباحثة لا تتفق مع الأمين أبو سعدة في رأيه الذي يشكك في إمكانية استخدام البيزنطيين أسرى الحرب المتنصرين في حروبهم ضد المسلمين معتمدا على المصادر التي تؤكد أن بيزنطة كانت تتشكك في البيزنطيين الذين أُسروا لفترة في الأراضي الإسلامية ، ولم تسمح لهم بالدفاع عن الحصون الموجودة على الحدود ، معللا أن الأولى بهم اتخاذ هذه الاحتياطات مع هؤلاء المتنصرين[١]. فقد مر بنا كيف أن البيزنطيين جندوا قوات من المرتزقة ضد بني جلدتهم في الحروب مع كونهم غير متنصرين، وأبرز الأمثلة على العرب المرتدين الذين انقلبوا ضد المسلمين قبيلة بني حبيب العربية التي هاجرت إلى بيزنطة في القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري من منطقة الجزيرة أعالي الفرات هربا من جور بني حمدان وظلمهم واعتدائهم ، فاضطروا إلى بيع الضياع والممتلكات وخرجوا بأهليهم وعبيدهم وماشيتهم وما استطاعوا حمله وشاركهم جيرانهم وخرجوا في عشرة آلاف فارس على خيول عربية وأسلحة مذهبة إلى الإمبراطور البيزنطي طالبين منه الأمان، فأحسن إليهم بعدما تنصروا ومنحهم الضياع والماشية والمتاع وأسكنهم في القرى والمنازل وأرفدهم في النواحي الطيبة، فانقلبوا على الإسلام والمسلمين ؛ ولأنهم كانوا أدرى الناس ببلاد المسلمين وأهلها ، وبكل صغيرة وكبيرة عنهم ، فضلا عن الحقد الذي أصبح يشتعل في قلوبهم ضد المسلمين، فقد استطاعوا النيل منهم وراسلوا جميع من يعرفونهم ، ليطلعوهم على حياتهم الجديدة في بيزنطة وما نالوه من حظوة عند الإمبراطور ، فلحقت بهم أعداد كبيرة ممن أصابهم الأذى على يد بني حمدان ، وهؤلاء جميعا أيدهم الإمبراطور ، وأنعم عليهم فشنوا الغارات على بلاد المسلمين وافتتحوا الكثير من الحصون، وسبوا وقتلوا الكثير من المسلمين، ودمروا الكثير من الأماكن ، وزادت ثقة الإمبراطور بهم، ووثق البيزنطيون فيهم وفي قدراتهم ، فزادت عليهم الأرزاق والأعطيات وصاروا من خاصة الإمبراطور بعدما رأى جسارتهم وبسالتهم [٢].

وفي حين كان هروب البيزنطيين إلى بلاد المسلمين في الغالب حالات فردية ؛ لأنه لا يوجد ثمة دليل على أية سياسة إسلامية منظمة لتشجيع مثل هؤلاء الناس على التحول إلى الإسلام – نرى على النقيض سياسة بيزنطية ترحب دائما بهجرة المسلمين إليها وتشجع ذلك، وهناك العديد من العوامل التي ساهمت في هجرة المسلمين إلى بيزنطة منها الشقاق والخلاف بين العائلات على الحدود، لذا فإنه كان للقلاع الحدودية البيزنطية العديد من الأهداف أولها

---

(1)Abou-Seada, *Byzantium and Islam* , p. 206.

(٢)ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٢١١ – ٢١٣ . وتحوي سيرة الأميرة ذات الهمة أمثلة لمتنصرين من العرب انخرطوا في الجيش البيزنطي وحاربوا المسلمين تحت لوائه. انظر: سيرة الأميرة ذات الهمة، المجلد ٧ ، ص ٤١٢.

ملاحظة اقتراب العدو ، وثانيها استقبال الشخص الهارب من جانب العدو ، وثالثها منع هروب أي شخص بيزنطي إلى العدو(١) .

وقد قدر القاضي عبد الجبار في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي عدد من تم سبيهم وأسرهم في بيزنطة من المسلمين بنحو مليونى شخص تنصروا إما طوعا أو كرها(٢).

وإذا كانت عملية اندماج الأجانب داخل المجتمع البيزنطي تبدأ بالدخول في خدمة الإمبراطور والحصول على برونويا Pronoia فضلا عن التحول إلى الأرثوذكسية، ومحاولة إتقان اليونانية ، وأخيرا مصاهرة أسرة بيزنطية (٣) فإن أوسع عملية اندماج للعرب داخل المجتمع البيزنطي كانت لقبيلة بني حبيب وأتباعها في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري، وبعدها بدأت الإمبراطورية البيزنطية محاولة إدماج البشناق داخل حدودها، بعدما بدأ الصراع معهم عام ١٠٢٦م/٤١٧هـ واتخذ صورًا غير منتظمة في الفترة من ١٠٢٦م/٤١٧هـ – ١٠٤٨م/٤٤٠هـ وخلال هذه الفترة اقتصر دور الجماعات البشناقية المتجهة إلى الحدود البيزنطية على السلب والنهب دون الاستقرار ، ففي عام ١٠٢٦م /٤١٧هـ انتقل عدد كبير من البشناق من أراضيهم شمال الدانوب إلى داخل حدود الإمبراطورية، وذلك في عهد الإمبراطور قنسطنطين التاسع إثر الصدام الذي وقع بين تيراخ Tyrach – الخان الرئيسي للبشناق – وأحد قواده ويدعى كيجين Kegen ، وقد وجد كيجين ملاذه في ثيم ديسترا Distra ومعه عشرون ألفا من البشناق

---

(1) Abou-Seada , *Byzantium and Islam* , pp. 185 – 186 .

(٢) القاضي عبد الجبار ، تثبيت دلائل النبوة ، جـ١ ، ص١٨٣ .

وتتفق الباحثة مع عبد العزيز رمضان في كون القاضي عبد الجبار يبالغ كثيرا في تقييم عدد أولئك الأسرى. انظر: Ramadan , " Treatment of Arab Prisoners" , p.180.

(٣) عبد العزيز رمضان ، العلاقات البيزنطية– اللاتينية ، ص١٢٢.

ظهر نظام البرونويا Pronoia بعدما اضطرت الحكومة في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري إلى تقديم مساحات من الأراضي الزراعية بمن عليها من مزارعين خاضعين للضرائب كحيازة مؤقتة لبعض كبار القادة العسكريين وعدد من كبار الموظفين المدنيين وكبديل عن دفع رواتبهم، وأصبح على هؤلاء المنتفعين بنظام البرونويا تحصيل ما كان جباة الضرائب يجمعونه من المزارعين المقيمين في تلك الأراضي لأنفسهم بدلا من تحصيله للدولة ، ولم ترتبط هذه الأراضي– الممنوحة كحيازة مشروطة والممنوع التصرف فيها– بأي سندات للملكية، إلا أن تملك هذه الأراضي أصبح حقا مكتسبا بالتقادم؛ مما ساهم في استمرار ضعف الحكومة ، وهذه المنح صارت قاعدة الخدمة العسكرية فيما بعد زمن الإمبراطور ألكسيوس كومنين . ويلاحظ أن التطور الذي حدث لنظام البرونويا بأن أصبح نظاما يمكن مقارنته بالإقطاع الأوروبي الغربي– خلق في بيزنطة مجتمعا من كبار ملاك الأراضي العسكريين، ولم يختلف هذا المجتمع الإقطاعي عن المجتمع الإقطاعي اللاتيني في الغرب إلا في خلوه من عامل الولاء وقلة الالتزامات المالية المفروضة. انظر: حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية ، ١٩٨٣م ، ص ١٧٣ ؛ وسام فرج، "الألقاب والمناصب" ، ص ٥٥ .

، وهؤلاء اللاجئون استقروا في البداية في مناطق المستنقعات ، ثم تحركوا داخل حدود الإمبراطورية ، وكان كيجين متحمسا لتسجيل رجاله ضمن جنود الجيش البيزنطي ؛ فرحب به الإمبراطور ، وتم تعميده باسم حنا John ومُنح لقب بطريق Patrikios ، وهناك إشارة إلى أن كيجين زعيم البشناق حصل على لقب ماجيستر Magister أيضًا عام ١٠٤٥م/٤٣٦هـ وارتبط بمصاهرة مع العائلة الإمبراطورية، ومنحه الأراضي والضياع ، فضلا عن ثلاثة تحصينات داخل ثيم ديسترا، وبذا ربحت بيزنطة من خلال استيعاب البشناق درعا واقيا لهم ضد الشعوب الأخرى وراء الدانوب ، ناهيك عن حماية حدود الإمبراطورية من البشناق الآخرين(١) .

لم ينته الصراع بين كيجين وتيراخ عند هذا الحد ، فقرر كيجين استغلال منصبه في بيزنطة ضد تيراخ دون استشارة الإمبراطور ، فقام بمهاجمته عبر الدانوب عام ١٠٤٧م/٤٣٩هـ ، وهذا الهجوم نتج عنه هجرة جماعية للبشناق داخل حدود الإمبراطورية، ولم يستطع البيزنطيون إيقافهم ، وقيل إن عدد المهاجرين وصل إلى ثمانمائة ألف (يبدو أن هذا العدد مبالغ فيه)، وبعد سنين فشلت محاولات احتواء البشناق داخل الأراضي البيزنطية، وعبر آتاليايتس عن موقف الإمبراطور تجاههم بأنه كان يحاول طلاء الأثيوبي أسود اللون باللون الأبيض، وذلك لعدم ثقته في تغيير طبيعة هؤلاء البشناق، ومحاولة إدماجهم واستيعابهم داخل البلاد ، وبعد فترة من

---

(1)Attaleiates, *History* ,p.53; Sokolov, K, *Byzantium and the Pechenegs from the 9th to the 12th century*, Ph.D , University of Mainz , 2012, p.4 ; Madgearu ," Pechenegs in the Byzantine Army",pp.208-210

؛ المتولي تميم، البشناق والبيزنطيون، ص١٠١ – ١٠٢ .

البطريق لقب شرفي وليس وظيفة، ويعني الشريف أو النبيل، وهو من الألقاب الإمبراطورية الشرقية الرفيعة جدا، وقد أسس الإمبراطور قنسطنطين الأول طبقة تحمل اسم البطارقة ظلت قائمة حتى العصر البيزنطي المتأخر ، ولم يقتصر هذا اللقب في القرن العاشر على كبار رجال الدولة ممن احتلوا المناصب الرفيعة بل تعداه أيضا إلى الخصيان العاملين في القصر الإمبراطوري ، وعند نهاية هذا القرن نجد الخصيان يستحوذون على هذا اللقب وهذا يشير إلى علو شأنهم في البلاط في ذلك الوقت مما جعلهم يتصدرون مراتب متقدمة على قادة الجيش أنفسهم. ولمزيد من التفصيل انظر: طارق منصور ، "الوظائف والألقاب البيزنطية بين المفهوم العربي والواقع البيزنطي "، بحث منشور في كتاب : بيزنطة مدينة الحضارة والنظم (دراسات وبحوث) ، دار الفكر العربي ، ٢٠١٥م ، ص ١٥٤ – ١٥٧ .

كان الماجستير في فترة مبكرة من عمر بيزنطة موظفًا مدنيا أو عسكريا ، مثل وظيفة رئيس الدواوين Magister Offciorum أو قادة الجيش Magistri Militum ، وفي القرن الثامن كان لصاحب لقب الماجستيروس دور هام في المراسم الإمبراطورية كرئيس أو مشرف عام على المراسم، ولم يكن بالإمبراطورية سوى ماجستيروس واحد فقط ، ثم تطورت هذه الوظيفة بعد القرن التاسع حيث جاء صاحبها في المرتبة الخامسة بعد بطريرك القسطنطينية ، وفي نهاية القرن العاشر جاء صاحبها في المرتبة التاسعة والعاشرة من ألقاب موظفي الدولة. انظر: طارق منصور، " الوظائف والألقاب البيزنطية"، ص ١٤٣ – ١٤٤.

المعارك لجأ أيضا تيراخ وبعض رجاله – كان عددهم مائة وأربعين– إلى القسطنطينية حيث أحسن قنسطنطين استقبالهم وتم تعميدهم وأقاموا في القسطنطينية، أما أتباعهم فقد وُطِّنوا في منطقة صوفيا (ساردیکا Sardica في البلقان) ونيس Nis يزرعون الأرض ويدفعون الضرائب، ويخدمون في الجيش كمرتزقة ، وبعدما اندمج تيراخ داخل الحياة العسكرية البيزنطية ، نجده يتمرد عام ١٠٤٩م/٤٤١هـ عندما أُرسل لمحاربة بني جنسه من السلاجقة في آسيا الصغرى ، وأخذ جيشه يدمر تراقيا ومقدونيا لمدة أربع سنوات ، فاضطر قنسطنطين أن يعقد معهم سلاما آخر مدته ثلاثون عاما ، استقر البشناق خلالها داخل الإمبراطورية كحلفاء ، واستُخدموا عام ١٠٥٩م/٤٥١هـ ضد المجر(١).

وظل البشناق الموالون مستقرين في الأجزاء الغربية للدانوب ، حتى أنهم وقفوا ضد البشناق الآخرين الذين قاموا بالثورات مثل بشناق ديسترا، وقام زعيم البشناق المسمى تاتوس Tatos أو Tatryas– كان على الأغلب حاكم منطقة بشناقية أوجدها قنسطنطين عام ١٠٥٣م/٤٤٥هـ – بالتمرد ضد البيزنطيين عام ١٠٧٢م/٤٦٤هـ ، وكان هذا التمرد في البداية احتجاجا على قلة حمايتهم، وعدم اكتراث الحكومة البيزنطية بأمرهم ، ثم انتهى بالعصيان ، واللافت للنظر أننا نجد جيشا آخر من البشناق يتصدى لهم، ويدافع عن الأراضي البيزنطية

---

(1)Attaleiates, *History*, p.53,55 ; Cedrenus, *Historiarum Compendium*, Tome.II, pp. 586 – 588 ; Madgearu," Pechenegs in the Byzantine Army " ,pp.210-213 ؛ المتولي تميم، البشناق والبيزنطيون ،ص ١٠٦–١٠٧ .

لم يكن لتعميد تيراخ وإدماجه داخل المجتمع البيزنطي أثر في تغيير عاطفته تجاه بني جلدته، فثار تيراخ على كل هذا ، ولم يكترث بالمكانة العسكرية التي وصل إليها، خلافا لكيجين الذي اندمج هو وأبناؤه داخل المجتمع البيزنطي، لدرجة أنهم تناسوا صلة الدم التي تربطهم بالبشناق، وقاتلوهم دفاعا عن الإمبراطورية البيزنطية.

انتهجت الحكومة البيزنطية مع الماجيار تلك السياسة التي انتهجتها مع البشناق ، فبعدما كان الماجيار يشكلون قوات تحالف للبيزنطيين في عهد الإمبراطور ليو السادس أصبحوا يغيرون على الحدود البيزنطية، وتكرر ذلك عامى ٩٣٤م/٣٢٢هـ ، ٩٤٣م/٣٣١هـ ، وبعد الهجوم الثاني عقد معهم البيزنطيون معاهدة سلام مدتها خمسة أعوام ، وبعد انتهاء مدة هذه المعاهدة في عام ٩٤٨م/٣٣٦هـ لجأ الإمبراطور قنسطنطين إلى حيلة أقوى وهى تحويل أحد زعماء الماجيار إلى المسيحية ومنحه لقب بطريق ، وبهذه الطريقة يضمن الإمبراطور ولاءهم ، إلا أن الماجيار لم يلبثوا أن أغاروا على الحدود البيزنطية في عامى ٩٥٨م/٣٤٧هـ ، ٩٦١م/٣٥٠هـ . انظر :

Whittow, M., *The Making of Byzantium 600-1025* ,University of California ,1996 , pp.293-294 ; Stephenson , *Byzantium's Balkan Forntier*, p.40 ; Bowlus ,Ch.,R ,*The Battle of Lechfeld and its Aftermath August 955,the End of the Age of Migrations in the Latin West*, University of Arkansas at Little Rocke ,2006 ,p.73 ;Gregory, T.E ,*A History of Byzantium* ,Oxford ,2010 , p. 252 .

على رأسه فالتزار Valtzar وهو ابن كيجين ، وقد دخل الخدمة العسكرية مثل أبيه، والواضح أن بيزنطة كانت تستخدم سلاح إذكاء روح التنافس بين زعماء البشناق وقادتهم [١].

وثمة اثنان من البشناق اندمجا في خدمة الإمبراطور نقفور الثالث بوتنياتس(١٠٧٨-١٠٨١م/٤٧٠-٤٧٤هـ)، وهما بوريلوسBorilus وجرمانوس Germanos، وصل بهما الأمر إلى أنهما كانا يختلقان الأخبار الكاذبة على أى شخص في البلاط، ويبثان الشائعات الكاذبة ويدبران المؤامرات الشريرة للإيقاع بألكسيوس وأخيه إسحاق من أجل التخلص منهما وزحزحتهما من طريقهما، وبلغ بهما الأمر إلى استمالة القائمين على جناح الحريم إلى جانبهما، وعن طريقهم كسبوا ثقة الإمبراطورة أكثر، وأدرك كل من ألكسيوس وإسحاق خطورة موقفهما عند الإمبراطور بوتنياتس بعدما اشتد حقد هذين البشناقيين عليهما ، فحاولا تجنبهما ونجوا من مؤامرة سمل أعينهما بتهمة ملفقة من هذين البشناقين [٢].

هناك مثال آخر يعود إلى منتصف القرن العاشر الميلادي/الرابع الهجري لعبد كان يدعى أندرو الأحمق Andrew The Fool وكان صبيا بشناقي الأصل (اسمه الحقيقي هو أندروس ساللوس Andros Sallos) أسره قائد عسكري في عهد ليو السادس، ورباه في بيته حتى أصبح المفضل لديه، ونال حظوة كبيرة عنده لدرجة أنه علمه القراءة والكتابة ، ثم قرر أندرو أن يصبح هائما بعدما قال إن السيد المسيح طلب منه ذلك ؛ اعتقادا منه أنه بذلك سيرغم سيده على تحريره ، فارتكب أفعالا غير مسؤولة، لذا أرسله سيده إلى كنيسة قيل عنها إنها تشفي الجنون؛ وبعد ثلاثة أشهر لم تتحسن حالة أندرو ، فاضطر سيده لتحريره، وخرج أندرو هائمًا في شوارع القسطنطينية [٣].

---

(1)Cedrenus, *Historiarum Compendium*, Tome.II, p.588 ; Madgearu ," Pechenegs in the Byzantine Army " , p.216.

استخدم البيزنطيون قادة من البشناق اندمجوا داخل المؤسسة العسكرية للجيش البيزنطي، إما في العاصمة أو في الأقاليم، وكانوا قادة لأعداد كبيرة من البشناق ، وهذه الأعداد كان من الصعب الثقة فيهم رغم خضوعهم رسميا للإمبراطورية البيزنطية ، وقد جندوا في الجيش البيزنطي عام ١٠٤٥م/٤٣٦هـ، وعام ١٠٤٧م/٤٣٩هـ، وعام ١٠٥٩م/٤٥١هـ، وعام ١٠٩١م/٤٨٤هـ ، وفي عام ١٠٤٩م/٤٤١هـ تم استخدامهم في الحرب ضد السلاجقة ، وفي عام ١٠٧١م/٤٦٣هـ هجروا أماكنهم داخل معركة مانزكرت، وفي الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٦م/٤٨٩هـ خدموا في الجيش البيزنطي وهاجموا الصليبيين ، والراجح أن ألكسيوس قد نظم فرقة من البشناق، وخلال الحملات الصليبية الثلاث الأولى شكلوا نوعا من الشرطة العسكرية للهجوم على الصليبيين.انظر:

Madgearu ," Pechenegs in the Byzantine Army ", pp.214-215,217-218.

(٢) أنا كومنينا ، الألكسياد ، ص٧٩ ، ٩٠ ، ٩٤ -٩٧،٩٥.

(3)*The Life of St Andrew the Fool* , ed . Ryden ,L., Sweden, 1995, p. 23, 33 – 39, 89-112; Rotman, *Byzantine Slavery*, p. 154 , 168 .

وتشابهت نظرة المؤرخين البيزنطيين للبشناق، فالمؤرخ قنسطنطين السابع أكد أن البشناق طماعون، ويملؤهم الجشع،ولديهم شراهة في طلب المال والهدايا بغير خجل [١]، فضلا عن أن قنسطنطين وصف جميع القبائل الشمالية – سواء أكانوا خزرا أم أتراكا أم روسا أم أي شعب آخر من الشماليين– بالجشع، وحب المال والإلحاح في طلبه مقابل خدمات صغيرة يؤدونها[٢]. وأضاف ليو الشماس أن البشناق جميعًا (وأطلق عليهم السكيزيين) طماعون أكثر من غيرهم، ولديهم شراهة، ويخلفون وعودهم، ويقبلون الرشاوى[٣].

كما كان هناك بعض الأجانب الذين اندمجوا داخل البلاط الإمبراطوري في عهد باسيل الثاني ووصلوا فيه لمناصب مرموقة، لكن اندماجهم الكامل داخل المجتمع البيزنطي لم يظهر جليا ، وعلى سبيل المثال أشار كيكاومينوس لشخص يدعى بيتر Peter كان ابنًا لشقيق إمبراطور ألمانيا، وجاء إلى باسيل الثاني في السنة الرابعة من حكمه فشرفه الإمبراطور بلقب سباثاريوس Spatharios ثم رقاه إلى دمستق الإكسكوبيتر Excubitors في هيلاس Hellas(اليونان)، ولم يسمح له باسيل أن يرتقي إلى رتبة القائد العام مخافة أن يغضب البيزنطيون فرقاه إلى رتبة حاكم الفلاش في اليونان[٤].

وأيضًا قبل عام ٤٠٠هـ/١٠٠٩م خرج أبو الهيجاء بن سعد الدولة من حلب لاجئا إلى الإمبراطور باسيل الثاني الذي أكرمه ولقبه بالماجستير، وبعد فترة عاد إلى حلب ولم تستقر الأمور أمامه فاضطر للعودة ثانية للإمبراطور الذي رحب بقدومه وظل بالقسطنطينية حتى وفاته [٥].

وفي بلاط ميخائيل السادس(١٠٥٦ – ١٠٥٧م/٤٤٨-٤٤٩هـ) نقابل أول حالة من اللاجئين الأتراك البارزين الذين وفدوا من الشرق عن طريق الأناضول للالتحاق بالخدمة الإمبراطورية، وبدأوا بالظهور في الخدمة البيزنطية بعد هجوم السلاجقة على الحدود الشرقية – ولم يقتصر لفظ "Tourkoi" على الأتراك فقط إذ اعتاد المؤرخون البيزنطيون أن يطلقوا هذا اللفظ على مختلف الشعوب الآسيوية مثل المجر والخزر – وهذا التركي دعاه آتالياتيس

---

(١) قنسطنطين ، إدارة الإمبراطورية ، ص ٥٨ .

(٢) قنسطنطين ، إدارة الإمبراطورية ، ص ٦٥ – ٦٦ .

(3)Leo the Deacon ,*Byzantine Military Expansion*, p. 128 .

(4)Kekaumenos , *Logos Nouthetetikos* ,p.5.

الفلاش هم مجموعة عرقية سكنت المناطق الجبلية لتساليا Thessaly ودول البلقان الشمالية. انظر:
Kekaumenos , Logos Nouthetetikos, p.5
n. (20).

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ص١١٣-١١٤.

خمارتكين Khumartekin أو Amertikes وهذا هو اسمه الحقيقي، لكنه أطلق على نفسه اسم هارون Harun وكان ابنًا لحاكم تركي ، ودائمًا ما كان يفتخر بالانتماء إلى العائلة المالكة، وظهر في بيزنطة كلاجئ في عهد ميخائيل السادس الذي استقبله بشرف بالغ، ويبدو أنه خدم أيضًا تحت حكم إسحاق الأول ، ثم أصبح شديد العداء للبيزنطيين بعدما اتهم باشتراكه في محاولة اغتيال قنسطنطين العاشر وتم نفيه، ثم استدعاه قنسطنطين ثانية، وأرسله لمحاربة الأتراك، فتحول في ولائه إلى حاكم حلب وانقلب على البيزنطيين، بل وهاجم الأراضي البيزنطية لعدم صرف مستحقات جنوده من الخزانة الإمبراطورية ، وفي عام١٠٦٧م/٤٥٩هـ التحق بالأتراك الذين أغاروا على الثيمات الشرقية، وفي عام ١٠٦٨م/٤٦٠هـ حارب رومانوس الرابع في منبج، وهنا يتعجب آتاليايتيس نفسه من إرسال هذا الشخص لمحاربة بنى جلدته بعدما أسيئت معاملته في بيزنطة ، فضلا عن عدم صرف مستحقاته ومستحقات جنوده [١].

أما في عهد رومانوس الرابع فقد استطاع قائد تركي آخر دعاه البيزنطيون خريسوسكولوس Chrysoskoulos – وربما كان اسمه إريسن Erisgen أو Arisighi– أن يأسر مانويل كومنين شقيق ألكسيوس كومنين الأكبر عام ١٠٧٠م/٤٦٢هـ ، وكان هذا القائد التركي صهرا للسلطان ألب أرسلان وفي الوقت ذاته كان على خلاف معه، فاستغل الأسير هذا الخلاف واستطاع أن يقنع القائد التركي بالتحول ضد الأتراك ، والهجرة معه إلى بيزنطة وبالفعل هاجرا سويا ودخل في خدمة رومانوس الرابع وبذلك أصبح مواليا للبيزنطيين ، وأنعم عليه الإمبراطور بالكثير من النعم ومنحه لقب Proedros ، وفي عام ١٠٧١م/٤٦٣هـ رافق الإمبراطور رومانوس في معركة ملاذكرد ، لكن دوره في هذه الحرب ظل مجهولا ، وعلى أية حال فقد ظل في الخدمة البيزنطية حتى عام ١٠٧٨م/٤٧٠هـ[٢].

وفي عهد ألكسيوس الثالث استطاع السلطان السلجوقى غياث الدين كاى خسرو **(١١٩٥ – ١١٩٩م / ٥٩١-٥٩٥هـ)** الذى ظل فى القسطنطينية من ١٢٠٠م – ١٢٠٤م / ٥٩٦-٦٠٠هـ أن يترك أثرًا كبيرًا فى مجتمع القسطنطينية بشجاعته وقوته، فهذا السلطان كان الابن الأصغر لقلج أرسلان وذهب إلى بيزنطة فاستقبله الإمبراطور وفقًا لمراسم استقبال الملوك

---

(1)Attaleiates, *History* ,p.173; Brand ,C.M.,"*The Turkish Element in Byzantium , Eleventh-Twelfth Centuries"* , *Dumbarton Oaks Papers*, vol . 43 (1989) ,pp.1-2.

(2) Brand ,"The Turkish Element " ,p.2.

Proedros لقب شرفي يقف حامله على يسار الإمبراطور مرتديًا غطاء على رأسه. انظر:

Maguire . H., "Parodies of Imperial Ceremonial and their Reflections in Byzantine Art" , in: *Court Ceremonies and Rituals of Power in Byzantium and Medieval Mediterranea* , ed . Beihammer , A. & Constantinou , S. & Parani, M.,Brill ,Leiden ,2013 , pp.418-419.

المسيحيين فى القرن الثانى عشر الميلادي و" كان يجلس مع الإمبراطور على العرش" (١) . وهكذا كثرت حالات اللجوء السياسي من الأرمن، والعرب، والبشناق، والأتراك إلى البلاط البيزنطي فكانوا يهرعون إلى الأباطرة الذين يكرمونهم ويحسنون وفادتهم.

التوسع في عملية الدمج في عصر آل كومنينوس

وقعت أوسع عملية اندماج لعنصرى الأتراك واللاتين في عهد كل من ألكسيوس ومانويل كومنين ؛ حيث غص بلاط ألكسيوس بكثير من الشخصيات ذات الأصل التركي والتي اندمجت داخل المجتمع البيزنطي ، ومن هؤلاء إحدى الشخصيات التركية البارزة التي استطاعت الوصول لمكانة مرموقة في الخدمة البيزنطية، وكان يدعى تاتيكيوس Tatikios وكان أبوه أحد السراقنة الذين وقعوا في أسر حنا كومنين – والد ألكسيوس الأول – وربما كانت أنا كومنينا تقصد الأتراك بلفظ السراقنة؛ لأن الأتراك كانوا أشد خصومة للإمبراطورية حوالي عام

---

(1)Korobeinikov , " A Sultan in Constantinople " , p. 96.

أثناء تواجد السلطان في البلاط الإمبراطوري كان هناك بطل لاتيني مشهور بشجاعته ومهارته فى الحرب، لدرجة أنه قيل عنه "قاتل مرة ألف مقاتل بمفرده " ويتقاضى راتبًا سنويًا عشرة آلاف دينار، وذات يوم تشاجر مع الحكومة البيزنطية حول خفض راتبه فذهب إلى الإمبراطور يشتكى له فطلب منه الإمبراطور أن ينتظر فترة احترامًا لوجود سلطان فى البلاط، فلم يأبه القائد اللاتيني أو يقلل من جراءته، فتدخل السلطان وتساءل عن سبب غطرسة هذا الخادم فرد اللاتيني بكلمات حمقاء على السلطان الذي غضب ولف يده بقطعة قماش من عمامته، وضرب اللاتيني بشدة فوقع على إثرها مغشيًا عليه، فانتشر الضجيج بين اللاتين والبيزنطيين ،وبناء على طلب السلطان أعد الإمبراطور ساحة لمبارزة السلطان للقائد اللاتيني فى القسطنطينية، وفيها استطاع السلطان هزيمة اللاتيني، وفرح التجار المسلمون الذين حضروا هذه المبارزة فرحًا شديدًا، وبعد هذه المبارزة ساد الشغب بين اللاتين الذين عاقب الإمبراطور بعضهم وهم أكثرهم غطرسة، ومن شدة إعجاب الإمبراطور بغياث الدين صاحبه إلى بيته ومنحه هدايا وثروات غير معدودة من الخيول الجميلة والقماش المطرز بالذهب (Khane)الخاص وهو الفندق والقماش البيزنطى المطرز والكثير من العملات الذهبية، والعديد من العبيد الكومان أقوياء البنية، وخادمات عذارى وأشياء أُخر تناسب مقام أية عائلة ملكية، ومنذ ذلك الحين ثار الحنق اللاتينى ضد الإمبراطور . انظر: Korobeinikov , " A Sultan in Constantinople " , pp. 96-99, 102 .

وهذا الموقف أظهر لنا مدى تغطرس العنصر اللاتينى فى البلاد وشعوره بأهميته، وفى المقابل نجد البيزنطيين ينحنون أمام طلباتهم ويضعفون وعلى رأسهم الإمبراطور الذى شعرنا بضعف موقفه أمام هذا اللاتينى وجاليته فى حين نجد شجاعة السلطان السلجوقى الذى استطاع أن يغلب أقوى شخصية لاتينية ويكسر كبرياءهم، وبالنظر إلى الهدايا التى قدمها له الإمبراطور نجد من بينها الخادمات العذارى والعبيد، وهذا الأمر قد يجلي لنا بعض اللبس عن مصير النساء والفتيات الأسيرات فى القسطنطينية، فهؤلاء الخادمات العذارى لابد أنهن أسيرات؛ لأنه ليس من المعقول أن يمنح الإمبراطور السلطان فتيات بيزنطيات مسيحيات من الحرائر، وكذلك العبيد أيضًا لابد أنهم كانوا من الأسرى .

١٠٥٠م/٤٤٢هـ ، وعلى الأرجح وُلد تاتيكيوس عام ١٠٥٧م/٤٤٩هـ وربما كان طفلا عند أسره ، وتشير المصادر أنه أصبح رئيسا للحرس الإمبراطوري ، وأكثر القادة المؤتمنين وأنه قاد جيش الأتراك في الحرب ضد النورمان ، وحارب أيضًا البشناق الذين كانوا يساعدون المانويين في هجومهم على الإمبراطورية، وكان تاتيكيوس شديد الولاء والإخلاص للإمبراطور وشديد الخوف عليه، ويبدو أنه قد ترك ذرية في بيزنطة ، وأن حفيده تزوج من عائلة كومنين، وأحد أحفاده هو قنسطنطين تاتيكيوس الذي تآمر ضد إسحاق الثاني في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري (١).

وامتدادًا للنماذج الحية لعملية الاندماج ما نجده حوالي عام ١٠٨٦م/٤٧٩هـ –بعد هزيمة ألكسيوس من النورمان– حيث أرسل السلطان السلجوقي ملكشاه مبعوثا إلى الإمبراطور أطلقت عليه أنا كومنينا اسم سياؤوس Siaous ، وكان قادما ليعرض التحالف مع الإمبراطور البيزنطي بالزواج مقابل عودة المدن التي احتلها الأتراك ، وأن يسلم السلطان الأماكن الحصينة للإمبراطور ، ويمد له يد العون ، فاستقبل الإمبراطور هذا السفير الذي كان من أب سلجوقي وأم أيبيرية(جورجية) ، وبعدما رأى ألكسيوس الحصافة العالية والحكمة التي يتمتع بها هذا السفير أبدى له اهتماما بالغا وأحاطه برعايته ، وتمنى تعميده، فضعف السفير أمام هذه الإغراءات وقبل التعميد، وقطع يمين الولاء للإمبراطور وأكد عدم العودة ثانية إلى السلطان السلجوقي ، وكان بيده أمر كتابي من السلطان يخوله خلع من يشاء من الولاة ونزع ما بيده من المدن الساحلية شريطة موافقة الإمبراطور على إتمام عقد الزواج ، فاقترح ألكسيوس على سياؤوس أن يستغل هذا المرسوم السلطاني ويخلع جميع الولاة السلاجقة ثم يعود إلى القسطنطينية ، وبالفعل خرج سياؤوس وهو يتقد حماسة وأخذ يعزل الولاة السلاجقة بالمرسوم السلطاني الذي بيده وأرغمهم ألا يحملوا معهم أى أموال في خروجهم ، وعين بدلا منهم ولاة بيزنطيين ، ثم عاد إلى ألكسيوس الذي نصبه على أنطاكية بعيدا عن الحدود التركية البيزنطية وأفاض عليه بإنعاماته الجمة(٢).

---

(١) أنا كومنينا ، الألكسياد ،ص١٨٠ ،٢٥٦ ،٢٧٠، ٣٥٧، ٣٦١

؛ Brand ,"The Turkish Element ",pp.3-4

ظهر في بداية عهد ألكسيوس كومنين في بيزنطة مُنجّم سكندري الأصل ذاع صيته في الآفاق، وتزاحم الناس على بابه يسألونه فيجيبهم بنبوءات غريبة اتسمت بالدقة في بعض الأحيان ، ولم تكن تنبؤاته شيئًا من السحر ولكنها انطوت على مهارة معينة من جانب هذا السكندري ، فلما رأى ألكسيوس تزاحم الناس على بابه كما لو كان نبيا خشي أن يُفتنوا به، فتتحول العامة إلى التنجيم ؛ لذا أمر بنفيه من المدينة بعد أن أمده بجميع احتياجاته. انظر: أنا كومنينا ، الألكسياد ،ص٢٤٩.

(٢) أنا كومنينا ، الألكسياد ، ص٢٥٤–٢٥٥،٢٦٢

؛ Brand ,"The Turkish Element ",p.4.

ومن الأتراك البارزين أيضًا ذلك القائد التركي الذي جاء مستسلمًا للإمبراطور ألكسيوس في عام ١٠٩٢ – ١٠٩٣م/٤٨٥-٤٨٦هـ وأسمته أنا كومنينا الخان Elchanes حيث تم تعميده ، وتسلم هدايا رائعة من الإمبراطور بعدما دخل في خدمته هو وعدد من أفراد عائلته الذين رافقوه إلى بيزنطة، وبعد فترة قليلة سمع أتباع الخان بما حصل عليه من الإمبراطور ، والمكانة التي وصل إليها ، فذهب قائد يدعى سكالياريوس Skaliarios إلى الإمبراطور وطلب التعميد ليكافئ الخان في المكانة فرحب به الإمبراطور ، وكان سكالياريوس هذا أحد زعماء الشرق البارزين ومات وهو يحارب في جيش ألكسيوس ضد النورمان(١).

وأواخر القرن الحادي عشر الميلادي أو بداية القرن الثاني عشر الميلادي وصل بيزنطة شخص ادعى أنه أحد أفراد البيت السلجوقي الحاكم في نيقية وقونية وأنه ينسب إلى قتلمش، فأطلق عليه البيزنطيون قتلمش Koutloumousios ، وقيل إنه تنصر وأسس ديرا على جبل آثوس أطلق عليه Tou Koutloumousiou ، ومن المفترض أنه أقامه بعدما تقاعد من الخدمة الإمبراطورية، وظهر هذا الدير عام ١١٦٩م/٥٦٤هـ ، ولسوء الحظ لا توجد وثائق من القرن الثاني عشر تشير إليه، وربما كان هذا الدير الأكثر دوامًا للأتراك المتنصرين الذين التحقوا بالخدمة الإمبراطورية في هذه الفترة (٢).

أما حنا أكسوخ John Axuch فكان أهم شخصية في البلاط الإمبراطوري، وكسب إحسان الإمبراطور حنا كومنين بالرغم من كونه تركي الأصل ، وقد أُسر عام ١٠٩٧م/٤٩٠هـ أثناء حصار نيقية وقُدم هدية للإمبراطور ألكسيوس كومنين ، ولأنه كان في عمر الإمبراطور حنا كومنين فقد صار صديقه الأثير من بين خدم البلاط وموظفيه جميعا، وعندما اعتلى حنا العرش منحه وظيفة مرموقة، وزاد نفوذه كثيرا عن عهد ألكسيوس، حتى إن الكثير من أقارب الإمبراطور البارزين كانوا يترجلون عن خيولهم إجلالا له ولمكانته ، وتميز هذا الرجل بمهارته في القتال، وذكائه، وبطولاته، واحتفظ بمكانته العظيمة في البلاط حتى عهد مانويل كومنين الذي ولاه قيادة الأسطول البيزنطي، وأصبح دمستقا للجيوش الشرقية والغربية ، وشارك حنا في الحروب البيزنطية ضد المسلمين وغيرهم، وتزوج بطبيعة الحال من بيزنطية، وأنجب طفلا أسماه ألكسيوس –استطاع الوصول لأعلى المناصب مثل أبيه- تيمنًا باسم الإمبراطور، وبذا كسب البلاط البيزنطى أسرة جديدة تركية الأصل (٣) لدرجة أنه قيل إن عائلة أكسوخ التركية كانت

---

(١) أنا كومنينا، الألكسياد ،ص٥١٣

؛Brand ,"The Turkish Element " ,p.4

(2)Brand ,"The Turkish Element " ,p.6.

(٣) كيناموس ، أعمال يوحنا ومانويل ، ص١١٠ ;Choniates, *Annals*, p.7 , 46 , 48

إحدى العائلات الإمبراطورية الأكثر بروزا في القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري(١) وبرز ابنه ألكسيوس أكسوخ Alexios Axuch أيضًا في البلاط الإمبراطوري لشجاعته، ونشاطه في الشؤون العسكرية فمنحه الإمبراطور ألكسيوس لقب Protostrator وكان الدمستق الأكبر ، وأرسله إلى مدينة أنكونا ؛ ليجمع قوات المرتزقة من المدن الإيطالية ، ويتفاوض على السلام معهم، لأنه تميز بخبرته، ونشاطه، ولسانه الحصيف، ورأيه الحاد، ووقاره، وحسن مظهره(٢).

وامتلك ألكسيوس أكسوخ شعبية وسط الجنود والضباط استطاع بها أن يكون الزعيم العسكري، لكن مهاراته الحقيقية كانت في الدبلوماسية ، ففي عام ١١٥٧م/٥٥٢هـ أُرسل إلى إيطاليا في مهمة عقد السلام مع النورمان وهى المهمة التي أحرز فيها نجاحًا كبيرًا ، وفي حوالي عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ أُرسل كحاكم إلى الأراضي البيزنطية الباقية في قيليقية،وفتح مجالا للمناقشات اللاهوتية بين الكنيسة الأرمينية والبيزنطية نتج عنها تسوية بين الطرفين ، وفي السنة التالية عام ١١٦٦م/٥٦١هـ نجد ألكسيوس يقود قوة عسكرية بيزنطية على الحدود المجرية، وفي عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ رافق مانويل في حملته ضد المجر ، لكنه قُبض عليه وأدين وسجن، ويؤكد نيقتاس الخونياتي –الذي كان شابا في ذلك الوقت – أن ألكسيوس كان ضحية الاضطهاد الذي ظهر عند جميع الأباطرة، فضلا عن مدبري المكائد في بلاط مانويل ومن بينهم أهارون إسحاق، وأن خطأ مانويل تجاه ألكسيوس لا يمكن أن يغتفر أبدًا ، وأن دافعه لسجن ألكسيوس هو خوفه من أن يخلفه في حكم الإمبراطورية، خاصة بعدما ارتبط بالسلالة الإمبراطورية بزواجه من ابنة أخت مانويل وليدة الغرفة الأرجوانية ، فضلا عن شعبيته بين الضباط والجنود ، بالإضافة إلى كرمه الذي اشتهر به بين الناس، وأخيرا أشار الخونياتي إلى أن مانويل كان طامعا في ثروة البروتوستراتور ألكسيوس Protostrator لذا قام بمصادرتها، ووفقا لالخونياتي فإن ألكسيوس مات راهبا، وكان في خدمته جندي، وخادم، ورسول بينه وبين زوجته ماريا كومنينا Maria Comnena (٣) .

مع عدم توافر معلومات عن عمر حنا عند أسره فإننا نرجح أن يكون فتى عاقلا يتميز بالشجاعة والمهارة ؛ لذا أُهدي إلى الإمبراطور، ومن المؤكد أن اسمه هذا لم يكن اسمه التركى، وأنه تم تغييره عند التعميد .

(1) Lilie , R.,G, "Twelfth-Century Byzantine and Turkish States" in: *Manzikert to Lepanto, the Byzantine World and the Turks 1071 - 1571* , ed. Bryer,A. & Ursinus ,M. ,Birmingham , 1985, p.49.

(2)Choniates, *Annals*, p.56; Brand,"The Turkish Element " ,pp.4-5.

(3) Choniates, *Annals*, pp.82-83; Brand,"The Turkish Element " ,pp.9-10 .

أما حنا كيناموس فيشير إلى أن مانويل قد اتهم ألكسيوس بعدة اتهامات منها أنه عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ وهو في طريقه إلى قيليقية –وذلك إثر تعيينه قائدا عاما للحرب هناك– خان الإمبراطور وتبادل الحديث مع قلج أرسلان الثاني(١١٥٦–١١٩٢م/٥٥١–٥٨٨هـ) في قونية وكسب صداقته، ثم تبادل الرسائل معه كي يساعده في الوصول إلى السلطة ، وأنه أقنع المرتزقة الكومان بمهاجمة خيمة الإمبراطور مانويل، وأخيرًا يؤكد كيناموس أن مانويل وبخه مرارا وتكرارا وأشفق عليه واكتفى بجعله راهبا(١) ، وهنا نجد تناقضا بين هجوم حنا كيناموس ودفاع الخونياتي عن ألكسيوس الأمر الذي يوحي إلينا بوجود تلاعب بالحقائق في تدوين وتأريخ حياة ألكسيوس أكسوخ.

ومن بين الشخصيات التي اندمجت في البلاط الإمبراطوري ضابط يدعى برسق Borsug أو Prosouch خدم تحت حكم حنا الثاني، وذكر كيناموس أنه ذو أصل تركي لكن تربيته وتعليمه كان بيزنطيًا ، وحينما بعث مانويل حملة بيزنطية ضد ريموند أمير أنطاكية عام ١١٤٤م /٥٣٨هـ منح القيادة لشابين عديمي الخبرة ثم ألحق بهم برسق صاحب الخبرة الطويلة في الحروب ، وأشار كيناموس بأنه كان القائد الحقيقي لهذه الحملة التي حققت بعض الانتصارات، وفي عام ١١٤٧م/٥٤٢هـ حينما جاءت الحملة الصليبية الثانية أرسل برسق على رأس قوة لمراقبة الألمان الذين يمرون خلال تراقيا، وأكد الخونياتي على أن برسق تفاوض مع الألمان ، وأنه هو السبب الرئيسي في عقد السلام بين الجانب البيزنطي والقوات الألمانية(٢) .

وهناك أيضًا شخص آخر يدعى أبا بكر Abu-Bakr أو Poupakes ظهر كمساعد للإمبراطور مانويل ١١٤٦م/٥٤١هـ أثناء انسحابه من قونية ، وساعده في إعداد الغزوات ووضع الكمائن، ثم ظهر كأحد أعضاء حرس الدمستق الكبير أكسوخ Axouchos وتميز بأعماله البطولية في الحروب ، ولاحقا خدم أندرونيقوس كومنين ابن عم مانويل ، وبعد هروب أندرونيقوس من السجن قابل أبا بكر في أنطاكية حيث ساعده على مواصلة الهروب، لذا قبض عليه مانويل وتعرض للإذلال في شوارع القسطنطينية بعد جلده بالسوط ليكون عبرة لمن يخون الإمبراطور(٣).

وظهر خلال عهد مانويل أيضًا شخص يدعى نقفور كالوفيس Nikephoros Chalouphes حظى ببعض الأهمية ، واسمه مشتق من الكلمة العربية (الخليفة) ، وربما كان

(١) كيناموس ، أعمال يوحنا ومانويل ، ص٢٥٤– ٢٥٧ .

(٢) كيناموس ، أعمال يوحنا ومانويل ، ص٥٢ –٥٤، ٨٣ ؛
Choniates, *Annals*, p.31,37,375 n.(132) ; Brand,"The Turkish Element " ,p.7.

(3)Choniates, *Annals*, p.49,74-75 ; Brand,"The Turkish Element ", p.7.

ابنا لمهاجر تركي ، لكن لا توجد إشارات مصدرية عنه ، وظهر في البداية عام ١١٤٧م/٥٤٢هـ عندما أخفق بشكل بارز في دفاعه عن كورنثه Corinth ضد حملة النورمان العسكرية ، ويوبخه الخونياتي لاخفاقه في مقاومة النورمان ، ومن المحتمل أنه تزوج حوالي عام ١١٦٢م / ١١٦٣م من ثيودورا كومنينا Theodora Comnena ابنة إيودوكيا Eudokia أخت مانويل كومنين، وحقق في السنوات التالية بعض الانتصارات ، وحوالي عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ أرسل كقائد إلى المجر لمساعدة ستيفن الرابعٍ Stephen IV أو Istvan ضد خصمه ستيفن الثالث ، وعندما أدرك كالوفيس أن حليفه يفتقر إلى الدعم انسحب بمهارة مع قواته ، وفي عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ أو عام ١١٦٦م/٥٦١هـ أُرسل كمبعوث إلى البندقية لكسب بعض الدعم من أعضاء التحالف اللمباردي ضد فردريك بربروسا بإعانات مادية اضطر لتقديمها ، وحوالي عام ١١٦٦م/٥٦١هـ عُين كالوفيس حاكما بيزنطيا على دالماشيا Dalmatia لكنه ترك هذا المنصب بعد تقدم الجيش المجري إلى المنطقة، وربما عاد لمنصبه في السنة ذاتها بعد توقف الحرب مع المجر(١) . ومرة أخرى يظهر التناقض بين ما يذكره الخونياتي وكيناموس حول هذه الشخصية التي يوبخها الخونياتي نظرًا لضعفها، ويحاول كيناموس الدفاع عنها مؤكدًا أنه حينما هجم المجريون على مقاطعة دالماشيا التي كانت تحت حكم نقفور دافع عنها بكل قوة وشجاعة ثم سقط أسيرًا في يد المجريين بعدما تخلى عنه أتباعه(٢) .

هكذا أُدمج الكثير من الأتراك في المجتمع البيزنطي لدرجة أننا نجد في القرن الثاني عشر الميلادي /السادس الهجري في بيزنطة فرقة بجانب الأتراك يتعذر أحيانا تمييزها عنهم، وكانت فيلقا من قوات الجيش تدعى تركوبولي أو أبناء الأتراك Tourkopouloi وتتضمن هذه الفرقة أحفاد الأتراك المتنصرين أو أبناء الزواج المختلط مع البيزنطيين ، وأحيانا تتضمن مواطنين من الأناضول(٣).

مع الأخذ في الاعتبار أن هناك بعض الأتراك لم يدم اندماجهم في المجتمع البيزنطي، مثلما حدث مع أحدهم ويدعى تزاخاس Tzachas أسره قائد بيزنطي خلال فترة حكم نقفور الثالث بوتنياتس (١٠٧٨ – ١٠٨١م/٤٧٠–٤٧٤هـ) ، ولتميزه وشجاعته عرض عليه الإمبراطور لقب Protonobellisimos ، وقدم له هدايا رائعة ، وفي المقابل تعهد تزاخاس بولائه للإمبراطور نقفور وقضى بعض الوقت –على ما يبدو– في البلاط وبعدما شعر بقوته ومكانته لم يتردد في الإقدام على الزواج من الطبقة الأرستقراطية البيزنطية، وبمجرد

---

(1)Choniates, *Annals*, p.xxv,44-45,377 n. (216); Brand,"The Turkish Element ",p.8.

(٢) كيناموس ، أعمال يوحنا ومانويل ، ص٢٥٢.

(3) Heath & McBride, *Men at Arms* ,pp.34-35.

وصول ألكسيوس كومنين إلى العرش عام ١٠٨١م/٤٧٤هـ فقد تزاخاس مكانته، فلجأ إلى امتهان القرصنة بعدما جهز أسطولا وتعاون مع البشناق ، وأخذ يستميل الأتراك القادمين من المشرق لمعاونة ألكسيوس كومنين بأن ينضموا إلى جانبه ، وبذلك فقد الإمبراطور ألكسيوس أعدادا كبيرة من المرتزقة الذين كانوا قادمين لمساعدته، وحوالي عام ١٠٩١م/٤٨٤هـ ادعى تزاخاس أنه إمبراطور ، واستخدم هذا اللقب وخطط لاغتصاب العرش الإمبراطوري في العاصمة الإمبراطورية ،واستمرت الحروب دامية بين تزاخاس وألكسيوس كومنين ، وعندما شعر تزاخاس بدنو هزيمته أخذ يلتمس الصلح من القادة البيزنطيين مقابل الإبحار سالما إلى أزمير هو ومن معه فوافقوا بعد أن تبادلوا الرهائن من الجانبين ، ولم يرضخ تزاخاس لهذا الصلح وهاجم أزمير ودعم مركزه بها واتخذها قاعدة له وجهز مراكبه الحربية للوقوف ثانية في وجه ألكسيوس كومنين، فاستطاع ألكسيوس إثارة القلاقل بين تزاخاس والسلطان قلج أرسلان بأن أوقع العداوة بينهما، والنتيجة أن قام رجال قلج بالقضاء عليه، ثم عقد قلج اتفاق السلام مع ألكسيوس(١).

نستطيع مما سبق أن نرسم صورة لموقف البيزنطيين(سواء أباطرة أم مؤرخين أم عامة) من الأجانب، ومن خلال هذه الصورة نستطيع أن نقرر أن موقف الأباطرة تجاه الأجانب كان على النقيض من موقف العامة والمؤرخين ، فكان البلاط الإمبراطوري يرحب بجميع الوافدين الجدد، كما كان للوجهاء الأسرى من المسلمين وضع خاص، وحينما يتنصر المسلم فباستطاعته الوصول لمناصب تفوق مناصب البيزنطيين أنفسهم . ولارتباط معظم الشخصيات التي اندمجت في المجتمع البيزنطي بالبلاط الإمبراطوري والجيش، والحياة السياسية فإن علاقة هؤلاء بطبقة العامة غير واضحة، فالمجتمع بطبيعته كان مجبولا على رفض الأجانب ولديه خوف غريزي منهم ، وبعيدًا عن تقبل طبقة العامة للأجانب أو عدم تقبلهم فإنهم أصبحوا واقعًا مفروضًا على البيزنطيين الذين لم يكن باستطاعتهم الاعتراض على الأوامر الإمبراطورية العليا إلا نادرا، وبصفة عامة كانت الكراهية تسيطر على المجتمع البيزنطي ضد جميع الأجانب، ونظر المجتمع البيزنطي للمسلمين نظرة عدائية إذ كان هناك اعتقاد بأن " المسلم مرهوب ومكروه "(٢). كما

---

(١) أنا كومنينا ، الألكسياد ، ص٣٢١ ،٣٤٦-٣٤٨ ، ٣٥١- ٣٥٣ ؛
Brand ,"The Turkish Element " ,pp.2-3.
وكان بالبلاط الإمبراطوري شخص اسمه سينادينوس Synadenus من أصل شرقي وكان شريفا جميل الهيئة ، ذكيا، شجاعا في الحرب وله صلة قرابة بالإمبراطور، وتجمعت هذه الأسباب لتحمل الإمبراطور بوتنياتس على أن يستخلفه على عرش الإمبراطورية ويورثه له. انظر: أنا كومنينا ، الألكسياد ، ص٩٢.

(2)Meyendorff ,"Byzantine Views of Islam",p.130.
أخطأ كثير من الكتاب الغربيين وجانبهم الصواب في ادعائهم بأن المسلمين أعداء للسيد المسيح؛ لأن المسلمين يجلونه ويبجلونه كحال جميع الأنبياء والمرسلين فهو شرط لصحة الإيمان لديهم، ويبدو أن هؤلاء الكتاب كانوا

وُصف المسلمون بالانعزالية وأن تعامل المسيحيين معهم كان عند الضرورة وفي أضيق نطاق، وأنهم كانوا مثل اليهود في بيزنطة فهما فئتان "منبوذتان اجتماعيا " عاشتا على خليج القرن الذهبى [١]. ولم تقابلنا شخصية مثل ألكسيوس أكسوخ الذي استطاع تخطي الحاجز النفسي لدى العامة والضباط والجنود، وصنع شعبية كبيرة له ، مع الأخذ في الاعتبار أنه ولد في بيزنطة وتربى وتعلم فيها ، وربما مهدت له تلك الظروف ليتقبله الشعب، فضلا عن الفضائل الأخرى التي تمتع بها، والتي لو توافرت في شخصية أخرى أجنبية غير بيزنطية المولد لكان للمجتمع البيزنطي رأي آخر فيه.

ومع كراهية المؤرخين البيزنطيين للعنصر التركي فإن ذلك لم يمنعهم من الثناء على قوتهم وشجاعتهم ، حيث أشار الخونياتي أن القوات التركية المحاربة للبيزنطيين مغرورة جدا بفضل خيولهم التي تسابق الريح في سرعتها، وأن هؤلاء الأتراك كانوا يحتقرون البيزنطيين كثيرا[٢]. وتعترف الأميرة أنا كومنينا أن الجنود الأتراك من أكفأ الجنود في جيش ألكسيوس كومنين[٣]، أما الإمبراطور والمؤرخ ليو السادس فقد أشار إلى عدد الأتراك الكبير جدًا، كما عرَّج على شجاعتهم في الحروب، وتكتمهم أسرار خططهم، وتسليحهم الجيد ، وعدم انخداعهم بالعطايا، وذكائهم في وضع الحيل، وإرباكهم للأعداء بالخدع والهجمات المفاجئة[٤] .

وأثبتت الأعداد الكبيرة للأتراك النازحين إلى بيزنطة قدرة الأساليب البيزنطية المختلفة في جذب العناصر الأجنبية وإدماجهم داخل المجتمع البيزنطي ، إلا أنه كانت هناك بعض الموانع التي أعاقت اندماج الأتراك الكامل داخل بيزنطة –شأنهم في ذلك شأن جميع المسلمين– ومن تلك الموانع القوية حاجز اللغة بين الجانبين؛ حيث كانت لغة الأتراك مختلفة تمام الاختلاف عن لغة البيزنطيين، فضلا عن أن أسلوب حياة التركي المهاجم اختلفت عن حياة

يلجأون إلى تلك الحيلة لإثارة حماسة الشعوب الغربية وتحريضهم ضد الإسلام وأهله من المسلمين، وهو ما ذكره المؤلف يعقوب الفيتري نفسه في هذا الصدد. كما أن هذا النمط من الكتابة كان سائدا عند معظم المؤرخين والرحالة الأوروبيين في العصور الوسطى. انظر: الفيتري (يعقوب) ، تاريخ بيت المقدس ، ترجمة سعيد عبد الله البيشاوى ، دار الشروق ، فلسطين ، الطبعة العربية الأولى ١٩٩٨م ، ص ١٠٥ ؛

Anooshahr ,A., " Saracens: Islam in the Medieval European Imagination by John V. Tolan (review)" *A Journal of Medieval and Renaissance Studies,* 34 ,(2003), university of California , p. 266 . .

(1)Boulle & Soulban , *Constantinople* , p12 ; Bouras, " Master Craftsmen " , p . 531.

(2)Choniates , *Annals* , p.18 .

(٣) أنا كومنينا ، الألكسياد ، ص٢١٨ .

(4)Leo V1 , *Taktika* p. 455 .

المواطن البيزنطي، وأخيرًا فإن العنصر التركي كان عدو بيزنطة اللدود، لكن هذه العداوة لم تكن لها أهمية كبيرة بين عوائق القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين(١).

وإن كانت اللغة قد أعاقت الأتراك من الاندماج الكامل في المجتمع البيزنطي فإنها وقفت أيضًا حاجز عثرة أمام الاندماج التام لمعظم – إن لم يكن جميع – الأجانب في بيزنطة، وقد مر بنا كيف أن جريجورى باكوريانوس أسس ديرا للأرمن والجورجيين، وكان من بين رهبان هذا الدير من كانوا جنودا فى السابق ولم يكن باستطاعتهم تحدث اليونانية بطلاقة – أى أن عامل اللغة وقف حاجز عثرة أمام اندماجهم الكامل في المجتمع البيزنطي – وقد قلل ذلك من روابطهم الاجتماعية خارج الدير، لذلك جعل باكوريانوس كتابة التيبكا Typikon فى ثلاث لغات: يونانية، وجورجية، وأرمينية، وذلك من أجل تلبية حاجاتهم، ويبدو أن هؤلاء الجنود عاشوا في هذا المجتمع ودخلوا حياة الرهبنة بعدما وصلوا لأرذل العمر؛ لأنهم لو كانوا من الشبان فكيف تَأَتَّى لهم ترك الجندية في الجيش البيزنطي والعيش في بيزنطة في الوقت الذي كانت فيه بيزنطة في أمس الحاجة للجنود؟ (٢) ووقف حاجز اللغة أيضًا أمام الاندماج الكامل للحرس الإمبراطوري (الفارانجيين) في البلاد ، حيث كانوا يقدمون مدحهم للإمبراطور بلغتهم الخاصة (٣). ويبدو أن حاجز اللغة كان له أثر كبير في توسيع الفجوة بين البيزنطيين واللاتين ؛ إذ كانت الرسائل الدينية الواردة وغيرها من الرسائل السياسية تحتاج إلى مترجمين في البلاط الإمبراطوري ، وهذا بطبيعة الحال يبرز لنا مدى أهمية هؤلاء المترجمين في البلاط؛ لاطلاعهم على أسرار الرسائل ولما لهم من قدرة على التلاعب بالألفاظ(٤) وكانت وظائفهم في غاية الأهمية ، ويحظون بمكانة رفيعة عندما يظهرون إخلاصهم للإمبراطور ، وخاصة حينما يكونون من جنس من يحاورونهم وعلى دراية بعاداتهم وتقاليدهم(٥) وقد أطيح بأحد المترجمين اللاتين في بلاط مانويل وهو أهارون إسحاق Aaron Isaakios من كورنثه – و كان قد أخذ أسيرًا إلى صقلية وفيها أجاد اللغة اللاتينية ثم أصبح مترجما للاتين في بلاط مانويل– بعد اتهامه بخيانة

---

(1) Brand ,"The Turkish Element " ,p.1.

(2)*Typikon of Gregory Pakourianos* ,ch.23, pp. 507 – 510.

(3)Blondal , *Varangians* , p . 180 .

(٤) كيناموس ، أعمال يوحنا ومانويل ، ص٨٠ – ٨١ ؛ نقفور بطريرك القسطنطينية (٨٠٦ – ٨١٥م) ، التاريخ المختصر ، هانئ عبد الهادي البشير ، مجلة المؤرخ المصري ، العدد السادس والعشرون ، يناير ٢٠٠٣م ، ص ٤٢ .

(٥) أنا كومنينا ، الألكسياد، ص ٥٢٣ .

الإمبراطور وإفشاء خططه وتحريفه في ترجمة لقاءاته مع الوفود اللاتينية وتكييفها بما يلائم مصالح الغرب أملا في كسب رعاية الإمبراطور لهم(١) .

وفيما يخص اندماج اللاتين في المجتمع البيزنطي فهناك بعض الغربيين – على الأغلب أنهم نورمان من جنوب إيطاليا – وجدوا طريقهم إلى المجتمع البيزنطى طمعًا في جمع ثروات خاصة محاولين الاستقرار فى بيزنطة والخضوع للقوانين البيزنطية، وحقق بعضهم جزءًا من التكامل والاندماج داخل المجتمع البيزنطى وثلة قليلة منهم اندمجوا اندماجًا كاملا وأصبحوا بيزنطيين أو رومان، وبداية اندماج هذه العائلات في المجتمع البيزنطي كانت في عهد ألكسيوس كومنين خلال حروبه مع بوهمند النورماني بعد محاولاته الكثيرة استمالة مجموعات من النورمان إلى جانبه ضد بوهمند ، فاستقدم اثنين من النورمان هما روجر Roger أحد كبار اللاتين، وبطرس الأليفي Petr Aliphas الذي ذاعت شهرته الحربية ولم يكن هناك شك في ولائه للإمبراطور(٢). بالإضافة إلى المغامرين النورمان الذين دخلوا بيزنطة كجنود بأعداد كبيرة خلال القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى، وهؤلاء أصبحوا بيزنطيين بما يكفى؛ لأنهم طبعوا أختامهم بالنقوش البيزنطية، ورغم ذلك لا نعرف هل تزوجوا من بيزنطيات أم لا ؟ حيث أن الزواج المختلط بين البيزنطيين واللاتين كان يحدث فى ظروف استثنائية، ولأسباب دبلوماسية، ولكى نرى هذه العائلات تستمر لأكثر من جيل فى بيزنطة فيجب أن تكون أرثوذكسية العقيدة وتتحدث اليونانية . وأمامنا ثلاث حالات فقط لهذه العائلات اللاتينية التى

---

(1)Choniates, *Annals*, p.82.

؛ عبد العزيز رمضان ، العلاقات البيزنطية– اللاتينية ، ص١٢٠-١٢١ .

تقلد أهارون أيضا منصب قائد الحرس الإمبراطوري، وباعتباره كان زعيمًا للحزب اللاتيني في البلاط فقد شب صراع بينه وبين قائد فرقة المرتزقة الأتراك في الجيش البيزنطي وهو ألكسيوس أكسوخ Alexius Axouch من أجل النفوذ، ونجح الحزب اللاتيني في إثارة شكوك الإمبراطور ضد ألكسيوس . انظر:

Brand, "The Turkish Element " , pp.9-10 .

؛ عبد العزيز رمضان ، العلاقات البيزنطية– اللاتينية ، ص١٢٠.

(٢) أنا كومنينا ، الألكسياد ، ص ٥٠٩ ، ٥١٠ .

بعدما اجتمعا لدى ألكسيوس سألهما أن يشيرا عليه بما ينبغي فعله لإلحاق الهزيمة ببوهمند وطلب منهما أيضًا أن يدلاه على أشخاص آخرين من النورمان يمكن أن يثق فيهم ويعتمد عليهم فأرشداه إلى أسماء رجال من النورمان حاول ألكسيوس جاهدا ضمهم إلى صفه ؛ ليدب التنافر في صفوف النورمان ، وينهار جيش بوهمند على أيدي هؤلاء الرجال ، ولم يكن ألكسيوس مصيبا في اختيارهم جميعًا إلى جانبه لأننا نجد منهم بعض الشخصيات غير الصادقة في ولائها الذي أقسموا عليه للإمبراطور مثل السيباستوس مارينوس Sebastus Marinus سليل إحدى الأسر الحربية الكبيرة في نابلي، لكن ألكسيوس كان واثقا في الاعتماد عليه لتنفيذ خطته السرية المتعلقة –على الأقل– ببوهمند .انظر: المصدر السابق، ص ٥٠٩ ، ٥١٠ .

اندمجت بنجاح داخل المجتمع البيزنطى ، وكانوا أحفادا لثلاثة مغامرين نورمان داخل بيزنطة فى القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى، وهم عائلات آل روجر Rogerios ، و راؤول Raoul، و بطرس الأليفي Petraliphas [١].

انحدرت عائلة روجر Rogeres أو Rogerios الذى كان له أسماء كثيرة باليونانية من محارب يدعى روجر كان فى جيش روبرت جويسكارد وذهب إلى الإمبراطور ألكسيوس عام ١٠٨١م /٤٧٤هـ الذى كافأه بلقب سيباستوس Sebastus وعندما مات روجر فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى رثاه أحد الشعراء البيزنطيين في قصيدة وصفت بوضوح تغير حياته وانتقاله من الغرب الأوروبى إلى الشرق البيزنطى، وسردت مآثره وبطولاته فى الحرب مع إيطاليا، إذ إنه بعد أن ذهب إلى ألكسيوس عفا عن ماضيه، وأكرمه، وتزوج من عائلة بيزنطية نبيلة، وأصبح والدا لأطفال بيزنطيين، واندمج اندماجا كبيرا فى هذا المجتمع وحارب أعداءه بشجاعة، وأرسله ألكسيوس إلى بوهمند للتفاوض معه على الصلح؛ لكونه أولى الناس وأعلمهم بالعادات اللاتينية . أما ابنه قنسطنطين روجر فقد توفى قبل عام ١١٣٦م/٥٣٠هـ وكان أيضًا قد حصل على رتبة سيباستوس وتحول إلى الأرثوذكسية وخلد ذكراه بإحسانه إلى دير بانتوكراتور Pantokrator[٢].

---

(1)Choniates , *Annals*, p. 49; Nicol, " Some Greco – Latin Families " , p. 114,122 .

نجد من بين الموقعين على معاهدة ديفول Devol بين بوهمند أمير أنطاكية وألكسيوس كومنين فى سبتمبر سنة ١١٠٩م/ ٥٠٣هـ ثمانية أسماء لاتينية بصفة عامة، وهؤلاء لا نعرف إلا القليل عن أحفادهم، والراجح أن اثنين فقط منهم تزوجا من البيزنطيات، وأنجبا أطفالا حملوا أسماء عائلاتهم خلال أكثر من جيل، وهما عائلة بيتراليفاس وعائلة راؤول. انظر: أنا كومنينا ، الألكسياد ، ص٥٤٠ ؛

Nicol , " Some Greco – Latin Families", pp. 113 – 114 .

(٢) أنا كومنينا ، الألكسياد ، ص٥٢٣ ؛

Nicol , " Some Greco – Latin Families " , pp.122 – 124 .

كنيسة Pantokrator أُقيمت على التل الرابع للقسطنطينية وسط الصروح البيزنطية العظيمة، وأصبحت مقبرة لسلالة آل كومنين . بناها الإمبراطور حنا الثانى كومنين بعد اعتلائه العرش الإمبراطورى باسم زوجته الإمبراطورة إيرين ابنة ملك بلغاريا، ولا يعرف تحديدا تأريخ بنائها، وعلى الأرجح عام ١١٣٦م / ٥٣٠هـ انظر :

Typikon of Emperor John 11 Komnenos, ch.28 , p. 725; Choniates , *Annals*, p. 29, 370 n. (121) ; Riley , *Athos the Mountain of the Monks*, p. 102.

كان لقب السيباستوس قبل عهد ألكسيوس كومنين خاصًا بالأباطرة لا يشاركهم فيه أحد، إلا أن ألكسيوس عمد إلى التوسع في استخدام هذا اللقب وخلعه على من هم دون الإمبراطور، لابتداع ألقاب ووظائف إمبراطورية جديدة . انظر : أنا كومنينا، الألكسياد ، ص ١٤١ .

– مجرد ذكر تحول قنسطنطين هنا للأرثوذكسية يجعل الشك يتسرب إلينا في تحول أبيه روجر الفعلي للأرثوذكسية؛ لأنه لو كان قد تحول فإنه من الطبيعى أن ينشأ أولاده أرثوذكسيين بالفطرة .

وربما يكون حنا دالاسينوس روجر John Dalassenos Rogerios ابنه أيضًا، وتزوج حنا هذا من ماريا كومنينا وهى الحفيدة الكبرى للإمبراطور حنا الثانى وأخت مانويل الأول، وحصل على لقب قيصر عند زواجه منها، وسرعان ما أصبح الرجل الأقوى فى البلاط الإمبراطورى، وعندما توفى حنا الثانى عام ١١٤٢م /٥٣٦هـ دبر مؤامرة مع حوالى أربعمائة نورمانى للاستيلاء على العرش، لكن ما لبث أن توقف هذا الانقلاب بوفاة زوجته ماريا عام ١١٤٤م/٥٣٨هـ أو١١٤٥م /٥٣٩هـ ، وكان لهذا الرجل دور فعال فى الحياة السياسية ، بل وشارك فى المجمع الكنسى الذى خلع البطريرك كوزماس kosmas الثانى عام ١١٤٧م/٥٤٢هـ، واشتهر بثروته الهائلة التى تألفت من أراض كثيرة ومقاطعات فى أماكن متفرقة من بيزنطة، والتى كانت مثارا للحديث حول ثراء النورمان فى بيزنطة . وترهب هذا الرجل قبل وفاته(١). وكان أندرونيقوس روجر Andronikos Rogerios أحد أفراد عائلة روجر، اتخذ لقب كومنين بدلا من روجر، وكان قائدا لحرس البلاط فى قصر البلاخرناى حوالى عام ١١٩١م /٥٨٧هـ، ولقبه كان Prokathemenos وأظهر دينه الأرثوذكسى بتأسيس دير Theotokos Chrysokamariotissa فى القسطنطينية، وربما يختفي لقب روجر بعد نهاية القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى(٢).

أما وضع عائلة راؤول النورمانية فقد اختلف عن عائلة روجر رغم ما قيل عنهما بأنهما إخوة ، فقد لجأ راؤول أيضًا إلى ألكسيوس في عام ١٠٨١م / ٤٧٤هـ هربًا من بطش روبرت جويسكارد وابنه بوهمند، وتعامل معه ألكسيوس مثلما تعامل مع روجريوس لكنه اشتهر بلقب رودولف Rudolfus وكان له دور أيضًا فى الحياة السياسية، وتزوج وعاش فى بيزنطة(٣) أما ذريته فهم: ليون Leon الذى كان أحد أفراد عائلته – غير واضح إن كان ابنه أم حفيده – وكان

---

(1) Nicol , " Some Greco – Latin Families " , pp.124 – 125.

يبدو أن حنا اكتسب لقب Dalassenos من جانب الأم، لذا فلابد أن روجر كان متزوجا من هذه العائلة، وحنا قد فضل لقب عائلة الأم على لقب روجر باعتبار أن هذا اللقب كان أكثر بربرية في نظر المجتمع البيزنطي، ولم يستمر هذا اللقب بعدما لفظه حنا. انظر:

Nicol , " Some Greco – Latin Families " , p. 125 .

(2)Nicol , " Some Greco – Latin Families " , p.126 .

مُنح لقب Prokathemenos للموظفين المدنيين المسئولين عن إدارة المدن، والذين كان لهم اختصاصات مالية محددة ، وظهر هذا اللقب في القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري. انظر:

Hendy , M.F., Studies in the Byzantine Monetary Economy c.300-1450 , Cambridge University , 1985, p.440 ; Bartusis ,M.C., Land and Privilege in Byzantium . the Institution of Pronoia ,Cambridge University , 2012 , p.198.

(3)Choniates , *Annals*, p. 400, n. (1262) ; Nicol , "Some Greco-Latin Families",p.127.

راهبًا أرثوذكسيًا اندمج تمامًا فى المجتمع البيزنطى فى بداية عام ١١٣٩م /٥٣٣ هـ وخلد اسمه أيضًا كمحسن لدير بانتوكراتور Pantokrator ، وقنسطنطين راؤول الذي حصل على رتبة سيباستوس فى عهد إسحاق الثانى، وانضم إلى المتآمرين الذين أعلنوا ألكسيوس الثالث إمبراطورًا ضد إسحاق عام ١١٩٥م / ٥٩١هـ، وهكذا نجد عائلة راؤول على النقيض من عائلة روجر يفتخرون بلقبهم النورمانى، ولم يخجلوا بإضافته إلى أسمائهم(١) .

والعائلة الثالثة هى عائلة بطرس الأليفي الذي وقع مؤسسها أيضًا على معاهدة ديفول، وكان من Alifa وحارب مع روبرت جويسكارد، وبعد وفاة روبرت عام ١٠٨٥م/٤٧٨هـ ذهب إلى المعسكر البيزنطى وعين حاكمًا على قبادوقيا ، واشتهر بشجاعته وولائه الكبير للإمبراطور ألكسيوس الذي منحه عقارات فى منطقة Didymoteichon فى تراقيا(٢) .

ويشير الخونياتي إلى شجاعة أربعة من عائلة بيتراليفاس من منطقة Didymoteichon وإقدامهم أثناء حملة مانويل لاسترداد كورفو من النورمان عام ١١٤٨م/٥٤٣هـ ، وظهر لنا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى بطلان من العائلة ذاتها وهما نقفور الذي ظهرت شجاعته فى الحرب مع البلغار عام ١١٦٦م / ٥٦١هـ، وألكسيوس الذي حصل على لقب سيباستوس وقاد عام ١١٧٣م / ٥٦٨هـ حملة ضد قلج أرسلان فى الأناضول، أما حنا بطرس الأليفي John Petraliphas فكان من بين المتآمرين ضد إسحاق الثانى(٣) وعندما انشق ثلاثة من المرتزقة اللاتين عن الإمبراطور ألكسيوس كومنين وحاولوا قتله، بعدما كبر عليهم أن يروا الإمبراطور ثابتا ضد خصومه النورمان كان من بينهم

---

(1)Choniates , *Annals*, p. 247; 400 n.(1262) ; Nicol, " Some Greco – Latin Families " , pp. 128-129.

(٢) أنا كومنينا ، الألكسياد ، ص ٥٤٠ ؛

Choniates , *Annals*, p. 400 n.(1261); *Nicol*, " Some Greco – Latin Families " , p. 131 .

هذا هو وضع الأجانب المندمجين في المجتمع البيزنطي أما إذا نظرنا إلى البيزنطيين أنفسهم سنجد الوضع مختلفا تماما، فهناك مجموعات من الأحرار ذوي الأصل الكريم فى بيزنطة، وصلوا إلى مستوى العبودية، بعدما اضطروا تحت الظروف القاسية إلى الدخول فى خدمة أناس آخرين عاملوهم معاملة العبيد، فكانوا يدفعون لهم أجرًا يوميًا مقابل العمل لديهم، وفرضوا عليهم عقوبات، وعندما ازدادت أعداد هؤلاء فى المجتمع البيزنطى أصدر الإمبراطور مانويل كومنين مرسومًا أعطى الحق لهؤلاء الذين باعوا أنفسهم بسبب الفقر –وهم فى الأصل أحرار– أن يتحرروا من سلطة غيرهم؛ لأنه رغب فى أن يحكم أحرارًا لا أسرى. انظر: كيناموس ، أعمال يوحنا ومانويل ، ص٢٦٢ – ٢٦٣ . وهناك مجموعة أخرى من الأحرار كانوا يبيعون أنفسهم أو زوجاتهم للعبودية نظرًا للظروف القاسية والحاجة إلى المال.انظر:

Theophanes , *Chronicle* , p . X IV , 157 ; Dagron , " The Urban Economy" , p.420 .

(3) Choniates , *Annals*, p. 49, 247; Nicol, "Some Greco– Latin Families", p. 132 .

بطرس الذي نعت نفسه بابن الأليفي ، واستطاع ألكسيوس الإفلات من قبضتهم [١] وأيام استيلاء اللاتين على القسطنطينية كانت عائلة بطرس الأليفي قد اندمجت تمامًا داخل المجتمع البيزنطي ،وكانوا يمتلكون الأراضى فى تراقيا وسالونيك، وباستقراء الأحداث في القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى نجد أنه يخلو تمامًا من أى مغامرين نورمان آخرين ممن تطلعوا للاستقرار فى بيزنطة، وتحدثوا اليونانية، وتحولوا للأرثوذكسية، واتخذوا أسماء بيزنطية[٢].

وهناك بعض الشخصيات اللاتينية الأخرى التي لجأت إلى البلاط الإمبراطوري أملا في إكرامهم والإحسان إليهم، مثل النورماني وليم كلاريليس William Clareles الذي شق طريقه إلى بلاط ألكسيوس كومنين ، وكان في السابق أحد كونتات بوهمند وبعدما أيقن أن جيش بوهمند على وشك الفناء جراء المجاعة التي استفحلت، والطاعون الذي استشرى خطره قرر الفرار إلى ألكسيوس متوسمًا فيه الكرم فأنعم عليه ألكسيوس بلقب النبيل الأعظم، وأغدق عليه الكثير من نعمه وحباه بعطفه[٣] .

ولم يقتصر اندماج الشخصيات في بلاط ألكسيوس على الأتراك واللاتين فقط، إذ نجد شخصيات أخرى عمق اندماجها في البلاط الإمبراطوري حينئذ، مثل القائد الشهير أرجيروس كاراتزاس Argyros Karatzas الذي كان بشناقي الأصل، وقيل إن هذا الرجل هو مؤسس أسرة وجدت في مختلف البلدان البلقانية، وهي عائلة كارادجا Karadja (Romanian Caragea) ، وقد أهلته إنجازاته العسكرية وولاؤه للإمبراطور فضلا عن أخلاقه وفضائله ليكون أحد الوجهاء وأهمهم عند ألكسيوس كومنين، إذ عينه ألكسيوس قائدًا للحرس الإمبراطوري ، وقد حارب البشناق في ديسترا عام ١٠٨٧م/٤٨٠هـ ، ثم عُين دوقا لفيليبوبوليس، وفي عام ١٠٩٥م/٤٨٨هـ أصبح قائدا للمرتزقة ، واسم كارادجا هذا كان اسما لإحدى العائلات، واسما لبعض الأماكن في رومانيا وخاصة تلك الأماكن التي لها صلة بالبشناق أو الكومان [٤].

---

(١) أنا كومنينا ، الألكسياد ، ص١٨٩.

(2)Nicol, " Some Greco – Latin Families " , p. 129,133.

(٣) أنا كومنينا ، الألكسياد ، ص ٥٢٢ .

(٤) أنا كومنينا ، الألكسياد ، ص ٣٣٣، ٣٨٥ ؛

Madgearu," Pechenegs in the Byzantine Army",pp.216-217 .

كان المشرف على ضياع مصر في عهد الإمبراطور جوليان المرتد (٣٦١-٣٦٣م) يحمل لقب الدوق في العصر البيزنطي الباكر ، وفي العصر البيزنطي الأوسط كان لقبًا لحاكم أنطاكية ، ثم ظهر ضمن الألقاب البيزنطية في نهاية القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري إشارة للحكام في أكثر من ولاية ، وربما كان ذلك نتيجة تحول عدد من

وامتد كرم ألكسيوس كومنين ليشمل الشخصيات التي أساءت للبيزنطيين ولشخص الإمبراطور نفسه ثم جاءت تطلب العفو، ولنا المثل في قادة الحملة الصليبية الأولى وموقفه منهم في بلاطه، بشهادة اللاتيني وليم الصوري نفسه الذي أشاد بحسن ضيافة ألكسيوس وكرمه للسفراء، والحكام، واللاجئين اللاتين (١).

ومن بين خلصاء مانويل كومنين من اللاتين كان ألكسندر من كونفرسانو كونت جرافينا Alexander of Conversano Count of Gravina الذي تمرد ضد سيده روجر الثاني ملك صقلية ، ولجأ إلى بلاط كونراد الثالث الألماني ومن هناك وفد على القسطنطينية في مهمة دبلوماسية ، غير أنه قرر البقاء في بيزنطة ، وعينه مانويل قائدا للجند المرتزقة من النورمان الذين عرفوا في الحوليات البيزنطية باسم "الكلت" ، ومثل الإمبراطور في المباحثات التي كانت تدور بين الحين والآخر مع البندقية وأنكونا ، ووقع معاهدة مع ملك بيت المقدس اللاتيني عموري الأول (١١٦١-١١٧٤م/٥٥٦-٥٦٩هـ) التي بموؤداها تقرر أول هجوم بيزنطي لاتيني على مصر عام ١١٦٦م/٥٦١هـ(٢) .

و قد غالى مانويل في محاباة اللاتين وتوسع في روابط الزواج معهم ، وهذا الرباط هو أحد صور الاندماج بين المجموعات العرقية المختلفة، ورغم أن الزواج بين البيزنطيين وغيرهم من الخارجين عن دائرة الكنيسة الأرثوذكسية يعد زواجا غير شرعي طبقا للقوانين البيزنطية الشائعة (٣) فإن القصر الإمبراطوري ذاته كان أول من تجاوز تلك القوانين، حيث كانت المصاهرات السياسية مع البيوتات الحاكمة في الغرب اللاتيني هى أحد أسلحة مانويل الدبلوماسية التي استخدمها على نطاق واسع ، فضلا عن كونه لاتينيا في ولائه السياسي، ويكفي للدلالة على ذلك أنه تزوج من أميرتين لاتينيتين الأولى برتا سالزباخ Barth of Sulzbach ألمانية المولد التي استُقبلت بحفاوة زائدة عندما وصلت القسطنطينية عام ١١٤٢م/٥٣٦هـ ، والثانية ماريا الأنطاكية التي تزوجها عام ١١٦٩م/٥٦٤هـ بعد وفاة برتا، وفي عام

المدن التي استولى عليها البيزنطيون من المسلمين إلى ثيمات أو دوقيات فأطلقوا على حكامهم لفظ دوق تمييزا لهم عن الإستراتيجوسات (حكام الثيمات) . انظر: طارق منصور ، "الوظائف والألقاب البيزنطية "، ص١٤٢-١٤٣.

لا عجب أن نجد ألكسيوس يحارب البشناق ورئيس حرسه الأجنبي بشناقي المولد لأن مثل هؤلاء الأجانب ذوي المقامات الرفيعة في بيزنطة كانوا قد اندمجوا تمامًا في هذا المجتمع، ومع الحياة المرفهة التي يعيشونها تناسوا أصلهم وصلة قرابة التي تجمعهم ببني جلدتهم.

(١) الصورى، الحروب الصليبية ، جـ١ ، ص١٦٣ - ١٦٧ ، ١٧٢-١٧٥ ، ١٨٢-١٨٧.

(٢) إسحاق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص ١٧٩ .

(٣) عبد العزيز رمضان ، العلاقات البيزنطية- اللاتينية ، ص١٢٢ .

١١٧٩م/٥٧٤هـ نجد سفينة جنوية تقل آني Agnes ابنة الملك لويس السابع الكبرى إلى مدينة القسطنطينية للزواج من ابنه ووريث عرشه ألكسيوس وليد الغرفة الأرجوانية، وكان عمرها حينئذ تسع سنين ، وأعدت لها مراسم استقبال في غاية الترف والبذخ ، واستطاعت كل من بيرتا وآني التعايش والاندماج إلى حد كبير مع الحضارة البيزنطية ، بعدما غيرت الأولى اسمها اللاتيني متخذة الاسم البيزنطي إيرين الذي يعني (سلام) وهو الاسم الأكثر شيوعا للعرائس الأجنبيات ، كما غيرت آني زوجة ألكسيوس اسمها إلى أنّا [(١)].

ويعلق وليم الصوري على نظرة البيزنطيين للاتين بعدما يقدم لنا صورة أوضح عن وضع اللاتين في المجتمع البيزنطي وتحديدا في بلاط مانويل ، فيذكر أن مانويل كان ينزل اللاتين المنزلة السامية ، لذا فقد عده رجال هذا الجنس الذين قدموا من جميع أنحاء العالم المنعم العظيم عليهم ، واستوى في هذه النظرة إليه أشرافهم وعامتهم ، وراحوا يتزاحمون على بلاطه في لهفة ، مما زاد من عطفه عليهم ولم يقصر في بذل جهده لتحسين وضعهم ، ويواصل وليم الصوري حديثه بأنه قد ترتب على هذه الرعاية الكبيرة من جانب مانويل للاتين أن توغرت

---

(١) كيناموس، أعمال يوحنا ومانويل ، ص٥٤ ؛

Hilsdale ,C.J.," Constructing A Byzantine Augusta , A Greak Book for a French Bride" , *Art Bull* 87 , No 3, 2005,p.458,460-461.

واستخدم مانويل ابنته الوحيدة الأميرة ماريا كورقة رابحة في العديد من مشروعات المصاهرة مع الغرب اللاتيني، إذ تفاوض على زواجها من بيلا ملك المجر Bela of Hungary ، وهنري الثاني ملك إنجلترا Henry II of England ، ووليم الثاني ملك صقلية William II of Sicily ، وهنري بن فردريك بربروسا ، وأخيرًا النبيل الإيطالي رينير مونتفيرات Renier of Montferrat الذي كانت من نصيبه في نهاية الأمر عام ١١٧٩م/٥٧٥هـ . ولم تقتصر سياسة مانويل على جلب زوجات لاتينيات فحسب ، وإنما امتدت لتشمل أيضا تزويج البيزنطيات في المناطق اللاتينية شرقا وغربا وخاصة أميرات البيت الإمبراطوري؛ للعمل على خلق وجود مؤثر له في العالم اللاتيني، بحيث تكون هؤلاء الأميرات ممثلات له هناك، وبجوار حكام تقتضي مصلحته العليا أن يدخلهم في دائرة نفوذه. انظر: Choniates, *Annals*, p.72 ؛ عبد العزيز رمضان ، العلاقات البيزنطية– اللاتينية، ص١٢٣ – ١٢٤ .

وهناك سؤال يطرح نفسه وهو: هل كانت جميع الأميرات البيزنطيات راضيات عن الزواج من الأجانب بصفة عامة؟ والراجح أن بعضهن كن رافضات له بدليل أنه حينما قرر باسيل تزويج الأميرة أنّا من فلاديمير كانت أنّا غير راغبة في ذلك وغاضبة من زواج هذا البربري، وعندما علم فلاديمير بهذه الحقيقة قرر تحقيق هدفه والزواج منها بالقوة، فهاجم إقليم خرسون واستولى عليه بين إبريل ويوليو ٩٨٩م/ ٣٧٩هـ ، وبعدما فقدت بيزنطة هذا الإقليم اضطر باسيل إلى تزويج أنّا من فلاديمير، وبمجرد عقد ذلك الزواج عاد الإقليم لأحضان الإمبراطورية كمهر لهذه الأميرة وليدة الحجرة الأرجوانية . انظر:

Poppe ,A. , " The Political Background to the Baptism of Russ, Byzantine – Russian Relations between 986 – 89 " , *Dumbarton Oaks papers,* vol. 30 . (1976), p. 198 .

ضدهم صدور أشراف البيزنطيين، لاسيما أقارب الإمبراطور من الدرجة الأولى ، كما توطنت البغضاء في نفوس غيرهم فامتلأت القلوب كلها بالحقد الأسود الذي لا تنحل عقدته ، وزاد من كراهيتهم الاختلاف الموجود بين طقوس كل منهم [١].

وقد أثارت محاباة مانويل للاتين غضب العامة في بيزنطة مما جعلهم ينقضون على اللاتين بعدما سنحت لهم الفرصة، وذلك بعد وفاة مانويل كومنين عام ١١٨٠م/٥٧٦هـ وكان قد خلفه ابنه ألكسيوس الثاني البالغ من العمر اثني عشر عامًا، فتولت الوصاية عليه والدته ماريا الأنطاكية الفرنسية الأصل، وأثارت سياستها التي تتعصب فيها لأبناء جلدتها من اللاتين الشعب البيزنطي كله، فنظر الشعب ليجد التجار البنادقة والجنويين والبيازنة يعيشون في رفاهية زائدة، بعدما استأثروا بخيرات البلاد دونهم، في الوقت الذي كان فيه الشعب يعاني من آلام الفقر، فانفجرت ثورة أهلية في مايو عام ١١٨٢م/٥٧٨هـ، بزعامة أندرونيقوس كومنين – ابن عم مانويل كومنين – الذى أخذ يروج الإشاعات، بأن المرتزقة اللاتين دبروا مذبحة للفتك بالأبرياء من المواطنين العزل؛ فأثار عامة الناس ضد اللاتين، وأحاطت الحشود الغاضبة باللاتين الذين لم يكونوا قادرين على المقاومة برًا وبحرًا، وعاملوهم بقسوة بالغة، فأخذوا يذبِّحون الأطفال، والنساء، والشيوخ، حتى أنهم كانوا يبقرون بطون النساء، ويخرجون الأجنة منها، وقتلوا رجال الدين اللاتين، وأشعلوا النيران في كل ما وصلت إليه أيديهم، حتى أنهم أحرقوا سفنهم التى هرعوا إليها، فحاول اللاتين إنقاذ أنفسهم بكل ما أمكنهم، وهربوا تاركين بيوتهم ملأى بالثروات والكنوز؛ لتنهبها هذه الحشود، بعدما تشتت بعضهم في أنحاء المدينة، ولجأ بعضهم إلى بيوت النبلاء للاحتماء بها، أما البعض الآخر فاستقلوا سفنا قادها رفقاؤهم من بني جلدتهم[٢]. وهؤلاء قدر يوستاسيوس السالونيكي عددهم بأكثر من ستين ألف نسمة[٣] .

---

(١) الصوري ، الحروب الصليبية ، جـ٤ ، ص٢٧٤.

(2) Eustathios of Thessaloniki ,*Capture of Thessaloniki* , ,p.35,37 ; Choniates, *Annals*, p. 141; Garland, L.,*Byzantine Empresses Women and Power in Byzantium AD 527-1204* , London, 1999 , p.208;

فلهاردوان (جيفرى) ، فتح القسطنطينية ، ترجمة وتعليق حسن حبشى ، المجلس العلمى ، الطبعة الأولى١٤٠٣هـ ، ص٢١؛ الصوري ، الحروب الصليبية، جـ ٤، ص ١٦٢، هامش(٦) ؛ إسحاق عبيد، روما وبيزنطة ، ص٢٧٩، ٢٨٠. من ثنايا الإشارة التي تؤكد أن البيزنطيين كانوا يبقرون بطون زوجات اللاتين في بيزنطة نستطيع أن نجزم أن حياة اللاتين قد سادها كثير من الاستقرار الذي سمح لهم أن يحضروا معهم زوجات لاتينيات إلى بيزنطة، مع الأخذ في الاعتبار زواج بعض اللاتين من بيزنطيات وإن كانت حالات استثنائية قليلة؛ لأن العقيدة الأرثوذكسية كانت ترفض التزاوج مع المذاهب الأخرى.

(3)Eustathios of Thessaloniki , *Capture of Thessaloniki* ,p. 35.

وتبدو المبالغة في هذا العدد الذي أورده يوستاسيوس السالونيكي وغيره من الأرقام التي وردت بشأن أعداد اللاتين في ذلك الوقت، وأفضل تقدير لأعداد اللاتين الموجودين بالقسطنطينية هو بالآلاف لا بعشرات الآلاف(١). أما أعداد اللاتين في مدينة سالونيك فيذكر يوستاسيوس وجود عدد كبير منهم في تلك المدينة، وقت هجوم النورمان عليها عام ١١٨٥م/٥٨١هـ، ومات منهم الكثير(٢).

هكذا استطاعت بعض الشخصيات اللاتينية الاندماج داخل الحضارة البيزنطية، ومن خلال عرضنا لتلك الشخصيات نستطيع أن نقرر أنها جميعا ارتبطت بالبلاط الإمبراطوري، واستطاعت بهذه العلاقة أن تفرض نفسها على المجتمع البيزنطي، أما عن فئة التجار اللاتين فقد أججت سياسة الأباطرة تجاههم عداوة المجتمع ، ونستطيع أن نحكم بأن هذه السياسة كانت سببا هاما في كراهية التجار الأجانب بصفة خاصة، كما نتج عن تلك السياسة خروج جالية البنادقة في تعاملها عن اللائق مع المجتمع البيزنطى ، فى وقت كانت فيه هذه الجالية أكثر الجاليات التجارية الأجنبية تواجدًا فى معظم مدن الأقاليم بفضل الامتيازات التى حصلوا عليها(٣).

وقد مر بنا في أكثر من موضع مدى المرارة التي شعر بها المؤرخون البيزنطيون تجاه اللاتين بعد محاباة الأباطرة لهم وتفضيلهم على أهل البلاد، ووصفتهم الأميرة أنا كومنينا "بالكلت الذين يفوقون جميع الشعوب في الصوت العالي والثرثرة مع شراهة بالغة للمال الذي يسعون وراءه دون كلل، ووصفت قادتهم بأنهم مجبولون على الوقاحة والعنف" (٤).

---

(١) عبد العزيز رمضان ، العلاقات البيزنطية – اللاتينية ، ص ١٠٥– ١٠٦ .

(2)Eustathios of Thessaloniki , *Capture of Thessaloniki* ,p. 117.

(3)Jacoby , "Foreigner and the Urban Economy", p.88.

(٤) أنا كومنينا ، الألكسياد ، ص ٥٦٥ .

تبادل كل من الجانبين البيزنطي واللاتيني الكراهية والعداوة مع علمهم بما يكنه كل طرف للآخر، ولم يختلف رأى اللاتين في البيزنطيين عن رأى البيزنطيين فيهم ، وأشار أحد المؤرخين اللاتين إلى ذلك من خلال قوله إن الكراهية القديمة والعنيدة التى يفكر بها البيزنطيون تجاه اللاتين سيطرت عليهم، ولهم العذر في ذلك لتفوق اللاتين عليهم في مجال الفنون والأسلحة، فى حين أن البيزنطيين جميعًا جهلة وغير محاربين، وهذا يعطيهم دافعا إلى العداوة والغيرة من اللاتين ، فهم جنس خائن ، وجيل شرير، ومنحط تمامًا ، وأبرز شيء يشير إلى انحطاطهم تحول ذهبهم إلى نفاية، وحنطتهم إلى قش، وطهارتهم إلى قذارة، ومجدهم إلى فساد، وبعدما كافح أجدادهم البيزنطيون وأنجزوا الكثير شتى الفنون والأسلحة تلاشت الغيرة على الأخلاق فى هذه الأجيال. انظر:

Richard Coeur de Lion & Richard of Devizes & Geoffrey de Vinsauf , *Chronicles of the Crusades*, p. 93 .

ورغم أن المجتمع البيزنطي نظر إلى اللاتيني نظرة البربري الدخيل، فإن قسطنطين السابع أشار في سياق حديثه عن مصاهرة الغرباء إلى مكانة الفرنجة الخاصة لدى البيزنطيين ، في حين نعتت الأميرة أنا كومنينا جميع الغربيين بالبرابرة وعلى رأسهم البابا جريجوري السابع، ولا عجب في ذلك إذ كان البيزنطيون يفتخرون بأنهم الرومان العظماء ومن دونهم برابرة همجيون(١) .

وهناك أيضًا الكثير من الفارانجيين الذين اندمجوا داخل المجتمع البيزنطي بعدما استقروا وتزوجوا وتقدم بهم العمر في بيزنطة ، وبالطبع أنجبوا أولادا، وغير واضح ما إذا كان الجيل الجديد من الفارانجيين الذين ولدوا في القسطنطينية قد تقلدوا وظائف آبائهم في الحرس الإمبراطوري بالوراثة أم لا(٢).

وعلى الرغم من قلة الإشارات حول حياة أبناء الأجانب الذين اندمجوا داخل المجتمع البيزنطي، فقد أوردت لنا ملحمة ديجينس أكريتس قصة الصبي باسيل ابن الأمير السوري الذي تنصر ببيزنطة، حيث عبرت لنا تلك القصة عن مضمون الرفض البيزنطي للأجانب في بيزنطة، وأماطت اللثام عن مدى قبول الطبقة الأرستقراطية الكبرى لبعضهم، فلقد أحب هذا الصبى فتاة من أكبر العائلات فى بيزنطة، ورفض أبوها أن يزوجها له، لكنه حارب من أجلها، وأظهر قوة

---

(١) أنا كومنينا، الألكسياد ، ص١٩-٢٠

؛ Page ,*Greek Identity* , pp. 44 – 45 .

كان مطلب الشعوب الأجنبية للزواج من أبناء البلاط البيزنطى – أمرًا يأنفه البيزنطيون، ويعدونه مطلبًا غريبًا؛ لذلك كانت نصيحة قسطنطين لابنه أن يتصرف بدبلوماسية إذا طلب أحدهم هذا المطلب ، ويرد عليه ردًا حكيمًا بأن هذا الأمر له عهد ووصية موثوق بها للإمبراطور قسطنطين العظيم، وهذا العهد محفور على المائدة المقدسة فى كنيسة أيا صوفيا، وتقضى هذه الوصية أنه يحرم على أى إمبراطور أن يتحالف مع دولة تختلف تقاليدها عن تقاليد البيزنطيين وتتعارض معها إذا كان هذا التحالف عن طريق الزواج، وخاصة إذا كانت امرأة وثنية لم تعمد إلا إذا كانت من الفرنجة – هنا يبرر المؤرخ زواج ابنه رومانوس الثانى من أميرة من الفرنجة – وقد وافق قسطنطين على الزواج منهم؛ لأنه هو نفسه ينتمى إليهم، وتوجد روابط كثيرة بين الفرنجة والبيزنطيين، فضلا عن عراقتهم ونبلهم وذيوع صيتهم، وهذه هى تشريعات الإمبراطورية وقوانين الأجداد، ومن يخالفها تحل عليه اللعنة، وإذا اعترض أحد متذرعًا بزواج ماريا حفيدة رومانوس ليكابينوس من بيتر البلغارى عام ٩٢٧م/ ٣١٥هـ فنصحه قسطنطين بأن يكون رده أن الإمبراطور رومانوس كان شخصًا عاديًا من عامة الشعب، وكان جاهلا غير متعلم، ولم ينشأ فى القصر ليتعلم احترام العادات والتقاليد الإمبراطورية، لهذا كان متعجرفًا ظالمًا فى معظم تصرفاته، ولم يكترث بنواهى الكنيسة أو الوصايا الإمبراطورية، وحجته فى ذلك أن هذا التحالف كان سببًا في فداء عدد كبير من البيزنطيين وتحريرهم، بالإضافة إلى أن البلغار مسيحيون أيضًا، وعلى عقيدة البيزنطيين ذاتها، فضلا عن أن ماريا لم تكن ابنة الإمبراطور الشرعى وإنما حفيدة إمبراطور اسمى مغتصب . انظر: قسطنطين، إدارة الإمبراطورية ، ص٦٩ – ٧٢

(2)Smythe , " Insiders and Outsiders", p.76 .

وشجاعة نادرة، فقبل أبوها هذا الزواج، وأقام الأفراح لمدة شهر فى كل مكان ببذخ شديد، وقدم لهذا الشاب مهرًا عظيمًا تألف من أموال كثيرة، وسفن، وماشية، ووحوش، وسائسين، وطباخين، وخبازين، وعبيد، وخدم، ومجوهرات، وتاج شهير لابنته من الأحجار النفيسة، بل لقد فضله على أبنائه فى هذه القسمة (١).

وهناك حالات أخرى للاجئين الأجانب في بيزنطة لم يتم اندماج معظمها في المجتمع البيزنطي على اعتبار أن وجودها في البلاد كان مؤقتًا، وجميعهم يشهدون بكرم الأباطرة البيزنطيين وسخائهم، وإذا لم تكن هناك زيارة للقسطنطينية من أى حاكم مسلم رفيع الشأن قبل القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى، فإن الوضع قد تغير خلال حكم الأسرة الكومنينية عام ١٠٨١م / ٤٧٤هـ حيث حدث تغيير فى السياسة الخارجية البيزنطية، بعدما أقام الإمبراطور ألكسيوس هو وخليفته حنا الثانى ومن بعدهم مانويل الأول –اتصالات دبلوماسية متزايدة مع الحكام المسلمين من ناحية، ومن ناحية أخرى وطدوا العلاقات مع الغرب الأوروبي بروابط الزواج، وللمرة الأولى أضحت القسطنطينية مكانًا لاستقبال السلاطين، مع الأخذ في الاعتبار أن هؤلاء السلاطين لم يفدوا من المراكز الإسلامية الرئيسية حينئذ مثل دمشق أو القاهرة بل كانوا من السلاجقة، وهناك بعض السلاطين والأمراء الذين تركوا أثرا في الكتابات التاريخية بزيارتهم إلى القسطنطينية، وأول سلطان سلجوقى زار القسطنطينية هو السلطان مسعود ١١١٦–١١٥٥م/ ٥١٠–٥٥٠هـ الذى حل ضيفًا على الإمبراطور حنا الثانى كومنين عام ١١٢٤م/ ٥١٨هـ فاستقبله الإمبراطور بابتهاج وزاد من إكرامه بمنحه الكثير من الهدايا والجواهر الثمينة(٢).

---

(1)Akritis , *The Grottaferrata and Escorial Versions* , pp . 107 – 113 .

لقد استطاع هذا الفتى بشجاعته النادرة وجماله أن يكسب قلب والد الفتاة بأن جعله مقدمًا على أبنائه، ومنحه مهرًا يفوق الوصف –رغم أن هذا الرجل كان سليل أكبر العائلات فى بيزنطة– وأقام له زفافًا رائعًا غلب عليه البذخ. ولمزيد من التفصيل حول هذا الزفاف انظر:

Akritis , *The Grottaferrata and Escorial Versions* , pp . 113 – 121 .

(٢) السريانى ، التاريخ ، جـ٣ ، ص١٩٤ ؛

Korobeinikov , D., " A Sultan in Constantinople , the Feasts of Ghiyath Al-Din Kay-Khusraw " , in :*Eat , Drink , and Be Merry (Luke 12 : 19) Food and Wine in Byzantium, Society for The Promotion of Byzantine Studies* , ed. Brubaker,L.& Linardou,K., Birmingham, 2007, p.93 .

صممت مراسم الاستقبال في بيزنطة لتثير الرهبة والإعجاب في نفوس الزوار، فقبل وصول الحكام والسفراء إلى بيزنطة توقد المصابيح الفضية، ويزين القصر بالستائر المحلاة بالذهب، والسجاد المترف، وتملأه روائح الزهور، ويلبس الموظفون الحرير المطرز بالذهب ، وهذه المراسم قد لاقت إعجابًا شديدًا من السفراء والزوار .انظر:

وفي عام ١١٢٧م /٥٢١هـ هرب ألموس شقيق ستيفن حاكم المجر إلى الإمبراطور حنا كومنين الذي استقبله بكرم عظيم(١). فضلا عن ستيفن Istvan شقيق Geza حاكم المجر الذي اضطر للهروب إلى القسطنطينية، فرحب به الإمبراطور مانويل كثيرًا وأغدق عليه الهدايا، والأكثر من ذلك زوجه من ماريا ابنة أخيه إسحاق Sebastokrator Isaakios،وبعد فترة قصيرة لحق به أخوه الثانى لاسزيو Laszio بعدما انبهر بالمكانة والشهرة التي بلغها أخوه ستيفن فاستقبله مانويل بحفاوة أيضًا، وكان بإمكان لاسزيو الزواج بامرأة من أفراد العائلة المالكة لكنه أحجم عن ذلك؛ لأن نيته كانت العودة ثانية إلى بلاده وإذا ما تزوج أجنبية فسوف تسوء شؤونه الداخلية(٢) .

Laiou, A.E., "Writing the Economic History of Byzantium" ,in: *the Economic History of Byzantium From The Seventh Through The Fifteenth Century* , Washington , 2002, p. 3 ; Stephenson , *Byzantium's Balkan Frontier* , p.45 .

ومع ذلك فإن هذا السلوك ليس بمستغرب على بيزنطة حيث كانت تلجأ دائما لاستعراض القوة ومظاهر الفخامة الملكية أمام الأجانب في القسطنطينية ، إذ كانوا يصابون بحالة من الدهشة عندما يرون بأنفسهم ثراء المدينة وجمالها. انظر: طارق منصور، "المآدب الإمبراطورية ومراسمها"، ص٩١. والموظف البيزنطى الذى كان مسئولا عن تطبيق الطقوس التى تتبعها العائلة الإمبراطورية ورجال البلاط هو خبير المراسم Master of Ceremonies . انظر:

Treadgold ,*The Byzantine Revival* , p.23

(1) Choniates, *Annals*, p.11.

عند دخول السفير أو الزائر من باب القصر الخارجي كان عليه الحصول على إذن بالدخول على الإمبراطور أولا ، ويذكر ابن الفقيه على لسان أحد سفراء الخلفاء العباسيين ويدعى عمارة بن حمزة قوله: "فانتهيت إلى مكان يحجب عنده الرجل على مسافة بعيدة فجلست حتى أتى الإذن، فسرت إلى مكان آخر فجلست حتى أتى الإذن ثلاث مرات، ثم وصلت إلى داره" انظر: ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١٣٧؛ ليلى عبد الجواد إسماعيل، القسطنطينية في ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين، مجلة المؤرخ المصري، دراسات وبحوث تاريخية محكمة، يوليو ١٩٨٩م، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ص ١١٧.

وبعد الحصول على الإذن يأتي دور التفتيش لكل من يدخل القصر حرصا على سلامة الإمبراطور، ويذكر ابن بطوطة في هذا الصدد قوله: "ودخلنا إلى القصر، فجزنا أربعة أبواب ... فلما وصلنا إلى الباب الخامس ... أتى أربعة من الفتيان الروميين ففتشوني لئلا يكون معي سكين، وكانت هذه عادة البيزنطيين، أى لابد من تفتيش كل من يدخل على الإمبراطور من خاص أو عام، غريب أو من أهل البلد". ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله ت:٧٧٩هـ/١٣٧٧م) ، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧ هـ ، ص٢٢٢؛ ليلى عبد الجواد، " القسطنطينية"، ص١١٧.

(2) Choniates, *Annals*, p.72.

وهنا ظهرت الاعتبارات التي طالما كانت سببًا في حسن استقبال البلاط للاجئين وهى بالدرجة الأولى تحقيق مصالح الإمبراطورية ، إذ بعد موت أخيهما –حاكم المجر– فى ٣١ مايو ١١٦٢م/٥٥٧هـ حاول مانويل إنجاز أهدافه بأن أرسل مبعوثين إمبراطوريين مع ستيفن من أجل تتويجه، فلم يقبل المجريون ستيفن ملكًا عليهم، بحجة أنه تزوج امرأة بيزنطية، وبذا لن يحكمهم كملك مجري، بل كإمبراطور بيزنطى، وطردوا المبعوثين الإمبراطوريين من المجر، فلم يستسلم مانويل لرفضهم ستيفن الذي أصبح ولاؤه بيزنطيًا وأشعل الحرب مع المجريين مصممًا على تعيينه ملكًا، لذلك اضطر المجريون إلى قتل ستيفن بوضع السم له فى الشراب وتوفي فى ١٣ إبريل ١١٦٥م / ٥٦٠هـ وبعد وفاته غضب مانويل وأعلن الحرب الضروس على المجريين (١) .

وعندما سافر السلطان السلجوقى قلج أرسلان إلى القسطنطينية فى ربيع عام ١١٦٢م / ٥٥٧هـ لطلب المساعدة من الإمبراطور مانويل الأول، استقبله الإمبراطور بلطف وكرم شديدين، وشكر للسلطان حضوره، وقبل وصوله كان قد عقد معاهدة سلام مع مانويل أقسم فيها أن يكون حليفا عسكريا للإمبراطورية، وعندما استقبله مانويل خارج جدران القسطنطينية كان مانويل يجلس على كرسى فوق منصة أنشئت له، بينما جلس السلطان على كرسى أسفل منه، ثم رتب مانويل لموكب مقدس إلى كنيسة أيا صوفيا يشارك فيه السلطان على الرغم من معارضة رجال الدين مشاركة هذا المسلم في الموكب، وهنا يظهر جليًا موقف الأباطرة من الأجانب في البلاط الإمبراطوري وتمسكهم به حتى وإن عارضهم في ذلك رجال الدين، لكن حدث في تلك الآونة زلزال اعتبره البيزنطيون تحذيرا من الله من دخول "آثم " للكنيسة(٢). فأعرض مانويل عن مصاحبة السلطان إلى الكنيسة وأفاض عليه بالهدايا الرائعة من الخزانة الإمبراطورية، والعملات الذهبية والفضية والحلى النادرة، وأقام له المآدب الفاخرة وتوجه بجانبه، وشرفه الإمبراطور بعبارة سامية عن طريق مخاطبته فى الرسائل بابن الإمبراطور الروحي، ولم

---

(1)Choniates, *Annals*, pp. 72 – 73 .

جرت العادة على حسن استقبال السفراء والزوار الأجانب في بيزنطة ، حيث تمنع القواعد البيزنطية الإساءة إلى رسل الأعداء وسفرائهم، حتى وإن كانت القوات البيزنطية أقوى منهم بكثير؛ حتى لا تُحرم الحكومة البيزنطية من الأخبار والاتفاقات الجيدة التي يُحضرها هؤلاء السفراء، فضلاً عن أن هؤلاء السفراء يأتون مسالمين ويأمنون على أنفسهم فى أيدى البيزنطيين . Leo VI , *Taktika* , p.549 ورغم ذلك هناك بعض التجاوزات والخروقات لما اعتادت عليه الإمبراطورية من حسن الاستقبال ولمزيد من التفصيل انظر:

Leo the Deacon, Byzantine Military Expansion, p.108 ; Monachi, Vitae Recentionrum Imperatorum ,V.II. , p. 933 , 935 ; Skylitzes , A Synopsis of Byzantine History , p. 182; ليوتبراند ، السفارة ، ص١٨ –١٩ ، ٣٧، ٦٢ .

(2) Choniates, *Annals* , 67; korobeinikov, "A Sultan in Constantinople" , p. 94.

تدم هذه الصداقة لعدم التزامهما بالمعاهدة(١). وهذا الاستقبال الحافل للسلطان قلج أرسلان يشبه إلى حد كبير استقبال الملك عموري ملك بيت المقدس في بلاط مانويل كومنين الذي بالغ في الترحيب به وترفيهه مع حاشيته، فضلا عن الهدايا والأموال التي أغدقها عليهم (٢) .

ولم تختلف مراسم استقبال النساء فى البلاط الإمبراطورى كثيرًا عن مراسم استقبال الرجال، وقد قدم قنسطنطين السابع صورة تفصيلية لاستقبال الأميرة الروسية أولجا Olga في التاسع من سبتمبر عام ٩٥٧م/٣٤٦هـ مع قريباتها الأميرات من السلالة الملكية بالإضافة إلى وصيفاتها، فكانت الأميرة فى المقدمة تلاها قريباتها الواحدة تلو الأخرى طبقًا لمكانتهن، ثم جلست الأميرة في المكان الذى كان مخصصًا لوقوف مستشارالإمبراطور عند استجوابه للرسل الأجانب الذين يسمح لهم بالدخول، ودخل بعد الأميرة موظفو أمراء الروس والتجار الذين لهم حق الإقامة فى القسطنطينية، وهؤلاء جلسوا فى مكان أسفل بالقرب من الستائر، وبعد انتهاء الأميرة من مقابلة الإمبراطور انتقلت إلى الحديقة حيث مكان تعيين القادة(٣) . وتعد الأميرة أولجا

---

(1)Choniates, *Annals* , 68,70 ; korobeinikov, "A Sultan in Constantinople" , pp. 94-95.

نظم مانويل كومنين استقبالا رائعًا للسلطان قلج أرسلان؛ حيث زينت قاعة العرش بشكل فيه مبالغة، وتزين الإمبراطور نفسه بالذهب واللآلئ والأحجار الكريمة، حتى يدخل الهيبة على السلطان، ويبدو أن هذا البذخ والتفاخر قد ظل حتى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى. انظر :

Laiou, "Writing the Economic History " , p.3 ; Cameron , *The Byzantines*, p. 72 .

(٢) الصوري، الحروب الصليبية، جـ٤ ، ص ١٤٠ – ١٤٦ ؛ السرياني ، التاريخ ، جـ٣ ، ص ٣٠٢ .

(3)Constantinus Porphyrogenitus , *De vita et Rebus Gestis Constantini*, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, ed. leichii ,H., Vol.1 , 1829 p. 594.

حوت القسطنطينية الكثير من الحدائق والمتنزهات أهمها متنزهان هما Philopation وأريتاى Aretai ، يليهما آخران هما Mesokepion ومانجانا Mangana في منطقة القصر العظيم . أما متنزه Philopation فكان يمثل مكانا لصيد الحيوانات حتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وكان يحتوي على جداول وبرك للماء، بالإضافة إلى بعض الأجواف والكهوف التي شكلت بيوتا للحيوانات ، وفي هذا المكان الرائع شيد الأباطرة بعض القصور التي كانت مركزا للاستقبال الإمبراطوري ، وكان قريبا من جدران المدينة . أما متنزه أريتاى الذي حددت أنا كومنينا مكانه بالقرب من القسطنطينية فهو مرتفع فوق السهل، وله أربعة اتجاهات: أحدها نحو البحر ، وآخر نحو المدينة ، والآخران إلى الشمال والغرب ، وهو معتدل ومبهج ومزود بالماء النقي، وبه قصر قد بناه رومانوس الرابع. ويتمتع بالمراعي الطبيعية ومناظر القمم والوديان والكهوف والأشجار ، وترعى فيه الظباء والأرانب البرية، وكان متنزها Mesokepion ومانجانا داخل جدران المدينة ، ودمج متنزه Mesokepion مع القصر العظيم، ولم يتقرر موقعه على وجه دقيق، وهو عبارة عن حديقة تحتوي على الكثير من أنواع النباتات وتسقى بماء عميم. وأخيرًا فقد أحاطت حديقة مانجانا دير القديس جورج ST. George ولم تختلف عن حديقة Mesokepion وكانت ضمن مؤسسة قنسطنطين مونوماخوس التي اشتملت على قصر كبير ومستشفى وكثير من البساتين وأشجار الفواكه والنباتات، كما احتوت على حمامات ومروج خضراء، وكانت مهيأة لركوب الخيل . انظر:

أنموذجًا واقعيًا لكرم الأباطرة مع الزوار الأجانب وسخائهم ، حيث أقيمت لها ولمن معها من النساء الأرستقراطيات مأدبة حضرها منشدو الكنيسة لإنشاد بعض التراتيل ومدح الإمبراطور، ثم أقيمت مأدبة أخرى ضمت جميع مبعوثي الحاكم الروسي وكل الرجال من أقارب أولجا(١)

اختلاف مكانة الأجانب في المراسم الإمبراطورية

وظهرت مكانة بعض الشعوب الأجنبية وأهميتها لدى البلاط الإمبراطوري بصورة جلية من خلال ترتيب أماكنهم في الولائم الإمبراطورية التي تباينت في مناسباتها ومواقعها ، فهناك المآدب اليومية للإمبراطور وهى مآدب اعتيادية ، وهناك المآدب السنوية التي تقام في مناسبات دينية أو غير دينية وتجرى ما بين القصر الإمبراطوري وكنيسة أيا صوفيا أو في غيرهما من الأماكن ، وهذه الاحتفالات كانت تبدأ بعيد الميلاد (٢). وتميزت المآدب الإمبراطورية بالاستقبال

Maguire , H.,"Gardens and Parks in Constantinople", *Dumbarton Oaks Papers*, no. 54 , 2000,pp.252-255,258,260.

(1) Constantine VII, *The Book of Ceremonies* , Vol. 2 , p. 594,597.

بعد هذه المأدبة تسلم ابن أخيها ثلاثين ميلياريزيا Miliaresia ،وتسلم كل رجل من أقاربها الثمانية عشرين ملياريزيا، أما العشرون مبعوثا الآخرون فقد تسلم كل منهم اثنتي عشرة ملياريزيا ، والثلاثة والأربعون تاجرا الذين كانوا معها حصل كل واحد منهم على اثنتي عشرة ملياريزيا ، وحصل الكاهن جريجوري على ثماني ملياريزيا، أما المترجمان فقد حصل كل منهما على اثنتي عشرة ملياريزيا ، وحصل كل رجل من رجال أمير كييف سفياتوسلاف Svjatoslav (منذ عام ٩٤٥م/٣٣٣هـ) على خمس ملياريزيا ، والمبعوثون الستة حصل كل منهم على ثلاث ملياريزيا ، في حين حصل مترجم أولجا على خمس عشرة ملياريزيا ، أما الأميرة أولجا فقد منحت خمسمائة ملياريزيا في طبق مزين بالأحجار الكريمة، وعشرين ملياريزيا إلى كل واحدة من قريباتها الستة اللاتي رافقنها، وثماني ملياريزيا إلى كل واحدة من الخادمات الثمانية عشرة اللاتي رافقنها ، ثم أقيمت مأدبة أخرى في يوم الثامن عشر من أكتوبر وفيها جلس الإمبراطور مع الروس، وأقيمت أخرى حضرتها الإمبراطورة ومنحت أولجا فيها مائتي ملياريزيا وعشرين ملياريزيا لابن أخيها ، وثماني ملياريزيا للكاهن جريجوري Gregory، واثنتي عشرة ملياريزيا لكل واحدة من قريباتها الستة عشرة، وست ملياريزيا لكل واحدة من الخادمات الثمانية عشرة، واثنتي عشرة ملياريزيا لكل سفير من السفراء الذين كان عددهم اثنين وعشرين. انظر:

Constantine VII, The Book of Ceremonies , Vol. 2, pp. 597-598.

(٢) طارق منصور ، "المآدب الإمبراطورية "، ص٦٧ ،١١٣.

تفاوتت مكانة الشعوب الأجنبية لدى البيزنطيين طبقا لقوة كل منها وشدة بأسها وأهميتها، ونرى هذا التفاوت في ثنايا ما أورده لنا قنسطنطين السابع في كتابه "المراسم البيزنطية" الذي وضع قواعد التعامل البيزنطي مع مختلف الشعوب الأجنبية بداية من الرسائل المرسلة إليهم والتي اختلف شكلها من حاكم أجنبي لآخر ،وإن اتفقت في ضرورة وضع كلمات تعظيم وتبجيل تناسب مكانة كل منهم، لكن الختم الذهبي الذي يوضع على الرسالة الموجهة إلى كل واحد اختلف في قيمته عن الآخر ؛ فالرسالة المرسلة إلى بابا روما يكون عليها ختم من الذهب يساوي قطعتى صولدي ، ومثلها أيضا الرسائل المرسلة إلى بطريرك أنطاكية ، وبابا الإسكندرية، وأمير أفريقيا المسلم ، وحاكم أيبيريا، وحاكم Abasgia ، وحاكم القوقاز (ألبانيا) ، وأمير روما ، وحاكم سردينيا ، وحاكم روسيا ، وحاكم

الحافل للضيوف، والإسراف والبذخ الشديد، في حضور الشخصيات البارزة في الدولة، وسفراء القوى الأجنبية الذين يثنون على الإمبراطور ويمدحونه، ويقدمون له أطيب الأماني(١).

واحتوت مآدب الإمبراطور –باعتباره حاكما للعالم الرومانى كما يرى البيزنطيون – على كثير من الأصناف التي تخرج من الأرض، رغبة من الإمبراطور في التفاخر بكونه حاكما عظيمًا تخضع لسلطته مساحات شاسعة من الأراضي التي تنتج تلك الأصناف المتنوعة، وشكلت المآدب الإمبراطورية جزءًا من الاستقبال الرسمى فى القصر العظيم بالقسطنطينية، وخصصت لها قاعات متميزة، ولم يكن هناك اختلاف بين العشاء، والمأدبة، وولائم الأعياد؛ لأن الإمبراطور كان يشارك فيها جميعًا(٢) .

وبالنظر في قائمة ضيوف عام ٨٩٩م/٢٨٦هـ نجدها تتضمن الرتب المتوسطة من موظفى الدولة الذين دعوا مرتين، وموظفى حاكم المدينة، وموظفى كل الوحدات العسكرية المتمركزة داخل القسطنطينية وخارجها، والكتائب الأربعة الخاصة التاجماتا (Tagmata)، وحضر فى اليوم الأول مجموعات من الأجانب، وهم الضيوف البلغار وخدمهم ، والضيوف المسلمون، وفى اليوم الثانى حضر الخصيان الذين يديرون الحرم الإمبراطورى، ويجلسون فى المنضدة العالية، وبقية المناضد شغلها الرجال الأقل رتبة، بالإضافة إلى منضدة حجزت للأقل مكانة على الإطلاق، والمأدبة قبل الأخيرة احتجزت لموظفى القصر الإمبراطورى، والموظفين فى العاصمة، والأطباء ، ورجال الإدارة فى المستشفيات وبيوت المسنين، أما المأدبة الأخيرة فى عيد التجلي فكانت للبطريرك، واثنى عشر رئيسًا للأساقفة، وبقية رجال الدين ، فضلا عن الكهنة الذين خدموا في كنائس القصر(٣) .

الأتراك ، وحاكم الصرب ، وحاكم كرواتيا، والرسالة المرسلة إلى حاكم أرمينيا العظمى يكون عليها ختم ذهبي يساوي ثلاث قطع صولدي، ومثله أيضا خان الخزر، أما الرسالة المرسلة إلى خليفة المسلمين فيكون عليها ختم من ذهب يساوي أربعة صولدي ، ومثله أيضا حاكم مصر – مع أن قنسطنطين السابع قد أرسل رسالة إلى حاكم مصر عليها ختم يساوي ثماني عشرة قطعة صولدي – في حين لم يحدد الوزن الخاص بملك فرنسا وغيره من الملوك الآخرين ويبدو جليا لنا أن وضع المسلمين يختلف عن وضع جميع من عداهم من الشعوب الأجنبية الأخرى لدرجة أن قنسطنطين نفسه قد أرسل رسالة لحاكم مصر تجاوزت قيمتها جميع الحدود.انظر:

Constantine VII , The Book of Ceremonies , vol. 2, pp.686 – 691 .

(1)ConstantineVII, *The Book of Ceremonies*, vol.1, p. 294 ; Blondal, *Varangians*, p.180; Malmberg, "Banquets an Exion of Imperial Legitimacy",p.77 .

(2) Malmberg , "Banquets on Exion of Imperial Legitimacy " , p . 76 .

(3)Constantine VII, *The Book of Ceremonies*, vol.2, pp. 715 – 754 ; Magdalino," Court Society and Aristocracy", pp .214 - 215 .

وترتيب ضيوف قائمة عام ٨٩٩م/٢٨٥هـ في المآدب الإمبراطورية الاعتيادية كان وفقا لأسبقية المناصب، فالأساقفة القادمون من روما قُدِّموا على الأساقفة البيزنطيين، والكهنة القادمون من روما قُدموا على الكهنة البيزنطيين ، وكل رتبة كنسية قادمة من روما تقدم على مثيلتها في بيزنطة ، فهؤلاء القادمون من روما من أجل وحدة الكنيسة تحت حكم ليو السادس لابد أن يُشَرَّفُوا ويقدموا على جميع رتب الماجستيرات Magistroi وطبق الشيء ذاته على البطاركة الثلاثة القادمين من الشرق حيث تقدموا على البيزنطيين، والسينكللات Synkelloi القادمون من أنطاكية وبيت المقدس قدموا على جميع الماجستيرات أيضًا، ويجلسون في المكان الثاني على الطاولة قبل الماجستيرات مباشرة(١).

وفي اليوم الأول من الاحتفالات بعيد الميلاد يحضر الضيوف المسلمون ويأتي ترتيبهم بعد البطارقة، وتكون الأسبقية لمسلمي الشرق على المسلمين القادمين من الغرب ، ويجلسون شمالاً على الطاولة الرابعة أو الخامسة في الاتجاه الثاني من المنضدة الإمبراطورية ، والضيوف البلغار يجلسون أيضًا شمالاً على الطاولة الرابعة أو الخامسة ، وهؤلاء أيضًا يأتون في الترتيب بعد البطارقة، وإذا حضر السفراء اللاتين فإنهم يرتبون بحسب مكانتهم بعد أصحاب المناصب العليا ، وجميع أصحاب المناصب يرتدون ملابسهم وأحذيتهم الخاصة بالمراسم وفقا لمنصب كل

هكذا كانت قائمة مأدبة عيد الميلاد لسنة ٨٩٩م/٢٨٦هـ أكثر كرمًا فى مجتمع البلاط، ويبدو أن هذا التقليد كان قديمًا قدم قاعة المأدبة ذاتها التى لا يمكن أن يؤرخ تأسيسها بعد بداية القرن الخامس الميلادى، ولا نعرف ماذا حل بهذا التقليد الخاص بالمآدب بعد عام ١٠٤٠م / ٤٣١هـ لكن من المستبعد أن يكون قد نجا من التغييرات التى حدثت فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى التي قادت إلى تقليص شديد في المساحة، وتقليل فى عدد الموظفين، وفى نفقات المؤسسة الإمبراطورية، وضاقت القاعدة الاجتماعية للنظام السياسى والحاكم الإمبراطورى، والشيء الوحيد الذى برز لنا فى قائمة المدعوين دعوا عام ٨٩٩م / ٢٨٦ هـ أنهم جميعًا كانوا يعتمدون اقتصاديًّا على الإمبراطور، لكن هذا لا يعنى أنهم جميعًا ينتمون إلى البلاط. انظر :

Magdalino " Court Society and Aristocracy", pp. 214 – 215.

(1)Constantine VII, *The Book of Ceremonies*, vol.2 ,p.739.

السينكللات Synkelloi ومفردها سينكيللوس Synkellos كان مساعدًا مقربًا ومستشارًا كنسيًّا لبطريرك القسطنطينية، وفي القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري أصبح هناك أكثر من واحد يرشحهم الإمبراطور ، وهذه الرتبة صنفت من بين أعلى الألقاب في البلاط الإمبراطوري. انظر: Constantine VII, *The Book of Ceremonies*, vol.2 ,p.835 . وكان هذا الموظف ينتمي للهيئة الكنسية لذا كان يسمي سينكيللوس بطريرك القسطنطينية، وأحيانًا يسمى سينكيللوس القسطنطينية. انظر: طارق منصور، "المآدب الإمبراطورية"، ص٦٩.

منهم ، ويقوم الأتريكلينس Atriklines باصطحابهم وإجلاسهم في مقاعدهم ، وفي اليومين السادس والتاسع كان من الواجب دعوة الضيفين البلغار مرة أخرى(١) .

ويزداد كرم الإمبراطور في اليوم المقدس من عيد الميلاد، وهو اليوم الثاني عشر، ويوافق السادس من يناير ، وفيه تكون المراسم والملابس جديرة بالإعجاب ؛ لأن المختصين بتطبيق المراسم الإمبراطورية كانوا يهتمون كثيرًا بهذا اليوم المختلف عن غيره ، ويحضر هذه المأدبة كهنة الكنيسة الكاثوليكية(٢) ، وتقام فيه المآدب في قاعة التسع عشرة مائدة أو سماطًا ، وسميت هذه القاعة بالتريكلينس الكبير لذا فالمكلف بها كان يسمى الأتريكلينس الكبير وكانت من أجمل قاعات الطعام بالقصر العظيم، والطعام بها كان يقدم في أطباق ذهبية، ويحضر هذه المآدب اثنا عشر من الأصدقاء البلغار يجلسون على المائدة الثامنة بالترتيب ذاته الذي يجلس عليه الأسرى المسلمون، أى أنهم متأخرون عن الأسرى المسلمين، رغم أنهم أطلق عليهم " الأصدقاء البلغار" ولا توجد إشارة هنا عن الصفة الرسمية للبلغار ، والراجح أنهم لم يكونوا أسرى

---

(١) Constantine VII, *The Book of Ceremonies*, vol.2 ,pp.739 – 740 , 743 , 749 , 751 .

الأتريكلينس Atriklines وباللاتينية Atriclinis أو Artoklines أو Artiklines كان المشرف الرسمي على الولائم الإمبراطورية، والمسئول عن دعوة ضيوف الإمبراطور من القادة وكبار رجال الدولة والأشراف ، وعليه أن يكون على دراية تامة بهم ؛ لكي يوجه لهم الدعوات من أجل حضور المأدبة الملكية ، وبذلك لا بد أن يكون الحضور بناء على دعوة آنفة من البلاط الإمبراطوري، وعند وصول أحد المدعوين إلى القصر كان الأتريكلينيس ينادي عليه بلقبه الشرفي أو الوظيفي والشرفي معًا بصوت واضح، مؤذنًا للدخول على الإمبراطور بذلك، ويحدد له بإشارة من يده اليمنى المكان الذي سيجلس فيه. انظر:

Constantine VII, *The Book of Ceremonies*, vol.2 ,p.827.

؛ طارق منصور ، "المآدب الإمبراطورية "، ص٦١، ٦٧.

حددت المراسم الإمبراطورية أسبقية مسلمي المشرق على مسلمي المغرب ، أي أن القادمين من أرض الخلافة الإسلامية شرقًا لهم الصدارة على القادمين من قبل مسلمي إفريقية غربًا، وهذا بحكم العلاقات التاريخية الوطيدة بين بيزنطة ومسلمي الشرق ، وإن تأرجحت من عصر لآخر فإنها تبقى الأقوى أمدًا والأهم بالنسبة لبيزنطة، والغرض من جلوسهم يسارًا على المائدة الرابعة أو الخامسة أن يكون أمامهم اللون الثاني من ألوان الطعام الإمبراطوري الذي ربما يكون خاليًا من لحم الخنزير. انظر : طارق منصور، "المآدب الإمبراطورية "، ص ٨٠ ، ولمزيد من التفصيل انظر المرجع ذاته ص ٨١ – ٨٥.

رغم أن سفراء البلغار كانوا يجلسون على المائدة الرابعة أو الخامسة مثل المسلمين ، ويأتي ترتيبهم بعد البطارقة أيضًا فإن دخولهم وجلوسهم يأتي بعد المسلمين " الأصدقاء الهاجريين " على اليسار ، ويلي البلغار سفراء الفرنجة ، فإذا كانوا يحملون ألقابًا كنسية فإن عليهم الجلوس على مائدة نظرائهم ، وإذا لم يكن لهم ألقاب كنسية فإنهم يجلسون مع عموم الموظفين Offikialioi أما بقية السفراء الأجانب فإنهم يجلسون على مائدة المدعوين البيزنطيين حملة لقب سباثاروكانديدات . انظر: طارق منصور ، " المآدب الإمبراطورية " ، ص٨١ .

(2)Constantine VII, *The Book of Ceremonies*, vol.2 ,p.754.

بل وفودًا بلغارية غير رسمية جاءت لحضور مراسم عيد الميلاد المجيد في الكنيسة الأرثوذكسية الأم، لا سيما أن البيزنطيين كان لهم الفضل في تنصيرهم على المذهب الأرثوذكسي(١).

وفي اليوم الأول من عيد القيامة– وهو يوم الأحد – ولمدة أسبوع يسمى أسبوع التجديد كان على الإمبراطور أن يلبي دعوة الإفطار الذي يحمل إلى الكنيسة الكاثوليكية، وهي كنيسة المسيح الكاثوليكية، وكذلك القيادات في الإمبراطورية ، ويحضر أيضًا العشاء في هذا اليوم الضيفان البلغار ذَوُو المكانة العالية بالقاعة المسماة "خريسوتريكلينوس" حيث تقع المائدة الذهبية ، ومعهم ثمانية عشر رجلاً من الضيوف البلغار الآخرين، وجميعهم يرتدون الملابس الخاصة ، وفي يوم الجمعة من هذا الأسبوع يدعى الضيوف البلغار أيضًا للمأدبة الإمبراطورية ، ويكون عددهم ثمانية عشر رجلاً(٢) .

ورغم أن المراسم الإمبراطورية أمرت باحترام رجال الدين الأجانب، وحددت مكان جلوسهم في المآدب الإمبراطورية ، فإن ذلك لم يحدث مع الأسقف ليوتبراند حينما دُعى إلى المأدبة الإمبراطورية فى الاحتفال بعيد " الرسل المقدسين " حيث أمر الإمبراطور نقفور بأن يجلس مبعوث البلغار فى موضع متقدم عليه، وفي الجانب ذاته من المائدة الطويلة، فاعتبر ليوتبراند ذلك إهانة، ليست له فقط، بل للإمبراطورَيْنِ الألمانِيَّيْنِ – أوتو العظيم وأوتو الثانى – لكونه ممثلا عنهما، قائلاً: لقد "استُخف بى ولُفظت واحتُقرت" لذلك انسحب ليوتبراند وترك المائدة، وأثناء انسحابه قام بعض رجال الدولة وأطلقوا أصواتهم " كنباح الكلاب " قائلين: عندما تزوج بطرس ملك البلغار من ابنة كريستوفر فإن الوثائق المتبادلة أكدت على وجوب تفضيل رسل البلغار، وتشريفهم، وتمييزهم عن سائر رسل الأمم الأخرى، وبذلك يعد رسول البلغار نبيلا رومانيا، وأكدوا له ضرورة تفضيله وألا يقدم أى أسقف عليه، وخاصة عندما يكون هذا الأسقف من الفرنجة، ولم يسمحوا لليوتبراند بالعودة مرة ثانية إلى مكانه على المائدة الإمبراطورية،

---

(١) طارق منصور ، "المآدب الإمبراطورية "، ص ٨٥–٨٦، ٨٨–٨٩.

(2)Constantine VII, *The Book of Ceremonies*, vol.2 ,pp.765 – 768 , 771 – 772;

طارق منصور ، "المآدب الإمبراطورية "،ص١٠٤.

عيد القيامة المجيد هو اليوم الثامن بعد أحد الشعانين ، وحسب الرواية المسيحية فإنه بعد أحداث الجمعة العظيمة بآلام صلب المسيح ، ومع انتهاء يوم السبت بدأت أحداث القيامة ، فنزل ملاك من السماء متشحًا بلباس أبيض؛ ليعلن قيامة المسيح من بين الأموات ، وتحتفل الكنيسة بيوم عيد الميلاد منذ نشأتها، ولا بد أن يوافق عيد القيامة يوم أحد؛ لأن قيامة السيد المسيح حدثت يوم أحد حسب التقويم الكنسي الشرقي ، وتحتفل الكنيسة بقيامة السيد المسيح خمسين يومًا، تبدأ بعيد القيامة، وتنتهي بعيد العنصرة، وهو بعد أربعين يومًا من عيد القيامة . انظر : طارق منصور ، "المآدب الإمبراطورية "، ص ١٠٣ .

وأجبروه على تناول طعامه فى حجرة منفصلة مع خدم الإمبراطور[١] ثم تدارك الإمبراطور نقفور خطورة هذا الموقف فأرسل إليه أطباقًا احتوت على لحم ماعز، وشاركه تناول هذا الطعام بأن أخذ منه شيئًا لنفسه، وهذه هى المرة الأولى التى يعترف فيها ليوتبراند بروعة الطعام الإمبراطورى، لدرجة أنه تمنى أن لو كانت هذه الأطباق على مائدة إمبراطوره، بدلا من أن تكون على مائدة الإمبراطور البيزنطى[٢] وفي موضع آخر أشار ليوتبراند أنه نزل ضيفًا على الإمبراطور نقفور الثانى، فجعله الإمبراطور فى الترتيب الخامس عشر منه ،وكانت المائدة التى يجلس عليها خالية من مفرش يزينها، ولم يجلس أحد من حاشية ليوتبراند على المائدة، بل إن أحدًا من حاشيته لم يدخل ذلك القصر الذى نزل به ضيفًا. وعن الطعام الإمبراطوري –الذى يعد أفضل الأطعمة فى جميع أنحاء الإمبراطورية– ينقل لنا ليوتبراند صورة سيئة عن طبيعة هذا الطعام، وربما أن الكره الدفين بين اللاتين والبيزنطيين جعله يقلل من قيمة كل شيء، ومن ذلك الطعام الذي يصفه "بوجبة كريهة مثيرة للغثيان، غمر فيها الطعام بالزيت على طريقة المخمورين؛ إذ كانت مشبعة بمنقوع السمك الفاسد" وعندما اشتد النقاش في أحد المواقف بين ليوتبراند والإمبراطور أمر الإمبراطور بأن ترفع المائدة الطويلة من أمامه، وأمره بالعودة إلى مسكنه الكريه[٣].

---

(١) ليوتبراند ، السفارة ، ص٤٣ – ٤٤ .

هنا نلحظ اهتمامًا كبيرًا بالسفارة البلغارية فى بيزنطة منذ أن استقبلها الإمبراطور فى كنيسة " الرسل المقدسين " ثم جلوسهم على المائدة الإمبراطورية في مقعد يتقدم جميع الأجانب الآخرين أيًا كانت منزلتهم ، بل وطرد ليوتبراند من مكانه؛ لأنه تجرأ واعترض على هذا الوضع، وقد وصل البلغار لهذه المكانة إثر زواج بطرس البلغارى من الأميرة البيزنطية ماريا ليكابينوس، وظلت العلاقات طيبة بين الجانبين ولم تندلع الحرب بينهم إلا فى عهد الإمبراطور نقفور الثانى، إذ بموجب المعاهدة التى وقعت بينهم عام ٩٢٧م / ٣١٥هـ استمرت بيزنطة في دفع الجزية للبلغار، إلا أن نقفور استغل تدهور الأوضاع بين البلغار، وامتنع عن دفع الجزية لهم، بحجة أنهم خرقوا المعاهدة، وبناءً على ذلك أساء معاملة المبعوثين البلغار الذين وصلوا القسطنطينية عام ٩٦٥م / ٣٥٤هـ لاستلام الجزية وطردهم، بل واستعان بالروس لمحاربتهم، وخلال حروبه معهم أحس نقفور بخطئه تجاههم، فتحول إلى جانبهم، ويبدو أن هذا التحول قد حدث عقب استقبال هذا الوفد. . انظر: ليوتبراند ، السفارة ، ص٤٢ – ٤٣ هامش (٣) ؛
Stephenson , *Byzantium's Balkan Frontier* , p . 24 .

(٢) ليوتبراند ، السفارة ، ص٤٤ – ٤٥ .

(٣) ليوتبراند ، السفارة ، ص٣٣ – ٣٤ ، ٣٦ ، ٦٠ .

اتهم البيزنطيون اللاتين بأكل " الغذاء الفاسد " وتظهر هذه الادعاءات فى المناقشات شبه اللاهوتية بين البيزنطيين واللاتين، وظهرت هذه الاتهامات بتناول تلك الأطعمة فى هجاء العصور الوسطى بين كل من البيزنطيين واللاتين الذين اتهموا بعضهم بممارسة العادات السيئة، وأكل الأطعمة الفاسدة، على الرغم من أن بعض البيزنطيين لم يلتزموا بتناول أطعمة محددة. انظر:
Crostini , " What was Kosher in Byzantium " , pp . 165 – 166.



ويذكر لنا الأسقف ليوتبراند أن الخمور اليونانية كانت مخلوطة بالقار، وبمادة لزجة أخرى، فضلا عن أن مادتها الأصلية كانت سيئة، لدرجة أنه من المستحيل شربها. انظر: ليوتبراند ، السفارة ، ص ١٨.

المصادر والمراجع

أولاً المصادر الأجنبية

- Akritis , D., *The Grottaferrata and Escorial Versions* , trans . Jeffrey , E., (Cambridge University 1998).
- Albert d’Aix, *Historia Hierosolymitana*, ed. RHC, HOCC, IV(Paris 1879).
- Anna Komnena, *The Alexiad*, trans. E.R.A.Sewter, Penguin Books (1982).
- Attaleiates, M., *The History*, Trans. A. Kaldellis, A. D.(Harvard 2012).
- Basil the Great : *Homilia in Divites ed. Migne*., P.G, vol. xxxi (Paris 1896).
- Bryennios, N., *Nicephore Bryennios Histoire*, Trans ,Gautier ,P, *CFHB* 9, 1975.pp.129-31؛ Translated into French by Henri Gregoire. *Bys* 23 (1953): 469-530; & *Bys* 25-27 (1955-57):pp. 881-925.
- *Byzantine Monastic Foundation DocumentsA Complete Translation of the Surviving Founders, Typika and Testaments, Volume 1 ,ed .John Thomas and Angela Constantinides Hero, Dumbarton Oaks,2000*
- Caminiates *,I. ,De Expugnatione Thessalonicae*, ed. G.Böhlig , Berlin (Newyork 1973).
- Cedrenus,G., *Historiarum Compendium,* Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, ed.Bekker, Tome.II ,1839.
- Choniatēs, N,. *O City of Byzantium*: *Annals of Niketas Choniatēs*, trans. H. Magoulias, (Detroit 1984).
- Codinos, George : *De Officialibus Palatii Constantinopolitani*, ed Bekker. C.S.H.B (Bonnea 1839).
- Constantine Porphyrogenitus, *Historia de Vita et Rebus Gestis Basilii Inclyti Imperatoris*, in: Theophanes Continuatus, *Chronographia*, ed. I. Bekker, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (Bonn 1838).
- Constantine Porphyrogennetos,*The Book of Ceremonies*,Vol.1, Trans.Ann Moffatt &Maxeme Tall,With the Greek edition of The Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (Bonn,1829) Australian Association for Byzantine Studies Byzantina Australiensia 18(1) Canberra.(2012).
- *Digenes Akrites* , ed.& trans. J.Mavrogordato (Oxford 1970).
- *Digenis Akritis* , *The Grottaferrata and Escorial Versions* , ed.& trans. E.Jeffreys , *CMC* 7 (Cambridge 1998).

- Ehrhaed ,M., "Le livre du Pèlerin d'Antoine de Novgorod", *Romania 58* (1932),pp. 44-65.
- Eustaathios of Thessalonica, *The Capture of Thessaloniki, ,* ed. and trans. John R. Melville Jones Canberra(1988).
- Genesios, *On the Reigns of the Emperors*, trans. A. Kaldellis, *Byzantina Australiensia* 11, (Canberra 1998).
- Georgius Monachus, *Vita Imperatorum Recentiorum*, in: *Theophanes Continuatus*, ed. I. Bekker, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (Bonn 1838).
- Grammaticus , L., *Chronographia,* Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (1842).
- John Skylitzes, *A Synopsis of Byzantine History 811–1057*: Translation and Notes by John Wortley(Cambridge University Press 2010).
- Kekaumenos *, Logos Nouthetetikos or Oration of Admonition to an Emperor*, trans. North ,W., Moscow , 1972.
- Kinnamos, J., *Deeds of John and Manuel Comnenus* , Trans .Ch. M. Brand (New York 1976).
- Leo Grammaticus, *Chronographia*, ed. I.Bekker, *CSHB* (Bonn 1824).
- Leo III and Constantine V *, A manual of Later Roman Law the Ecloga, Founded Upon the Ecloga of Leo III and Constantine V , of Isauria , and on the Procheiros Nomos of Basil I , of Macedonia , including the Rhodian Martime Law edited In 1166 A.D* , Trans . Freshfield , E. H., Cambridge , 192*7.*
- Leo the Deacon, *The History of Leo the Deacon, Byzantine military expansion in the tenth century*, trans. A. M. Talbot & D. E. Sullivan, Dumbarton Oaks Center (Washington, D.C. 2005).
- Leo the Syncellus, *The Correspondence of Leo, Metropolitan of Synada and Syncellus*, trans. M. P. Vinson, Corpus Fontium Historiae Byzantinae 23 (Washington, D.C. 1985).
- Leo V1 , *Taktika* , trans . Dennis , G. t.(Washington 2010).
- Leo VI , Les novelles de Léon VI le sage , ed. & trans. P.Noailles & A.Dain (Paris 1944).
- Leo VI, *Ναυμαχικα Λέοντος βασιλέως*, ed. & trans. Pryor & Jeffreys, in: Idem., *The Age of The ΔΡΟΜΩΝ*, Appendix Two [a], pp. 490 – 491; Nikēphoros Ouranos*, Περὶ θαλασσομαχίας*, ed. & trans. Pryor & Jeffreys, in: Idem., *The Age of The ΔΡΟΜΩΝ*, Appendix FiveAnonymous,*Ναμαχικα συνταχθέντα παρα βασιλείου πατπικ ίου καὶ παρακοιμουμένου*, ed. & trans. Pryor & Jeffreys, in: Idem., *The Age of The ΔΡΟΜΩΝ.*

- *Leters Of Christ and Abgarus*, From "The Apocryphal New Testament" M.R. James-Translation and Notes Clarendon Press, (Oxford 1924).
- Life of St Matrona of Perge, Trans. J. Featherstone, *HWB.*
- *Life Of St. Athanasia Of Aegina ,* Trans . Sherry ,F., , Holy Women of Byzantium:Ten Saints' Lives in English Translation(Washington1996).
- Life of St. Athanasia of Aegina, trans, F., Sherry, *HWB.*
- Life of St. Mary the Younger, trans. A.E.Laiou, *HWB.*
- Life of St.Thomais of Lesbos , trans. P.Halsall , *HWB.*
- Manasses (c) : Synopsis Chronike, ed B.G. Nicbuhr, S.C.H.B (Bonnea 1837).
- Mango,C., *The Homilies of Photius Patriarch of Constantinople* (Cambridge MA 1958).
- Monachi,G., *Vitae Recentionrum Imperatorum ,* Patrologiea Greca,V.II.
- *Nicephorius Patriarch Constantino Politani*, Breviarium historicum de rebus gestis post imperium mauricii*, Tomus. C. Cols 875-944, Patrologia Graecae(Paris, 1860*).
- Nikephoros the Priest, *Life of St. Andrew*, trans. L. Rydén, Studia Byzantina Upsaliensia 4/I-II (Uppsala 1995).
- Niketas *, The Life of St – Philaretos the Merciful,* trans . Ryden , L. , Appsala University Library(2002) .
- Nikolas I *, Nikolas I Patriarch of Constantinople ,* Miscellaneous Writings , trans. L.G.Westerink , DOT 6 (Washington , D.C. 1981).
- Psellos , M., Fourteen Byzantine Rulers : the Chronographia of Michael Psellus , trans. E.R.A.Sewter , Penguin Books (1966).
- Psellos,M.,*Michaelis Pselli Orationes Hagiographicae*,ed. Fisher, E., (Stuttgart and Leipzig 1994).
- Psellus, M., *Chronographia*, trans. E. R. A. Sewter (New Haven 1953).
- Pseudo- Symeon, *Chronographia*, ed. I. Bekker, *CSHB* (Bonn, 1838).
- Skylitzes, J., *A Synopsis of Byzantine History 811 – 1057 ,* trans. Wortley ,J. Cambridge University , 2010 .
- Symeon Magister, *Annales*, in: *Theophanes Continuatus*, ed. I. Bekker, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (Bonn 1838).
- Symeon of Thessalonica : De Fine et Exitu Nastro Evita, ed , P.G,vol.clv (Paris 1860).
- The *Life* of Constantine the Ex-Jew was edited by H. DELEHAYE, *Acta Sanctorum Novembris IV*(Brussels 1925),pp.628-656.

- The Life of Michael the Synkellos, trans.M.B.Cunningham, *BBTT*1,(Belfast 1991).
- *The Life of St Andrew the Fool* , ed . Ryden ,L., Sweden(1995).
- *The Life of St Thomais of Lesbos*, trans. P. Halsall, in: *Holy Women of Byzantium*, *Ten Saints Lives in English Translation*, ed. A. M. Talbot, Byzantine Saints Lives in Translation 1 (Washington, D.C. 1996).
- The *Life of Lazaros of Mt. Galesion*: *an Eleventh-Century Pillar Saint*, trans. R. P. H. Greenfield, *Byzantine Saints Lives in Translation* 3 (Washington, D.C. 2000).
- *The Life of St. Irene Abbess of Chrysobalanton* , ed. & trans. J.O.Rosenqvist , *SBU* 1 , Uppsala (1986).
- *The Life of St. Theodora of Thessalnike*, trans. A. M. Talbot, in: *Holy Women of Byzantium*, *Ten Saints Lives in English Translation*, ed. A. M. Talbot, Byzantine Saints Lives in Translation 1 (Washington, D.C. 1996).
- *The Russian Primary Chronicle*, *Laurentian Text*, trans. S. H. Cross & O. P. Sherbowitz – Wetzor (Cambridge 1953).
- Theognostos , *Theognosti Thesaurus* , ed. J.A.Munitiz , Brepols-Turnhout (1979).
- Theophanes , *The Chronicle of Theophanes Confessor : Byzantium and Near Eastern History , A.D.284-813* , trans. C. Mango & R. Scott (Oxford 1997).
- Theophanes, *The Chronicle of Theophanes Confessor: Byzantium and Near Eastern History*, 284-813 A.D., trans. C. Mango & R. Scott (Oxford 1997).
- Theophanis, Chrongraphia, Vol. I, in Corous Scriptorum Historiae Byzantinae(Bonnae 1839).
- Tsamakda, V., *The illustrated chronicle of Ioannes Skylitzes in Madrid.* Alexandros Press (Leiden 2002).
- Zanoras (Ioannes) : *Epitomae Historiarum*. Ed Theodorus Buttner vol.III C.S.H.B (Bonnea 1897).

ثانيًا المراجع الأجنبية

- Abou-Seada , A. A., *Byzantium and Islam (9th – 10th , centuries: Historical Evaluation of the Role of Religion in Byzantine – Muslim Relations* , Ph.D.,University of Birmingham(2000).
- Adontz, N., 'Notes arméno-byzantines: Les Dalassènes' *Bys* 10 (1935),pp. 171-85.
- Alexakis, A., "Wos there Life Beyond the Life Beyend Byzantine Ideas on Reincarnation and Final Restoration", *Dumbarton Oaks Papers* 55 (2001).

- Andréadès, A., “Public Finances: Currency, Public Expenditure, Budget, Public Revenue”, *Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization*, ed. N. H. Baynes & H. St. Moss (Oxford 1948).
- Andréadès, A., “The Economic Life of the Byzantine Empire, Population, Agriculture, Industry, Commerce”, *Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization*, ed. N. H. Baynes & H. St. Moss (Oxford 1948).
- Angelidi, Ch.," Un texte patriographique et édifiant : Le «Discours narratif» sur les Hodègoi", *REB* 52(1994),pp. 113-149.
- Angelidi,Ch& T. Papamastorakis," Picturing the Spiritual Protector: from Blachernitissa to Hodegetria", *Images of the Mother of God: perceptions of the Theotokos in Byzantium*,ed. M. Vasilakē(Ashgate 2004),pp.209-234.
- Angilidi,Ch.& T.Paoamastorakis ,"The Veneration of The Virgin Hodegetria and The Hodegon Monastery" , *Mother of God. Representations of the Virgin in Byzantine Art* ,ed. M. Vassilaki (Milan 2000),pp.373-387.
- Ann , H., *The Medieval Warhorse from Byzantium to the Crusades, Conshohocken* (1996) .
- Annemarie ,W. Carr," Icons and the Object of Pilgrimage in Middle Byzantine Constantinople", *DOP* 56 (2002),pp.75-92.
- Annemarie W. Carr ,"Threads of Authority: The Virgin Mary’s Veil in the Middle Ages,” *Stewart Gordon, ed. Robes and Honor : The Medieval World of Investiture* (New York: Palgrave, 2001),pp. 59-93.
- Annemarie Weyl Carr, “The Mother of God in Public,”, *Mother of God: Representations of the Virgin in Byzantine Art*, ed. Maria Vassilaki (Milan 2000), pp.325–337.
- Anooshahr ,A., " Saracens: Islam in the Medieval European Imagination by John V. Tolan (review)" *A Journal of Medieval and Renaissance Studies*, 34 (university of California 2003), pp.266-268.
- Antonacci, M., *Resurrection of the Shroud: New Scientific, Medical, and Archeological Evidence*, M. Evans(New York 2001).
- Baker, J. J., *Introduction to Exception Psychology*(New York, 1953)
- Barbara,B., *A Heritage Of Holy Wood: The Legend Of The True Cross In Text And Image* ,Brill(Boston 2004).
- Barbe (D): *Iren de Byzance., La Femme empereur* (Paris 1990).
- Bartusis, M. C., *Land and Privilege in Byzantium,the Institution of Pronoia*,Cambridge University , 2012.
- Baynes ,N., "The Supernatural Defrnders of Constantinople", *AB* 67 (1949). pp.165-177.

- Beaucamp, J., "La situation juridique de la femme à Byzance, Xe-XIIe siècles", *CCM* 20(1977),pp. 149-157.
- Bery, J. B., *A History of the Eastern Roman Empire* (London 1912).
- Birkenmeier, J. W., “The Development of the Comnenian Army”, Ph. D. Dissertation (The Catholic University of America: Washington, D.C. 1998).
- Bissera V. Pentcheva "The 'activated' icon: the Hodegetria procession and Mary's Eisodos." , *Images of the Mother of God: Perceptions of the Theotokos in Byzantium,* ed. M. Vassiliki ,Aldershot (Ashgate 2005), pp. 195- 207.
- Bissera V. Pentcheva,"Icons,Byzantine", *Gender in Medieval Europe: An Encyclopedia*, ed. Margaret Schaus, Routledge(London,2006).
- Bissera V. Pentcheva., *Icons and Power: The Mother of. God in. Byzantium* , University Park, PA(The Pennsylvania State University Press 2006).
- Blondal, S. ,*The Varangians of Byzantium , A spects of Byzantine Military History* , trans . Benedikz ,B. S. (Cambridge University 1978) .
- Boulle , Ph. & Soulban ,L., *Constantinople*(Canada1997).
- Bouras ,Ch., " Master Craftsmen , Craftsmen, and Building Activities in Byzantium " *the Economic History of Byzantium from the Seventh through the Fifteenth Century* (Washington 2002) , pp.539-554.
- Bowlus ,Ch.,R ,*The Battle of Lechfeld and its Aftermath August 955,the End of the Age of Migrations in the Latin West* , University of Arkansas at Little Rocke (2006).
- Brand ,C.M.,"The Turkish Element in Byzantium , Eleventh-Twelfth Centuries" , *Dumbarton Oaks Papers* vol . 43 (1989),pp.1-25.
- Brand, Ch. M., “The Turkish Element in Byzantium, Eleventh-Twelfth Centuries”, *Dumbarton Oaks Papers* 43 (1989).
- Brehier (L) : *Lavie chretinne en Orient Histoire de L' Eglise, ed Augustin Fliche and victor Martin* (1948).
- Bréhier, L., *Les institutions de l'empire byzantine* (Paris 1949).
- Bromley (D.B) : The Psychology of Human Aging. (Great brutian 1966).
- Browning (R): An Upublished Funeral Oration on Anna Comnena Idem Studies on Byzntine History , Literature and Education (London 1977).
- Buckler, G.,"Women in Byzantine Law About 1100 A.D.", *B* 11(1936) 391- 416.
- Bury (B): *the Adminstraive System in the Ninth Century with a Revised Text of the Kletorologion of Philotheos* (London 1911).

- Bury, J., The Imperial Administrative System In The Ninth Century With a Revised Text of The Kletorologion of Philotheos, (London 1911).
- Bussell, F. W., *The Roman Empire Essays on the Constitutional History from the Accession of Domitian A.D To the Retirement of Nicephorus III, 1081*AD, Vol. 1-2(New York 1910).
- Cameron, A. , The Byzantines (Malaysia 2006).
- Cameron,A. "The History of the Image of Edessa: The Telling of a Story", *HUS* 7 (1983), pp. 80-94.
- Canard, M., "Les relations politiques et sociales entre Byzance et les arabes", *Dumbarton Oaks Papers* 18, (1964).
- Carolyne, L., *Women and Writing in Medieval Europe* (London 1995).
- Cecily J. Hilsdale, *Byzantine Art and Diplomacy in an Age of Decline*(Cambridge University Press 2014).
- Charanis (P): The Monk as an Element of Byzntine Society " ,*DOP* (1971).
- Charanis, P., "Cultural Diversity and the Breakdown of Byzantine Power in Asia Minor", *DOP* 29 (1975).
- Charanis, P., "The Byzantine Empire in the Eleventh Century", *A History of the Crusades*, ed. K. M. Setton (Philadelphia 1955).
- Charanis, P., "The Chronicle of Monemvasia and the Question of the Slavonic Settlements in Greece", *Dumbarton Oaks Papers* 5 (1950).
- Charanis, P., "The Transfer of Population as a Policy in the Byzantine Empire", *Comparative Studies in Society and History* 3/2 (Jan., 1961).
- Cheynet, J. C., "Basil II and Asia Minor", *Byzantium in the year 1000*, ed. P. Magdalino, The Medieval Mediterranean People, Economies and Cultures 400-1500, Vol. 45 (Leiden & Boston 2003).
- Ciggaar, K. N., *Western Travellers to Constantinople, The West and Byzantium 962- 1204: Cultural and Political Relations* (London 1996).
- Ciggaar,K.N.," Une Description de Constantinople dans le Tarragonensis 55", *REB* tome 53(1995), pp. 117-140.
- *Collins York Latin Dictionary and Plus Grammer* (Beirut– Lebanon 2000).
- Constantelos (D.J): *Byzntine Philanthropy and Social Welfar* (New Jersey 1926).
- Constantelos (D.J): *Poverty Society and Philanthropy in the Late Mediavel Greek World* (New Rochelle 1992).

- Cormack, R., *Painting the Soul; Icons, Death Masks and Shrouds.* Reaktion Books (London 1997),pp.59-61.
- Crostini , B. , " What was Kosher in Byzantium" in: Eat Drink, and Be Merry (Luke 12 , 19) – *Food and Wine in Byzantium,Society for the Promotion of Byzantine Studies* , ed. Brubaker,L.& Linardou,K., Birmingham(2007).
- Cutler,A.," Gifts and Gift Exchange as Aspects of the Byzantine, Arab, and Related Economies", *DOP* 55 (2001), pp. 247-278.
- Dagron,G. ," The Urban Economy Seventh–Twelfth Centuries", *the Economic History of Byzantium : from the Seventh Through the Fifteenth Century* (Washington 2002) , pp.393-461.
- De Lange, N., "Jewish Use of Greek in the Middle Ages: Evidence from Passover Haggadoth from the Cairo Genizah", *The Jewish Quarterly Review* 96/4, (2006).
- Dennis, G. T. "Popular religious attitudes and practices in Byzantium," *PrOC* vol. 43, no3-4 (1993)pp. 273-294.
- Dennis, G. T., "Death in Byzantium", Dumbarton Oasks Papers, N. 55, pp. 1-7(2001).
- Diamandopulou, A. H. & Marketos. S. G., "Four Different Ways of Philanthropic Aid to the Blind in Medieval Eastern Christendom", *Ophtalmic and Physiological Optics*, pp. 609-613, (Nov. 1995).
- Dovnevman, N., *Motif–Index of Talmudic and Midrashic Literature, Sobmitted to the Gredute Faculity Partial for of the Requuirements for Folklor,* Indiane University, Blooming, IND Tune(1954)
- Durand (G.R.P): *Epigrapihe Chretienne de Jerusalem in* R.b vol. 1 (1892).
- Elizabeth A. Fisher., "Michael Psellos on the 'Usual' Miracle at Blachernae , the Law, and Neoplatonism ", *Byzantine Religious Culture*,ed. Denis Sullivan, Elizabeth A. Fisher, Stratis Papaioannou (Brill 2012),pp.187–204.
- Enrico V. Maltese, *Dimensioni byzantine Donne, angeli e demoni nel Medioevo Greco*, Scriptorium (Torino1995).
- Eustratios N. Papaioannou, "The 'Usual Miracle' and an Unusual Image"Psellos and the icons of Blachernai," *JÖB* 51(2001),pp177-88.
- Festugiere (A,J): Les Moines d' Orient III/2 Les Moines, de Palestine (Paris 19662).
- Fiey, J. M., "The Syriac Population of the Thughūr al-Shāmiya and the Άwāsim and its Relation with the Byzantines and Muslims", M. Adnan al-Bakhit & R. Schick (eds.), *Bilād al-Shām During the Abbasīd Period (132 A.H./ 750 A.D.-451 A.H./ 1059 A.D.), Proceeding of the Fifth International Conference on the History of*

Bilad al-Sham 7-11 Sha'ban 1410 A.H./ 4-8 March 1990 (Amman 1991).

- Finlay, G., *History of the Byzantine Empire*(London 1906).
- Fortounatto,M. & Mary B. Cunningham," Theology of the icon",*The Cambridge Companion to Orthodox Christian Theology*,eds. Mary B. Cunningham& Elizabeth Theokritoff,(Cambridge University Press 2008),pp.136-149.
- Frolov *A*. La «Podea»: un tissu décoratif de l'Eglise byzantine " *Byza* 13 (1938), pp.461-504.
- Frolow, A.," Le Christ de la Chalce", *Byz* 33 (1963) pp.107-120.
- Frolow,A *La Relique de la Vraie Croix. Recherches sur le développement d'un culte*. Archives de l'Orient Chrétien 7 (1961).
- Fronimopoulos, J. & Lascaratos, "Some Byzantine chroniclers and Historians on Ophtholmological Topics", *Decumenta Ophthalmoloical* 81, pp. 121-132 (Netherlands 1992).
- Gabeliç,. "The Iconography of the Miracle at Chonae. An Unusual Example from Cyprus," *Zograf* 20(1989),pp.95–103.
- Galatariotou, C.,"Holy Women and Witches: Aspects of Byzantine Conceptions of Gender", *BMGS* 9 (1984\5),pp. 55-94.
- Garbar,A., *L'Empereur Dans L'art Byzantin* (Strasbourg 1936).
- Garland ,L., *Byzantine Empresses :Women and Power in Byzantium , 527-1204* A.D(New York 1999).
- Garland ,L.," The Life and Ideology of Byzantine Women : A Further Note on Conventions of Behavior and Social Reality as Reflected in Eleventh and Twelfth Centuries Historical Sourses " , *B* 59(1988), pp.361-93.
- Garsoian ,N. G , "The Proplem of Armenian Integration into the Byzantine Empire" , *Studies on the Internal Diaspora of the Byzantine Empire* , ed. Ahrweiler ,H. & Laiou ,A.E. , Harvard University(1998).
- Gautier,P., "Le typikon du Christ Sauveur Pantocrator" *REB* tome 32 (1974), pp. 1-145.
- Geanakoplos, D. J., *Emperor Michael Pelaeologus and the west 1258-1282*, (Cambridge1959).
- George P. Majeska," Russian Pilgrims in Constantinople", *DOP* 56 (2002) , pp.93-108.
- George, T.Dennis,"A Rhetorician Practices Law:Michael Psellos", *Law and Society in Byzantium, 9th-12th Centuries,ed. Angeliki E. Laiou&D. Simon(* Washington DC 1994).

- George,T.Dennis ,“Religious services in the Byzantine army,” *Eulogema. Studies in Honor of Robert Taft,* ed. Ephrem Carr et al. (Rome, 1993) = *Studia Anselmiana* 110 (1993), pp. 107-17.
- Gibbons, C., *Society Crime and Criminal Careers*(New Jersey 1977).
- Gilleard (C) : *old age in Byzantine Society Ageing* & Society ., 27 (Cambridge 2007) PP 623-642.
- Gitting (E.A): *Elit Women : dignity Power and Piety* in B.W.W. (Cambruidge 2003),
- Goitein, S. D., “A Letter from Seleucia (Cilicia): Dated 21 July 1137”, *Speculum* 39/2 (Apr., 1964).
- Goitein, S. D., *A Mediterranean Society,* Vol. V: *The Individual Portrait of a Mediterranean Personality of the High Middle Ages as Reflected in the Cairo Geniza* (Los Angeles 1988).
- Gregory (E.T): *A History of byzantium* (Korinth 2004).
- Grierson, Ph., *Byzantine Coinage, Dumbarton Oaks Studies* (Washington, D.C. 1999), pp. 1-9.
- Grierson,Ph., *Catalogue of the Byzantine Coins in the Dumbarton Oaks Collection and in the Whittemore Collection, vol. III: Leo III to Nicephorus III, 717-1081* (Washington 1973).
- Grumel V., "Le miracle habituel de Notre-Dame des Blechernes à Constantinople", *Échos d'Orient* tome 30, n°162(1931), pp. 129-146.
- Guilland, R., "Les Eunuques dans l'empir Byzantine etude de Titulature et de prosopograpgie Byzantines" *Revue des études byzantines* 1(1943).
- Guilland, R., "Les eunuques dans l'empire byzantin: étude de titulature et de prosopographie byzantines", *Études Byzantines* 1 (1943).
- Guillou, A., *La Civilisation Byzantine,* Arthaud(1974).
- Guscin, M., *The Image of Edessa*, Brill (Boston 2009).
- Haldon, J., “Military Service, Military Lands, and the Status of Soldiers: Current Problems and Interpretations”, *Dumbarton Oaks Papers* 47 (1993).
- Hallit,J., "La Croix dans le rite byzantin. Histoire et thØologie" , *Parole de l Orient* 3 (1972), pp.261-311.
- Halsall, P.,"Life of Thomaîs of Lesbos" , *Holy Women in Byzantium. Ten Saints'* Lives in English Translation, ed. A.-M. Talbot (Washington, D.C. 1996),pp.291-322.
- Harris, J.& Venning,T . *Chronology of the Byzantine Empire*(Springer2006).
- Harrison, F., Theophano, *The Crusade of Tenth Centurp. A Romantic Monograph*(London 1904).

- Head, C., *Imperial Byzantine Portraits*(New York 1982).
- Heath , L.& McBride,A. , Men at Arms , *Byzantine Armies 1118 – 1461 AD* (Oxford 1995).
- Hector, C. & Sydell, B., *The Adjustment of Blind*, Yale University (1960).
- Hendy , M.F., *Studies in the Byzantine Monetary Economy c.300-1450* , (Cambridge University 1985).
- Herbst, M. Th., *The Medieval Art of Spin: Constructing the Imperial Image of Control in Ninth-Century Byzantium*, Ph.D. Dissertation (The University of Michigan 1998).
- Herrin, J., "Women in Purple", Princeton, 2001, *American Historical Review*, Vol., 108 (Feb. 2003).
- Hetherington, P.," The image of Edessa: some notes on its later fortunes", *Byzantine Style Religion and Civilization in Honour of Sir Steven Runciman*, (2006),pp. 192-205.
- Hilsdale ,C.J.," Constructing A Byzantine Augusta , *A Greak Book for a French Bride* , Art Bull 87 , No 3(2005) ,pp.458-483.
- Hodegetria Icon By Saint Luk ,see: Alfredo,T., *Icons and Saints of the Eastern Orthodox Church*, Getty Publications(2006).
- Holger A. Klein," Constantine, Helena and the Cult of the True Cross in Constantinople", *Byzance et les reliques du Christ*,eds.J.Durand et B.Flusin (Centre de recherche d'Histoire et Civilisation de Byzance, Monographies 17)(Paris 2004).
- Holger A. Klein," Eastern Objects and Western Desires: Relics and Reliquaries between Byzantium and theWest", *DOP* 58 (2004), pp. 283-314.
- Holger A. Klein," Sacred Relics and Imperial Ceremonies at the Great Palace of Constantinople", *BYZAS* 5 (2006),pp. 79-99.
- Holger A.Klein,"The Crown of his Kingdom:Imperial Ideology,Palace Rithual,and The Relics of Christ's Passion", *The Emperor's house. Palaces from Augustus to the Age of Absolutism*,eds. Jean-Michel Spieser and others, Walter de Gruyter GmbH & Co KG (Boston 2015).
- Holmes, C., "Political Elites in the reign of Basil II", *Byzantium in the year 1000*, ed. P. Magdalino, *The Medieval Mediterranean People, Economies and Cultures, 400-1500* 45 (Leiden & Boston 2003).
- Holo, J., "A Genizah Letter from Rhodes Evidently Concerning the Byzantine Reconquest of Crete", *Journal of Near Eastern Studies* 59/1, (Jan., 2000).

- Holo, J., *An Economic History of the Jews of Byzantium from the Eve of the Arab Conquest to the Fourth Crusade*, Ph.D. Dissertation (Chicago University 2001).
- Hong (S.M) & Giannakopoulos (E): *the Releationship of Satisfaction with Life to Personality chracteristice art* in J.P (1994).
- Horden (P): *The earliest Hospitals in byzantium* in J.I.H (2005).
- Horden, P., "The Earliest Hospitals in Byzantium, Western Europe, and Islam",*Journal of Interdisciplinary History*, Vol. 35, (Winter: 2005)
- Hurlock (B): *Developmental Psychology* (New Delhi 1981).
- Hussey (J) *Church and Learning in Byzantine Empire* (New York 1963).
- Ioanna, A. & Maria, K., "Management of Childhood Diseases During the Byzantine Period", *Pediatrics Intemation*, Vol. 44, (Oct. 2002)
- J.W. Drijvers, "Promoting Jerusalem", *Holy City, Holy Places? Christian Attitudes to Jerusalem and the Holy Land in the Fourth Century*, ed. Paul W.L. Walker (Oxford 1990).
- Jacoby ,D., "Foreigner and the Urban Economy in Thessalonike ca 1150 – ca 1450" , *Dumbarton Oaks papers* , No 57 , 2004 ,pp.85-132.
- Jacoby, D., “Les quartiers juifs de Constantinople à l'époque byzantine”, *Byzantion* 37 (1967).
- Jacoby, D., “The Jews of Constantinople and their demographic hinterland”, in: C. Mango & G. Dagron (eds.)., *Constantinople and its Hinterland*: *Papers from the Twenty – seventh Spring Symposium of Byzantine Studies*, Oxford, April 1993 (London 1995).
- James,L.," Seeing's believing but feeling's the truth': Touch and the Meaning of Byzantine Art", *Images of the Byzantine World: Visions, Messages and Meanings: Studies presented to Leslie Brubaker*,eds.A. Lymberopoulou Ashgate(Farnham and Burlington 2011).
- Jan W. Drijvers, Helena Augusta: *'Ile Mother of Constantine the Great and the Legend of Her Finding of the True Cross* ,(Leiden1992).
- Janin (R): *Constantinople byzantine* (Paris 1950).
- Janin (R): *Etudes deTopographie bezantine* E.O, vol. 27 (1937).
- Janin (R): *La Geogrrphie Ecclesiastique d' L' Empire Byzantin* (Paris 1953).
- Janin (R): *Le Petrion de Constantinople* in E.O. vol. 26 (1937).
- Janin (R): *Monasters byzantins in Echos d''orient* (July-Septmper (1933).

- Janin, R., *La géographie ecclésiastique de l'Empire byzantin. Première partie. Le Siège de Constantinople et le Patriarcat oecuménique*, Institut Francais d'Etudes Byzantines (paris 1969).
- Janin,R., "Les processions religieuses à Byzance"*REB* 24 (1966). pp. 69-88.
- Jaroslav Folda&Lucy J. Wrapson, *Byzantine Art and Italian Panel Painting*(Cambridge University Press 2015).
- Jean Skylitzès, *Empereurs de Constantinople*, trad. B. Flusin (Paris 2003).
- Jenkins , R.J.H., " The flight of Samonas " , *Studies on Byzantine History of the 9th and 10th centuries* , ed. Jenkins , R.J.H. (London 1970).
- Jenkins and C. A. Mango, '*The Date and Significance of the Tenth Homily of Photius*', *DOP* 9/10 (1956), pp. 123-140.
- Jenkins, R., A"Consolatio" of the Patriarch Nicholas Mysticus", in: *Stuaties on Byzantine History of the 9th and 10th Centuriy* (London 1970).
- Jephcott,E., *Likeness and Presence: A History of the Image Before the Era of Art*(University of Chicago Press 1996).
- John A. Cotsonis, *Byzantine Figural Processional Crosses*, Dumbarton Oaks, (Washington 1994).
- Jonathan,H., *Byzantium and the Crusades*, Bloomsbury Publishing, (London 2014).
- Jones,L.,"Perceptions of Byzantium:Radegund of Potitiers and Relics of The True" , *Byzantine Images and Their Afterlife: Essays in Honor of Annemarie Weyl Carr*. ed.. L. A. Jones (Ashgate 2014).
- Kalavrezou, L., "Images of the Mother: When the Virgin Mary Became *Meter Theou"*, *DOP* 44 (1990),pp. 165-72.
- Kalavrezou, L., 'Helping Hands for the Empire: Imperial Ceremonies and the Cult of Relics at the Byzantine Court', *Byzantine Court Culture from 829 to I2o4*, ed .H. Maguire, Dumbarton Oaks (Washington 2004), pp. 53–79.
- Kaldellis ,A., The Military Use of the Icon of the Theotokos and its Moral Logic in the Historians of the Ninth-Twelfth Centuries" , *EB* 1 (2013),pp. 56-75.
- Kaldellis, A ., The original source for Tzimiskes’ Balkan campaign (971 AD) and the emperor’s classicizing propaganda," *BMGS* Vol. 37 No. 1 (2013) pp.35–52.
- Kaldellis, A., " 'A Union of Opposites': The Moral Logic and Corporeal Presence of the Theotokos on the Field of Battle", *pour*

l'amour de Byzance: Hommage à Paolo Odorico, ed. C. Gastgeber et al. (Frankfurt am Main, 2013), pp.131-144.

- Kazhdan , A.," Women at Home" , *DOP* 52 (1998),pp.2-10.
- Kazhdan, A., "Constantin Imaginaire: Byzantine Legends of the Ninth Century about Constantine The Great", *Byzantion* 57(1987).
- Kažhdan, A., “The concepts of Freedom (eleutheria) and Slavery (duleia) in Byzantium”, Makdisi. G., Sourdel. D. & Sourdel. Th. J.(eds.), *La notion de liberte au moyen age: Islam, Byzance et Occident*, Penn.- Paris- Dumbarton Oaks Colloquia IV, session des 12-15 octobre 1982 (Paris 1985).
- Kažhdan, A., “The Peasantry”, *The Byzantines*, ed. G. Cavallo, trans. Th. Dunlop, T. L. Fagan & Ch. Lambert (Chicago & London 1997).
- Kazhdan, A.,'"Constantine imaginaire": Byzantine Legends of the Ninth Century about Constantine the Great' *Byz* 57 (1987),pp.196-250
- Keith,Ch., *The Pericope Adulterae, the Gospel of John, and the Literacy of Jesus* ,Brill (Boston 2009).
- Khalil, N., *English – Arabic Dictionary of the Three Great Religions, Judaism – Christianity – Islam* (Alexandria 2005).
- Koder ,J., " Stew and Salted Meat – Opulent Normality in the Diet of Every Day", in: Eat , Drink and Be Merry (Luke 12 : 19) *Food and Wine in Byzantium , Society for the Promotion of Byzantine Studies* , ed. Brubaker,L.& Linardou,K.(Birmingham 2007).
- Kolia-Dermitzaki, A., “Some remarks on the fate of prisoners of war in Byzantium (9th -10th Centuries)”, *La Liberazione dei Captivi tra Cristianita e Islam: Oltre La Crociata e il Ğihād: Tolleranza e Servizio Umanitario, Atti del Congresso interdisciplinare di studi Storici* (Roma, 16 – 19 settembre 1998).
- Konidaris , I.M., " The Difussion of the Law of the Church in the Byzantine Society " , ed. Ch.Papastathis , *Byzantine Law : Proceeding of the international Symposium of Jurists , Thessaloniki , 10-13 December 1998* (Thessaloniki , 2001) ,195-200.
- Korobeinikov , D., " A Sultan in Constantinople , the Feasts of Ghiyath Al-Din Kay-Khusraw " , Eat , Drink , and Be Merry (Luke 12 : 19) *Food and Wine in Byzantium, Society for The Promotion of Byzantine Studies* , ed. Brubaker,L.& Linardou,K.(Birmingham 2007).
- Krausmüller,D., Denying Mary's real presence in apparitions and icons: Divine impersonation in the tenth-century life of Constantine the ex-jew, *Byza* 78(2008),pp.288-303.
- Krijnie N. Ciggaar," Une Description de Constantinople dans le Tarragonensis 55", *REB* 53(1995),pp. 117-140.
- Krueger (D): *Byzantine Christianity* (Fortress 2000).

- Kyriakis, M.J.," Medieval European Society as seen in two 11th Century Texts of Michael Psellos " , *BS\EB* 4\2 (1977), 157-60.
- Kzahdan,A.,"Saint Andrew the Stratelates and Andrew The Scythian", *To Ellenikon: Study in Homour of Speros ,Hellenic Antiquity and Byzantium*,(New York 1993),pp.145-152.
- Laiou , A., "The Role of Women in Byzantine Society", *JÖB* 31(1981),233-60.
- Laiou, A.E., "Writing the Economic History of Byzantium" ,in: *the Economic History of Byzantium From The Seventh Through The Fifteenth Century* (Washington 2002), pp.3-8.
- Laious,A., "Some Observations on Alexios Philonthopenos and Maximos Planodes", *BMGS* (1978).
- Lampt, W., "Folklor Blindness", *Journal of Visual Ompaiment* & Blindness, Vol. 88, (May/June: 1994).
- Lascaratos (J) & Assimakopoulos (D):*From The Roots of Otology Diseases of The ear and Thier Treatment in By3antine Time (324-14530* in A.J.O (Athense 0Grecce 1999).
- Lascaratos (J) & Rebelakou (E.P): *Did Justinian the Greet (527-565) Suffer From Syphils?* In I.J.D (Athense, Grecce (1999).
- Lascaratos (J) & Tsiamis (C): *the Roots of Cosmetic medicine hair Cometics in Byzantine Time*. In I.J.D (2004).
- Lascaratos (J)& Kalantzis (G) & Rebelakoo (P.): *Nursing Homes For old (Gerocomeia) in Byzantine (524-1453) Grontology* (Athens, Greece 2004).
- Lascaratos (J)& Kouvaroki (M.) : *Surgery on Varices in Byzantine Times (324-1453) in Byzantine Times (324-1453)* in J.V.S (2001).
- Lascaratos (J): *The Roots of Geriatric Medicine Care of Aged in Byzantine Time (324-1453).*, Grontologe , (2004).
- Lascaratos, J. & Manduvalos, V., "Cases of Stroke on the Throne of Byzantium", *Journal of the History of the Neurosciences*, Vol. 7, No. 1, (1998).
- Lascaratos, J. & Marketos, S., *The Penalty of Blinding During Byzantine Times, Medical Remarks* in DO, 81(1992).
- Lascaratos, J., "(Eye Injuries) by Byzantine Writer Aetios Amidinos", *Docomenta Ophthalmological Advoncos in Ophthalomological*, (Jan-Feb: 1988).
- Lascaratos, J., "Eyes on the Throne Imperial Opthalmologic Nicknames", *Survey of Ophthalmology*, Vol. 44, PP. 73-81(1999).
- Lascaratos, J., "Opthalmology in Byzantine (10th – 15 Centuries)", *Medicina Nei Secoli*, Vol. 11, PP. 391-403(1999).

- Lefort, J., “Rural Economy and Social Relations in the Countryside”, *Dumbarton Oaks Papers* 47 (1993).
- Lerou,S., "L'usage des reliques du Christ par les empereurs aux XIe et XIIe siècles", *Byzance et les reliques du Christ,*ed. Jannic Durand et Bernard Flusin, Centre de recherche d'Histoire et Civilisation de Byzance,(Paris 2004) pp. 159-182.
- Leroy (J): *La Reforme Studite* in O.C.A (1958).
- Leroy- Molinghem A., " Styliane" , *B* 39 (1969)155-63.
- Liddell & Scott, *Greek- English Lexicon* (Oxford 1986).
- Lidov ,A.," Spatial icons :The miraculous performance with the Hodegetria of Constantinople ", *Hierotopy. Creation of Sacred Spaces in Byzantium and Medieval Russia*. Edited by A. Lidov. Published by “Progress-tradition” (Moscow 2006),pp. 349-372.
- Lidov,A.," The Flying Hodegetria. The Miraculous Icon as Bearer of Sacred Space", *The Miraculous Image in the Late Middle Ages and Renaissance*, ed. E. Thunoe and G. Wolf(Rome 2004), pp. 291-321.
- Lilie , R.,G, "Twelfth-Century Byzantine and Turkish States" *Manzikert to Lepanto, the Byzantine World and the Turks 1071 - 1571* , ed. Bryer,A. & Ursinus ,M. ,Birmingham , March, 1985.
- Loudon, SE & Simonsz, HJ., "The History of the Treatment of Amblyopia", *Strabismus*, 13, 93-106(Rotteredam 2005)
- LrauocX; vtxomnoq "la victoire imperiale dans l'Empire chretien." *RHPR*13 (1933),pp. 370-400.
- Lucy J. Wrapson, *Byzantine Art and Italian Panel Painting*(Cambridge University Press 2015).
- Madgearu ,A., " The Pechenegs in the Byzantine Army " , *the Steppe Lands and the World Beyond Them, Alexandru Ioan Cuza* , 2013, pp.207-218.
- Magdalino , P., " Honour among Romaioi : the Framework of Social Values in the World of Digenes Akrites and Kekaumenos " , *BMGS* 13 (1989) , pp.183-218.
- Magdalino , P.," Court Society and Aristocracy" , *A Social History of Byzantium*, ed. Haldon, J.,Wiley – Blackwell(2009).
- Magdalino , P.,"The Literary Perception of Everyday Life in Byzantium : Some General Considerations and the Case of John Apokaukos", *BS* 47(1987),28-38.
- Maguire , H.,"Gardens and Parks in Constantinople", *Dumbarton Oaks Papers*, no. 54 , 2000, pp.251-264.
- Maguire . H., "Parodies of Imperial Ceremonial and their Reflections in Byzantine Art" , *Court Ceremonies and Rituals of Power in*

Byzantium and Medieval Mediterranea , ed . Beihammer , A. & Constantinou , S. & Parani, M.,Brill (Leiden 2013) .

- Malmberg , S., "Banquets on Exion of Imperial Legitimacy " in Eat , Drink and Be Merry (Luke 12: 19) – *Food and Wine in Byzantium* , Society for the Promotion of Byzantine Studies , ed. Brubaker,L.& Linardou,K., (Birmingham 2007).
- Mango , C.,"Byzantine Litterature as a Distorting Mirror" , Idem , *Byzantium and its Images* , London (1984) .
- Mansour, A. M. and Other, "Jesus and the Eye, New Testament Miracles of Vision", *AOS* (2005)
- Markle ,M.M., "Jury Pay and Assembly Pay at Athens" , *Athenian Democracy* ,ed. Rhodes , P.J., Oxford University , 2004.
- Marmion, V. J., "The Origin of Eye Hospitals", *Britsh Journal of Ophthalmology,* Vol. 89, Issue 11, (Nov. 2005)
- Mary ,B. Cunningham,"Mary The Theotokos"Birth-Giver of God," *The Orthodox Christian World* ,ed. A. Casiday(Rutledge 2012),pp.189-200.
- Mathews, Th. F. & al., "Islamic-Style Mansions in Byzantine Cappadocia and the Development of the Inverted T-Plan", *The Journal of the Society of Architectural Historians* 56/3, (Sep 1997).
- McCabe ,J., *The empresses of Constantinople*, R.G. Badger(Boston 1913).
- McCormick, M., *Eternal Victory: Triumphal Rulership in Late Antiquity, Byzantium and the Early Medieval West*(Cambridge University Press 1986).
- Meyendorff , J., *The Byzantine Legacy in the Orthodox Church* (Crestwood, NY: St. Vladimir's Seminary Press 1982).
- Meyendorff ,J.," Byzantine Views of Islam" , *Dumbarton Oaks papers* ,Vol.18 (1964) , pp . 113-132.
- Michael O'Carroll, *Theotokos: A Theological Encyclopedia of the Blessed Virgin Mary,* Wipf and Stock , Eugene(Oregon 2000).
- Miles, G. C., "Byzantium and the Arabs: Relations in Crete and the Aegean Area", *Dumbarton Oaks Papers* 18 (1964).
- Miles, G. C., "The Arab Mosque in Athens", *Hespira* 25/4, (Oct. - Dec., 1956).
- Millingen, A. V., *Byzantine Churches in Constantinople Their History and Architecture*,(London 1912).
- Monbeck, M. D., The Meaning of Blindness Attitudes Towards Blindness and Blind People(Indian Univ 1913).

- Muhammad ,T.M " The Conversion from Islam to Christianity as Viewed by the Author of Digenes Akrites, " *Collectanea Christiana Orientalia*(2010), pp.121-149.
- Natalia Teteriatnikov, "The True Cross Flanked by Constantine and Helena": A Study in the Light of the Post-Iconoclastic Re-evaluation of the Cross", *Deltion tes christianikes archaiologikes etaireias* 19(1995)pp.169-88.
- Neville, A. L., *Local Provincial Elites in Eleventh Century Hellas and Poloponnese*, Ph.D. Dissertation (Faculty of Princeton University 1998).
- Nicephoros Callistos (x) : *Ecclesiastical History*. Ed Migne, P.G, vol. Cxlvi (paris 1860).
- Nicol , D. M., " Some Greco – Latin Families in Byzantium in the 11th – 13th Centuries", *Studies in Late Byzantine History and Prosopography*, ed.Nicol ,D.M.(London 1986).
- Nicol, D., *Byzantium and Venice.A Study in Diplomatic and Cultural Relations*, (Cambridge 1988).
- Nicolotti,A., *From the Mandylion of Edessa to the Shroud of Turin: The Metamorphosis and Manipulation of a Legend* ,(Boston 2014).
- Nunn,V.," The Encheirion as adjunct to the Icon in the Middle Byzantine Period," *BMGS* 1 (1986),pp.73-102.
- Oikonomides ,N., *Byzantium from the Ninth Century to the Fourth Crusade (*London 1992).
- Oikonomides ,N.,"The Peira of Eustathios Rhomaios : an Abortive Attempt to Innovate in Byzantine Law", *FM* 7 (1986) 169-92.
- Oman, C. W., The Byzantine Empire(London 1911).
- Orton, C. W., *The Shorter Cambridge Medieval History*, Vol. 1(Cambridge, 1952).
- Osswald ,B., *Citizenship in Medieval Ioannina Citizenship in Historical Perspective* , Pisa University (2006) .
- Ostrogorskj, G., *History of the Byzantine State*, Eng. Trans. J. Hossey, (Oxford 1957).
- Ostrogorsky, G., “Agrarian Conditions in the Byzantine Empire in the Middle Ages”, *The Cambridge Economic History of Europe* 1:*The Agrarian Life of the Middle Ages*, ed. J. H. Clapham & E. Power (Cambridge 1941).
- Page ,G.,"Byzantine Identities" *Being Byzantine Greek Identity Before the Ottomans* , ed . Page ,G Cambridge University (2008) .
- Papadopoulos,J., *Les palais et les églises des Blachernes* Thessaloniki (1928).

- Papageorgiou,A.,"The Political Ideology of John II Komnenos", *John II Komnenos, Emperor of Byzantium: In the Shadow of Father and Son*, ed.A.Bucossi &A.R.Suarez, Routledge(New York 2016),pp.37-52.
- Papalexandrou,A.," Text in context: eloquent monuments and the Byzantine beholder," *Word & Image: A Journal of Verbal/Visual Enquiry* Volume 17, Issue 3(2001),pp. 259-283.
- Peers, G., *Subtle Bodies: Representing Angels in Byzantium* ,Berkeley,(University of California 2001), pp .154-55.
- Peters. G., "Offering Sons to God in Minastery Child Oblation, Monastic Benevolence and the Cistercian Order in The Middle Ages", *Cistercian Studies Quarterly* 38-3(2003).
- Philip,S., *Nicene and Post-nicene Fathers: Second Series: Eusebius: Church History, Life of Constantine the Great, Oration in Praise of Constantine*, Cosimo, (New York 2007).
- Polemis,D.,*The Doukai A Contribution to Byzantine Prosopography* (London 1968).
- Poppe ,A. , " The Political Background to the Baptism of Russ, Byzantine – Russian Relations between 986 – 89 " , *Dumbarton Oaks papers*, vol. 30 . (1976), pp.197-244 .
- Pryor, J. H. & Jeffreys, E. M., *The Age of the ΔΡΟΜΩΝ, The Byzantine Navy ca 500-1204* (Leiden & Boston 2006).
- Queller, D., Medieval Diplomacy and the Fourth Crusade (London 1980).
- *Rabbi Petachia of Ratisbon (1170-1187), Jewish Travellers*, ed. E. N. Adler (London 1930).
- Ramadan ,A.M.A.," The Treatment of Arab Prisoners of war in Byzantium 9th – 10th centuries " , *Annales Islamologiques* 43 (2009),pp.155-194.
- Ramsay , W.M., *The Historical Geography of Asia Minor*,(London 1890).
- Raymond D’Aguilers, *Historia Francorum Qui ceperunt Iherusalom*, trans. by Hill, J. H.(Philadephia 1968).
- Rebelakou (P.) and Others: *Urological Diseases of Byzantine Emperors (330-1453)* Urology (2010).
- *Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux* 4, ed. B. de Minar (Paris 1898).
- Richard Coeur de Lion , Richard of Devizes and Geoffrey de Vinsauf , *Chronicles of the Crusades Being Contemporary Narratives of the Crusade* , (London 1848).

- Richardson (B.E): *old Age among The Ancient Greeks* (Baltimore 1933).
- Riley , A., *Athos the Mountain of the Monks*,(London1887).
- Ringrose, K. M., *The Perfect Servant*, *Eunuchs and Social Construction of Gender in Byzantium* (Chicago & London 2003).
- Ringrose, K., "Reconfiguring the prophet Daniel: Gender, Sanctity, and Castration in Byzantium", in: *Gender and Difference in the middle Ages*, ed. Sh. Farmer& C. Pasternack, Medieval Cultures 32(2003).
- Ringrose, K., *the Perfect Servant. Eunuchs and the Social Construction of Gender in Byzantium*(London2003).
- Ringrose, K.M., "Eunuchs as Cultural Mediators", *BF* 23(1996),pp.75-96.
- Robert L. Wolff ,"Footnote to an Incident of the Latin Occupation of Constantinople: The Church and the Icon of the Hodegetria," *T* 6 (1948),pp. 319-28 .
- Robert, G., "Deformity and Disfigurement in the Greaco Roman World", *History Today* 42, (Nov. 1992).
- Rosser (J.H): *Historical Dictronary of Byzantine* . (Without – Date)
- Rotman , Y., *Byzantine Slavery and the Mediterranean World* , Harvard University (2009).
- Runciman, S., "some remarks in the image of Edessa " *CHJ* 3 (1931) ,pp.238-252.
- Runciman (S): *The Last Byzantine Renaissance* (Combridge 1978).
- Runciman,S., *The Emperor Romanus Lecapenus and His Reign: A Study of Tenth-Century Byzantium*(Cambridge University Press,1988).
- Russell ,F.M., *The Roman Empire, Essay on the Constitutional History from the Accession of Domitian* (81 A.D) to the Retirement of Nicephorus 111(1081 A.D.) , London, 1910 , V.2.
- Rydén ,L., “The Vision of the Virgin at Blachernae and the Feast of the Pokrov,” *AB* 94 (1976),pp. 63–82.
- Rydén, L., “The Portrait of the Arab Samonas in Byzantine Literature”, *Graeco- Arabica* 3 (1984).
- Ryden, L.,"The Portrait the Arab Samoans in Byzantine Literature", *Graeco- Arabica* 3 (1984).
- Samaha, J., "Mary in the Byzantine Mind", *BS* 58\2 (1997),pp.338-42.
- Sandin,K., "Liturgy, pilgrimage, and devotion in Byzantine objects ", *Bulletin of the Detroit Institute of Arts*. v. 67 no4 (1993) pp.45-56.

- Schlumberger,G., *L’épopée byzantine à la fin du Xe siècle* III (paris 1905).
- Schroeder, H. J., *Disciplinary Decrees the General of Councils*: *Text, Translation and Commentary*, St. Louis: B. Herder (1937).
- Schweitzer ,V., Alter des Titels Theotokos," *Dr Katholik* 28 (1903) ,pp.97-113.
- Sharf, A., “Armenians and Byzantines in the time of Alexius I Comnenus”, in: *Bar-Ilan Studies in History*, vol. II, ed. P. Artzi (Jerusalem 1984).
- Silverio Saulle& Patrizia Morelli., *Anna Comnena: la poetessa epica(c.1083-c. 1148-1153), Donne d'Oriente e d'Occidente* ,V 6(Milano 1998).
- Singelenberg, P., "The Iconograph of the Etschmiadzin Diptych and the Healing of the Blind man at Siloe", *The Art Bulletin*, Vol. 40, N. 2 (Jun.: 1958).
- Sirarpie Der Nersessian, “La fête de l'exaltation de la croix,” *AIPHOS* 10 (1950),pp. 193–8.
- Smythe , D.C. , " Insiders and Outsiders", in: *A companion to Byzantium* , ed. James ,B.L. (Singapore 2010).
- Smythe, Dion ,C., 'Middle Byzantine Family Values and Anna Komnene's Alexiad,' *Byzantine Women: Varieties of Experience, AD 800-1200*, ed. L. Garland, Aldershot (Ashgate 2006), pp.125-40.
- Sokolov, K, *Byzantium and the Pechenegs from the 9th to the 12th century*, Ph.D , University of Mainz (2012).
- Sophia ,M. Mergiali," Byzantine Emperors and Holy Relics. Use, and Misuse, of Sanctity and. Authority" *JÖB* 51 (2001),pp. 41-60.
- Speck, P., "The Virgin's Help for Constantinople", *BMGS* 27(2003), pp.266-271.
- Starr, J., “The Epitaph of Adyer in Corinth”, *Byzantinisch - Neugriechische Jahrbucher* 12, (1935-1936).
- Stavros ,B.,*Andros Odysseyn: Byzantine Kalivarion 705 Ad-1078 Ad*, IUniverse,Inc.(New York 2004).
- Stephenson, P.,*Byzantium’s Balkan Frontier*(Cambridge 2004).
- Stephenson,P. , *Byzantium's Balkan Fortier A political Study of the Northern Balkans 900-1204*,Cambridge University (2004).
- Stoyanov,Y.,"Eastern Orthodox Christianity", *Religion, War, and Ethics: A Sourcebook of Textual Tradition,s* ed. Gregory M. Reichberg, H. Syse, N. M. Hartwell(Cambridge 2014),pp.164-234.
- Sysse G. Engberg, "Romanos Lekapenos and the Mandilion of Edessa",*Byzance et les reliques du Christ*, ed.J.Durand et B.Flusin

(Centre de recherche d'Histoire et Civilisation de Byzance, Monographies 17)(Paris 2004), pp.123-142.

- Taft , R.F., "Women at Church in Byzantium : Where, When - and Why ?", *DOP* 52(1998), 27-87.
- Teall, J. L., "The Byzantine Agricultural Tradition", *Dumbarton Oaks Papers* 25 (1971).
- Theodulus, *The Will of a Provincial Magnate, Eustathius Boilas (1059)*, trans. S. Vryonis, in: *Dumbarton Oaks Papers* 11 (1957).
- Tougher , Sh.,*The Eunuch in Byzantine History and Society*(London 2008).
- Tougher, S.,"The Angelic Life: Monasteries for Eunchs", in*: Byzantine Style, Religion and Civilization in Honour of Sir Steven Runciman*, ed. E. Teffreys(Cambridge 2006).
- Tougher, sh., *the reign of Leo VI (886-912) politics and people*(New York 1997)
- Treadgold ,W., *The Byzantine Revival 780 – 842* , Stanford University (1988).
- Treadgold, W. T., "The Revival of Byzantine Learning and the Revival of the Byzantine State", *American Historical Review* 84/5 (Dec., 1979).
- Treadgold, W., *the Byzantine Revival 742-780*(California 1988).
- Treadgold,W. , *A History of the Byzantine State and Society* , Stanford University , 1997.
- Vaislive, A. A., *Hist. of the Byzantine Empure*(Madison 1958).
- Vari ,R.,"Zum historischen Exzerptenwerke des Konstantinos Porphyrogennetos" *BZ*17(1908),pp.75-85.
- Vasilaki ,M., "Bleeding Icons, in Icon and Word. The Power of Images" , *Byzantium: Studies presented to Robin Cormack*, ed. A. Eastmond and E. James, (Aldershot 2003),pp. 121-133.
- Vasiliev (A,A) : *History of Byzantine Empire* (Madison 1958).
- Vasiliev A.A., *Byzance et les Arabes. Tome II, 1re partie. La dynastie macédonienne (867-959) extraits des sources Arabes* (Brussels, 1950).
- Vikan ,G.,"Byzantine Art", *Byzantium, a World Civilization* ,eds. Angeliki E. Laiou&H. Maguire, Dumbarton Oaks (Washington, D.C 1992).
- Vinson,M.," The Terms ἐγκόλπιον and τενάντιον and the Conversion of Theophilus in the Life of Theodora (BHG 1731)", *GRBS* 36, No 1 (1995),pp.89-99.
- Vryonis, S., "Byzantium: The Social Basis of Decline in the Eleventh Century", *Greek, Roman and Byzantine Studies* 2/2 (Cambridge 1959).

* Vryonis, S., *Byzantium: Its Internal History and Relations with Muslim World*, Collected Studies (London 1971).
* Vukanovic, T. P., "Neolithic Blind Statues and Balkan Folklor of the Blind", *Folklor*, Vol. 95, No. 2(1985)
* Weitzmann,K.,"The Mandylion and Constantine Porphyrogennetos", *Cah Arch* 11 (1960),pp.163-84.
* Wheatley, E., "Blindness Discipline and Reward Louis IX and the Foundation of the Hospice des Quinze – Vingts", *Disability Studies Quarterly*, Vol. 22, N. 4(2002)
* Whittow, M., *The Making of Orthodox Byzantium 600 – 1025* (London 1996).

ثالثاً المصادر والمراجع العربية والمعربة:

* القرأن الكريم
* الكتاب المقدس
* إبراهيم أحمد العدوي، *الأمويون والبيزنطيون – البحر المتوسط بحيرة إسلامية*، (القاهرة ١٩٥٣م).
* إبراهيم علي طرخان،*الحركة اللاأيقونية في الدولة البيزنطية*، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٦
* ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، تحقيق/ أبي الفداء عبد الله القاضي، د. محمد يوسف الدقاق، (بيروت ١٩٨٧م)، مج ٧، ص ٢٥٠؛ مج ٨.
* ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن على ت: ٥٩٧هـ/١٢٠١م) ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، دار صادر – بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٥٨هـ ، جـ ٥ .
* ابن العبرى : (١٢٨٦م / ٦٨٥هـ) غريغوريوس الملطى : تاريخ الزمان " نقله إلى العربية إسحاق أرملة ، (بيروت : ١٩٨٦) .
* ابن العبري، *تاريخ الزمان*، نقله إلى العربية/ الأب إسحق أرملة، تقديم/ جان موريس فييه (بيروت ١٩٩١م).
* ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
* ابن إياس : (ت ٩٣٠ هـ) محمد بن أحمد : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، (القاهرة : ١٩٨٢) .
* ابن إياس : (ت ٩٣٠ هـ) محمد بن أحمد : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، (القاهرة : ١٩٨٢) .

- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله ت:٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط ، ١٤١٧ هـ .
- ابن تغرى بردى (ت : ٨٧٤ هـ) جمال الدين أبو المحاسن : النجوم المزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، (القاهرة : ١٩٧٦ ، ١٩٨٢) .
- ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن على الموصلى الحوقلى البغدادى المعروف النصيبى ت:٣٨٠هـ/٩٩٠م) ، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، ١٩٩٢م.
- ابن حوقل، *كتاب صورة الأرض*، تحقيق/ م. ي. دي خويه، القسم الأول، (ليدن ١٩٣٨م).
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر ت: ٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، لبنان ، جـ٧ .
- ابن رسته، *الأعلاق النفيسة*، مج ٧، تحقيق/ دي خويه (ليدن ١٨٨٩م)، وأُعيد نشره في: *سلسلة الجغرافيا الإسلامية بمعهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية*، مج٤٠ (فرانكفورت ١٩٩٢م).
- ابن كثير : (ت ١٣٧٢م / ٧٧٤هـ) : أبو الغدا إسماعيل بن عمر الحافظ : البداية والنهاية ، (بيروت : ١٩٦٦) .
- ابن منظور : (ت ١٣٠٣/٧١١هـ) أبوالفضل جمال الدين الإفريقى المصرى : لسان العرب (بيروت ، بدون تاريخ) ٠
- ابن منظور : (ت ١٣٠٣م / ٧١١هـ) أبو الفضل جمال الدين محمد بين مكرم : لسان العرب ، (دار المعارف : بدون تاريخ) .
- أبو فراس الحمداني، *ديوان أبي فراس الحمداني*، تحقيق وشرح/ كرم البستاني (بيروت ١٩٩٢م).
- أبوالفدا، *المختصر في أخبار البشر*، ج ١، تحقيق/ د. محمد زينهم عزب، (القاهرة ١٩٩٨م).
- أحمد عبد الكريم سليمان، " رسالة من البطريرك نيقولا مستيقوس إلى الخليفة العباسي"، *الجمعية المصرية للدراسات التاريخية*، مج ٢٨-٢٩ (١٩٨١-١٩٨٢م).
- أحمد عبد الكريم سليمان، *المسلمون والبيزنطيون في شرقي البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث والسادس الهجري/ التاسع والثاني عشر الميلادي*، (القاهرة ١٩٨٢م).

- أحمد محمود أبو حرام، "مملكة البلغار الأولى (٦٧٩ – ١٠٢٥م)"، رسالة دكتوراة غير منشورة، آداب سوهاج – جامعة جنوب الوادي، ١٩٩٩م.
- إسحاق تاوضروس عبيد ، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قنسطنطين ٨٦٩ – ١٢٠٤م ، دار المعارف ، ١٩٧٠م.
- أسد رستم، الروم فى سياستهم، وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم، وصلاتهم بالعرب، الجزء الأول، بيروت، ١٩٥٥م
- الأمين أبو سعدة، "بيزنطة في الملاحم العربية – قراءة في سيرة الأميرة ذات الهمة"، بحث منشور ضمن كتاب: *دراسات في تاريخ العصور الوسطي – مجموعة أبحاث مهداة إلى الأستاذ الدكتور/ قاسم عبده قاسم بمناسبة بلوغه الستين عامًا*، تحرير/ د. حاتم الطحاوى، (القاهرة ٢٠٠٣م،).
- الأمين عبد الحميد أبو سعده،"التوظيف السياسى لرفات القديسين ومتعلقاتهم المقدسة فى أوروبا العصور الوسطي"*مجلة كلية الآداب–جامعة المنصورة* ،العدد الخامس والثلاثون ،(أغسطس٢٠٠٤) ص٤٠٥–٤٧٥.
- أنا كومنينا ، الألكسياد، ترجمة حسن حبشي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤م.
- أومان (شارل) : الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة : مصطفى طه بدر ، (القاهرة : ١٩٥٣).
- بورفيروجنيتوس (قنسطنطين السابع ت: ٩٥٩م/٣٤٨هـ) ، إدارة الإمبراطورية البيزنطية، تعليق محمد سعيد عمران، دار النهضة العربية، بيروت،١٩٨٠.
- بيتر (نورمان) : الإمبراطورية البيزنطية – ترجمة د٠ حسين مؤنس، محمود يوسف (القاهرة،١٩٥٧)
- جوليانا بطرس الخورى : فى الرحاب الإنجيلية رموز مسيحية (٢٠٠٧م)٠
- جيفري فلهاردوين، *فتح القسطنطينية*، ترجمة/ د. حسن حبشي، (جدة ١٩٨٣م).
- حاتم الطحاوى : اقتحام العثمانيين للقسطنطينية : شهادة المؤرخ دوفاس ، مجلة الاجتهاد (١٩٩٩م)٠
- حجازى عبد المنعم سليمان ،"رفات القديسين ومتعلقاتهم المقدسة وتوظيفها في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية "*حولية سيمنار التاريخ الإسلامى والوسيط* ،عدد٢(مصر ٢٠١٢)،ص٢١–٦٠.

- حسنين محمد ربيع ، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، ١٩٨٣م.
- دونالد نيكول، معجم التراجم البيزنطية، ترجمة ، حسن حبشى، ٢٠٠٣م.
- ديورانت (ول) :قصة الحضارة ، المجلد الثامن (القاهرة ، ٢٠٠١م)٠
- الرازى (أحمد بن فارس) : معجم مقاييس اللغة ، (دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ) .
- رأفت عبد الحميد وطارق منصور، مصر *في العصر البيزنطي ٢٨٤-٦٤١*م، (القاهرة ٢٠٠١م).
- رأفت عبد الحميد، *بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة*، (القاهرة ١٩٩٧م).
- رنسيمان (ستفن)، *الحضارة البيزنطية*، ترجمة/ عبد العزيز توفيق جاويد، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م.
- السرياني (ميخائيل)، التاريخ، عربه عن السريانية مارغريغوريوس صليبا شمعون، دار ماردين، حلب، الطبعة الأولى١٩٩٦م، جـ٣.
- سعاد محمود عبدالحميد : التنظيمات الديرية فى بيزنطة من القرن التاسع إلى القرن الثانى عشر الميلاديين
- السيد الباز العرينى (دكتور) : الدولة البيزنطية ٣٢٣-١٠٨١م ، (بيروت : ١٩٨٢) .
- السيد الباز العريني، *مصر البيزنطية*، (القاهرة ١٩٦١م).
- الشافعي (أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله ت: ٥٧١هـ/١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق محب الدين أبى سعيد عمر بن غرامة العمري ، دار الفكر ، بيروت ،١٩٩٥م ، جـ٨.
- *صفحة من العلاقات الدبلوماسية الألمانية البيزنطية*، *سفارة ليوتبراند أسقف كرمونا إلى القسطنطينية ٩٦٨م – دراسة تاريخية نقدية*، ترجمة وتعليق/ د. علي أحمد محمد السيد، (الإسكندرية د.ت).
- الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك) ، الوافى بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط، وتركى مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت،٢٠٠٠م ، جـ٢٩ .
- الصوري (وليم ت:٥٨٠هـ/١١٨٤م) ، الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق حسن حبشى، الهيئة المصرية العامة،١٩٩٥م، جـ١ ،٤ .

- طارق منصور محمد ، "المآدب الإمبراطورية ومراسمها في عهد الإمبراطور ليو السادس الحكيم (٨٨٦ – ٩١٢م) " ، بحث منشور في كتاب: بيزنطة مدينة الحضارة والنظم (دراسات وبحوث) ، دار الفكر العربي ، ٢٠١٥ م.
- طارق منصور محمد، "الجيش في الإمبراطورية البيزنطية من بداية القرن السابع إلى نهاية القرن التاسع الميلادي"، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب بنها – جامعة الزقازيق، ١٩٩٣م.
- طارق منصور محمد، *الروس والمجتمع الدولي ٩٤٥ – ١٠٥٤م*، (القاهرة ٢٠٠١م).
- الطبري (محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر، ت: ٣١٠هـ) ، تاريخ الرسل والملوك وصلة تاريخ الطبري، دار التراث، بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٨٧هـ، جـ١٠ .
- الطبري، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ١١ جزء ، (القاهرة ٢٠٠٦م)، ج ٩.
- الطبري، *تاريخ الرسل والملوك*، ج ١٠، ص ٤٥؛ مسكويه، *تجارب الأمم*، ج٤، تحقيق/ أبو القاسم إمامي (طهران ٢٠٠١م).
- عاطف مرقص بطرس ، الأرمن وعلاقتهم السياسية والحضارية بالبيزنطيين والمسلمين١٠٧١-١١٧١م/٤٦٣-٥٦٧هـ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨٦م.
- عاطف مرقص، "الأرمن وعلاقاتهم السياسية والحضارية بكل من البيزنطيين والمسلمين ١٠٧١-١١٧١م/ ٤٦٣-٥٦٧هـ"، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب عين شمس(١٩٨٦م)
- عبد العزيز رمضان، "البيزنطيون بين الهويتين اليونانية والرومانية "، *مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية*، مج ٤٣، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- عبد العزيز رمضان، "المرتزقة الإنجليز في الإمبراطورية البيزنطية ١٠٦٦-١٢٠٤م"، *حولية التاريخ الإسلامي والوسيط*، آداب عين شمس، مج ٤ (٢٠٠٤-٢٠٠٥م).
- عبد العزيز رمضان ، العلاقات البيزنطية – اللاتينية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول كومنين(١١٤٣_١١٨٠م)، ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة عين شمس، ٢٠٠٠م.
- عبدالحميد محمد شاذلى : التوافق النفسى للمسنين (الإسكندرية ، ٢٠٠١م).

- عبدالعزيز رمضان ، المرأة والمجتمع في الإمبراطورية البيزنطية من القرن التاسع وحتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، مصر العربية للنشر والتوزيع، (٢٠٠٥م).
- عبدالله بن ناصر السدحان : رعاية المسنين فى الإسلام (الرياض ، ١٩٩٨)٠
- عزت سيد إسماعيل : الشيخوخة (بيروت ، ١٩٨٣)٠رسالة ماجستير غير منشورة – (جامعة طنطا)
- عصام فكرى :علم الشيخوخة ، مجلة عالم الفكر (الكويت ، ١٩٧٥)٠
- عفاف سيد صبره، *الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان*، (القاهرة ١٩٨٢م).
- على السيد، صفحة من العلاقات الدبلوماسية الألمانية البيزنطية، سفارة ليوتبراند أسقف كرمونا إلى القسطنطينية٩٦٨م، دراسة تاريخية نقدية، كلية الآداب، دمنهور، ١٩٩٩م.
- علي بن موسى المقانبي وابن بكر المازني وصالح الجعفري ويزيد بن عمار المزني وعبد الله بن وهب اليماني وعوف بن فهد الفزاري وسعد بن مالك التميمي وأحمد الشمشاطي وصابر المرعش ، ونجد ابن هشام العامري ، سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب ، المكتبة الشعبية ، بيروت ١٩٨٠م ، المجلد ٧ .
- علية الجنزوري، المرأة فى الحضارة البيزنطية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٢.
- علية عبد السميع الجنزورى، *الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى*، (القاهرة ١٩٧٩م).
- علية عبدالسميع الجنزورى : المرأة فى الحضارة البيزنطية (القاهرة ، ١٩٨٢م) ٠
- فايز نجيب إسكندر، استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية "آني" سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م، (الإسكندرية ١٩٨٧م). وقد أُعيد نشر تلك المقالة ضمن كتاب: فايز نجيب إسكندر، دراسات في تاريخ العصور الوسطي، ج ١، (القاهرة ٢٠٠٣م).
- فايز نجيب إسكندر، *البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملازكرد (١٠٧١م/ ٤٦٣هـ) في مصنف نقفور برينيوس – دراسة مقارنة للمصادر*، (الإسكندرية ١٩٨٤م).
- فتح البارى : بشرح صحيح البخارى لأحمد بن على حجر العسقلانى ، (دار الريان للتراث) .
- فلهاردوان (جيفرى)، فتح القسطنطينية،ترجمة وتعليق حسن حبشى، المجلس العلمى،الطبعة الأولى١٤٠٣هـ .
- الفيترى (يعقوب) ، تاريخ بيت المقدس ، ترجمة سعيد عبد الله البيشاوى ، دار الشروق ، فلسطين ، الطبعة العربية الأولى ١٩٩٨م.

- الفيرزو أبادى : القاموس المحيط ، (بيروت – بدون تاريخ) .
- القاضي عبد الجبار (بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد أبادي أبو الحسين المعتزلي ت: ٤١٥هـ) ، تثبيت دلائل النبوة، دار المصطفى ، جـ١ .
- قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية*، عرض وتحليل وتعليق/ أ.د. محمود سعيد عمران (بيروت ١٩٨٠م).
- القضاعى : (ت ٦٥٨هـ) ابن الآبار البلنسى : التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق : عبد السلام الهراس ، (بيروت : ١٩٩٥) .
- كيناموس (يوحنا)، أعمال يوحنا ومانويل كومنينوس، الموسوعة الشامية فى تاريخ الحروب الصليبية، تحقيق وترجمة سهيل زكار ، دمشق، ١٩٩٧م،جـ ٢٨.
- ليلى عبد الجواد إسماعيل ، القسطنطينية في ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين، مجلة المؤرخ المصري، دراسات وبحوث تاريخية محكمة، يوليو ١٩٨٩م، كلية الآداب، جامعة القاهرة.
- ليلى عبد الجواد، "أضواء جديدة على تاريخ بلغاريا تحت الحكم البيزنطي (١٠١٨-١٠٩٧م)"، *مجلة المؤرخ المصري* (آداب القاهرة)، العدد ١٤ – يناير ١٩٩٥م.
- ليوتبراند ، سفارة ليوتبراند أسقف كرمونا إلى القسطنطينية ٩٦٨م، صفحة من العلاقات الدبلوماسية الألمانية البيزنطية، على أحمد محمد السيد، الإسكندرية.
- المتولي السيد تميم ، البشناق والبيزنطيون دراسة في سياسة بيزنطة الشمالية (٨٥٠-١١٢٢م)، ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنصورة، ١٩٩٦م.
- مجموعة الشرع الكنسى أو قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة التى وضعتها المجامع المسكونية والمكانيةالمقدسة، ترجمة، إلياس كساب، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٩٨.
- محمد زايد عبدالله، "التيبكا البيزنطية(وثائق تنظيمات الأديرة) مصدراً لدراسة الطب والصحة العامة فى الدولة البيزنطية" حولية التاريخ الإسلامى والوسيط للدرسات التاريخية، العدد الأول، ٢٠١١م
- *مدونة جوستنيان في الفقه الروماني*، ترجمة/ عبد العزيز فهمي، (القاهرة ٢٠٠٥م).
- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية ، (القاهرة : ١٩٧٢م / ١٣٩٢هـ) .
- المقدسي، *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*، (القاهرة ١٩٩١م).
- المقريزى : (ت ٨٤٥) تقى الدين أحمد بن على :السلوك لمعرفة دول الملوك ، (القاهرة : ١٩٥٧) .

- نجلاء مصطفى شيحه، "مدينة القسطنطينية في القرن العاشر الميلادي"، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٩٩م.
- نقفور بطريرك القسطنطينية (٨٠٦ – ٨١٥م) ، التاريخ المختصر ، هانئ عبد الهادي البشير ، مجلة المؤرخ المصري ، العدد السادس والعشرون ، يناير ٢٠٠٣م.
- هانئ عبد الهادي البشير ، " دور الأرمن في الجيش والحياة السياسية للدولة البيزنطية من بداية القرن السابع حتى نهاية القرن العاشر الميلادي " ، مجلة المؤرخ العربي، العدد الرابع عشر، مارس ٢٠٠٦م.
- هدى أحمد خلف (دكتور) : الضغوط النفسية لدى المكفوفين ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية التربية بقنا ، جامعة جنوب الوادى (٢٠٠٧م) .
- هسي (جوان)، *العالم البيزنطي*، ترجمة وتعليق/ د. رأفت عبد الحميد، (القاهرة ١٩٩٧م).
- الهمذاني(أبو بكر أحمد بن محمد المعروف بابن الفقيه) ، مختصر كتاب البلدان ، مطبعة بريل ، ليدن ،١٣٠٢هـ .
- *والي المدينة*، ترجمة/ د. السيد الباز العرينى، *حولية كلية آداب القاهرة*، مج ١٩، ج ١، ١٩٥٧م ؛ وأيضا منشور ضمن كتاب: *نهاية الرتبة في طلب الحسبة* (بيروت ١٩٨١م)
- وسام عبد العزيز فرج ، بيزنطة قراءة فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م .
- وسام عبد العزيز فرج، "أضواء على مجتمع القسطنطينية – دراسة في التاريخ الاجتماعي لمدينة قسطنطين حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي"، *مجلة كلية الآداب – جامعة المنصورة*، عدد ٥ (١٩٨٤م). وقد أُعيد نشره ضمن كتاب: وسام عبد العزيز فرج، *بيزنطة – قراءة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي*، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (القاهرة ٢٠٠٣م).
- وسام عبد العزيز فرج، "الدولة البيزنطية بين أوهام النظرية وحقيقة الهوية"، *مجلة جمعية الآثار بالإسكندرية*، عدد ٤٦، ٢٠٠١م. وقد أُعيد نشره ضمن كتاب: وسام عبد العزيز فرج، *بيزنطة – قراءة في التاريخ السياسي والإداري*، ط ١، دار عين، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- وسام عبد العزيز فرج، "السلاف في شبه جزيرة البلقان وجهود الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد سيادتها (٥٩١–١٠١٨م)"، *مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية*، العدد

٣٠، ١٩٨٤م . وقد أُعيد نشره ضمن كتاب: وسام عبد العزيز فرج (د.)، بيزنطة – قراءة في التاريخ السياسي والإداري، ط ١، دار عين، القاهرة، ٢٠٠٤.

- وسام عبدالعزيز فرج ،" الألقاب والمناصب الحكومية في بيزنطة بين الاستمرارية والانقطاع" ، بحث منشور في كتاب: بيزنطة قراءة فى التاريخ السياسي والإداري ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م .
- وسام عبدالعزيز فرج، "الوظائف والألقاب البيزنطية بين المفهوم العربي والواقع البيزنطي "، بحث منشور في كتاب : بيزنطة مدينة الحضارة والنظم (دراسات وبحوث) ، دار الفكر العربي ، ٢٠١٥م .
- وسام عبدالعزيز فرج، " الدولة البيزنطية بين أوهام النظرية وحقيقة الهوية"، بحث منشور في كتاب: بيزنطة قراءة فى التاريخ السياسي والإداري ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، الطبعة الأولى(٢٠٠٤م).
- ياقوت الحموى،معجم البلدان ،المجلد الثامن ،الطبعة الأولى ،مطبعة السعادة ،مصر ١٩٠٦
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلد الأول، دار صادر، بيروت،١٩٩٠
- يحي بن سعيد الأنطاكي، تاريخ الأنطاكى، المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، حقّقه وصنع فهارسه دكتور عمر عبد السلام تدمرى، جرّوس برس، طرابلس – لبنان، ١٩٩٠
- يوسابيوس القيصرى، تاريخ الكنيسة، ترجمة، مرقص داود، الطبعة الثالة، ١٩٩٨م.
- يوسابيوس القيصرى، حياة قسطنطين العظيم، ترجمة، مرقص داود، القاهرة، ١٩٥٥م.